http://www.shamela.ws

تم إعداد هذا الملف آليا بواسطة المكتبة الشاملة

الكتاب : البحر المديد . نسخة محققة

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٢٥٨

يقول الحق جل جلاله : وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا ، وذلك أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم قرأ على قريش : إِنَّكُمْ وَما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ ... «١» الآية ، فغضبوا ، فقال ابن الزّبعرى : يا محمد! أخاصة لنا ولآلهتنا ، أم لجميع الأمم؟ فقال عليه الصلاة والسّلام : «هو لكم ولآلهتكم ولجميع الأمم» ، فقالوا : ألست تزعم أن عيسى [نبى] ، يثنى عليه وعلى أمّه خيرا ، وقد علمت أنّ النّصارى يعبدونهما؟ وعزير يعبد ، والملائكة يعبدون ، فإن كان هؤلاء فى النّار ، فقد رضينا أن نكون نحن وآلهتنا معهم ، ففرحوا ، وضحكوا ، وسكت النّبىّ صلّى اللّه عليه وسلم انتظارا للوحى.

وفى رواية : فقال لهم صلّى اللّه عليه وسلم : «إنما عبدوا الشياطين التي أمرتهم بذلك». وقال ابن الزبعرى : «ما أجهلك بلغة قومك ، أما فهمت أن «ما» لما لا يعقل ، فهى خاصة بالأصنام» «٢» ، فأنزل اللّه : إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنى ... «٣» الآية. ونزلت هذه الآية.

والمعنى : ولما ضرب ابن الزبعرى عيسى ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا لآلهتهم ، وجادل رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم بعبادة النّصارى إياه إِذا قَوْمُكَ قريش مِنْهُ أي : من هذا المثل يَصِدُّونَ ترتفع لهم جلبة وضجيج ، فرحا وضحكا ، فهو من : الصديد ، وهو الجلبة ورفع الصوت ، ويؤيده : تعديته بمن ، ولو كان من الصدود لقال : «عنه» ، وقرئ بالكسر والضم ، قيل : هما لغتان ، كيعكفون ويعكفون ويعرشون ويعرشون ، وقيل : بالكسر معناه : الصديد ، أي : الضجيج والضحك ، وبالضم معناه : الإعراض ، فيكون من الصدود ، أي : فهم من أجل هذا المثل يعرضون عن الحق ، أي :

يثبتون على ما كانوا عليه من الإعراض ، أو يزدادون.

وَقالُوا أَآلِهَتُنا خَيْرٌ أَمْ هُوَ يعنى أن آلهتنا عندك ليست بخير من عيسى ، فإذا كان عيسى من حصب جهنم كان أمر آلهتنا هينا. أو : فإذا كان عيسى فى النّار ، فلا بأس بكوننا مع آلهتنا فيها. قال تعالى : ما ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا أي : ما ضربوا لك ذلك المثل إلا لأجل الجدال والخصام ، لا لطلب الحق حتى يذعنوا له عند ظهوره ، بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ أي : لدّا ، شداد الخصومة ، مجبولون على اللجاج ، وذلك أن الآية إنما قصدت الأصنام ، بدليل التعبير ب «ما» ، إلا أن ابن الزبعرى حدا عنه لمّا رأى كلام اللّه تعالى محتملا لفظه للعموم ، مع علمه بأن المراد به أصنامهم ، وجد للحيلة مساغا ، فصرف اللفظ إلى الشمول والإحاطة بكلّ معبود غير اللّه ، على طريق اللجاج والجدال والمكابرة ، وتوقّح فى

ذلك ، فصمت عنه صلّى اللّه عليه وسلم حتى أجاب عنه ربه.

---

(١) الآية ٩٨ من سورة الأنبياء.

(٢) قال الحافظ ابن حجر فى الكافر الشاف (ص ١١١ – ١١٢) : «استقر فى ألسنة كثير من علماء العجم ، وفى كتبهم أن النّبى صلّى اللّه عليه وسلم قال «ما أجهلك بلغة قومك ..» إلخ. وهو شيء لا أصل ولا يوجد لا مسندا ولا غير مسنده. هـ. ووجدت على هامش النّسخة الأم ما يلى :

«هذه الرّواية لا أصل لها ، بل الخبر من أصله لم يورده المؤلف كما هو ، ولبيان ذلك لا يسعه هذا المحل» هـ. [.....]

(٣) الآية ١٠١ من سورة الأنبياء.

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٢٥٩

وقيل : لما سمعوا قوله تعالى : إِنَّ مَثَلَ عِيسى عِنْدَ اللَّهِ ... «١» الآية ، قالوا : نحن أهدى من النّصارى ، لأنهم عبدوا آدميا ، ونحن نعبد الملائكة ، فنزلت. فقولهم : آلهتنا خير ، هو حينئذ تفضيل لآلهتهم على عيسى عليه السّلام لأن المراد بهم الملائكة. ومعنى : ما ضَرَبُوهُ .. إلخ : ما قالوا هذا القول إلا للجدال. وقيل : لما نزل : إِنَّ مَثَلَ عِيسى عِنْدَ اللَّهِ .. الآية ، قالوا : ما يريد محمد إلا أن نعبده كما عبد النّصارى المسيح. ومعنى «يصدون» : يضجون ويسخرون ، والضمير على هذا فى «أم» هو لمحمد صلّى اللّه عليه وسلم ، وغرضهم ومرادهم بالموازنة بينه وبين آلهتهم الاستهزاء به صلّى اللّه عليه وسلم ويجوز أن يكون مرادهم التنصّل عما أنكر عليهم من قولهم : الملائكة بنات اللّه ، ومن عبادتهم لهم ، كأنهم قالوا : ما قلنا بدعا من القول ، ولا فعلنا منكرا من الفعل ، فإنّ النّصارى جعلوا المسيح ابن اللّه ، وعبدوه ، فنحن أرشد منهم قولا وفعلا ، حيث نسبنا له الملائكة ، وهم نسبوا إليه الأناسى. فقوله تعالى : إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنا عَلَيْهِ أي : ما عيسى إلا عبد ، كسائر العبيد ، أنعمنا عليه بالنبوة ، وَجَعَلْناهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرائِيلَ ، أي : أمرا عجيبا ، حقيقا بأن يسير ذكره كالأمثال السائرة ، ففيه تنبيه على بطلان رفعه عن رتبة العبودية ، أي : قصارى أمره أنه ممن أنعمنا عليه بالنبوة ، وخصصناه ببعض الخواص البديعة ، بأن خلقناه على وجه بديع ، وقد خلقنا آدم بوجه أبدع منه ، فأين هو من رتبة الرّبوبية حتى يتوهم أنه رضى بعبادته مع اللّه؟ ومن عبده فإنما عبد الشيطان.

ثم قال تعالى : وَلَوْ نَشاءُ لَجَعَلْنا مِنْكُمْ مَلائِكَةً فِي الْأَرْضِ بدلا منكم ، كذا قال الزجاج ، ف «من» بمعنى البدل يَخْلُفُونَ أي : يخلفونكم فى الأرض ، أي : لو نشاء لذهبنا بكم وجعلنا بدلا منكم ملائكة

يخلفونكم فى الأرض ، فيكونون أطوع منكم للّه تعالى ، وقيل : (و لو نشاء) لقدرتنا على عجائب الأمور (لجعلنا منكم) بطريق التوالد ، وأنتم رجال ، من شأنكم الولادة – (ملائكة) كما خلقناهم بطريق الإبداع (فى الأرض) مستقرين فيها ، كما جعلناهم مستقرين فى السماء ، يخلفونكم مثل أولادكم ، ويباشرون الأفاعيل المنوطة بمباشرتكم ، فكيف يستحقون المعبودية مع أنهم أجسام ، متولدون عن أجسام ، والمستحق للعبادة يتعالى عن ذلك؟! وَإِنَّهُ أي : عيسى عليه السّلام لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ أي : مما يعلم به مجيء الساعة عند نزوله. وقرأ ابن عباس «لعلم» بفتح اللام «٢» ، أي : وإن نزوله لعلم للساعة ، أو : وإن وجوده بغير أب ، وإحياءه للموتى ، دليل على صحة البعث ، الذي هو معظم ما ينكره الكفرة.

---

(١) الآية ٥٩ من سورة آل عمران.

(٢) اللام الثانية مع فتح العين(لعلم) وهو الأمارة والعلامة.

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٢٦٠

وفى الحديث : إن عيسى عليه السّلام ينزل على ثنية بالأرض المقدسة ، يقال لها : أفيق ، وهى عقبة بيت المقدس ، وعليه ممصّرتان «١» ، وشعر رأسه دهين ، وبيده حربة يقتل بها الدجال ، فيأتى بيت المقدس ، والنّاس فى صلاة العصر ، والإمام يؤم بهم ، فيتأخر الإمام ، فيقدمه عيسى ، ويصلى خلفه على شريعة محمد صلّى اللّه عليه وسلم ، ويقتل الخنزير ، ويكسر الصليب ، ويخرب البيع والكنائس ، ويقتل النّصارى إلا من آمن به وبمحمد صلّى اللّه عليه وسلم «٢».

وقيل : الضمير للقرآن لأن فيه الإعلام بالساعة ، فَلا تَمْتَرُنَّ بِها فلا تشكنّ فيها ، من المرية ، وهو الشك ، وَاتَّبِعُونِ أي : اتبعوا هداى وشرائعى ، أو : رسولى ، وقيل : هو قول نبينا صلّى اللّه عليه وسلم مأمورا به من جهته تعالى :

هذا أي : الذي أدعوكم إليه صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ موصل إلى الحق. وَلا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطانُ عن اتباعى إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ بيّن العداوة ، حيث أخرج آباءكم من الجنة ، وعرضكم للبلية.

الإشارة : الوعظ والتذكير لا تسرى أنواره فى القلوب إلا مع التسليم والتصديق ، والسكوت والاستماع ، كما كان الصحابة – رضي اللّه عنهم – مع الرّسول صلّى اللّه عليه وسلم كأنّ على رؤوسهم الطير ، وأما إن دخل معه الجدال واللجاج ذهبت بركته ، ولم تسر أنواره ، ولذلك قيل : مذهب الصوفية مبنى على التسليم والتصديق ، ومذهب الفقهاء مبنى على البحث والتفتيش ، لكن مع الإنصاف ، وخفض

الصوت ، وحسن السؤال من غير ملاججة ولا غضب.

ثم ذكر بعثة عيسى ودعوته إلى اللّه ، فقال :

[سورة الزخرف (٤٣) : الآيات ٦٣ الى ٦٦]

وَلَمَّا جاءَ عِيسى بِالْبَيِّناتِ قالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (٦٣) إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ (٦٤) فَاخْتَلَفَ الْأَحْزابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ (٦٥) هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (٦٦)

---

(١) ممصرتان : تثنية «ممصّرة». وهى الثياب التي فيها صفرة خفيفة. انظر النّهاية فى غريب الحديث (مصر ٤/ ٣٣٦).

(٢) ذكره بلفظه القرطبي فى تفسيره (٧/ ٦١٠٩) وعزاه للثعلبى ، وأخرجه بلفظ مقارب أبو داود فى (الملاحم ، باب خروج الرّجال ، ٤/ ٤٩٨ ح ٤٣٢٤). عن أبى هريرة. وأصل الحديث فى الصحيحين. انظر البخاري (كتاب الأنبياء ، باب نزول عيسى بن مريم عليهما السّلام ح ٣٤٤٨) ومسلم (الإيمان ، باب نزول عيسى ابن مريم حكما بشريعة نبينا محمد صلّى اللّه عليه وسلم ١/ ١٣٥ ح ١٥٥).

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٢٦١

يقول الحق جل جلاله : وَلَمَّا جاءَ عِيسى بِالْبَيِّناتِ بالمعجزات أو : بآيات الإنجيل أو : بالشرائع الواضحات قالَ لبنى إسرائيل : قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ بالشريعة ، أو : بالإنجيل المشتمل عليها وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ وهو ما يتعلق بأمور الدين ، وأما ما يتعلق بأمور الدنيا فليس بيانه من وظائف الأنبياء – عليهم السّلام – كما قال صلّى اللّه عليه وسلم : «أنتم أعلم بدنياكم» «١» ، وهو عطف على مقدر ، ينبئ عنه المجيء بالحكمة ، كأنه قيل : جئتكم بالحكمة لأعلمكم إياها ، ولأبيّن لكم ما تختلفون فيه ، فَاتَّقُوا اللَّهَ فى مخالفتى وَأَطِيعُونِ فيما أبلغكم عن اللّه تعالى :

إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ بيان لما أمرهم به من الطاعة ، وهو اعتقاد التوحيد ، والتعبد بالشرائع ، هذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ لا يضل سالكه فهذا تمام كلام عيسى عليه السّلام ، وقيل : قوله : هذا .... إلخ من كلام اللّه تعالى ، مقرر لمقالة عيسى عليه السّلام.

فَاخْتَلَفَ الْأَحْزابُ أي : الفرق المتحزبة بعد عيسى ، وهم : اليعقوبية والنّسطورية ، والملكانية ،

والشمعونية ، مِنْ بَيْنِهِمْ أي : من بين النّصارى ، أو : من بين من بعث إليهم من اليهود والنّصارى ، أي : اختلافا ناشئا من بينهم ، من غير حجة ولا برهان ، فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا من المختلفين ، حيث قالوا فى عيسى ما كفروا به ، مِنْ عَذابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ وهو يوم القيامة هَلْ يَنْظُرُونَ أي : ما ينتظر أولئك الكفرة ، أو قوم عيسى إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ : بدل من «الساعة» أي : هل ينتظرون إلا إتيان الساعة بَغْتَةً فجأة وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ غافلون عن الاستعداد لها ، لاشتغالهم بأمر دنياهم ، أو : منكرون لها ، غير مترقبين وقوعها.

الإشارة : كانت الرّسل – عليهم السّلام – يبينون لأممهم ما يقع فيه الاختلاف من أمر الدين ، سواء تعلق ذلك بالظاهر أو بالباطن ، بما يوحى إليهم من إلهام ، أو بملك مرسل ، فلما ماتوا بقي خلفاؤهم من العلماء والأولياء ، فالعلماء يبينون ما اختلف فيه من الشرائع والعقائد ، بما عندهم من القواعد والبراهين ، والأولياء يبينون الحقائق ، وما يتعلق بالقلوب من الشكوك والخواطر ، وسائر الأمراض ، بما عندهم من الأذواق والكشوفات. فالعلماء يرجعون إلى كتبهم وعلومهم ، والأولياء يرجعون إلى قلوبهم وأذواقهم ، حتى كان فيما سلف من العلماء إذا توقفوا فى مسألة عقلية أو قلبية أخذوا صوفيا أميا فيسألونه ، ويجبرونه على الجواب ، فيجيبهم عن كلّ ما يسألونه ، كقصة أبى الحسن النوري مع القاضي ، وغيره ، وقد كان الشعراني يسأل شيخه الخواص – وهو أمي – عن أمور معضلة ، فيجيب عنها ، حتى إن كتبه كلها مطرزة بكلامه – رضي اللّه عنهم أجمعين.

---

(١) أخرجه مسلم فى (الفضائل ، باب وجوب امتثال ما قاله شرعا ، ٤/ ١٨٣٥ ح ٢٣٦٣) عن السيدة عائشة – رضي اللّه عنها – وسيدنا أنس رضي اللّه عنه بلفظ : «أنتم أعلم بأمر دنياكم».

وأهل الأذواق هم المتقون المتحابون فى اللّه ، الذين أشار إليهم تعالى بقوله :

[سورة الزخرف (٤٣) : الآيات ٦٧ الى ٧٣]

الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ (٦٧) يا عِبادِ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ (٦٨) الَّذِينَ آمَنُوا بِآياتِنا وَكانُوا مُسْلِمِينَ (٦٩) ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْواجُكُمْ تُحْبَرُونَ (٧٠) يُطافُ عَلَيْهِمْ بِصِحافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوابٍ وَفِيها ما تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيها خالِدُونَ (٧١) وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوها بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٧٢) لَكُمْ فِيها فاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْها تَأْكُلُونَ (٧٣)

يقول الحق جل جلاله : الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ أي : المتحابون فى الدنيا على الأمور

الذميمة متعادون يوم القيامة ، يبغض بعضهم بعضا ، فتنقطع فى ذلك اليوم كلّ خلة كانت لغير اللّه ، وتنقلب عداوة ومقتا لانقطاع سببها ، وهو الاجتماع على الهوى ، إِلَّا الْمُتَّقِينَ أي : الأخلة المصادقين فى اللّه ، فإنها الخلة الباقية لأن خلتهم فى الدنيا لمّا كانت للّه ، وفى اللّه ، بقيت على حالها لأن ما كان للّه دام واتصل ، وما كان لغير اللّه انقطع وانفصل ، بل تزداد خلتهم بمشاهدة كلّ واحد منهم بركة خلتهم من الثواب ، ورفع الدرجات. وسئل صلّى اللّه عليه وسلم :

من أولياء اللّه الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون؟ فقال : «المتحابون فى اللّه» ، وخرّج البزار عن ابن عباس رضي اللّه عنه : قيل : يا رسول اللّه! أىّ جلسائنا خير؟ قال : «من ذكّركم باللّه رؤيته ، وزاد فى عملكم منطقه وذكّركم باللّه علمه» «١».

ومن كلام الشيخ أبى مدين رضي اللّه عنه : دليل تخليطك صحبتك للمخلطين ، ودليل انقطاعك إلى اللّه صحبتك للمنقطعين. هـ. وفى سماع العتبية : قال مالك : لا تصحب فاجرا لئلا تتعلّم من فجوره ، قال ابن رشد : لا ينبغى أن يصحب إلا من يقتدى به فى دينه وخيره لأن قرين السوء يردى ، قال الحكيم :

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه ف كل قرين بالمقارن مقتد «٢».

---

(١) أخرجه أبو يعلى فى مسنده (٢٤٣٦) عن ابن عباس رضي اللّه عنه.

(٢) البيت منسوب إلى عدى بن زيد : انظر : نهاية الأرب (٣/ ٦٥) والعقد الفريد (٢/ ٣١١).

وفى الحديث : «المرء على دين خليله» وسيأتى ، فى الإشارة بقية الكلام على المتحابين فى اللّه. ويقال لهم حينئذ ، تشريفا لهم ، وتطييبا لقلوبهم : يا عِبادِ «١» لا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ ، ثم وصفهم أو مدحهم بقوله : الَّذِينَ آمَنُوا بِآياتِنا صدّقوا بآياتنا التنزيلية ، وَكانُوا مُسْلِمِينَ منقادين لأحكامنا ، مخلصين وجوههم لنا ، وعن مقاتل : «إذا بعث اللّه النّاس ، فزع كلّ أحد ، فينادى مناد : يا عبادى ، لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون ، فيرجوها النّاس كلهم ، فيتبعها الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين ، فينكّس أهل الأديان الباطلة رؤوسهم» «٢» ، ثم يقول لهم : ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْواجُكُمْ نساؤكم المؤمنات تُحْبَرُونَ تسرّون سرورا يظهر حباره – أي : أثره – على وجوهكم أو : تزينون ، من : الحبرة وهو حسن الهيئة ، أو : تكرمون إكراما بليغا ، وتتنعمون بأنواع النّعيم. والحبرة : المبالغة فيما وصف بجميل وتقدم فى قوله : فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ «٣» أنه السماع.

يُطافُ عَلَيْهِمْ بِصِحافٍ مِنْ ذَهَبٍ أي : بعد دخولهم الجنة حسبما أمروا به وَأَكْوابٍ من ذهب حذف لدلالة ما قبله. والصحاف : جمع صحفة ، قيل : هى كالقصعة ، وقيل : أعظم القصاع ، فهى ثلاث : الجفنة ، ثم القصعة ، ثم الصحفة ، والأكواب : جمع كوب ، وهو كوز مستدير لا عروة له.

وفى حديث أبى هريرة ، عنه صلّى اللّه عليه وسلم : قال : «أدنى أهل الجنة من له سبع درجات ، هو على السادسة ، وفوقه السابعة ، وإنّ له ثلاثمائة خادم ، ويغدى عليه ويراح بثلاثمائة صحفة من ذهب ، فى كلّ صحفة لون ليس فى الأخرى مثله ، وإنه ليلذ آخره كما يلذّ أوله ، ويقول : لو أذنت لى يا رب لأطعمت أهل الجنة ، وأسقيتهم ، ولا ينقص مما عندى شىء ، وإنّ له من الحور العين لاثنين وسبعين زوجة ، سوى أزواجه فى الدنيا ، وإن الواحدة منهن ليأخذ مقعدها قدر ميل» «٤». وفى حديث عكرمة : «إن أدنى أهل الجنة منزلة من يفسح له فى بصره مسيرة مائة عام ، فى قصور من ذهب ، وخيام من لؤلؤ ، وليس منها موضع شبر إلا معمور ، يغدى عليه ويراح بسبعين ألف صحفة

---

(١) هكذا (يا عبادى لا خوف) بإثبات الياء ، وإسكانها ، وهى قراءة نافع ، وأبى عمرو ، وابن عامر ، وأبى جعفر ، وصلا ووقفا. والباقون بحذفها فى الحالين. انظر الإتحاف (٢/ ٤٥٨ - ٤٥٩).

(٢) أخرجه الطبري (٢٥/ ٩٥) عن سليمان التيمي.

(٣) الآية ١٥ من سورة الرّوم.

(٤) أخرجه أحمد (٢/ ٥٣٧) وقال ابن القيم فى حادى الأرواح (٢٢٣) : «سكين بن عبد العزيز ، ضعّفه النّسائى. وشهر بن حوشب ، ضعفه مشهور. والحديث منكر ، يخالف الأحاديث الصحيحة».

من ذهب ، ليس فيها صحفة إلا وفيها لون ليس فى الأخرى مثله ، شهوته فى آخرها كشهوته فى أولها ، ولو نزل به جميع أهل الدنيا لوسع عليهم مما أعطى ، ولا ينقص ذلك مما أوتى شيئا» «١». ويجمع بينهما بتعدد أهل هذه المنزلة ، وتفاوتهم.

وَفِيها أي : فى الجنة ما تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ من فنون الملاذ. ومن قرأ بحذف الهاء فلطول الموصول بالفعل والفاعل. وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ أي : تستلذه ، وتقر بمشاهدته ، وهذا حصر لأنواع النّعيم لأنها إما مشتهيات فى القلوب ، أو : مستلذات فى العيون ، ففى الجنة كلّ ما يشتهى العبد من الملابس والمناكح والمراكب.

روى أن رجلا قال : يا رسول اللّه ، إنى أحبّ الخيل ، فهل فى الجنة خيل؟ فقال : «إن يدخلك اللّه الجنة فلا تشاء أن تركب فرسا من ياقوتة حمراء ، يطير بك فى الجنة حيث شئت ، إلا فعلت ، قال

أعرابى : يا رسول اللّه ، إنى أحبّ الإبل ، فهل فى الجنة إبل؟ فقال : يا أعرابى ، إن يدخلك اللّه الجنة ففيها ما اشتهت نفسك ولذت عيناك» «٢». هـ. وقال أبو طيبة السلمى : إن الشرذمة من أهل الجنة لتظلهم سحابة ، فتقول : ما أمطركم؟ فما يدعو داع من القوم بشىء إلا أمطرته ، حتى إن الرّجل منهم يقول : أمطر علينا كواعب أترابا. وقال أبو أمامة : إن الرّجل من أهل الجنة ليشتهى الطائر وهو يطير ، فيقع نضيجا فى كفه كما أراد ، فيأكل منه حتى تشهى نفسه ، ثم يطير كما كان أول مرة ، ويشتهى الشراب ، فيقع الإبريق فى يده ، فيشرب منه ما يريد ، ثم يرفع الإبريق إلى مكانه. هـ. من الثعلبي.

قال القشيري : وفيها ما تشتهيه الأنفس للعباد لأنهم [قاسوا] «٣» فى الدنيا - بحكم المجاهدات - الجوع والعطش ، وتحملوا وجوه المشاقّ ، فيجزون فى الجنة وجوها من الثواب ، وأما أهل المعرفة والمحبّون فلهم ما تلذّ أعينهم من النظر إلى اللّه ، لطول ما قاسوه من فرط الاشتياق بقلوبهم ، وما عالجوه من احتراقهم فيه لشدة غليلهم. هـ.

والحاصل : أن ما تشتهى الأنفس يرجع لنعيم الأشباح ، وتلذ الأعين لنعيم الأرواح من النّظر ، والقرب ، والمناجاة والمكالمة ، والرّضوان الأكبر ، منحنا اللّه من ذلك الحظ الأوفر.

وَأَنْتُمْ فِيها خالِدُونَ إتمام للنعمة ، وكمال للسرور فإن كلّ نعيم له زواله مكدر بخوف زواله لا محالة.

وَتِلْكَ الْجَنَّةُ مبتدأ وخبر ، والَّتِي أُورِثْتُمُوها : صفة الجنة ، أو : «الجنة» صفة المبتدأ ، الذي هو الإشارة ، و«التي أورثتموها» : خبره. أو : «التي أورثتموها» صفة المبتدأ ، وبِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ : خبر ، أي : حاصلة ، أو كائنة

---

(١) عزاه السيوطي فى الدر المنثور (٥/ ٧٣٢) لعبد بن حميد ، عن عكرمة ، يرفعه.

(٢) أخرجه أحمد فى المسند (٥/ ٣٥٢) والترمذي فى (صفة الجنة ، باب ما جاء فى صفة خيل الجنة ٤/ ٨٨٥/ ح ٢٥٤٣) والبغوي فى التفسير (٧/ ٢٢٢) عن عبد الرّحمن بن سابط مرسلا. وقال الهيثمي (١٠/ ٤١٣) : رواه الطبراني ورجاله ثقات. [.....]

(٣) فى الأصول : [قاموا] وما أثبته هو الذي فى القشيري.

بما كنتم تعملون فى الدنيا ، شبه جزاء العمل بالميراث لبقائه على أهله دائما ، ولا ينافى هذا قوله صلّى اللّه عليه وسلم : «لن يدخل أحدكم الجنة عمله» «١» لأن نفس الدخول بالرحمة ، والتنعم والدرجات بقدر العمل ، أو : تقول : الحديث خرج مخرج الحقيقة ، والآية خرجت مخرج الشريعة ، فالحقيقة

تنفى العمل عن العبد ، وتثبته للّه ، والشريعة تثبته له باعتبار الكسب ، والدين كله وارد بين حقيقة وشريعة فإذا شرع القرآن حققته السّنة ، وإذا شرعت السنة حققه القرآن. واللّه تعالى أعلم.

لَكُمْ فِيها فاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ بحسب الأنواع والأصناف ، لا بحسب الأفراد فقط ، مِنْها تَأْكُلُونَ أي : لا تأكلون إلا بعضها ، وأعقابها باقية فى أشجارها على الدوام ، لا ترى فيها شجرا خلت عن ثمرها لحظة ، فهى مزيّنة بالثمار أبدا ، موقورة بها ، وعن النّبى صلّى اللّه عليه وسلم : «لا ينزع رجل فى الجنة من ثمرها إلا نبت فى مكانها مثلاها» «٢».

الإشارة : كل خلة وصحبة تنقطع يوم القيامة ، إلّا خلة المتحابين فى اللّه ، وهم الذين ورد فى الحديث : أنهم يكونون فى ظل العرش ، والنّاس فى حر الشمس ، يغشى نورهم النّاس فى المحشر ، يغبطهم النّبيون والشهداء لمنزلتهم عند اللّه. قيل : يا رسول اللّه ، من هؤلاء؟ صفهم لنا لنعرفهم ، قال : «رجال من قبائل شتى ، يجتمعون على ذكر اللّه» «٣».

وقد ورد فيهم أحاديث ، منها : حديث الموطأ ، عن معاذ ، قال : سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم يقول : «قال اللّه تعالى :

وجبت محبّتى للمتحابّين فىّ ، والمتجالسين فىّ ، والمتباذلين فىّ ، والمتزاورين فىّ» «٤» ، وفى رواية أبى مسلم الخولاني : قال صلّى اللّه عليه وسلم : «المتحابّون فى اللّه على منابر من نور ، فى ظلّ العرش ، يوم لا ظلّ إلا ظلّه» «٥» ، وفى حديث آخر : «ما تحابّ اثنان فى اللّه إلا وضع لهما كرسيّا ، فيجلسان عليه حتى يفرغ من الحساب» «٦» وقال : صلى اللّه عليه وسلم : «إنّ المتحابّين فى اللّه لترى غرفهم فى الجنة كالكوكب الطّالع الشّرقى أو الغربي ، فيقال : من هؤلاء؟ فيقال : هؤلاء المتحابّون فى اللّه عز وجل».

---

(١) حديث صحيح ، أخرجه البخاري فى (الرقاق ، باب القصد والمداومة على العمل ، ح ٦٤٦٧). ومسلم فى (صفات المنافقين وأحكامهم ، باب لن يدخل أحد الجنة بعمله ، بل برحمة اللّه تعالى ٤/ ٢١٧١ ، ح ٢٨١٨) من حديث السيدة عائشة – رضي اللّه عنها : وأول الحديث : «سددوا وقاربوا ...».

(٢) أخرجه الطبري (٢٥/ ٩٧) والبزار (كشف الأستار ح ٣٥٣٠) وقال الهيثمي فى مجمع الزوائد (١٠/ ٤١٤) : رواه الطبراني والبزار ، ورجال الطبراني وأحد إسنادى البزار ثقات.

(٣) قال الهيثمي فى المجمع (١٠/ ٧٧) : رواه الطبراني ، وإسناده حسن.

(٤) رواه مالك فى الموطأ (٢/ ٩٥٣) وأحمد (٥/ ٢٣٣) والحاكم (٤/ ١٦٩) وصحّحه ووافقه الذهبي.

(٥) رواه ابن حبان (٥٧٧) وعبد اللّه بن الإمام أحمد فى زوائد المسند (٥/ ٣٢٩).

(٦) عزاه السيوطي فى الجامع الصغير (ح ٧٨٦٨) للطبرانى ، عن أبى عبيدة ومعاذ ، وضعّفه.

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٢٦٦

وفى رواية : «إنّ فى الجنة غرفا يرى ظواهرها من بواطنها ، وبواطنها من ظواهرها ، أعدّها اللّه للمتحابّين فى اللّه ، والمتزاورين فيه ، والمتباذلين فيه» «١» وفى لفظ آخر : «إنّ فى الجنة لعمدا من ياقوت ، عليها غرف من زبرجد ، لها أبواب مفتّحة تضىء كما يضىء الكوكب الدّرّى ، قلنا : يا رسول اللّه ، من يسكنها؟ قال : المتحابّون فى اللّه والمتباذلون فى اللّه ، والمتلاقون فى اللّه ، مكتوب على وجوههم : هؤلاء المتحابون فى اللّه» «٢» وفى الأثر أيضا : إذا كان يوم القيامة ، نادى مناد : أين المتحابون فى اللّه؟ فيقوم ناس – وهم يسير – فينطلقون إلى الجنّة سراعا ، فتتلقّاهم الملائكة : فيقولون : رأيناكم سراعا إلى الجنة ، فمن أنتم؟ فيقولون : نحن المتحابّون فى اللّه فيقولون : وما كان تحابّكم؟ فيقولون : كنّا نتحابّ فى اللّه ونتزاور فى اللّه ، ونتعاطف فى اللّه ، ونتباذل فى اللّه ، فيقال لهم : ادخلوا الجنة ، فنعم أجر العاملين. هـ. من البدور السافرة. والتباذل : المواساة بالبذل.

وذكر فى الإحياء شروط المتحابين فى اللّه ، فقال رضي اللّه عنه : اعلم أن عقد الأخوة رابطة بين الشخصين ، كعقد النكاح بين الزوجين ، ثم قال : فلأخيك عليك حق فى المال ، وفى النّفس ، وفى اللسان ، وفى القلب. وبالعفو ، وبالدعاء ، وذلك تجمعه ثمانية حقوق :

الحق الأول : فى المال بالمواساة ، وذلك على ثلاثة مراتب أدناها : أن تنزله منزلة عبدك وخادمك ، فتقوم بحاجاته بفضلة مالك ، فإذا سنحت له حاجة ، وعندك فضلة أعطيته ابتداء ، فإذا أحوجته إلى سؤال فهو غاية التقصير. الثانية : أن تنزله منزلة نفسك ، وترضى بمشاركته إياك فى مالك ، فتسمح له فى مشاركته. الثالثة – وهى العليا – : أن تؤثره على نفسك ، وتقدم حاجته على حاجتك ، وهى رتبة الصدّيقين ، ومنتهى درجات المتحابين.

الحق الثاني : الإعانة بالنفس فى قضاء الحاجات ، والقيام بها قبل السؤال ، وهذا أيضا لها درجات كالمواساة ، فأدناها : القيام بالحاجة عند السؤال ، ولكن مع البشاشة والاستبشار ، وإظهار الفرح. وأوسطها : أن تجعل حاجته كحاجتك ، فتكون متفقدا لحاجته ، غير غافل عن أحواله ، كما لا تغفل عن أحوال نفسك ، وتغنيه عن السؤال.

وأعلاها : أن تؤثره على نفسك ، وتقدم حاجته على حاجتك ، وتؤثره على نفسك ، وأقاربك ، وأولادك. كان الحسن يقول : إخواننا أحبّ إلينا من أهلينا وأولادنا لأن أهلينا يذكروننا الدنيا ، وإخواننا يذكروننا الآخرة.

---

(١) رواه الطبراني فى الأوسط (ح ٢٩٠٣) ، عن بريدة. قال الهيثمي فى المجمع (١٠/ ٢٧٨) :

«وفيه إسماعيل بن سيف ، وهو ضعيف».

(٢) رواه البزار (كشف الأستار ، ح ٣٥٩٢) عن أبى هريرة رضي اللّه عنه.

(٢٦٦/٥)

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٢٦٧

الحق الثالث : على اللسان بالسكوت ، فيسكت عن التجسس ، والسؤال عن أحواله ، وإذا رآه فى طريقه فلا يسأله عن غرضه وحاجته ، فربما يثقل عليه ، أو يحتاج إلى أن يكذب ، ويسكت عن أسراره التي بثها إليه ، فلا يبثها إلى غيره ، ولا إلى أخص أصدقائه ، ولا يكشف شيئا منها ولو بعد القطيعة ، وليسكن عن مماراته ومدافعته فى كلامه.

الحق الرّابع : على اللسان بالنطق ، فيتودد إليه بلسانه ، ويتفقده فى أحواله ، كالسؤال عن عارض عرض له ، وأظهر شغل القلب بسببه ، فينبغى أن يظهر له بلسانه كراهتها. والأحوال التي يسرّ بها ، ينبغى أن يظهر له بلسانه مشاركته فى السرور بها. فمعنى الأخوة : المساهمة فى السراء والضراء ، ويدعوه بأحب أسمائه فى حضوره ومغيبه ، ويثنى عليه بما يعرف من محاسن أحواله ، عند من يريد هو الثناء عنده ، وكذا على أولاده وأهله ، حتى على عقله ، وخلقه ، وهيئته ، وخطه ، وشعره ، وتصنيفه ، وجميع ما يفرح به ، من غير كذب ولا إفراط ، ويذب عنه فى غيبته مهما قصد بسوء ، ويعلمه مما علمه اللّه وينصحه.

الحق الخامس : العفو عن الزلات والهفوات ، فإن كانت زلته فى الدين بارتكاب معصية ، فليتلطف فى نصحه ، فإن بقي مصرا ، فقد اختلف الصحابة فى ذلك ، فذهب أبو ذر إلى مقاطعته ، وقال : إذا انقلب أخوك عما كان عليه فابغضه من حيث أحببته. وذهب أبو الدرداء ، وجماعة ، إلى خلاف ذلك ، وقال أبو الدرداء : إذا تغير أخوك عما كان عليه فلا تدعه لأجل ذلك فإن أخاك يعوجّ مرة ويستقيم أخرى. وهذا ألطف وأفقه ، وذلك لما فى هذه الطريق من الرّفق ، والاستمالة ، والتعطف ، المفضى إلى الرّجوع والتوبة. وأيضا : للأخوة عقد ، ينزل منزلة القرابة ، فإذا انعقدت وجب الوفاء بها ، ومن الوفاء : ألا يهمله أيام حاجته وفقره ، وفقر الدين أشد من فقر المال. ثم قال : والفاجر إذا صحب تقيا وهو ينظر إلى خوفه رجع عن قريب ، ويتخلى من الإصرار ، بل الكسلان يصحب الحريص فى العمل ، فيحرص حياء منه ، وإن كانت زلته فى حقك فلا خلاف أن العفو والاحتمال هو المطلوب. هـ. قلت : ولعل حق القلب يندرج هنا مع المحبة وشهود الصفاء منه.

الحق السادس : الدعاء له فى حياته ومماته بكلّ ما يحب لنفسه وأهله. قلت : ومن ذلك زيارة قبره ، وإيصال النفع له فى ذلك الوقت.

الحق السابع : الوفاء والإخلاص. ومعنى الوفاء : الثبات على الحب ، وإدامته إلى الممات ، معه ومع أولاده وأصدقائه.

(٢٦٧/٥)

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٢٦٨

الحق الثامن : التخفيف وترك التكليف والتكلف ، فلا تكلف أخاك ما يشق عليه بل تروح سره عن مهماتك وحاجاتك ، وترفهه عن أن تحمّله شيئا من أعبائك ، ولا تكلفه التواضع لك ، والتفقد والقيام بحقوقك ، بل ما تقصد بمحبته إلا اللّه تعالى. هـ. باختصار «١».

وفى وصية القطب ابن مشيش ، لأبى الحسن – رضي اللّه عنهما – : لا تصحب من يؤثر نفسه عليك ، فإنه لئيم ولا من يؤثرك على نفسه ، فإنه قلما يدوم واصحب من إذا ذكر ذكر اللّه ، فاللّه يغنى به إذا شهد ، وينوب عنه إذا فقد ، ذكره نور القلوب ، ومشاهدته مفاتح الغيوب. ومعنى كلام الشيخ : لا تصحب من يبخل عنك بما عنده من العلوم ، ولا من يتكلف لك ، فإنه لا يدوم ، وهذه صحبة الشيخوخة.

وقال صلّى اللّه عليه وسلم : «مثل الأخوين كمثل اليدين ، يغسل إحداهما الأخرى ، وكمثل البنيان يشدّ بعضه بعضا» «٢». وفى معناه قيل :

إنّ أخاك الحقّ من كان معك ومن يضرّ نفسه لينفعك

ومن إذا رأى زمانا صدّعك شتّت فيك شمله ليجمعك

وهذا فى حق الإخوان ، واللّه تعالى أعلم.

ثم ذكر تعالى أضداد هؤلاء ، فقال :

[سورة الزخرف (٤٣) : الآيات ٧٤ الى ٨٠]

إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذابِ جَهَنَّمَ خالِدُونَ (٧٤) لا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ (٧٥) وَما ظَلَمْناهُمْ وَلكِنْ كانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ (٧٦) وَنادَوْا يا مالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنا رَبُّكَ قالَ إِنَّكُمْ ماكِثُونَ (٧٧) لَقَدْ جِئْناكُمْ بِالْحَقِّ وَلكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كارِهُونَ (٧٨)

أَمْ أَبْرَمُوا أَمْراً فَإِنَّا مُبْرِمُونَ (٧٩) أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْواهُمْ بَلى وَرُسُلُنا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ (٨٠)

قلت : (خالدون) : خبر «إن» ، و(فى عذاب) : معمول الخبر ، أو : خبر ، و«خالدون» خبر بعد خبر.

---

(١) انظر : إحياء علوم الدين. (كتاب آداب الألفه والأخوة).

(٢) قال العراقي فى المغني (٢/ ١٧٢) : «رواه السلمى فى آداب الصحبة ، وأبو المنصور الديلمي فى مسند الفردوس ، من حديث أنس.

وفيه أحمد بن محمد بن غالب الباهلي ، كذاب. وهو من قول سلمان الفارسي فى الأول من الحزبيات».

(٢٦٨/٥)

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٢٦٩

يقول الحق جل جلاله : إِنَّ الْمُجْرِمِينَ أي : الراسخين فى الإجرام ، وهم الكفار ، كما ينبئ عنه إتيانه فى مقابلة المؤمنين فِي عَذابِ جَهَنَّمَ خالِدُونَ ، لا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ لا يخفف عنهم ، من قولهم : فترت عنه الحمى :

سكتت. قال القشيري : هم الكفار والمشركون ، أهل الخلود ، لا يخفف عنهم ، وأما أهل التوحيد فقد يكون قوم منهم فى النار ، ولكن لا يخلدون فيها فيقتضى دليل الخطاب أنه يفتّر عنهم العذاب ، أي : يخفف ، وورد فى الخبر الصحيح :

«أن الحق يميتهم إماتة إلى أن يخرجوا منها» والميت لا يحس ولا يألم ، وذكر فى الآية أنهم مُبْلِسُونَ فيدلّ أن المؤمنين لا إبلاس لهم ، وإن كانوا فى بلائهم فهم على وصف رجائهم ، ويعدون أيامهم. هـ.

وحمل ابن عطية الموت على المقاربة ، لا الموت حقيقة لأن الآخرة لا موت فيها قال : والحديث أراه على التشبيه ، لأنه كالسبات والرّكود والهمود ، فجعله موتا. انظره فى ثُمَّ لا يَمُوتُ فِيها وَلا يَحْيى ، «١». وقال عياض فى الإكمال :

عن بعض المتكلمين : يحتمل الحقيقة ، ويحتمل الغيبة عن الإحساس ، كالنوم ، وقد سمى النّوم وفاتا لإعدامه الحس. هـ.

وَهُمْ فِيهِ أي : فى العذاب مُبْلِسُونَ آيسون من الفرج ، متحيّرون ، وَما ظَلَمْناهُمْ بذلك ، حيث أرسلنا الرّسل وَلكِنْ كانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ بتعريض أنفسهم للعذاب الخالد ، بمخالفة الرّسل ، وإيثارهم التقليد على النّظر.

وَنادَوْا وهم فى النّار لمّا أيسوا من الفتور «٢» يا مالِكُ ، وهو خازن النّار. قيل لابن عباس : إن ابن مسعود يقرأ «يا مال» – ورويت عن النّبى صلّى اللّه عليه وسلم «٣» – فقال «٤» : «ما أشغل أهل النّار عن الترخيم «٥» ، قيل : هو رمز إلى ضعفهم وعجزهم عن تمام اللفظ. لِيَقْضِ عَلَيْنا رَبُّكَ أي : ليمتنا حتى نستريح ، من : قضى عليه إذا أماته ، والمعنى : سل ربك أن يقضى علينا بالموت ، وهذا لا

ينافى ما ذكر من إبلاسهم لأنه جؤار ، وتمنى الموت لفرط الشدة. قالَ إِنَّكُمْ ماكِثُونَ لابثون فى العذاب ، لا تتخلصون منه بموت ولا فتور ، قال الأعمش : أنبئت أن بين دعائهم وبين إجابتهم ألف عام «٦» ، وفى الحديث : «لو قيل لأهل النّار : إنكم ماكثون فى النّار عدد كلّ حصاة فى الدنيا لفرحوا ولو قيل لأهل الجنة ذلك لحزنوا ، ولكن جعل اللّه لهم الأبد».

---

(١) الآية ١٣ من سورة الأعلى.

(٢) أي : فتور العذاب عنهم.

(٣) نقل القرطبي (٧/ ٦١٢٠) عن أبى بكر الأنبارى قوله فى رفع هذه القراءة إلى النّبى صلّى اللّه عليه وسلم : «لا يعمل على هذا الحديث ، لأنه مقطوع ، لا يقبل مثله فى الرّواية عن الرّسول صلّى اللّه عليه وسلم. وكتاب اللّه أحق أن يحتاط له ، وينفى عنه الباطل».

قلت : الذي فى الصحيح أن النّبى صلّى اللّه عليه وسلم كان يقرأ : «ونادوا يا ملك». فقد أخرج البخاري فى (التفسير – سورة الزخرف ، باب وَنادَوْا يا مالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنا رَبُّكَ الآية ح ٤٨١٩) عن صفوان بن يعلى عن أبيه قال : «سمعت النّبى صلّى اللّه عليه وسلم يقرأ على المنبر : وَنادَوْا يا مالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنا رَبُّكَ ..» الحديث. [.....]

(٤) أي : سيدنا ابن عباس رضي اللّه عنه.

(٥) الترخيم : التليين وقيل : هو للحذف : ومنه : ترخيم الاسم فى النّداء ، وهو أن يحذف من آخره حرف أو أكثر ، فتقول فى : «مالك» يا مال ، وفى «حارث» يا حا .. وهكذا. وسمى ترخيما لتليين المنادى صوته بحذف الحرف. انظر اللسان (رخم ٣/ ١٦١٧).

وانظر قول ابن عباس رضي اللّه عنه فى فتح الباري (٨/ ٤٣١) وتفسير النّسفى (٣/ ٢٨٣).

(٦) قول الأعمش ، ذكره الترمذي فى (صفة جهنم ، باب ما جاء فى صفة طعام أهل النّار).

لَقَدْ جِئْناكُمْ بِالْحَقِّ فى الدنيا بإرسال الرّسل ، وإنزال الكتب ، وهو خطاب توبيخ وتقريع من جهته – تعالى ، مقرر لجواب مالك ، ومبين لسبب مكثهم ، وقيل : الضمير فى (قال) للّه تعالى ، أي : لقد أعذرنا إليكم بإرسال الرّسل بالحق وَلكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ أىّ حق كان كارِهُونَ لا تسمعونه وتفرون منه لأن مع الباطل الدّعة ، ومع الحق التعب ، هذا فى مطلق الحق ، وأما فى الحق المعهود ، الذي هو التوحيد والقرآن ، فكلهم كارهون مشمئزون منه.

أَمْ أَبْرَمُوا أَمْراً : مبتدأ ، ناع على المشركين ما فعلوا من الكيد لرسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم ، و«أم» منقطعة ، وما فيها من معنى «بل» للانتقال من توبيخ أهل النّار إلى حكاية جناية هؤلاء ، أي : أم أحكم مشركو مكة أمرا من كيدهم ومكرهم برسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم ، فَإِنَّا مُبْرِمُونَ كيدنا حقيقة ، كما أبرموا كيدهم صورة ، كقوله تعالى : أَمْ يُرِيدُونَ كَيْداً فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ «١» الآية. وكانوا يتناجون فى أنديتهم ، ويتشاورون فى أمره صلّى اللّه عليه وسلم.

أَمْ يَحْسَبُونَ بل يحسبون أَنَّا لا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وهو ما حدّثوا به أنفسهم أو غيرهم فى مكان خال ، وَنَجْواهُمْ أي : ما تكلموا به فيما بينهم بطريق التناجي ، بَلى نحن نسمعها ونطّلع عليها وَرُسُلُنا الملائكة الذين يحفظون عليهم أعمالهم ، ويلازمونهم أينما كانوا لَدَيْهِمْ أي : عندهم يَكْتُبُونَ كل ما صدر عنهم من الأفعال والأقوال ، ومن جملتها : ما ذكر من سرهم ونجواهم ، والجملة : إما عطف على ما يترجم عنه «بلى» ، أي : نكتبها ورسلنا كذلك ، أو حال ، أي : نسمعها والحال أن رسلنا يكتبونه.

الإشارة : قوله تعالى : إِنَّ الْمُجْرِمِينَ ... إلخ .. أما أهل الشرك فقد اتفق المسلمون على خلودهم ، إلا ما انفرد به ابن العربي الحاتمي والجيلي ، فقد نقلا خبرا مأثورا : أن النّار تخرب ، وينبت موضعها الجرجير ، وينتقل زبانيتها إلى خزنة الجنان ، فهذا من جهة الكرم وشمول الرّحمة لا يمنع ، ومن جهة ظواهر النّصوص معارض ، وباطن المشيئة مما اختص اللّه تعالى به. ونقل الجيلي أيضا فى كتابه (الإنسان الكامل) : أن بعض أهل النار أفضل عند اللّه من بعض أهل الجنة يتجلى لهم الحق تعالى فى دار الشقاء. ونقل أيضا : أن بعض أهل النّار تعرض عليهم الجنة فيأنفون منها ، وأن بعض أهل النّار يتلذذون بها كصاحب الجرب. وذكر بعضهم أن أهل النّار يتطبعون بها ، كالسمندل ، فهذه مقالات غريبة ، اللّه أعلم بصحتها. وعلى تقدير وقوعها فى غيب مشيئته تعالى ، فلعلها فى قوم مخصوصين من المسلمين ختم لهم بالشقاء بعد مقاسات شدائد الطاعة ، أو : فى قوم من أهل الفترة لم يكن فيهم

---

(١) من الآية ٤٢ من سورة الطور.

إذاية ، أو صدر منهم إحسان ، واللّه أعلم بأسرار غيبه ، وأما أهل التوحيد فحالهم فى النّار أرفق من هذا ، بل حالهم فيها أروح من حال الدنيا من وجه.

قال القشيري : ولقد قال الشيوخ ، إن حال المؤمنين فى النّار – من وجه – أروح لقلوبهم من حالهم اليوم فى الدنيا لأن اليوم خوف الهلاك وغدا يقين النّجاة ، وأنشدوا :

عيب السلامة أنّ صاحبها متوقّع لقواصم الظّهر
وفضيلة البلوى ترقّب أهلها عقبى الرّجاء ودورة الدّهر «١»
ثم قال فى قوله تعالى : وَنادَوْا يا مالِكُ لو قالوا : يا ملك بدل من يا مالك لكان أقرب إلى الإجابة ، ولكنّ الأجنبية حالت بينهم وبين ذلك. هـ. أي : تعلقهم بالمخلوق دون الخالق. وقوله تعالى : أَمْ أَبْرَمُوا أَمْراً ... إلخ ، هى عادته تعالى مع خواصه كيفما كانوا ، يرد كيد من كادهم فى نحره. وقوله تعالى : أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ ... إلخ ، قال القشيري : إنما خوّفهم بسماع الملائكة ، وكتابتهم أعمالهم عليهم ، لغفلتهم عن اللّه ، ولو كان لهم خبر عن اللّه لما [خوفهم] «٢» بغير اللّه ، ومن علم أن أعماله تكتب عليه ، ويطالب بمقتضاها ، قلّ إلمامه بما يخاف أن يسأل عنه. هـ.
ثم ردّ على من زعم اتخاذ الولد للّه تعالى ، كعيسى والملائكة ، فقال :
[سورة الزخرف (٤٣) : الآيات ٨١ الى ٨٦]
قُلْ إِنْ كانَ لِلرَّحْمنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعابِدِينَ (٨١) سُبْحانَ رَبِّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (٨٢) فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ (٨٣) وَهُوَ الَّذِي فِي السَّماءِ إِلهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ (٨٤) وَتَبارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَيْنَهُما وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٨٥)
وَلا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفاعَةَ إِلاَّ مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٨٦)

---

(١) فى القشيري : [عقب الرّجاء مودة الدهر].
(٢) فى القشيري [خافوهم].

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٢٧٢
يقول الحق جل جلاله : قُلْ يا محمد إِنْ كانَ لِلرَّحْمنِ وَلَدٌ على زعمكم فَأَنَا أَوَّلُ الْعابِدِينَ للّه ، كان أو لم يكن ، ويسمى هذا إرخاء العنان ، أي : أنا أول من يخضع للّه ، كان له ولد أو لم يكن ، وقد قام البرهان على نفيه. قال معناه السدى ، أو : وإن كان للرّحمن ولد فأنا أول من يعظم ذلك الولد ، وأسبقكم إلى طاعته ، والانقياد إليه ، كما يعظم ولد الملك ، لتعظيم أبيه وهذا الكلام وارد على سبيل الفرض ، والمراد : نفى الولد ، وذلك أنه علّق العبادة بكينونة الولد ، وهى محال فى نفسها ، فكان المعلق بها محالا مثلها ، ونظيره ، قول سعيد بن جبير للحجاج ، – حين قال له : واللّه لأبدلنّك بالدنيا نار تلظى – : لو عرفت أن ذلك إليك ما عبدت إلها غيرك. أو : إن كان للرّحمن ولد فى زعمكم فَأَنَا

أَوَّلُ الْعابِدِينَ أي : الموحّدين للّه ، المكذّبين قولكم ، بإضافة الولد إليه لأن من عبد اللّه ، واعترف بأنه إلهه فقد دفع أن يكون له ولد. أو : إن كان للرّحمن ولد فأنا أول العابدين ، أي : الجاحدين والآنفين من أن يكون له ولد ، من عبد : بكسر الباء : إذا اشتد أنفه فهو عبد وعابد ، ومنه قول الشاعر :

متى ما يشا ذو الودّ يصرم خليله ويعبد عليه لا محالة ظالما «١»

وقول الحريري :

قال ما يجب على عابد الحقّ قال يحلف بالإله الخلق «٢».

أي : على جاحد الحق. وقيل : هى «إن» النافية ، أي : ما كان للرحمن ولد فأنا أول من عبد اللّه ووحّده ، فيوقف على «ولد» على هذا التأويل.

روى : أن النّضر قال : إن الملائكة بنات اللّه ، فنزلت الآية ، فقال النّضر : ألا ترون أنه صدّقنى فقال الوليد : ما صدّقك ، ولكن قال : ما كان للرحمن ولدا ، فأنا أوّل الموحدين من أهل مكة أن لا ولد له «٣». وسيأتى فى الإشارة قول آخر.

قال القشيري : وفى الآية وأمثالها دليل على جواز حكاية قول المبتدعة فيما أخطأوا فيه فى الاعتقاد ، على وجه الردّ عليهم. هـ. قلت : ولا تجوز مطالعة أقوالهم إلا لمن رسخت قدمه فى المعرفة ، والإعراض عنها أسلم.

ثم نزّه ذاته عن اتخاذ الولد ، فقال : سُبْحانَ رَبِّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ أي : تنزه رب هذه العوالم العظام عن اتخاذ الولد لأن اتخاذ الولد من صفة الأجسام ، ولو كان جسما ما قدر على خلو هذه

---

(١) البيت للمرقش الأصغر. انظر المفضليات (٥٠٢) وروح المعاني للألوسى (٢٥/ ١٠٥).

(٢) هكذا فى الأصول ، وأظنه [الحق] ، ولم أقف على البيت فى غير هذا المكان.

(٣) ذكره النّسفى (٣/ ٢٨٣).

الأجرام ، وفى إضافة اسم الرّب إلى أعظم الأجرام وأقواها ، تنبيه على أنها وما فيها من المخلوقات حيث كانت تحت ملكوت ربوبيته كيف يتوهم أن يكون شيء منها جزءا منه. وفى تكرير اسم الرّب تفخيم لشأن العرش.

فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا فى باطلهم وَيَلْعَبُوا فى [دنياهم] «١» أي : حيث لم يذعنوا لك ، ولم يرجعوا عن

غيهم ، أعرض عنهم واتركهم فى لهوهم ولعبهم ، حَتَّى يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ، وهو القيامة ، فإنهم يومئذ يعلمون ما فعلوا ، وما يفعل بهم ، أو : يوم بدر ، قاله عكرمة وغيره. وهذا دليل على أن ما يقولونه إنما هو خوض ولعب لا حقيقة له.

ثم ذكر انفراده بالألوهية فى العالم العلوي والسفلى ، فقال : وَهُوَ الَّذِي فِي السَّماءِ إِلهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلهٌ أي :

وهو الذي هو معبود فى السماء وفى الأرض ، فضمّن «إله» معنى مألوه ، أي : وهو الذي يستحق أن يعبد فيهما. وقرأ عمر ، وأبى ، وابن مسعود : «وهو الذي فى السماء اللّه وفى الأرض اللّه» كقوله تعالى : وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّماواتِ وَفِي الْأَرْضِ «٢» ، وقد مر تحقيقه عبارة وإشارة. والرّاجع إلى الموصول : محذوف لطول الصلة ، كقولهم : ما أنا بالذي قائل لك سوءا ، والتقدير : وهو الذي هو فى السماء إله ، و«إله» : خبر عن مضمر ، ولا يصح أن يكون «إله» مبتدأ ، و«فى السماء» خبره لخلو الصلة حينئذ عن العائد وَهُوَ الْحَكِيمُ فى أقواله وأفعاله الْعَلِيمُ بما كان وما يكون ، أو : الحكيم فى إمهال العصاة ، العليم بما يؤول أمرهم إليه ، وهو كالدليل على ما قبله من التنزيه ، وانفراده بالربوبية.

وَتَبارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ أي : تقدّس وتعاظم الذي ملك ما استقر فى السموات والأرض وَما بَيْنَهُما إما على الدوام ، كالهواء ، أو فى بعض الأوقات ، كالطير ، وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ أي : العلم بالساعة التي فيها تقوم ، وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ للجزاء ، والالتفات للتهديد ، فيمن قرأ بالخطاب. وَلا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ أي : لا تملك آلهتهم التي يدعونها مِنْ دُونِهِ أي : من دون اللّه الشَّفاعَةَ كما زعموا أنهم شفعاؤهم عند اللّه إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ الذي هو التوحيد ، وَهُمْ يَعْلَمُونَ بما يشهدون به عن بصيرة وإيقان وإخلاص ، وهم خواص المسلمين ، والملائكة. وجمع الضميرين باعتبار معنى (من) كما أن الإفراد أولا باعتبار لفظها. والاستثناء : إما متصل ، والموصل عام لكلّ ما يعبد من دون اللّه ، أو : منقطع ، على أنه خاص بالأصنام.

---

(١) فى الأصول [دينهم] والمثبت من النّسفى وأبى السعود.

(٢) من الآية ٣ من سورة الأنعام.

الإشارة : قل يا محمد : إن كان للرحمن ولد ، على زعمكم فى عيسى والملائكة ، فأنا أولى بهذه

النّسبة على تقدير صحتها لأنى أنا أول من عبد اللّه فى سابق الوجود لأن أول ما ظهر نورى ، فعبد اللّه سنين متطاولة ثم تفرعت منه الكائنات ، ومن سبق إلى الطاعة كان أولى بالتقريب ، فلم خصصتم الملائكة وعيسى بهذه النّسبة ، وأنا قد سبقتهم فى العبادة ، بل لا وجود لهم إلا من نورى ، لكن لا ولد له ، فأنا عبد اللّه ورسوله. قال جعفر الصادق : أول ما خلق اللّه نور محمد صلّى اللّه عليه وسلم قبل كلّ شيء ، وأول من وحّد اللّه عز وجل من خلقه ، درة محمد صلّى اللّه عليه وسلم ، وأول ما جرى به القلم «لا إله إلا اللّه محمد رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم». هـ. قاله الورتجبي. ففى الآية إشارة إلى سبقيته صلّى اللّه عليه وسلم ، وأنه أول تجل من تجليات الحق ، فمن نوره انشقت أسرار الذات ، وانفلقت أنوار الصفات ، وامتدت من نوره جميع الكائنات.

قوله تعالى فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا ... إلخ ، كل من خاض فى بحار التوحيد بغير برهان العيان ، تصدق عليه الآية ، وكذا كلّ من اشتغل بغير اللّه ، وبغير ما يقرب إليه فهو ممن يخوض ويلعب ، وفى الحديث : «الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ذكر اللّه ، وما والاه ، أو عالما أو متعلما» «١».

وقوله تعالى : وَلا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفاعَةَ ... إلخ. قال القشيري : وفى الآية دليل على أن جميع المسلمين تكون شفاعتهم غدا مقبولة. هـ. أي : لأنهم فى الدنيا شهدوا بالحق ، وهو التوحيد عن علم وبصيرة ، لكن فى تعميمه نظر لأن الاستثناء ، الأصل فيه الاتصال ، ولأن من شهد بالحق مستثنى من «الذين يدعون من دونه» – وهم الملائكة ، وعيسى ، وعزير ، فهم الذين شهدوا بالحق ممن دعوا من دون اللّه ، وشفاعة من عداهم مأخوذة من أدلة أخرى.

ثم ذكر إقرار المشركين بالربوبية ، فقال :

[سورة الزخرف (٤٣) : الآيات ٨٧ الى ٨٩]

وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ (٨٧) وَقِيلِهِ يا رَبِّ إِنَّ هؤُلاءِ قَوْمٌ لا يُؤْمِنُونَ (٨٨) فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٨٩)

قالت : (قيله) : مصدر مضاف لفاعله ، يقال : قال قولا وقالا وقيلا ومقالا. واختلف فى نصبه «٢». فقيل : عطف على «سرهم» «٣» ، أي : يعلم سرهم ونجواهم وقيله ، وقيل : عطف على محل «الساعة» ، أي : يعلم الساعة ويعلم قيله ،

---

(١) أخرجه ابن ماجه (الزهد ، باب مثل الدنيا ٢/ ١٣٧٧ ، ح ٤١١٢) والترمذي فى (الزهد ، باب ١٤ .. ٣/ ٤٨٦ ، ح ٢٣٢٢) والبيهقي فى الشعب (١٧٠٨) من حديث أبى هريرة رضي اللّه عنه. وقال الترمذي : (حديث حسن) والمراد بالدنيا : كل ما يشغل عن اللّه تعالى ، ويبعد عنه.

(٢) قرأ الجمهور «قيله» بنصب اللام ، وضم الهاء. وقرأ عاصم وحمزة بخفض اللام وكسر الهاء.

(٣) من الآية ٨٠ ، وانظر الهداية للمهدوى (٢/ ٥١٠). [.....]

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٢٧٥

ويجوز أن يكون الجر والنّصب على إضمار القسم ، وحذفه ، كقوله تعالى : قالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ «١» وجوابه :

إِنَّ هؤُلاءِ ... إلخ.

يقول الحق جل جلاله : وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ أي : المشركين ، أو : العابدين والمعبودين مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ لا الأصنام والملائكة فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ فكيف يصرفون عن عبادته إلى عبادة غيره ، مع كون الكل مخلوقا له تعالى.

ولما شق عليه صلّى اللّه عليه وسلم صرفهم عن الإيمان جعل يستغيث ربه فى شأنهم ، حرصا على إيمانهم ، ويقول : يا رَبِّ إِنَّ هؤُلاءِ قَوْمٌ لا يُؤْمِنُونَ أي : قد عالجتهم فلم ينفع فيهم شىء ، فلم يبق إلا الرّجوع إليك ، إما إن تهديهم ، أو تهلكهم ، فأخبر تعالى أنه يسمع سرهم ونجواهم ، وقوله عليه السّلام فى شأنهم ، قال له تعالى : فَاصْفَحْ عَنْهُمْ أي : أعرض عنهم وأمهلهم ، وَقُلْ سَلامٌ أي : أمرى تسلّم منكم ومتاركة ، حتى نأمرك بجهادهم ، فَاصْفَحْ عَنْهُمْ أي : أعرض عنهم وأمهلهم ، وَقُلْ سَلامٌ أي : أمرى تسلّم منكم ومتاركة ، حتى نأمرك بجهادهم ، فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حالهم قطعا ، وإن تأخر ذلك.

وهو وعيد من اللّه تعالى ، وتسلية لرسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم ، أو : فسوف يعلمون حقيقة ما أنكروا من رسالتك. ومن قرأ بالخطاب «٢» ، فهو داخل فى حيز «قل» ، من جملة ما يقال لهم.

الإشارة : العجب كلّ العجب أن يعلم العبد أنه لا خالق له سوى ربه ، ولا محسن له غيره ، وهو يميل بالمحبة أو الركون إلى غيره ، وفى الحكم : «والعجب كلّ العجب ممن يهرب مما لا انفكاك له عنه ، ويطلب ما لا بقاء له معه ، فإنها لا تعمى الأبصار ، ولكن تعمى القلوب التي فى الصدور.» ويقال لمن دعا إلى اللّه فلم ينجح دعاؤه : فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلامٌ ... الآية.

وباللّه التوفيق .. وصلّى اللّه على سيدنا محمد وآله.

---

(١) الآية ٨٤ من سورة ص.

(٢) قرأ نافع وابن عامر وأبو جعفر ، بالخطاب على الالتفات ، والباقون بالغيب. انظر : الاتحاف/ ٤٦١.

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٢٧٧

سورة الدّخان

مكية. وهى سبع وخمسون آية. ومناسبتها لما قبلها قوله : فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ على الاحتمال الثاني «١» ، أي :

سوف تعلمون حقيقة ما أنزلنا على محمد ، ثم أقسم أنه أنزل فى ليلة مباركة ، أو لقوله : إِنَّ هؤُلاءِ قَوْمٌ لا يُؤْمِنُونَ «٢» أي : بما أنزلت إليّ ، فأقسم اللّه تعالى أنه أنزله من عنده ، أو يرجع لقوله : وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ «٣» والحديث شجون ، يجر بعضه بعضا.

[سورة الدخان (٤٤) : الآيات ١ الى ٩]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

حم (١) وَالْكِتابِ الْمُبِينِ (٢) إِنَّا أَنْزَلْناهُ فِي لَيْلَةٍ مُبارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ (٣) فِيها يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ (٤)

أَمْراً مِنْ عِنْدِنا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (٥) رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٦) رَبِّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَيْنَهُما إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ (٧) لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (٨) بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ (٩)

يقول الحق جل جلاله : حم يا محمد وَحق الْكِتابِ الْمُبِينِ ، الواضح البيّن ، وجواب القسم : إِنَّا أَنْزَلْناهُ أي : الكتاب الذي هو القرآن فِي لَيْلَةٍ مُبارَكَةٍ ، ليلة القدر ، أو ليلة النّصف من شعبان ، والجمهور على الأول ، لقوله : إِنَّا أَنْزَلْناهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ «٤» وقوله : شَهْرُ رَمَضانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ «٥» ، وليلة القدر على المشهور فى شهر رمضان ، وسيأتى الجمع بينهما. ثم قيل : أنزله جملة من اللوح المحفوظ إلى سماء الدنيا ، ثم نزل به جبريل نجوما ، على حسب الوقائع ، فى ثلاث وعشرين سنة ، وقيل : معنى نزوله فيها : ابتداء نزوله.

---

(١) راجع تفسير الآية الأخيرة من سورة الزخرف.

(٢) الآية ٨٨ من سورة الزخرف.

(٣) الآية ٤٤ من سورة الزخرف.

(٤) الآية الأولى من سورة القدر.
(٥) من الآية ١٨٥ من سورة البقرة.

(٢٧٧/٥)

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٢٧٨
والمباركة : الكثيرة الخير لما ينزل فيها من الخير والبركة ، والمنافع الدينية والدنيوية ، ولو لم يوجد فيها إلا إنزال القرآن لكفى به بركة.
إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ استئناف مبين لما يقتضى الإنزال ، كأنه قيل : إنا أنزلناه لأن من شأننا الإنذار والتحذير من العقاب ، فِيها يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ استئناف أيضا مبين لسر تخصيص هذه الليلة بالإنزال ، أي : إنما أنزلناه فى هذه الليلة المباركة ، لأنها فيها يفرق كلّ أمر حكيم ، أي : ذى حكمة بالغة ، ومعنى «يفرق» : يفصل ويكتب كلّ أمر من أرزاق العباد وآجالهم وجميع أمورهم ، من هذه الليلة إلى ليلة القدر المستقبلة ، وقيل : الضمير فى «فيها» يرجع لليلة النّصف ، على الخلاف المتقدم.
وروى أبو الشيخ ، بسند صحيح ، عن ابن عباس رضي اللّه عنه فى قوله : يَمْحُوا اللَّهُ ما يَشاءُ وَيُثْبِتُ قال : «ليلة النصف من شعبان ، يدبر أمر السنة ، فيمحو ما يشاء ويثبت غيره الشقاوة والسعادة ، والموت والحياة». قال السيوطي : سنده صحيح لا غبار عليه ولا مطعن فيه. هـ. وروى عن ابن عباس : قال : إن اللّه يقضى الأقضية كلها ليلة النّصف من شعبان ، ويسلمها إلى أربابها ليلة القدر. وفى رواية : ليلة السابع والعشرين من رمضان ، قيل :
وبذلك يرتفع الخلاف أن الأمر يبتدأ فى ليلة النّصف من شعبان ، ويكمل فى ليلة السابع والعشرين من رمضان «١».
واللّه أعلم.
وقوله تعالى : حَكِيمٍ الحكيم : ذو الحكمة ، وذلك أن تخصيص اللّه كلّ أحد بحالة معينة من الرّزق والأجل ، والسعادة والشقاوة ، فى هذه الليلة ، يدلّ على حكمة بالغة فأسند إلى الليلة لكونها ظرفا ، إسنادا مجازيا.
وقوله : أَمْراً مِنْ عِنْدِنا : منصوب على الاختصاص ، أي : أعنى بهذا الأمر أمرا حاصلا من عندنا ، على مقتضى حكمتنا ، وهو بيان لفخامته الإضافية ، بعد بيان فخامته الذاتية ، ويجوز أن يكون حالا من كلّ أمر لتخصيصه بالوصف ، إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ بدل من «إنا كنا منذرين».
ورَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ : مفعول له ، أي : أنزلنا القرآن لأن من عادتنا إرسال الرّسل بالكتب لأجل إفاضة رحمتنا. ووضع الرّب موضع الضمير ، والأصل : رحمة منا للإيذان بأن ذلك من أحكام الرّبوبية

ومقتضياتها ، وإضافته إلى ضميره صلّى اللّه عليه وسلم لتشريفه وفخامته.

---

(١) على هامش النّسخة الأم مايلى : كيف يرتفع ، واللّه تعالى يقول فيها – أي : الليلة المباركة «يفرق كلّ أمر حكيم» وهى ليلة القدر؟
على أنه : أي إشكال لكلام اللّه تعالى مع كلام غيره ، والمرفوع بذلك ضعيف أيضا ، فلا إشكال من كلّ جهة ، واللّه الحمد. هـ.

(٢٧٨/٥)

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٢٧٩
وقال الطيبي : هذه الجمل كلها واردة على التعليل المتداخل فكأنه لما قيل : إِنَّا أَنْزَلْناهُ فِي لَيْلَةٍ مُبارَكَةٍ قيل :
فلم أنزل؟ فأجيب : لأن من شأننا التحذير والعقاب ، فقيل : لم خص الإنزال فى هذه الليلة؟ فقيل : لأنه من الأمور المحكمة ، ومن شأن هذه الليلة أن يفرق فيها كلّ أمر حكيم ، فقيل : لم كان من الأمور المحكمة؟ فأجيب : لأن ذا الجلال والإكرام أراد إرسال الرّحمة للعالمين ، ومن حق المنزل عليه أن يكون حكيما ، لكونه للعالمين نذيرا ، أو داعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ .... الآية ، فقيل : لما ذا رحمهم الرّب بذلك؟ فأجيب : لأنه وحده سميع عليم ، يعلم جريان أحوال عباده ، ويعلم ما يحتاجون إليه دنيا وأخرى. هـ. وهذا معنى قوله : إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ لأقوالهم وحده ، الْعَلِيمُ بأحوالهم.
رَبِّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَيْنَهُما ، من جرّه «١» بدل من «ربك» ، ومن رفعه خبر عن مضمر ، أي : هو رب العوالم العلوية والسفلية ، وما بينها ، إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ أي : من أهل الإيقان ، ومعنى الشرط : أنهم كانوا يقرون بأن للسموات والأرض ربا وخالقا ، فإن كان إقرارهم عن علم وإيقان فهو الذي أنزل الكتاب وأرسل الرّسل رحمة منه ، وإن كانوا مذبذبين فليعلموا ذلك.
لا إِلهَ إِلَّا هُوَ ، من قصر إفراد لا قصر قلب «٢» لأن المشركين كانوا يثبتون الألوهية للّه – تعالى – ويشركون معه غيره ، فردّ اللّه عليهم بكونه لا يستحق العبادة غيره ، يُحْيِي وَيُمِيتُ ، ثم يبعث للجزاء ، رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبائِكُمُ الْأَوَّلِينَ أي : هو رب الجميع ، ثم ردّ أن يكونوا موقنين بقوله : بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ ، وإقرارهم غير صادر عن علم وإيقان ، بل قول مخلوط بهزؤ ولعب. واللّه تعالى أعلم.
الإشارة : (حم) ، قال الورتجبي : الحاء : الوحى الخاص إلى محمد ، والميم : محمد صلّى اللّه عليه وسلم ، وذلك الوحى الخاص بلا واسطة خبر عن سر فى سر ، لا يطلع على ذلك – الذي بين المحب والمحبوب – أحد من خلق اللّه ، ألا ترى كيف قال سبحانه : فَأَوْحى إِلى عَبْدِهِ ما أَوْحى

«٣»؟ وذلك إشارة إلى وحي السر فى السر ، وجملتها قسم ، أي : بمعنى الوحى السرى والمحبوب ، والقرآن الظاهر الذي ينبئ عن الأسرار ، إنا أنزلناه. هـ. قال القشيري : الحاء تشير إلى حقّه ، والميم إلى محبته ، ومعناه : بحقي ومحبتى لعبادى ، وكتابى العزيز إليهم ، ألا أعذّب أهل محبتى بفرقتى. هـ.

---

(١) قرأ عاصم وحمزة والكسائي وخلف «رب» بخفض الباء ، بدل من (ربك) أو صفة ، وقرأ الباقون بالرفع ، على إضمار مبتدأ ، أو مبتدأ ، خبره : (لا إله إلا هو). انظر : الإتحاف (١/ ٤٦٢).

(٢) القصر عند أهل البيان : تخصيص شيء بآخر ، ويسمّى الأول مقصورا والثاني مقصورا عليه ، كقولك : ما زيد إلا شاعر ، فإن كان المخاطب يعتقد أنه شاعر وعالم معا ، قيل له : قصر إفراد ، وإن كان يعتقد أنه عالم لا شاعر ، قيل له : قصر قلب ، وإن كان يتردد بين كونه عالما أو شاعرا قيل له : قصر تعيين. انظر محيط المحيط (ص ٧٣٨).

(٣) الآية ١٠ من سورة النّجم

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٢٨٠

والليلة المباركة عند القوم ، هى ليلة الوصال والاتصال ، حين يمتحى وجودهم ، ويتحقق فناؤهم ، وكلّ وقت يجدون فيه قلوبهم ، ويفقدون وجودهم فهو مبارك ، وهو ليلة القدر عندهم ، فإذا دام اتصالهم ، كانت أوقاتهم كلها ليلة القدر ، وكلها مباركة. قال الورتجبي : قوله تعالى : فِي لَيْلَةٍ مُبارَكَةٍ كانت مباركة لتجلى الحق فيها بالأقضية ، والرّحمة غالبة فيها ، ومن جملتها : إنزال القرآن فيها فإنه افتتاح وصلة لأهل القربة. هـ.

قال القشيري : وسمّاها ليلة مباركة لأنها ليلة افتتاح الوصلة ، وأشدّ الليالى بركة ، ليلة يكون العبد فيها حاضرا بقلبه ، مشاهدا لربه ، يتنسم «١» بأنوار الوصلة ، ويجد فيها نسيم القربة ، وأحوال هذه الطائفة فى لياليهم مختلفة ، كما قالوا ، وأنشدوا :

لا أظلم الليل ولا ادّعى أنّ نجوم الليل ليست تغور

ليلى كما شاء فإن لم يزر طال ، وإن زار فليلى قصير. هـ. «٢»

أي : ليلى كما شاء المحبوب ، فإن لم يزرنى طال ليلى ، وإن زارنى قصر. والحاصل : أن أوقات الجمال والبسط كلها قصيرة ، وأوقات الجلال كلها طويلة ، وقوله تعالى : فِيها يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ أي : فى ليلة الوصال تفرق وتبرز الحكم والمواهب القدسية ، بلا واسطة ، بل أمرا من عندنا ، والغالب أن هذه الحالة لا تكون إلا عند الحيرة والشدة من الفاقة أو غيرها ، وكان بعض العارفين من أشياخنا

يستعدون فيها لكتب المواهب ، ويسمونها ليلة القدر.

وقوله تعالى : إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ، رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ هو الرّسول صلّى اللّه عليه وسلم قال : «أنا الرّحمة المهداة» «٣» ، فرحمة مفعول به ، إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ

. قال القشيري : السميع لأنين المشتاقين ، العليم بحنين المحبين. هـ. لا إِلهَ إِلَّا هُوَ أي : لا يستحق أن يتأله ويعشق إلا هو ، يُحْيِي وَيُمِيتُ يحيى قلوب قوم بمعرفته ومحبته ، ويميت قلوبا بالجهل والبعد ، يفعل ما يشاء ، ويحكم ما يريد. ثم وصف أهل الجهل والبعد بقوله : بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ ، وأما أهل المعرفة والقرب فهم فى حضرة محبوبهم يتنعمون ، ومن روح وصاله يتنسمون. قال القشيري : واللعب يجرى على غير ترتيب ، تشبيها باللعاب الذي يسيل لا على نظام مخصوص ، ووصف الكافر باللعب لتردده وشكّه وتحيّره فى عقيدته. هـ.

---

(١) فى القشيري : يتنعم.

(٢) فى القشيري :

لا أظلم الليل ولا أدعى أن نجوم الليل ليست تزول

ليلى كما شاءت قصير إنا جاءت ، وإن ضنت فليلى طويل

ونسب البيتان فى زهرة الآداب (٣/ ٨٤) إلى علىّ بن خليل.

(٣) أخرجه البراز (٢/ ٢١٧) والطبراني فى الصغير (١/ ٩٥) والحاكم (١/ ٣٥) «وصححه» والقضاعي (١/ ١٨٩ - ١٩٠) عن أبى صالح عن أبى هريرة. وأخرجه عن أبى صالح مرسلا ، الدارمي فى (المقدمة ، باب كيف كان أول شأن النّبى صلّى اللّه عليه وسلم ، ح ١٥) والبيهقي فى الشعب (ح ١٤٤٦) والحديث صحّحه الألبانى فى تخريج المشكاة (٣/ ١٦١٥). [.....]

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٢٨١

ثم هددهم بقوله :

[سورة الدخان (٤٤) : الآيات ١٠ الى ١٦]

فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّماءُ بِدُخانٍ مُبِينٍ (١٠) يَغْشَى النَّاسَ هذا عَذابٌ أَلِيمٌ (١١) رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ (١٢) أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرى وَقَدْ جاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ (١٣) ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ (١٤)

إِنَّا كاشِفُوا الْعَذابِ قَلِيلاً إِنَّكُمْ عائِدُونَ (١٥) يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ (١٦)

يقول الحق جل جلاله : فَارْتَقِبْ فانتظر يَوْمَ تَأْتِي السَّماءُ بِدُخانٍ مُبِينٍ ، قال عليّ وابن عباس وابن عمر والحسن – رضي اللّه عنهم – : هو دخان يجيء قبل يوم القيامة ، يصيب المؤمن منه مثل الزّكام ، وينضج رؤوس المنافقين والكافرين ، حتى تكون كأنها مصليّة حنيذة «١» ، وتكون الأرض كلها كبيت أوقد فيه نار ، ليس فيه خصاص «٢» ، ويؤيد هذا حديث حذيفة : «أول الآيات الدخان ، ونزول عيسى ، ونار تخرج من عدن ، تسوق النّاس إلى المحشر ، تقيل معهم إذا قالوا ...» الحديث «٣» ، انظر الثعلبي.

وأنكر هذا ابن مسعود ، وقال : هذا الدخان قد رأته قريش حين دعا عليهم النّبى صلّى اللّه عليه وسلم بسبع كسبع يوسف ، فكان الرّجل يرى من الجوع دخانا بينه وبين السماء «٤». ويؤيده ما يأتى بعده.

وقوله مُبِينٍ أي : ظاهر لا يشك أحد أنه دخان ، يَغْشَى النَّاسَ أي : يحيط بهم ، حتى كان الرّجل يحدّث الرّجل ، ويسمع كلامه ، ولا يراه من الدخان ، أي : انتظر يوم شدة ومجاعة فإن الجائع يرى بينه وبين السماء كهيئة الدخان ، إما لضعف بصره ، أو لأن عام القحط يظلم الهواء لقلة الأمطار ، أو كثرة الغبار ، هذا عَذابٌ أَلِيمٌ أي : قائلين هذا عذاب أليم.

ولما اشتد بهم القحط ، مشى أبو سفيان ، ونفر معه إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم وناشده اللّه – تعالى – والرّحم ، وواعدوه إن دعا لهم ، وكشف عنهم ، أن يؤمنوا ، وذلك قوله تعالى : رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ أي : سنؤمن إن

---

(١) المصليّة والحنيذة : المشوية.

(٢) الخصاص : الفرج والخرق فى البناء أو الباب ونحوه ، راجع اللسان (خصص ٢/ ١١٧٣) والخبر أخرجه الطبري (٢٥/ ١١٣).

(٣) أخرجه البغوي فى تفسيره (٧/ ٢٣٠) من حديث حذيفة بن اليمان ، وأخرجه الطبري (٢٥/ ١١٤) بذكر كلمة (الدجال) بدل (الدخان).

(٤) معنى ما أخرجه البخاري فى (التفسير ، سورة حم الدخان ، باب أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرى وَقَدْ جاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ ح ٤٨٢٣) ومسلم (فى صفات المنافقين ، باب الدخان ح ٢٧٩٨) (٣٩). ولفظه كما عند البخاري : قال عبد اللّه : «إن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم لما دعا قريشا كذبوه واستعصوا عليه ، فقال : اللهم أعنى عليه بسبع كسبع يوسف. فأصابهم سنة حصت كلّ شيء ، حتى كانوا يأكلون الميتة وكان يقوم أحدهم ، فكان يرى بينه وبين السماء مثل الدخان ، من الجهد والجوع. ثم قرأ : فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّماءُ بِدُخانٍ مُبِينٍ ، يَغْشَى النَّاسَ هذا عَذابٌ أَلِيمٌ حتى بلغ : إِنَّكُمْ عائِدُونَ قال عبد اللّه : أفيكشف عنهم العذاب يوم القيامة؟ قال : والبطشة الكبرى يوم بدر».

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٢٨٢

كشف عنا العذاب ، قال تعالى : أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرى أي : كيف يذّكرون ويتعظون ويفون بما وعدوه من الإيمان عند كشف العذاب ، وَقَدْ جاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ أي : والحال أنهم يشاهدون من دواعى التذكير وموجبات الاتعاظ ، ما هو أعظم منه ، حيث جاءهم رسول عظيم الشأن ، بيّن البرهان ، يبين لهم مناهج الحق بإظهار آيات ظاهرة ، ومعجزات قاهرة ، تخرّ لها صمّ الجبال.

ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ أي : عن ذلك الرّسول ، بعد ما شاهدوا من العظائم ما يوجب الإقبال عليه ، ولم يقنعوا بالتولى ، بل اقترفوا ما هو أشنع ، وَقالُوا فى حقه عليه السّلام : مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ أي : قالوا تارة معلّم يعلمه غلام أعجمى لبعض ثقيف ، وتارة مجنون ، أو : يقول بعضهم كذا ، وبعضهم كذا ، وكيف يتوقع من قوم هذه صفتهم أن يتأثروا بالعظة والتذكير؟! قال تعالى : إِنَّا كاشِفُوا الْعَذابِ قَلِيلًا أي : زمنا قليلا ، أو كشفا قليلا ، إِنَّكُمْ عائِدُونَ إلى الكفر ، الذي أنتم فيه ، أو : إلى العذاب بعد صرف الدخان ، على القول الأول ، يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرى يوم بدر ، أو يوم القيامة ، إِنَّا مُنْتَقِمُونَ أي : ننتقم منهم فى ذلك اليوم. وانتصاب يَوْمَ نَبْطِشُ باذكر أو بما دلّ عليه (إنا منتقمون) ، وهو ننتقم ، لا بمنتقمون ، لأن ما بعد «إن» لا يعمل فيما قبله.

الإشارة : فارتقب أيها العارف يوم تأتى السماء بدخان مبين ، أي : يوم يبرز من سماء الغيوب بدخان الحس ، وظلمة الأسباب تغشى قلوب النّاس ، فتحجبهم عن شمس العرفان ، هذا عذاب أليم موجع للقلوب ، حيث حجبها عن حضرة علام الغيوب. وأما العارف فشمسه ضاحية ، ونهاره مشرق على الدوام ، كما قال شاعرهم :

ليلى بوجهك مشرق وظلامه فى النّاس سار

الناس فى سدف الظّلام ونحن فى ضوء النّهار

وقال آخر :

طلعت شمس من أحب بليل فاستنارت فما تلاها غروب

إن شمس النّهار تغرب بليل وشمس القلوب ليست تغيب «١»

قال القشيري : قيامة هؤلاء – أي الصوفية – معجّلة لهم ، يوم تأتى السماء فيه بدخان مبين ، وهو باب غيبة الأخبار ، وانسداد باب ما كان مفتوحا من الأنس بالأحباب. قلت : وأحسن من عبارته أن تقول : وهو باب غيبة الأنوار ، وانسداد منبع الأسرار. ثم قال : وفى معناه قالوا :

---

(١) البيتان من الخفيف ، وهما للحلاج ، كما فى ديوانه/ ٢٣ تحقيق د/ كامل الشيبى. وصلة تاريخ الطبري ١١/ ٨٧.

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٢٨٣

فلا الشمس شمس تستنير ولا الضحى يطلق ولا ماء الحياة بارد. هـ. «١»

وقوله تعالى : رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذابَ قال القشيري : وقد يستزيد هؤلاء العذاب على العكس من أحوال الخلق ، وفى ذلك أنشدوا :

وكلّ مآربى قد نلت منها سوى ملك ودّ قلبى بالعذاب «٢»

فهم يسألون البلاء بدل ما يستكشفه الخلق ، وأنشدوا :

أنت البلاء فكيف أرجو كشفه إنّ البلاء إذا فقدت بلائي. هـ.

قلت : وأصرح منه : قال الشاعر :

يا من عذابى عذب فى محبّته لا أشتكى منك لا صدّا ولا مللا

وقول الجيلاني «٣» – رضي اللّه عنه :

تلذّ لى الآلام إذ كنت مسقمى وإن تختبرني فهى عندى صنائع

تحكّم بما تهواه فىّ فإننى فقير لسلطان المحبة طائع

قوله تعالى : أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرى أي : كيف يتعظ من تنكب عن صحبة الرّجال ، وملأ قلبه بالخواطر والأشغال؟ وقد جاءهم من يدعوهم إلى الكبير المتعال ، فأنكروه ، وقالوا : معلّم مجنون ، إنا كاشفوا العذاب عن قلوبهم من الشكوك والخواطر قليلا ، حين يتوجهون إلينا ، ويفزعون إلى بابنا ، أو يسمعون من بعض أوليائنا ، ثم تكثر عليهم الخواطر ، حين تنقشع عنهم سحابة أمطار الواردات من قلوب أوليائنا ، إنكم عائدون إلى ما كنتم عليه ، يوم نبطش البطشة الكبرى ، هى خطفة الموت ، فلا ينفع فيها ندم ولا رجوع ، بل يورثهم حزنا طويلا ، فلا يجدون فى ظلال انتقامنا مقيلا ، فننتقم ممن أعرض بسريرته عن دوام رؤيتنا.

---

(١) هكذا فى الأصول ، أما فى لطائف الإشارات ، فالشطر الأول فيه : [فما جانب الدنيا بسهل ولا الضحى].

والبيت لأبى تمام ، فى رثاء خالد بن يزيد. انظر ديوان أبى تمام (٤/ ٧٢).

(٢) هكذا فى الأصول ، والشطر الثاني فى القشيري وغيره من المصادر والمذكورة بعد : [سوى ملذوذ وجدى بالعذاب].

هذا ، والبيت جاء منسوبا للحلاج فى ديوانه (قسم أعشار نسبت للحلاج ص ٦٨) وتاريخ بغداد (٨/ ١١٦) ، كما نسب البيت فى الكواكب الدرية (٤٤) والفتوحات المكية (٣/ ١٨٥) لأبى يزيد

البسطامي.

(٣) الشيخ عبد الكريم الجيلي فى عينيته (ص ٥٠ – ٥١).

(٢٨٣/٥)

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٢٨٤

ثم ذكر وبال من سلك مسلكهم ، فقال :

[سورة الدخان (٤٤) : الآيات ١٧ الى ٢٤]

وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ (١٧) أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٨) وَأَنْ لا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطانٍ مُبِينٍ (١٩) وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ (٢٠) وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ (٢١)

فَدَعا رَبَّهُ أَنَّ هؤُلاءِ قَوْمٌ مُجْرِمُونَ (٢٢) فَأَسْرِ بِعِبادِي لَيْلاً إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ (٢٣) وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْواً إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ (٢٤)

يقول الحق جل جلاله : وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قبل هؤلاء المشركين ، قَوْمَ فِرْعَوْنَ أي : امتحناهم بإرسال موسى عليه السّلام ، أو : أوقعناهم فى الفتنة بالإمهال وتوسيع الأرزاق ، أو فعلنا بهم فعل المختبر ليظهر ما كان باطنا ، وَجاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ موسى عليه السّلام ، أي : كريم على اللّه ، أو على المؤمنين ، أو فى نفسه حسيب نسيب ، لأن اللّه – تعالى – لم يبعث نبيا إلا من سادات قومه : أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبادَ اللَّهِ أي : بأن أدوا إلىّ ، أي : ادفعوا عباد اللّه ، وهم بنو إسرائيل ، بأن ترسلوهم معى ، فكانت دعوة موسى لفرعون بعد الإقرار بالتوحيد إرسال بنى إسرائيل من يده ، أو : بأن أدوا إلىّ يا عباد اللّه ما يجب عليكم من الإيمان ، وقبول الدعوة ، فالعباد على هذا عام. ف «إن» مفسرة لأن مجيء الرّسل لا يكون إلا بدعوة ، وهى تتضمن القول ، أو مخففة ، أي : جاءهم بأن الشأن أدوا إلىّ ، و«عباد اللّه» على الأول : مفعول به ، وعلى الثاني : منادى ، إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ تعليل للأمر ، أو لوجوب المأمور ، أي : رسول غير ظنين ، قد ائتمنني اللّه على وحيه ، وصدّقنى بالمعجزات القاهرة.

وَأَنْ لا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ أي : لا تتكبروا على اللّه بالاستهانة بوحيه وبرسوله أو : لا تتكبروا على نبىّ اللّه ، إِنِّي آتِيكُمْ من جهته تعالى بِسُلْطانٍ مُبِينٍ بحجة واضحة ، لا سبيل إلى إنكارها ، تدل على نبوتى. وفى إيراد الأداء مع الأمين ، والسلطان مع العلو ، من الجزالة ما لا يخفى ، وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أي : التجأت إليه ، وتوكلت عليه ، أَنْ تَرْجُمُونِ ، من أن ترجمون ، أي : تؤذوننى ضربا وشتما ، أو تقتلونى رجما.

قيل : لما قال : وَأَنْ لا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ توعدوه بالرجم ، فتوكّل على اللّه ، واعتصم به ، ولم يبال بما

توعدوه.

وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ أي : وإن كابرتم ولم تذعنوا لى ، فلا موالاة بينى وبين من لا يؤمن ، فتنحوا عنى ، أو : فخلّونى كفافا لا لى ولا علىّ ، ولا تتعرضوا لى بشرّكم وأذاكم ، فليس ذلك جزاء من دعاكم إلى ما فيه فلاحكم ، قال أبو السعود : وحمله على قطع الوصلة وعدم الموالاة بينه وبينهم ، يأباه المقام.

(٢٨٤/٥)

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٢٨٥

فَدَعا رَبَّهُ بعد ما تمادوا على تكذيبه ، شاكيا إلى ربه : أَنَّ هؤُلاءِ أي : بأن هؤلاء ، قَوْمٌ مُجْرِمُونَ ، وهو تعريض بالدعاء عليهم ، بذكر ما استوجبوه ، ولذلك سمى دعاء ، وقيل : كان دعاؤه :

اللهم عجّل لهم ما يستوجبونه بإجرامهم ، وقيل : هو قوله : أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ «١» وقيل : قوله : لا تَجْعَلْنا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ «٢» ، وقرىء بالكسر «٣» على إضمار القول. قال تعالى له – بعد : فَأَسْرِ بِعِبادِي لَيْلًا ، والفاء تؤذن بشرط محذوف ، أي : إن كان الأمر كما تقول فَأَسْرِ بِعِبادِي بنى إسرائيل لَيْلًا إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ أي : دبّر اللّه أن تتقدموا ، ويتبعكم فرعون وجنوده ، فننجّى المتقدمين ، ونغرق الباقين ، وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْواً ساكنا على حالته بعد ما جاوزته ، ولا تضربه بعصاك لينطبق ، ولا تغيره عن حاله ليدخله القبط ، أراد موسى عليه السّلام لمّا جاوزه أن يضربه بعصا لينطبق ، فأمره أن يتركه ساكنا على هيئته «٤» ، قارا على حالته ، من انتصاب الماء كالطود العظيم ، وكون الطريق يبسا لا يغير منه شيئا ، ليدخله القبط ، فإذا دخلوا فيه أطبقه اللّه عليهم ، فالرهو فى كلام العرب :

السكون ، قال الشاعر :

طير رأت بازيا نضح الدّعاء به وأمّة خرجت رهوا إلى عيد

أي : ساكنة ، وقيل : الرهو : الفرجة الواسعة ، أي : اتركه مفتوحا على حاله منفرجا ، إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ بعد خروجكم من البحر. وقرئ بالفتح ، أي : لأنهم.

الإشارة : كل زمان له فراعين ، يحبسون النّاس عن طريق اللّه ، وعن خدمته ، فيبعث اللّه إليهم من يذكّرهم ، ويأمرهم بتخلية سبيلهم ، أو بأداء الحقوق الواجبة عليهم ، فإذا كذّب الداعي ، قال : وإن لم تؤمنوا فاعتزلون ، فاذا أيس من إقبالهم دعا عليهم ، فيغرقون فى بحر الهوى ، ويهلكون فى أودية الخواطر. وباللّه التوفيق.

ثم حضّ على الاعتبار ، فقال :

[سورة الدخان (٤٤) : الآيات ٢٥ الى ٣٣]

كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٢٥) وَزُرُوعٍ وَمَقامٍ كَرِيمٍ (٢٦) وَنَعْمَةٍ كانُوا فِيها فاكِهِينَ (٢٧) كَذلِكَ وَأَوْرَثْناها قَوْماً آخَرِينَ (٢٨) فَما بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّماءُ وَالْأَرْضُ وَما كانُوا مُنْظَرِينَ (٢٩) وَلَقَدْ نَجَّيْنا بَنِي إِسْرائِيلَ مِنَ الْعَذابِ الْمُهِينِ (٣٠) مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كانَ عالِياً مِنَ الْمُسْرِفِينَ (٣١) وَلَقَدِ اخْتَرْناهُمْ عَلى عِلْمٍ عَلَى الْعالَمِينَ (٣٢) وَآتَيْناهُمْ مِنَ الْآياتِ ما فِيهِ بَلؤُا مُبِينٌ (٣٣)

---

(١) الآية ١٠ من سورة القمر.

(٢) الآية ٨٥ من سورة يونس.

(٣) قرأ «إن هؤلاء» بالكسر ابن أبى إسحاق وعيسى والحسن فى رواية ، وزيد بن علىّ. انظر مختصر ابن خالويه (ص ١٣٨) والبحر المحيط (٨/ ٣٦).

(٤) قاله قتادة فيما أخرجه ابن جرير (٢٥/ ١٢١).

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٢٨٦

يقول الحق جل جلاله : كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ أي : كثيرا ما ترك فرعون وجنوده بمصر من بساتين. روى أنها كانت متصلة بضفتى النّيل جميعا ، من رشيد إلى أسوان ، (و عيون) يحتمل أن يريد الخلجان ، شبهها بالعيون ، أو كانت ثمّ عيون وانقضت ، وَزُرُوعٍ أي : مزارع ، وَمَقامٍ كَرِيمٍ ، محافل مزينة ، ومنازل محسّنة ، وسماه كريما لأنه مجلس الملوك ، وقيل : المنابر ، وَنَعْمَةٍ أي : بسطة ولذاذة عيش وتنعّم ، كانُوا فِيها فاكِهِينَ أي : متنعّمين فرحين مسرورين.

وفى المشارق : النعمة – بالفتح : التنعم ، وبالكسر : اسم ما أنعم اللّه به على عباده ، قال ابن عطية : النعمة – بالفتح : غضاوة العيش ، ولذاذة الحياة ، والنّعمة – بالكسر : أعم من هذا كله ، وقد تكون الأمراض والمصائب نعما ، ولا يقال فيها نعمة بالفتح. هـ. فانظره.

كَذلِكَ ، أي : الأمر كذلك ، فالكاف فى محل الرّفع ، على أنه خبر عن مضمر ، أو نصب على أنه مصدر لمحذوف يدل عليه : (تركوا) أي : مثل ذلك السلب سلبناهم إياها ، وَأَوْرَثْناها قَوْماً آخَرِينَ ليسوا منهم فى شىء فى قرابة ولا دين ، ولا ولاء ، وهم بنو إسرائيل ، بأن تولوا أحكامها والتصرف فيها. وقال الحسن : رجعوا بعد هلاك فرعون إلى مصر ، نظيره : وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كانُوا يُسْتَضْعَفُونَ ... «١» الآية ، ومثله عن القرطبي والبيضاوي ، وكذلك فى نوادر الأصول ، وقد تقدم الكلام عليه فى الشعراء «٢». وفى الآية اعتبار واستبصار ، وتنبيه للعاقل على عدم الاغترار ، وسيأتى فى الإشارة ما فيه كفاية نظما ونثرا.

فَما بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّماءُ وَالْأَرْضُ ، مجاز عن عدم الاكتراث بهلاكهم ، والاعتداد بوجودهم ، وفيه تهكم بهم ، وبحالهم المنافية ، بحال من يعظم فقده ، فيقال : بكت عليهم السماء والأرض ، وكانت العرب إذا عظّمت مهلك رجل قالوا : بكته الرّيح والبرق والسماء ، قال الشاعر :

---

(١) من الآية ١٣٧ من سورة الأعراف.

(٢) عند تفسير الآية ٥٩ من سورة الشعراء. [.....]

الرّيح تبكى شجوها والبرق يلمع فى الغمامه «١»

وقال جرير ، يرثى عمر بن عبد العزيز :

فالشّمس طالعة ليست بكاسفة تبكى عليك نجوم اللّيل والقمرا

حمّلت أمرا عظيما فاصطبرت له وقمت فينا بأمر اللّه يا عمرا «٢».

وقيل : البكاء حقيقة ، وأن المؤمن تبكى عليه من الأرض مصلّاه ، ومحل عبادته ، ومن السماء مصعد عمله ، كما فى الحديث «٣» ، وإذا مات العالم بكت عليه حيتان البحر ، ودوابه ، وهوام البر وأنعامه ، والطير فى الهواء ، وهؤلاء لمّا ماتوا كفارا لم يعبأ الوجود بفقدهم ، بل يفرح بهلاكهم. وَما كانُوا لمّا جاء وقت هلاكهم مُنْظَرِينَ ممهلين إلى وقت آخر ، أو إلى الآخرة ، بل عجّل لهم فى الدنيا.

وَلَقَدْ نَجَّيْنا بَنِي إِسْرائِيلَ لما فعلنا بفرعون وقومه ما فعلنا مِنَ الْعَذابِ الْمُهِينِ ، من استعباد فرعون إياهم ، وقتل أبنائهم ، واستحياء نسائهم ، مِنْ فِرْعَوْنَ ، بدل من العذاب المهين بإعادة الجار ، كأنه فى نفسه كان عذابا مهينا ، لإفراطه فى تعذيبهم وإهانتهم ، أو خبر عن مضمر ، أي : ذلك من فرعون ، وقرئ «من فرعون» «٤» على معنى : هل تعرفونه من هو فى عتوه وتفرعنه؟ وفى إبهام أمره أولا ، وتبيينه بقوله تعالى : إِنَّهُ كانَ عالِياً مِنَ الْمُسْرِفِينَ ثانيا ، من الإفصاح عن كنه أمره فى الشر والفساد مما لا مزيد عليه ، وقوله تعالى : مِنَ الْمُسْرِفِينَ إما خبر ثان ، أي : كان متكبرا مسرفا ، أو حال من الضمير فى «عاليا» ، أي : كان رفيع الطبقة من بين المسرفين ، فائقا لهم ، بليغا فى الإسراف.

---

(١) هذا البيت من أبيات قالها ابن المفرّغ فى بيعه جارية تسمى «الأراكة» وغلاما يسمى «بردا» ، وكانا أعز عليه من نفسه ، وقد رغمه عباد بن زياد على بيعهما ، ومن أبيات ابن المفرغ هذه :

والعبد يقرع بالعصا والحرّ تكفيه الملامة

والقصة فى خزانة الأدب.

(٢) انظر ديوان جرير/ ٢٣٥. وأمالى المرتضى (١/ ٥٢).

(٣) أخرج ابن جرير فى التفسير (٢٥/ ١٢٤) من حديث ابن عباس رضي اللّه عنه موقوفا : «ليس أحد من الخلائق إلا له باب فى السماء ، منه ينزل رزقه وفيه يصعد عمله ، فإذا مات المؤمن فأغلق بابه من السماء فقده فبكى عليه ، وإذا فقد مصلاه من الأرض التي كان يصلى فيها ، ويذكر اللّه فيها ، بكت عليه ، وإن آل فرعون لم يكن لهم فى الأرض آثار صالحة ، ولم يكن يصعد إلى اللّه منهم خير ، فلم تبك عليهم السماء والأرض».

وأخرج الترمذي فى (التفسير – سورة الدخان ح ٣٢٥٥) وأبو يعلى فى مسنده (٤/ ١٥٧) والبغوي فى التفسير (٧/ ٢٣٢) والخطيب فى تاريخ بغداد (٨/ ٣٢٧) عن أنس بن مالك مرفوعا : «ما من مؤمن إلا وله بابان ، باب يصعد منه عمله ، وباب ينزل منه رزقه ، فإذا مات بكيا عليه ، ذلك قوله عز وجل : فَما بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّماءُ وَالْأَرْضُ ، قال الترمذي : حديث غريب لا نعرفه مرفوعا إلا من هذا الوجه». وانظر مجمع الزوائد ٧/ ١٠٥.

(٤) على الاستفهام. عزاها أبو حيان لابن عباس رضي اللّه عنه ، انظر البحر المحيط ٨/ ٣٨.

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٢٨٨

وَلَقَدِ اخْتَرْناهُمْ أي : بنى إسرائيل عَلى عِلْمٍ أي : عالمين بأنهم أحقاء بالاختيار ، أو عالمين بأنهم يزيغون فى بعض الأوقات ، ويكثر منهم الفرطات ، فلم يؤثر ذلك فى سوابق علمنا ، ليعلم أن الجنايات لا تؤثر فى الرعايات ، عَلَى الْعالَمِينَ أي : عالمى زمانهم ، لما كثر فيهم من الأنبياء ، وَآتَيْناهُمْ مِنَ الْآياتِ ، كفلق البحر ، وتظليل الغمام ، وإنزال المن والسلوى ، وغيرها من عظائم الآيات ، ما فِيهِ بَلؤُا مُبِينٌ نعمة ظاهرة ، أو :

اختبار ظاهر ، لينظر كيف يعملون ، وقيل : البلاء المبين هو المطالبة بالشكر عند الرّضا ، والصبر عند الكدر والعناء.

الإشارة : كم ترك أهل الغفلة والاغترار ، من جنات وعيون ، وزروع ومقام كريم ، من قصور وديار ، فارقوها ، أخصب ما كانوا فيها ، وأزعجوا عنها أحوج ما كانوا إليها ، استبدلوا سعة القصور بضيق اللحود والقبور ، ومحاسن الملابس والتيجان بعصائب الخرق والأكفان ، فيا من ركن إلى الدنيا ، انظر كيف تفعل بأهلها ، فرحم اللّه عبدا أخذ من الدنيا الكفاف ، وصاحب فيها العفاف ، وتزود للرحيل ، وتأهب للمسير.

ذكر الطرطوسي فى كتابه «سراج الملوك» : قال أبو عبد اللّه بن حمدون : كنت مع المتوكل ، لما خرج إلى دمشق ، فركب يوما إلى رصافة «هشام بن عبد الملك» فنظر إلى قصورها خاوية ، ثم خرج فنظر إلى دير هناك قديم ، حسن البناء ، بين مزارع وأشجار ، فدخله ، فبينما هو يطوف به ، إذ بصر برقعة قد التصقت بصدره ، فأمر بقلعها ، فإذا فيها مكتوب هذه الأبيات :

أيا منزلا بالدّير أصبح خاليا تلاعب فيه شمأل ودفور

كأنّك لم يسكنك بيض نواعم ولم يتبختر فى قبابك حور

وأبناء أملاك غواشم سادات صغيرهم عند الأنام كبير

إذا لبسوا أدراعهم فعوابس وإن لبسوا تيجانهم فبدور

على أنّهم يوم اللّقاء ضراغم وأنّهم يوم النّوال بحور

ليالى هشام بالرّصافة قاطن وفيك ابنه يا دير وهو أمير.

إلى أن قال :

بلى فسقاك الغيث صوب سحائب عليك بها بعد الرّواح بكور

تذكّرت قومى فيكما فبكيتهم بشجو ومثلى بالبكاء جدير

فعزيت نفسى وهى نفس إذا جرى لها ذكر قومى أنّة وزفير

(٢٨٨/٥)

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٢٨٩

فلما قرأها المتوكّل ارتاع ، ثم دعا صاحب الدير ، فسأله : من كتبها؟ فقال : لا علم لى ، وانصرف هـ.

ومن هذا القبيل ما وجد مكتوبا على باب «كافور الإخشيدى» بمصر :

انظر إلى عبر الأيّام ما صنعت أفنت أناسا بها كانوا وما فنيت

ديارهم ضحكت أيّام دولتهم فإذا خلت منهم صاحتهم وبكت

ومن هذا أيضا ما وجد على قصر «ذى يزن» مكتوبا :

باتوا على قلل الأجبال تحرسهم غلب الرّجال فلم تمنعهم القلل

واستنزلوا من أعالى عز معقلهم فأسكنوا حفرا ، يا بئس ما نزلوا

أين الوجوه التي كانت محجّبة من دونها تضرب الأستار والكلل؟

فأفصح القبر عنهم حين سائلهم تلك الوجوه عليها الدود تقتبل

قد طال ما أكلوا دهرا وما شربوا فأصبحوا بعد طول الأكل قد أكلوا

وحاصل الدنيا ما قال الشاعر :

ألا إنّما الدنيا كأحلام نائم وما خير عيش لا يكون بدائم «١»؟!
تأمّل إذا ما نلت بالأمس لذّة فأفينتها هل أنت إلا كحالم؟!
هذه فكرة اعتبار ، وأما فكرة استبصار ، فما ثمّ إلا تصرفات الحق ، ومظاهر أسرار ذاته ، وأنوار صفاته ، ظهرت فى عالم الحكمة بالأشكال والرّسوم ، وأما فى عالم القدرة فما ثمّ إلا الحي القيوم.
تجلّى حبيبى فى مرائى جماله ففى كلّ مرئىّ للحبيب طلائع
فلمّا تبدّى حسنه متنوّعا تسمّى بأسماء فهن مطالع «٢»
وقوله تعالى : فَما بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّماءُ وَالْأَرْضُ يفهم منه : أن من عظم قدره تبكى على فقده السموات والأرض ومن فيهن ، فى عالم الحس ، الذي هو عالم الأشباح ، وتفرح به أهل السموات السبع فى عالم الأرواح

---

(١) ورد : وكلّ نعيم فيها ليس بدائم.
(٢) البيتان للجيلى. انظر : النادرات العينية/ ٦٩.

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٢٩٠
لتخلصه إليها ، فيستبشر بقدومه كلّ من هنالك ، وينظر اللّه إلى خلقه بعين الرّحمة ، فيرتحم ببركة قدومه الوجود بأسره. واللّه ذو الفضل العظيم.
وقوله تعالى : وَلَقَدِ اخْتَرْناهُمْ عَلى عِلْمٍ قال القشيري : ويقال : على علم بمحبة قلوبهم لنا مع كثرة ذنوبهم فينا ، ويقال : على علم بما نودع عندهم من أسرارنا ، ونكاشفهم به من حقائق حقنا.
وقال الورتجبي : وَلَقَدِ اخْتَرْناهُمْ عَلى عِلْمٍ أي : على علم بصفاتنا ، ومعرفة بذاتنا ، ومشاهدة على أسرارنا ، وبيان على معرفة العبودية والرّبوبية ، ودقائق الخطرات والقهريات واللطيفات فى زمان المراقبات. هـ.
وقال الواسطي : اخترناهم على علم منا بجنايتهم ، وما يقترفون من أنواع المخالفات ، فلم يؤثر ذلك فى سوابق علمنا لهم ، ليعلم أن الجنايات لا تؤثر فى الرّعايات. وقال الجرّار : علمنا ما أودعنا فيهم من خصائص سرنا ، فاخترناهم بعلمنا على العالمين. هـ. قلت : والمقصود بالذات : بيان أن اختياره – تعالى – مرتب على سابق علمه الأزلى ، وعلمه – تعالى – لا تغيره الحوادث ، وقد انقطعت دولة بنى إسرائيل ، فما بقي الكلام إلا مع الملة المحمدية.
ثم ردّ على من أنكر البعث ، بعد أن ذكر بعض أشراطه ، كالدخان وغيره ، فقال :

[سورة الدخان (٤٤) : الآيات ٣٤ الى ٣٩]

إِنَّ هؤُلاءِ لَيَقُولُونَ (٣٤) إِنْ هِيَ إِلاَّ مَوْتَتُنَا الْأُولى وَما نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ (٣٥) فَأْتُوا بِآبائِنا إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (٣٦) أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْناهُمْ إِنَّهُمْ كانُوا مُجْرِمِينَ (٣٧) وَما خَلَقْنَا السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما لاعِبِينَ (٣٨)

ما خَلَقْناهُما إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٣٩)

يقول الحق جل جلاله : إِنَّ هؤُلاءِ يعنى كفار قريش لأن الكلام معهم ، وقصة فرعون مسوقة للدلالة على مماثلتهم فى الإصرار على الضلالة ، والتحذير من حلول مثل ما حلّ بهم ، لَيَقُولُونَ إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولى أي : ما العاقبة ونهاية الأمر إلا الموتة الأولى ، المزيلة للحياة الدنيوية ، ولا قصد فيه لإثبات موتة أخرى ، كقولك : حج زيد الحجة الأولى ومات ، أو : ما الموتة التي تعقبها حياة إلا الموتة الأولى ، التي تقدمت وجودنا ، كقوله : وَكُنْتُمْ أَمْواتاً فَأَحْياكُمْ «١» كأنهم لما قيل لهم : إنكم تموتون موتة تعقبها حياة ، كما تقدمتكم كذلك ، أنكروها ، وقالوا : ما هى إلا موتتنا الأولى ، وأما الثانية فلا حياة تعقبها ، أو : ليست الموتة إلا هذه الموتة ، دون الموتة

---

(١) من الآية ٢٨ من سورة البقرة.

التي تعقب حياة القبر كما تزعمون ، وَما نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ بمبعوثين ، فَأْتُوا بِآبائِنا ، خطاب لمن كان بعدهم النّشر ، من الرّسول والمؤمنين ، إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ أي : إن صدقتم فيما تقولون ، فعجّلوا لنا إحياء من مات من آبائنا بسؤالكم ربكم ، حتى يكون دليلا على أن ما تعدونه من البعث حق.

قيل : كانوا يطلبون أن ينشر لهم قصىّ بن كلاب ، ليشاوروه ، وكان كبيرهم ومفزعهم فى المهمات ، قال تعالى : أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ ، ردّ لقولهم وتهديد لهم ، أي : أهم خير فى القوة والمنعة ، اللتين يدفع بهما أسباب الهلاك ، أم قوم تبع الحميرى؟ وكان سار بالجيوش حتى حيّر الحيرة ، وبنى سمرقند ، وقيل : هدمها ، وكان مؤمنا وقومه كافرين ، ولذلك ذمهم اللّه – تعالى – دونه ، وكان يكتب فى عنوان كتابه : بسم اللّه الذي ملك برا وبحرا ومضحا وريحا.

قال القشيري : كان تبع ملك اليمن ، وكان قومه فيهم كثرة ، وكان مسلما ، فأهلك اللّه قومه على كثرة عددهم وكمال قوتهم. هـ. روى عنه عليه السّلام أنه قال : «لا تسبوا تبعا فإنه كان مؤمنا» «١» هـ.

وقيل : كان نبيا ، وفى حديث أبى هريرة عنه صلّى اللّه عليه وسلم قال : «لا أدرى تبعا كان نبيا أو غير

نبى» «٢».

وذكر السهيلي : أن الحديث يؤذن بأنه واحد بعينه ، وهو – واللّه أعلم – أسعد أبو كرب ، الذي كسا الكعبة بعد ما أراد غزوه ، وبعد ما غزا المدينة ، وأراد خرابها ، ثم انصرف عنها ، لما أخبر أنها مهاجر نبى اسمه «أحمد» وقال فيه شعرا ، وأودعه عند أهلها ، فكانوا يتوارثونه كابرا عن كابر ، إلى أن هاجر النّبى صلّى اللّه عليه وسلم فأدوه إليه. ويقال : كان الكتاب والشعر عند أبى أيوب الأنصاري ، حتى نزل عليه النّبى صلّى اللّه عليه وسلم فدفعه إليه ، وفى الكتاب الشعر ، وهو :

شهدت على أحمد «٣» أنه رسول من اللّه بارى النّسم
فلو مدّ عمرى إلى عمره لكنت وزيرا له وابن عم
وألزمت طاعته كلّ من على الأرض ، من عرب وعجم
ولكن قولى له دائما سلام على أحمد فى الأمم

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٥/ ٣٤٠) والبغوي فى التفسير (٧/ ٢٣٤) وزاد السيوطي عزوه فى الدر (٥/ ٧٥٠) للطبرانى وابن أبى حاتم وابن مردويه ، من حديث سهل بن سعد ، وقال ابن حجر فى الكافي الشاف (ص/ ١٤٨) : «وفيه ابن لهيعة عن عمرو بن جابر ، وهما ضعيفان».

(٢) أخرجه الحاكم (١/ ٣٦) والبيهقي فى السنن (٨/ ٣٢٩) والبغوي فى التفسير (٧/ ٢٣٥) وعزاه الحافظ ابن حجر فى الكافي (ص ١٤٨) للثعلبى ، من حديث أبى هريرة ، رضي اللّه عنه ، والحديث صحّحه الحاكم ووافقه الذهبي.

(٣) كلمة «أحمد» ممنوعة من الصرف هذا ، وصرفت هنا لضرورة الشعر.

وذكر الزجاج وابن أبى الدنيا : أنه حفر قبر بصنعاء فى الإسلام ، فوجد فيه امرأتان ، وعند رؤوسهما لوح من فضة ، مكتوب فيه بالذهب اسمهما ، وأنهما بنتا تبع ، تشهدان ألا إله إلا اللّه ، ولا تشركان به شيئا ، وعلى ذلك مات الصالحون قبلهما. هـ «١». ويقال لملوك اليمن : التبابعة لأنهم يتبعون ، ويقال لهم : الأقيال لأنهم يتقيلون. هـ.

وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ : عطف على «قوم تبع» ، والمراد بهم عاد وثمود ، وأضرابهم من كلّ جبار عنيد ، أولى بأس شديد ، أَهْلَكْناهُمْ بأنواع من العذاب إِنَّهُمْ كانُوا مُجْرِمِينَ ، تعليل لإهلاكهم ، ليعلم أن أولئك حيث أهلكوا بسبب إجرامهم مع ما كانوا عليه من غاية القوة والشدة ، فكان مهلك هؤلاء – وهم

شركاؤهم فى الإجرام ، مع كونهم أضعف منهم فى الشدة والقوة – أولى.

قال الطيبي : لما أنكر المشركون الحشر ، بقولهم : (إن هى إلا موتتنا الأولى) وبّخهم بقوله : أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ إيذانا بأن هذا الإنكار ليس عن حجة قاطعة ودليل ظاهر ، بل عن مجرد حب العاجلة ، والتمتع بملاذ الدنيا ، والاغترار بالمال والمآل والقوة والمنعة ، أي : كما فعل بمن سلك قبلهم من الفراعنة والتبابعة حتى هلكوا ، كذلك يفعل بهؤلاء إن لم يرتدعوا.

ثم قرر أن الحشر لا بد منه بقوله : وَما خَلَقْنَا السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما أي : بين الجنسين ، لاعِبِينَ لاهين من غير أن يكون فى خلقهما غرض صحيح ، وغاية حميدة ، جلّ جناب الجلال عن ذلك ، ما خَلَقْناهُما إِلَّا بِالْحَقِّ أي : ما خلقناهما ملتبسا بشيء من الأشياء إلا ملتبسا بالحق ، أو : ما خلقناهما بسبب من الأسباب إلا بسبب الحق ، الذي هو الإيمان والطاعة فى الدنيا ، والبعث والجزاء فى العقبى.

قال الطيبي : وقد سبق مرارا : أنه ما خلقهما إلا ليوحّد ويعبد ، ثم لا بد أن يجزى المطيع والعاصي ، وليست هذه دار الجزاء. وقال ابن عرفه : قوله : إِلَّا بِالْحَقِّ أي : إلا مصاحبين للدلالة على النّشأة الآخرة ، وهى حق. هـ.

وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ أنهن خلقن لذلك ، بل عبثا ، تعالى اللّه عن ذلك.

الإشارة : كانت الجاهلية تنكر البعث الحسى ، والجهلة اليوم ينكرون البعث المعنوي ، ويقولون : إن هى إلا موتتنا الأولى ، أي : موت قلوبنا وأرواحنا بالجهل والغفلة ، فكيف يكون الرّجل منهمكا فى المعاصي ، ميت القلب ، ثم ينقذه اللّه ويحييه بمعرفته ، حتى يصير وليا من أوليائه «من استغرب أن ينقذه اللّه من شهوته ، وأن يخرجه من

---

(١) ذكره القرطبي (٧/ ٦١٥١).

وجود غفلته ، فقد استعجز قدرة الإلهية ، وكان اللّه على كلّ شيء مقتدرا» «١» أهم خير أم قوم تبع؟ وقد أخرج اللّه من قومه أنصار نبيه صلّى اللّه عليه وسلم ، وكانوا من خواص أحبابه ، حتى قال : «الناس دثار والأنصار شعار ، لو سلك النّاس واديا أو شعبا ، وسلكت الأنصار واديا ، لسلكت وادي الأنصار وشعبهم» «٢». وما خلقنا الأجرام العظام إلا لتدل على كمال قدرتنا ، والسّلام.

ثم ذكر شأن البعث الذي أنكرته الجاهلية ، فقال :

[سورة الدخان (٤٤) : الآيات ٤٠ الى ٥٠]

إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقاتُهُمْ أَجْمَعِينَ (٤٠) يَوْمَ لا يُغْنِي مَوْلًى عَنْ مَوْلًى شَيْئاً وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ (٤١) إِلاَّ مَنْ رَحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٤٢) إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ (٤٣) طَعامُ الْأَثِيمِ (٤٤)

كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ (٤٥) كَغَلْيِ الْحَمِيمِ (٤٦) خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلى سَواءِ الْجَحِيمِ (٤٧) ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذابِ الْحَمِيمِ (٤٨) ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ (٤٩)

إِنَّ هذا ما كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ (٥٠)

يقول الحق جل جلاله : إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ أي : فصل الحق عن الباطل ، وتمييز المحق من المبطل ، أو فصل الرّجل عن أقاربه وأحبابه ، وهو يوم القيامة ، مِيقاتُهُمْ أَجْمَعِينَ أي : وقت موعدهم كلهم ، يَوْمَ لا يُغْنِي مَوْلًى عَنْ مَوْلًى شَيْئاً لا يغنى ناصر عن ناصر ، ولا حميم عن حميم ، ولا نسب عن نسيب ، شيئا من الإغناء.

قال قتادة : انقطعت الأسباب يومئذ بابن آدم ، وصار النّاس إلى أعمالهم ، فمن أصاب يومئذ خيرا ، سعد به ، ومن أصاب يومئذ شرا شقى به «٣». هـ. ويَوْمَ : بدل من يوم الفصل ، أو : صفة لميقاتهم ، أو : ظرف لما دلّ عليه الفصل ، أي : يفصل فى هذا اليوم ، وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ يمنعون مما أراد اللّه ، والضمير ل «مولى»

---

(١) حكمة عطائية. انظر الحكم بتبويب المتقى الهندي ، (ص ١٨ ، حكمة ١٩٧).

(٢) أخرجه مطولا البخاري فى (المغازي ، باب غزوة الطائف ، ح ٤٣٣٠) ومسلم فى (الزكاة ، باب إعطاء المؤلفة قلوبهم على الإسلام .. رقم ١٠٦١ ح ٩١٣٩ من حديث عبد اللّه بن زيد ، والشعار هو : الثوب الذي يلى الجسد ، والدثار فوقه ، ومعنى الحديث :

الأنصار هم البطانة والخاصة ، وألصق النّاس بي من سائر للناس.

(٣) أخرجه الطبري ، وزاد السيوطي عزوه فى الدر (٥/ ٧٥١) لعبد بن حميد. [.....]

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٢٩٤

باعتبار المعنى ، لأنه عام ، وقوله : إِلَّا مَنْ رَحِمَ بدل من الواو فى «ينصرون» ، أي : لا يمنع من العذاب إلا من رحم اللّه ، بالعفو عنه ، أو بقبول الشفاعة فيه ، أو : منصوب على الاستثناء المنقطع ، أو : مرفوع على الابتداء ، أي :

لكن من رحم اللَّهُ فيغنى عنه إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الغالب ، الذي لا ينصر من أراد تعذيبه ، الرَّحِيمُ لمن أراد أن

يرحمه.

إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ ، هى على صورة شجرة الدنيا ، لكنها من النّار ، والزقوم تمرها وهو كلّ طعام ثقيل. روى : أنها لما نزلت ، جمع أبو جهل عجوة وزبدا ، وقال لأصحابه : تزقموا ، فهذا هو الزقوم ، وهو طعامى الذي حدّث به محمد «١» ، قصد بذلك المغالطة والتلبيس على الجهلة. أي : إن ثمر شجرة الزقوم هو طَعامُ الْأَثِيمِ أي :

الكثير الإثم ، وهو الكافر لدلالة ما قبله وما بعده عليه. وقيل : نزلت فى أبى جهل ، ثم تعم. وكان أبو الدرداء يقرئ رجلا ، فكان أبو الدرداء يقول : طعام الأثيم ، والرّجل يقول : طعام اليتيم ، فكرر عليه ، فلم يفهم منه فقال :

«طعام الفاجر يا هذا «٢»». قال النّسفى : وبهذا يستدل على أن إبدال الكلمة مكان الكلمة جائز ، إذا كانت مؤدّية معناها ، ومنه أجاز أبو حنيفة رضي اللّه عنه القراءة بالفارسية ، بشرط أن يؤدى القارئ المعاني كلها ، من غير أن يخرم منها شيئا «٣». انظر بقيته.

كَالْمُهْلِ ، وهو دردىّ الزيت «٤» ، أو : ما يمهل فى النّار فيذوب ، من نحاس وغيره ، يَغْلِي فِي الْبُطُونِ من قرأه بالغيب «٥» رده للمهل ، أو للطعام ، ومن قرأه بالتاء رده للشجرة ، كَغَلْيِ الْحَمِيمِ الماء الحار الذي انتهى غليانه ، أي : غليان كغلى الحميم ، فالكاف فى محل نصب ، ثم يقال للزبانية : خُذُوهُ أي :

الأثيم فَاعْتِلُوهُ أي : جروه ، فالعتل : الأخذ بمجامع الشيء والسّوق بالعنف والقهر ، يقال : عتل يعتل بالضم والكسر ، أي : جروه إِلى سَواءِ الْجَحِيمِ وسطها ومعظمها.

---

(١) أخرج سعيد بن منصور عن أبى مالك قال : «إن أبا جهل كان يأتى بالتمر والزبد ، فيقول : تزقموا بهذا الزقوم الذي يعدكم به محمد ، فنزلت : إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ طَعامُ الْأَثِيمِ» انظر الدر المنثور (٥/ ٧٥٢).

(٢) أخرجه الحاكم (٢/ ٤٥١) «وصحّحه وأقره الذهبي» والطبري (٢٥/ ١٣١) وزاد السيوطي عزوه فى الدر (٥/ ٧٥٣) لعبد الرّزاق وعبد بن حميد وابن المنذر ، عن همام بن الحارث.

(٣) قال أحمد بن المنير الإسكندرى فى الانتصاف : لا دليل فيه لذلك ، وقول أبى الدرداء محمول على إيضاح المعنى ، ليكون وضوح المعنى عند المتعلم عونا على أن يأتى بالقراءة كما أنزلت ، وعلى هذا حمله القاضي أبو بكر فى الانتصار. (حاشية الكشاف ٤/ ٢٨١). وانظر أيضا : تفسير القرطبي ٧/ ٦١٥٤).

(٤) الدردي : ما رسب أسفل الزيت ونحوه.

(٥) قرأ ابن كثير وحفص : (يغلى) بالياء على التذكير ، والباقون «تغلى» بالتأنيث. انظر : الإتحاف (٢/ ٤٦٤).

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٢٩٥

ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذابِ الْحَمِيمِ ، المصبوب هو الحميم ، لا عذابه ، إلا أنه إذا صب عليه الحميم ، فقد صب عليه عذابه وشدته : والأصل : ثم صبوا فوق رأسه عذابا هو الحميم ، ثم أضيف العذاب إلى الحميم للمبالغة ، وزيد «من» للدلالة على أن المصبوب بعض هذا النّوع ، ويقال له : ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ على سبيل الهزؤ والتهكم ، روى أن أبا جهل قال لرسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم : ما بين جبليها أعز ولا أكرم منى ، فو اللّه لا تستطيع أنت ولا ربك أن تفعلا بي شيئا «١» ، فتقول له الزبانية هذا على طريق الاستهزاء والتوبيخ. وقرأ الكسائي : «أنك» بالفتح «٢» ، أي : لأنك أنت العزيز فى قومك ، الكريم فى زعمك. إِنَّ هذا ما كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ تشكّون ، وتمارون فيه ، والجمع باعتبار المعنى لأن المراد جنس الأثيم.

الإشارة : يوم الفصل هو اليوم الذي يقع فيه الانفصال بين درجة المقربين ، ومقام عامة أهل اليمين ، فيرتفع المقربون ، ويسقط الغافلون ، فلا يغنى صاحب عن صاحب شيئا ، ولا هم ينصرون من السقوط عن مراتب الرّجال ، فلا ينفع حينئذ إلا ما سلف من صالح الأعمال ، إلا من رحم اللّه ، ممن تعلق بالمشايخ الكبار ، من المريدين ، فإنهم يرتفعون معهم بشفاعتهم. وشجرة الزقوم هى شجرة المعصية فإنها تغلى فى البطون ، وتعوق عن الوصول ، فقد قالوا : من أكل الحرام عصى اللّه ، أحبّ أم كره ، ومن أكل الحلال أطاع اللّه ، أحبّ أم كره ، فيقال : خذوه فادفعوه إلى سواء الجحيم ، وهى نار القطيعة والبعد ، ثم صبوا فوق رأسه من هموم الدنيا ، وشغب الخوض والخواطر ، ذق إنك أنت العزيز الكريم ، ولو كنت ذليلا خاملا لنلت العز والكرامة. وباللّه التوفيق.

ثم شفع بضدهم ، فقال :

[سورة الدخان (٤٤) : الآيات ٥١ الى ٥٩]

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقامٍ أَمِينٍ (٥١) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٥٢) يَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقابِلِينَ (٥٣) كَذلِكَ وَزَوَّجْناهُمْ بِحُورٍ عِينٍ (٥٤) يَدْعُونَ فِيها بِكُلِّ فاكِهَةٍ آمِنِينَ (٥٥)

لا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلاَّ الْمَوْتَةَ الْأُولى وَوَقاهُمْ عَذابَ الْجَحِيمِ (٥٦) فَضْلاً مِنْ رَبِّكَ ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٥٧) فَإِنَّما يَسَّرْناهُ بِلِسانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٥٨) فَارْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ (٥٩)

---

(١) أخرجه الطبري (٢٥/ ١٣٤) وعزاه السيوطي فى الدر (٥/ ٧٥٣) لعبد الرّزّاق ، وعبد بن حميد ، وابن المنذر ، عن قتادة.

(٢) على العلة ، وقرأ الباقون بكسرها .. انظر الاتحاف ٢/ ٤٦٤.

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٢٩٦

يقول الحق جل جلاله : إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقامٍ ، بضم الميم «١» : مصدر ، أي : فى إقامة حسنة ، وبالفتح :

اسم مكان ، أي : فى مكان كريم ، وأصل المقام ، بالفتح : موضع القيام ، ثم عمم واستعمل فى جميع الأمكنة ، حتى قيل لموضع القعود : مقام ، وإن لم يقم فيه أصلا ، ويقال : كنا فى مقام فلان ، أي : مجلسه ، فهو من الخاص الذي وقع مستعملا فى معنى العموم ، وقوله : أَمِينٍ : وصف له ، أي : يأمن صاحبه الآفات والانتقال عنه ، وهو من الأمن ضد الخيانة ، وصف به المكان مجازا ، لأن المكان المخيف يخون صاحبه بما يلقى فيه من المكاره.

وقوله : ي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ

: بدل من «مقام» جيء به دلالة على نزاهته واشتماله على طيبات المآكل والمشارب ، يَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُسٍ ، وهو ما رقّ من الديباج ، وَإِسْتَبْرَقٍ ما غلظ منه ، وهو معرّب ، والجملة إما حال ، أو استئناف ، حال كونهم مُتَقابِلِينَ فى مجالسهم ، يستأنس بعضهم ببعض ، كَذلِكَ أي :

الأمر كذلك ، قيل : المعنى فيه أنه لم يستوف الوصف ، وأنه بمثابة ما لا يحيط به الوصف ، فكأنه قال : الأمر نحو ذلك وما أشبهه ، وليس بعين الوصف وتحققه.

وَزَوَّجْناهُمْ بِحُورٍ عِينٍ أي : قرنّاهم وأصحبناهم ، ولذلك عدى بالباء. قال القشيري : وليس فى الجنة عقد نكاح ولا طلاق ، بل تمكن الوليّ من هذه الألطاف بهذه الأوصاف هـ. والحور : جمع حوراء ، وهى الشديدة سواد العين ، والشديدة بياضها ، والعين : جمع عيناء ، وهى الواسعة العين ، واختلف فى أنها نساء الدنيا أو غيرها.

يَدْعُونَ فِيها بِكُلِّ فاكِهَةٍ أي : يطلبون ويأمرون بإحضار ما يشتهونه من الفواكه ، لا يختص بزمان ولا مكان ، آمِنِينَ من زواله وانقطاعه ، ومن ضرره عند الإكثار منه ، أو : من كلّ ما يسوءهم ، لا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ أصلا ، بل يستمرون على الحياة الأبدية ، إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولى سوى الموتة الأولى ، التي ذاقوها ، أو :

لكن الموتة الأولى قد ذاقوها فى الدنيا ، فالاستثناء منقطع ، أو متصل على أن المراد استحالة ذوق الموت إلا إذا كان يمكن ذوق الموتة الأولى حينئذ ، وهو محال ، على نمط قوله : إِلَّا ما قَدْ سَلَفَ «٢».

وَوَقاهُمْ ربهم عَذابَ الْجَحِيمِ ، فَضْلًا مِنْ رَبِّكَ أي : أعطوا ذلك كله عطاء وتفضلا منه – تعالى إذ لا يجب عليه شيء ، فهو مفعول له ، أو مصدر مؤكد لما قبله ، لأن قوله : وَقاهُمْ فى معنى تفضل عليهم

، ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ الذي لا فوز وراءه إذ هو خلاص من جميع المكاره ، ونيل لكلّ المطالب.

---

(١) قرأ نافع وابن عامر وأبو جعفر بضم الميم الأولى فى «مقام» بمعنى الإقامة ، وقرأ الباقون بفتحها ، موضع الإقامة.

(٢) من الآية ٢٢ من سورة النّساء.

فَإِنَّما يَسَّرْناهُ أي : الكتاب ، وقد جرى ذكره فى أول السورة ، أي : سهّلنا قراءته بِلِسانِكَ ، بلغتك لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ أي : كى يفهموه ويتعظوا به ، ويعملوا بموجبه ، فلم يفعلوا ، فَارْتَقِبْ فانظر ما يحلّ بهم ، إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ ما يحلّ بك. قال القشيري : فارتقب العواقب ترى العجائب ، إنهم مرتقبون ، ولكن لا يرون إلا ما يكرهون. هـ.

الإشارة : إن المتقين شهود ما سوانا فى مقام العرفان ، وهو مقام المقربين ، وهو محل الأمن والأمان ، فى جنات المعارف ، وعيون العلوم والحكم ، يلبسون من أسرار الحقيقة وأنوار الشريعة ، ما تبتهج به بواطنهم وظواهرهم ، متقابلين فى المقامات ، يجمعهم الفناء والبقاء ، ويتفاوتون فى اتساع المقامات والأسرار ، تفاوت أهل غرف الجنان ، كذلك ، أي : الأمر فوق ما تصف ، وزوجانهم بعرائس المعرفة ، لا يذوقون فى جنات المعارف – إذا دخلوها – الموت أبدا إلا الموتة الأولى ، وهى موت نفوسهم ، فحييت أرواحهم حياة أبدية ، وأما الموت الحسى فإنما هو انتقال من عالم إلى عالم ، ومن مقام إلى مقام ، ووقاهم ربهم عذاب الجحيم ، فضلا منه وإحسانا ، خلق فيهم المجاهدة ، ومنّ عليهم بالمشاهدة.

وقال الورتجبي بعد كلام : إذا أحضرهم – تعالى – فى ساحة كبريائه ، ويتجلى لهم بالبديهة من غير الجبّارية والقهّارية يكونون فى محل الفناء ، وفى فناء الفناء ، وغلبات سطوات ألوهيته ، فإذا صاروا فانين ، ألبسهم اللّه لباس بقائه ، فيبقون ببقائه أبد الآبدين ، فإذا الاستثناء وقع على التحقيق ، لا على التأويل ، فياربّ موت هناك ، ويا ربّ حياة هناك لأن الحدث لا يستقيم عند بروز حقائق بواطن القدم ، ألا ترى إلى إشارة النّبى صلّى اللّه عليه وسلم كيف قال : «حجابه النور ، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه» «١» أي : فيتلاشى الخلق ويبقى الحق.

قيل للجنيد : أهل الجنة باقون ببقاء الحق؟ فقال : لا ، ولكنهم مبقون ببقاء الحق ، والباقي على الحقيقة من لم يزل ، ولا يزال باقيا. هـ.

والحاصل : أنه لا عدم بعد وجودهم باللّه ، ولا يكون إلا بعد الفناء عن أوصاف الخليقة ، ووجود البشرية ، بالاندراج فى وجود الحق ، ثم الحياة بحياته ، والبقاء ببقائه أبدا ، قاله فى الحاشية الفاسية. والفرق بين الباقي والمبقى فى كلام الجنيد : أن الباقي يدلّ على ثبوت بقائه مستقلا ، بخلاف المبقى ، لا وجود لبقائه ، بل مبقى ببقاء غيره.

---

(١) سبق تخريج الحديث الشريف ، انظر (٤/ ١٧٨).

وقال فى قطب العارفين ، لمّا تكلم على التقوى : التقوى مطرد فى وجوه كثيرة ، تقوى الشرك ، ثم تقوى المعصية ، ثم تقوى فضل المباح ، ثم تقوى كلّ ما يسترق القلوب عن اللّه تعالى ، وإلى هذا الصنف الإشارة بسر قوله تعالى إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقامٍ أَمِينٍ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ... الآية. هـ. وعنه صلّى اللّه عليه وسلم : «من قرأ سورة الدخان فى ليلة أصبح يستغفر له سبعون ألف ملك» «١» ذكره فى الجامع ، وفى فضلها أحاديث ، تركتها.

---

(١) أخرجه الترمذي فى (فضائل القرآن ، باب ما جاء فى فضل «حم الدخان» ح ٢٨٨٨) وقال : «هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه ، وعمر بن أبى خثعم يضعف». وأخرجه ابن السنى فى عمل اليوم والليلة (باب ما يستحب أن يقرأ فى اليوم والليلة) والبيهقي فى الشعب (الباب التاسع عشر ، فصل فى فضائل السور ، ح ٢٤٧٥) والبغوي فى التفسير (٧/ ٢٣٨) وابن عدى فى الكامل (٥/ ٢٧٢٠) من حديث أبى هريرة رضي اللّه عنه.

سورة الجاثية

مكية ، وقيل : إلا قوله : قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا .. إلخ. وهى سبع وثلاثون آية. ووجه مناسبتها : قوله : فَإِنَّما يَسَّرْناهُ بِلِسانِكَ «١» مع قوله : تَنْزِيلُ الْكِتابِ أي : فالذى يسرناه بلسانك هو منزل من اللّه ، الغالب على أمره.

[سورة الجاثية (٤٥) : الآيات ١ الى ٦]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

حم (١) تَنْزِيلُ الْكِتابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (٢) إِنَّ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ لَآياتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ (٣) وَفِي خَلْقِكُمْ وَما يَبُثُّ مِنْ دابَّةٍ آياتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٤)

وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ وَما أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّماءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها وَتَصْرِيفِ الرِّياحِ آياتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٥) تِلْكَ آياتُ اللَّهِ نَتْلُوها عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآياتِهِ يُؤْمِنُونَ (٦)

قلت : (و اختلاف الليل والنّهار ...) الآية فيها العطف على عاملين ، . سواء نصبت «آيات» أو رفعتها ، فالعاملان إذا نصبت «إن» و«فى» أقيمت الواو مقامهما ، فعملت الجر فى (و اختلاف) والنّصب فى (آيات) ، وإذا رفعت فالعاملان الابتداء ، وحرف «فى» عملت الواو الرّفع فى «آيات» والجرّ فى «واختلاف» وهذا مذهب الأخفش ، فإنه يجوّز العطف على عاملين ، وأما سيبويه فلا يجيزه ، وتخريج الآية عنده : أن يكون على إضمار «فى» ، والذي حسّنه : تقديم ذكر «فى» فى الآيتين قبله ، ويؤيده : قراءة ابن مسعود رضي اللّه عنه : (و فى اختلاف الليل والنّهار) وفيها أوجه أخر.

يقول الحق جل جلاله : حم يا حبيب يا مجيد هذا تَنْزِيلُ الْكِتابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ، فكونه من اللّه عز وجل دلّ أنه حق وصدق وصواب ، وكونه من العزيز دلّ أنه معجز ، يغلب ولا يغلب ، وكونه من الحكيم دلّ أنه مشتمل على الحكم البالغة ، وأنه محكم فى نفسه ، ينسخ ولا ينسخ.

ثم برهن على عزته ، وباهر حكمته ، فقال : إِنَّ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ إما فى نفس السموات والأرض فإن فى شكلهما من بدائع وفنون الحكم ما يقصر عنه البيان ، وإما فى خلقهما وإظهارهما ، كما فى قوله تعالى : إِنَّ فِي خَلْقِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ «٢» ، لَآياتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ لدلالات على وحدانيته تعالى لأهل الإيمان ،

---

(١) الآية ٥٨ من سورة الدخان.

(٢) الآية ١٩٠ من سورة آل عمران.

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٣٠٠

وهو الأوفق بقوله : وَفِي خَلْقِكُمْ أي : من نطفة ثم من علقة متقلبة من أطوار مختلفة إلى تمام الخلق ، وَما يَبُثُّ مِنْ دابَّةٍ : عطف على المضاف دون المضاف إليه ، أي : وفى خلق ما يبث ، أي : ينشر ويصرّف من دابة آياتٌ ظاهرة على باهر قدرته وحكمته ، لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ أي : من شأنهم أن يوقنوا بالأشياء

على ما هى عليه ، ويعرفوا فيها صانعها ، وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ أي : تعاقبهما بالذهاب والمجيء ، أو : تفاوتهما طولا ، وقصرا ، وَفى ما أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّماءِ مِنْ رِزْقٍ مطر لأنه بسبب الرّزق ، فعبّر عن السبب بالمسبب لأنه نتيجته ، تنبيها على كونه آية من جهة القدرة والرّحمة ، فَأَحْيا بِهِ الْأَرْضَ بأن أخرج أصناف الزرع والثمرات والنّبات بَعْدَ مَوْتِها أي : خلوها عن آثار الحياة وانتفاء قوة التنمية عنها ، وخلو أشجارها عن الثمار والأزهار.

وَتَصْرِيفِ الرِّياحِ أي : هبوبها من جهة إلى أخرى ، ومن حال إلى حال ، وتأخيره عن نزول المطر مع تقدمه عليه فى الوجود ، إما للإيذان بأنه آية مستقلة ، ولو روعى الترتيب الوجودي لربما توهم أن مجموع تصريف الرياح ونزول المطر آية واحدة ، أو : لأن كون التصريف آية ليس مجرد كونه مبتدأ لإنشاء المطر ، بل له ولسائر المنافع ، التي من جملتها : سوق السفن فى البحار ، وإلقاح الأشجار ، آياتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ يتدبرون بعقولهم ، فيصلون إلى صريح التوحيد. وفى تقديم الإيمان على الإيقان ، وتأخير تدبر العقل لأن العباد إذا نظروا فى السموات والأرض نظرا صحيحا علموا أنها مصنوعة ، وأنه لا بدّ لها من صانع ، فآمنوا باللّه ، وإذا نظروا فى خلق أنفسهم ، وتنقلها من حال إلى حال ، وفى خلق ما ظهر على ظهر الأرض من صنوف الحيوان ازدادوا إيمانا وأيقنوا ، فإذا نظروا فى سائر الحوادث التي تتجدد فى كلّ وقت ، كتعاقب الليل والنّهار ، ونزول الأمطار ، وحياة الأرض بعد موتها ، وتصريف الرّياح ، جنوبا وشمالا ، ودبورا وصبا ، عقلوا ، واستحكم فى عقولهم ، وخلص يقينهم ، فكانوا من ذوى الألباب.

تِلْكَ آياتُ اللَّهِ مبتدأ وخبر ، ونَتْلُوها عَلَيْكَ حال ، والعامل : معنى الإشارة ، أي : تلك الآيات المتقدمة هى آيات اللّه الدالة على وجوب وجوده واتصافه بأوصاف الكمال ، حال كونها متلوة عليك ، ملتبسة بِالْحَقِّ أو : نتلوها محقين فى ذلك ، فالجار والمجرور : حال من المفعول أو الفاعل. فَبِأَيِّ حَدِيثٍ من الأحاديث بَعْدَ اللَّهِ وَآياتِهِ أي : بعد آيات اللّه ، كقولك : أعجبنى زيد وكرمه ، أي : أعجبنى كرم زيد ، أو : بعد حديث اللّه ، الذي هو القرآن ، وآياته العامة فى كلّ شىء ، فيكون على حذف مضاف ، أو : يراد بها القرآن أيضا ، والعطف للتغاير العنواني ، فالأول من جهة كونه حديثا حسنا ، والثاني باعتبار كونه معجزا ، أي : فبأى حديث بعد أحسن الحديث وأبهر الآيات يُؤْمِنُونَ يصدّقون؟! ومن قرأ بالخطاب «١» يقدر : قل يا محمد.

---

(١) قرأ ابن عامر وحمزة والكسائي وأبو بكر ويعقوب «يؤمنون» بالتاء ، وقرأ الباقون بالغيب. انظر الإتحاف (٢/ ٤٦٦). [.....]

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٣٠١

الإشارة : قال القشيري : الحاء تدل على حياته ، والميم تدل على مودته ، كأنه قال : بحق حياتى ومودتى لأوليائى ، لا شيء أعز على أحبائى من لقائى ، العزيز فى جلاله ، الحكيم فى فعاله ، العزيز فى أزله ، الحكيم فى لطفه بالعبد بوصف إقباله.

قوله تعالى : إِنَّ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ .. الآية شواهد الرّبوبية لائحة ، وأدلة الإلهية واضحة ، فمن صحا فكره عن سكر الغفلة ، ووضع سرّه فى محل العبرة ، حظى – لا محالة – بحقائق الوصلة. هـ.

قلت : إنما يحظى بالوصله إذا نفذت بصيرته إلى شهود المكوّن ، ولم يقف مع شيء من حس الكائنات ، بل نفذ إلى ما فيها من أسرار المعاني ، فعرف فيها مولاها ، وشاهد فيها المتجلى بها ، وإلا بقي مسجونا محصورا فى ذاته.

قوله تعالى : وَفِي خَلْقِكُمْ ... الآية ، قال القشيري : إذا أنعم العبد النّظر فى استواء قدّه وقامته ، واستكمال خلقه «١» ، وتمام تمييزه ، وما هو مخصوص به من جوارحه وحوائجه ، ثم فكّر فيما عداه من الدواب ، وأجزائها وأعضائها ، ووقف على اختصاصه ، وامتياز بنى آدم من بين البريّة من الحيوانات ، فى الفهم والعقل والتمييز والعلم ، ثم فى الإيمان والعرفان ، ووجوه خصائص أهل الصفوة من هذه الطائفة من فنون الإحسان عرف تخصيصهم بمناقبهم ، وانفرادهم بفضلهم ، فاستيقن أن اللّه أكرمهم ، وعلى كثير من المخلوقات قدّمهم.

ثم قال فى قوله : وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ ... الآية. جعل اللّه العلوم الدينية كسبية مصحّحة بالدلائل ، محتفة بالشواهد ، فمن لم يستبصر لها زلّت قدمه عن الصراط المستقيم ، ووقع فى عذاب الجحيم ، فاليوم فى ظلمة الحيرة والتقليد ، وفى الآخرة فى التخليد فى الوعيد. هـ. قلت : النظر فى دلائل الكائنات من غير تنوير ، ولا صحبة أهل التنوير ، لا تزيد إلا حيرة ، ولذلك قال بعضهم : إيمان أهل علم الكلام كالخيط فى الهواء ، يميل مع كل ريح ، فالتقليد حينئذ أسلم ، والتمسك بظاهر الكتاب والسنة أتم ، ومن سقط على العارفين باللّه ، لم يحتج إلى دليل ولا شاهد ، وأغناه شهود الشهيد عن كلّ شاهد.

عجبت لمن يبغى عليك شهادة وأنت الذي أشهدته كلّ شاهد.

كيف يعرف بالمعارف من به عرفت المعارف؟! تنزه الحق تعالى أن يفتقر إلى دليل يدلّ عليه ، بل به يستدل على غيره ، فلا يجد غيره. تلك آيات شواهد نتلوها عليك لترانا فيها ، لا لتراها مفروقة عنا ، ولذلك قال تعالى : (بالحق) ، أي : ملتبسة بنور الحق ، اللّه نور السماوات والأرض.

---

(١) فى القشيري : عقله.

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٣٠٢

قوله تعالى : فَبِأَيِّ حَدِيثٍ ... الآية ، قال القشيري : فمن لا يؤمن بها فبأى حديث يؤمن؟ ومن أي أصل ينشأ بعده «١»؟ ومن أي بحر فى التحقيق يغترف؟ هيهات ما بقي للإشكال فى هذا مجال. هـ.

ثم ذكر حال من أعرض عنها ، فقال

[سورة الجاثية (٤٥) : الآيات ٧ الى ١١]

وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (٧) يَسْمَعُ آياتِ اللَّهِ تُتْلى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِراً كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْها فَبَشِّرْهُ بِعَذابٍ أَلِيمٍ (٨) وَإِذا عَلِمَ مِنْ آياتِنا شَيْئاً اتَّخَذَها هُزُواً أُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ (٩) مِنْ وَرائِهِمْ جَهَنَّمُ وَلا يُغْنِي عَنْهُمْ ما كَسَبُوا شَيْئاً وَلا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِياءَ وَلَهُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ (١٠) هذا هُدىً وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ (١١)

يقول الحق جل جلاله : وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ كذّاب أَثِيمٍ كثير الآثام ، يَسْمَعُ آياتِ اللَّهِ التنزيلية تُتْلى عَلَيْهِ ، وجملة «يسمع» صفة أخرى لأفّاك ، أو استئناف ، أو حال من ضمير «أثيم» ، و«تتلى» : حال من «آيات اللّه» ، ثُمَّ يُصِرُّ أي : يقيم على كفره ، حال كونه مُسْتَكْبِراً عن الإيمان بالآيات ، والإذعان لما تنطق به من الحق ، مزدريا بها ، معجبا بما عنده من الأباطيل. قيل : نزلت فى النّضر بن الحارث ، وكان يشترى من أحاديث الأعاجم ، ويشغل بها النّاس عن سماع القرآن «٢» ، والآية عامة فى كلّ من كان مضارا لدين اللّه وجيء بثمّ لأن الإصرار على الضلالة ، والاستكبار عن الإيمان عند سماع آيات القرآن ، مستبعد فى العقول. ثم قال :

كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْها أي : كأنه لم يسمعها ، فأن مخففة ، ومحل الجملة النّصب على الحال ، أي : يصر شبيها بغير السامع ، فَبَشِّرْهُ على إصراره واستكباره بِعَذابٍ أَلِيمٍ أي : أخبره خبر يظهر أثره على البشرة ، تهكما به.

وَإِذا عَلِمَ مِنْ آياتِنا شَيْئاً أي : إذا بلغه من آياتنا شيئا يمكن أن يتشبث بها المعاند ، ويجد له محملا فاسدا يتوسل به إلى الطعن والمغمزة ، اتَّخَذَها أي : مهزوءا بها ، لا ما يسمعه فقط ، وإنما لم يقل : اتخذه للإشعار بأنه إذا أحسّ بشيء من الكلام فيه شيء بزعمه الرّكيك لم يقتصر على الاستهزاء بما بلغه ، بل يستهزئ بالجميع ، ويجوز أن يرجع الضمير (لشى ء) لأنه فى معنى الآية. أُولئِكَ لَهُمْ بسبب جناياتهم المذكورة عَذابٌ مُهِينٌ ، وصف العذاب بالإهانة توفية لحق استكبارهم واستهزائهم بآيات اللّه تعالى ، وجمع الإشارة باعتبار

---

(١) فى القشيري : [يستمد بعده] وهو أنسب.

(٢) ذكره فى البحر المحيط (٨/ ٤٤).

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٣٠٣

ما فى لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ من الشمول ، كما فى قوله تعالى : كُلُّ حِزْبٍ بِما لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ «١» ، وأفرد فيما سبق من الضمائر باعتبار كلّ واحد واحد. مِنْ وَرائِهِمْ جَهَنَّمُ أي : من قدّامهم ، لأنهم متوجهون إلى ما أعدّ لهم ، أو :

من خلفهم لأنهم معرضون عن ذلك ، مقبلون على الدنيا ، فإن الوراء : اسم للجهة التي يواريها الشخص من قدّام وخلف ، وَلا يُغْنِي عَنْهُمْ لا يدفع عنهم ما كَسَبُوا من الأموال والأولاد شَيْئاً من عذاب اللّه تعالى ، وَلا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِياءَ أي : الأصنام ، و«ما» مصدرية ، أو موصولة ، وتوسيط حرف النفي بين المعطوفين ينبئ أن عدم إغناء الأصنام أظهر وأجلى من عدم إغناء الأموال والأولاد قطعا ، مبنى على زعمهم الفاسد ، حيث كانوا يطمعون فى شفاعتهم وَلَهُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ لا يقادر قدره.

هذا أي : القرآن هُدىً فى غاية الكمال من الهداية ، كأنه نفس الهدى ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ أي : القرآن ، وإنما وضع موضع ضميره الآيات لزيادة تشنيع كفرهم وتفظيع حالهم ، لَهُمْ عَذابٌ مِنْ رِجْزٍ من أشد العذاب أَلِيمٌ مؤلم ، بالرفع «٢» صفة «عذاب» ، وبالجر صفة «رجز» ، وتنوين عذاب فى المواضع الثلاثة للتفخيم.

الإشارة : من لم يضبط لسانه وجوارحه ، وتصاممت آذان قلبه عن تدبر القرآن ، فالويل حاصل له ، ويبشّر بالخيبة والخسران من مراتب أهل العرفان ، ومن ضبط أمور ظاهره بالتقوى ، وفتحت آذان قلبه لسماع كلام المولى ، فقد فار بعز الدارين. قال القشيري : فمن استمع بسمع الفهم ، واستبصر بنور التوحيد ، فاز بذخر الدارين ، وتصدّى لعز المنزلتين ، ومن تصامم بحكم الغفلة ، وقع فى وهدة الجهل ، ووسم بكى الهجر. هـ.

قوله تعالى : إِذا عَلِمَ مِنْ آياتِنا شَيْئاً اتَّخَذَها هُزُواً. قال القشيري : وقد يكاشف العبد من مواطن القلب بتعريفات لا يداخله فيها ريب ، ولا يتخللّه فيها شك فيما هو فيه من حاله ، فإذا استهان بها وقع فى ذلّ الحجبة ، وحجاب الفرقة وهوانها. هـ. فإذا صفا القلب صار مرسى لتجلى الواردات الإلهية ، وهى آية من آياته ، فإذا تجلى فيه شىء بأمر أو نهى فاستهان به وخالفه أدبه الحق على ذلك ، إما فى ظاهره ، وهو أخف ، أو فى باطنه بالحجبة أو الفرقة ، ولقد سمعت شيخ شيوخنا ، مولاى العربي الدرقاوى رضي اللّه عنه يقول : لى ثلاثون سنة ما خالفت قلبى فى شىء إلا أدبنى الحق تعالى عليه. هـ. أي : فى ظاهره ، وذلك لغاية صفائه.

---

(١) من الآية ٥٣ من سورة المؤمنون.

(٢) قرأ «أليم» برفع الميم ، ابن كثير وحفص ويعقوب ، وقرأ الباقون بالجر. انظر الإتحاف (٢/ ٤٦٦).

(٣٠٣/٥)

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٣٠٤

قوله تعالى : مِنْ وَرائِهِمْ جَهَنَّمُ .. الآية ، لا عذاب أشد من الحجب بعد الإظهار ، والفرقة بعد الوصال. وأنشدوا :

فخلّ سبيل العين بعدك للبكا فليس لأيّام الصّفاء رجوع

انظر القشيري.

ولمّا ذكر ما منّ به عليهم من النّعم الباطنة ، وهى دلائل التوحيد ، ذكر ما منّ به عليهم من النّعم الظاهرة ، فقال :

[سورة الجاثية (٤٥) : الآيات ١٢ الى ١٣]

اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢) وَسَخَّرَ لَكُمْ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (١٣)

يقول الحق جل جلاله : اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ أي : ذللّه ، بأن جعله أملس السطح ، يطفو عليه ما فوقه ، ولا يمنع الغوص فيه ، لميعانه ، لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ بإذنه ، وأنتم راكبوها ، وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ بالتجارة ، والغوص لابتغاء الحلية ، كاللؤلؤ والمرجان ، وكالصيد وغيرها ، وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ولكى تشكروا النّعم المترتبة على ذلك ، وَسَخَّرَ لَكُمْ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ من الموجودات ، بأن جعلها مدارا لمنافعهم.

قال القشيري : إذ ما من شيء من الأعيان الظاهرة ، إلا وللإنسان به انتفاع من وجوه ، فالسماء لهم بناء ، والأرض لهم مهاد ، وليتأمل العبد فى كلّ شيء [لو لم يكن ، أىّ خلل يرجع إلى الخلق؟] «١» ، لو لا الشمس كيف كانوا يتصرفون بالنهار ، ؟ ولو لا الليل ، كيف كانوا يسكنون؟ ولو لا القمر هل كانوا يهتدون للحساب والآجال؟

وكذلك جميع المخلوقات. هـ. وقوله : جَمِيعاً مِنْهُ : حال ، وليس من التوكيد لعدم الضمير ، ولو كان توكيدا لقال : جميعه ، ثم التوكيد بجميع قليل ، فلا يحمل التنزيل عليه ، قاله فى المغني. والمنفي كونه توكيدا اصطلاحيا ، فلا ينافى كونه حالا مؤكدة فى المعنى. إِنَّ فِي ذلِكَ أي : فيما ذكر من الأمور العظام لَآياتٍ عظيمة الشأن ، كثيرة العدد ، لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ فى بدائع صنعه تعالى ، فإنهم يقفون بذلك على جلائل نعمه تعالى ودقائقها ، ويوفقون لشكرها.

الإشارة : اللّه الذي سخّر لكم بحر التوحيد الخاص ، وهو تجلى عظمة الذات ، لتجرى فلك الأفكار فى تيار بحر الذات ونور الصفات ، فتراها تعوم تارة فى أسرار الجبروت الأعلى ، وتارة فى أنوار الملكوت الأدنى ، ولتبتغوا من

---

(١) العبارة فى القشيري : كيف إن كان خلل فى شيء منها ما ذا يمكن أن يكون؟.

(٣٠٤/٥)

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٣٠٥

فضل معرفته ، وزيادة الترقي فى كشف الأسرار ، وهذا لمن اتسع عليه فضاء الشهود ، وزاحت عنه حجب الكائنات ، وأما من بقي مسجونا فيها ، السماء تظله ، والأرض تقله ، فلا يطمع أن تسرح فكرته فى هذه البحار ، وحسبه أن يكون حمارا يسافر فى البر ، تعبه كثير ، وربحه قليل ، والغناء به بعيد ، وسبب بقائه فى تعب البر عدم صحبته للرجال البحرية ، الذين هم ريّاس البحر ، وشيوخ ركّب البر. وباللّه التوفيق.

قال القشيري : اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ تركبونه ، فربما تسلم السفينة ، وربما تغرق ، كذلك العبد فى فلك الاعتصام فى بحار التقدير ، تمشى بهم رياح العناية ، وترفع لهم شراع التوكل ، تجرى فى البحر لتجر اليقين ، فإن هبت رياح السلامة نجت السفينة ، وإن هبت نكباء الفتنة لم يبق بيد الملاح شيء ، فعند ذلك المقادير غالبة ، وبلغت قلوب أهل السفينة الحناجر. هـ. قلت : من ركب مع رائس ماهر الغالب عليه السلامة.

قوله تعالى : وَسَخَّرَ لَكُمْ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ ، فى بعض الأثر : يقول اللّه تعالى :

«يا ابن آدم خلقت الأشياء من أجلك ، وخلقتك من أجلى ، فلا تشتغل بما خلقته لك عما خلقتك لأجله» «١» أي : لا تنشغل بخدمة الكون عن خدمة المكوّن ، فما أفلح من انشغل بدنياه ، وآثر هواه على خدمة مولاه ، كان حرا والأشياء كلها عبيد له ، فصار عبدا لعبيده ، بحبه للأشياء وتعشقه لها ، كانت الأشياء تعشقه وتخدمه ، ثم صار يخدم الأشياء ويعشقها ، أنت مع الأكوان ما لم تشهد المكوّن ، فإذا شهدت المكوّن كانت الأكوان معك ، فاعرف قدرك أيها الإنسان ، وارفع همتك عن الأكوان ، وعلّق قلبك بالملك الديان ، يعطك الحق تعالى من العرش إلى الفرش ، تتصرف فيه بهمتك كيف شئت ، وما ذلك على اللّه بعزيز.

ثم بيّن الطريق الموصل إلى هذا ، وهو حسن الخلق مع كلّ مخلوق ، فقال :

[سورة الجاثية (٤٥) : الآيات ١٤ الى ١٥]

قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْماً بِما كانُوا يَكْسِبُونَ (١٤) مَنْ عَمِلَ صالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَساءَ فَعَلَيْها ثُمَّ إِلى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ (١٥)

قلت : (يغفروا) ، قيل : جواب الأمر المذكور ، أي : إن تقل يغفروا ، وقيل : لأمر محذوف ، أي : قل لهم اغفروا يغفروا ، وقيل : حذف لام الأمر ، أي : ليغفروا ، وقرأ أبو جعفر : (ليجزى قوما) بالبناء للمفعول ، ونصب (قوما) إما

---

(١) رواه الشيخ محى الدين ابن عربى فى «مشكاة الأنوار فيما روى عن اللّه سبحانه من الأخبار ، ح ٥٨» وقال : «رويته من جزء الرّبعى».

على نيابة المصدر ، أي : ليجزى الجزاء قوما ، أو ليجزى الخير قوما ، فأضمر الخير لدلالة الكلام عليه ، أو ناب الجار مع وجود المفعول به ، وهو قليل.

يقول الحق جل جلاله : قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ أي : يعفوا ويصفحوا عن الذين لا يتوقعون نقمه ووقائعه بأعدائه ، من قولهم : «أيام العرب» ، لوقائعها ، أو : لا يؤمّلون الأوقات التي وقّتها اللّه تعالى لثواب المؤمنين ، ووعدهم بالفوز فيها ، قيل : نزلت قبل آية القتال ثم نسخت. قال ابن عطية : ينبغى إن يقال :

إن الأمور العظام ، كالقتل والكفر مجاهدة ونحو ذلك ، قد نسخ غفرانه آية السيف والجزية ، وإن الأمور الحقيرة ، كالجفاء فى القول ونحو ذلك ، يحتمل أن تبقى محكمة ، وأن يكون العفو عنها أقرب للتقوى. هـ.

قيل : نزلت فى عمر رضي اللّه عنه حين شتمه رجل من غفار ، فهمّ أن يبطش به ، فنزلت «١». وقيل : نزلت فى ناس من أصحاب النّبى صلّى اللّه عليه وسلم كانوا فى أذىّ شديد من المشركين ، قبل أن يؤمروا بالقتال ، فشكوا ذلك إلى النّبى صلّى اللّه عليه وسلم ، فنزلت «٢» ، وعلى هذا تكون الآية مكية. وقال ابن عباس : لما نزل : مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً «٣» قال فنحاص : افتقر ربّ محمد ، فلما بلغ ذلك عمر ، طلبه بالسيف ليقتله ، فنزلت ، فوضع السيف ، وقال : والذي بعثك بالحق لا يرى الغضب فى وجهى «٤». وقيل : فى شأن أبىّ بن سلول ، رأس المنافقين ، لمّا قال فى غزوة المريسيع : ما مثلنا ومثل هؤلاء – يعنى المهاجرين – إلا كما قيل : سمّن كلبك يأكلك ، فبلغ

ذلك عمر ، فاشتمل السيف ، يريد التوجه إليه ، فنزلت «٥». وعلى هذا تكون مدنية.

لِيَجْزِيَ قَوْماً بِما كانُوا يَكْسِبُونَ أي : إنما أمروا أن يغفروا ليوفيهم جزاء مغفرتهم يوم القيامة. وتنكير (قوم) مدح لهم ، كأنه قيل : ليجزى قوما – أيّما قوم ، أو قوما مخصوصين – بالصبر بسبب ما كسبوا فى الدنيا من الأعمال الحسنة ، التي من جملتها الصبر على إذاية الكفار ، والإغضاء عنهم ، بكظم الغيظ ، واحتمال المكروه ، ما يقصر عنه البيان من الثواب العظيم ، ويجوز أن يراد بالقوم : الكفرة ، وبما كانوا يكسبون : سيئاتهم ، التي من جملتها ما كانوا يؤذون به المسلمين.

مَنْ عَمِلَ صالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَساءَ فَعَلَيْها أي : لها الثواب وعليها العقاب ، لا يكاد يسرى عمل إلى غير عامله ، ثُمَّ إِلى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ فيجازيكم على أعمالكم ، خيرا كان أو شرا.

---

(١) ذكره القرطبي (٧/ ٦١٦٢) وعزاه للنحاس والمهدوى ، عن الضحاك عن ابن عباس.

(٢) ذكره البغوي فى تفسيره (٧/ ٢٤٣). عن القرظي والسدى.

(٣) الآية ٢٤٥ من سورة البقرة.

(٤) أخرجه الواحدي فى أسباب النّزول (ص ٢٩٣ – ٢٩٤) عن ميمون بن مهران عن ابن عباس رضي اللّه عنه ، بسند ضعيف.

(٥) ذكره الواحدي فى أسباب النّزول (٢٩٣) والقرطبي (٧/ ٦١٦٧) عن ابن عباس فى رواية عطاء.

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٣٠٧

الإشارة : مذهب الصوفية : العفو عمن ظلمهم ، والإحسان إلى من أساء إليهم لأنهم رحمة للعباد ، ومقصدهم بذلك رضا اللّه ، لأن الخلق عيال اللّه ، وأحب الخلق إلى اللّه أنفعهم لعياله. قال اللجائى رضي اللّه عنه فى شمائل الخصوص :

قصد السادات بالعفو عمن ظلمهم ، ابتغاء مرضاة اللّه ، لا ابتغاء الثواب ، فإنه تعالى يحب العفو ، وتسمّى به.

ومقصدهم بالعفو أيضا : قطع العداوة والحقد عن الظالم ، وترك الانتصار منه ، بيد أو لسان ، استعدادا منهم لسلامة الصدور. ومقصدهم أيضا : زوال الذّلة عن الظالم فى موقف الحساب ، من أجل ما يطالب به من الحقوق ، وهو ضرب من الشفقة على العبيد ، وهو مقام محمود ، فشأنهم رضا اللّه عنهم إذا حلّ بالعباد فى الموقف بلاء ، أرادوا أن يكونوا للخلق فداء ، فهذا أدنى مقام فى العفو. هـ.

وفى الحديث : «إذا جمع اللّه الخلائق يوم القيامة ، نادى مناد : أين أهل الفضل ، فيقوم ناس ، وهم

يسير ، فينطلقون إلى الجنة سراعا ، فتتلقاهم الملائكة ، فيقولون : إنّا نراكم سراعا؟ فيقولون : نحن أهل الفضل ، فيقولون : وما فضلكم؟ فيقولون : كنا إذا ظلمنا صبرنا ، وإذا جهل علينا حلمنا ، فيقال لهم : ادخلوا الجنة : فنعم أجر العاملين» «١».

قال القشيري بعد كلام : فمن أراد أن يعرف كيف يحفظ أولياءه ، وكيف يدمّر أعداءه ، فليصبر على أيام قلائل ، ليعلم كيف صارت عواقبهم ، من عمل صالحا فله مهناه ، ومن ارتكب سيئة قاسى بلواه ، ثم مرجعه إلى مولاه. هـ.

ثم ذكر ما منّ به على بنى إسرائيل ، بعد ما ذكر ما منّ به على عباده جملة ، فقال :

[سورة الجاثية (٤٥) : الآيات ١٦ الى ١٧]

وَلَقَدْ آتَيْنا بَنِي إِسْرائِيلَ الْكِتابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْناهُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ وَفَضَّلْناهُمْ عَلَى الْعالَمِينَ (١٦) وَآتَيْناهُمْ بَيِّناتٍ مِنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلاَّ مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ فِيما كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١٧)

يقول الحق جل جلاله : وَلَقَدْ آتَيْنا بَنِي إِسْرائِيلَ الْكِتابَ وَالْحُكْمَ أي : الفصل بين العباد ، لأن الملك لم يزل فيهم حتى غيّروا ، أو : الحكمة النّظرية والعملية والفقه فى الدين ، وَالنُّبُوَّةَ حيث كثر فيهم الأنبياء ما لم

---

(١) رواه الأصبهانى فى الترغيب (٢٣٧٤) عن عمرو بن شعيب ، عن أبيه ، عن جده.

يكثر فى غيرهم. وَرَزَقْناهُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ ما أحلّ اللّه لهم من اللذائذ ، كالمن والسلوى ، وغيره من الأرزاق ، وَفَضَّلْناهُمْ عَلَى الْعالَمِينَ على عالمى زمانهم.

وَآتَيْناهُمْ بَيِّناتٍ مِنَ الْأَمْرِ دلائل ظاهرة من أمر الدين ، ومعجزات قاهرة. قال ابن عباس : هو العلم بمبعث النّبى صلّى اللّه عليه وسلم ، وما بيّن لهم من أمره ، وأنه يهاجر من تهامة إلى يثرب ، ويكون أنصاره أهل يثرب ، فَمَا اخْتَلَفُوا فى ذلك الأمر إِلَّا مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ الْعِلْمُ بحقيقته وحقيّته ، فجعلوا ما يوجب زوال الخلاف موجبا له ، بَغْياً بَيْنَهُمْ أي : عداوة وحسدا ، حدث بينهم ، لا شك وقع لهم فيه ، إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ بالمؤاخذة والجزاء فِيما كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ من أمر الدين.

الإشارة : كانت بنو إسرائيل فى أول أمرها متمسكة بكتاب ربها ، عاملة بما شرعت لها أنبياؤها ، فرفع اللّه بذلك قدرها ، حتى تحاسدوا ، وتهاجروا على الدنيا والرّئاسة ، فأعقبهم اللّه ذل الأبد ، فهذه سنّة

اللّه تعالى فى عباده ، من تمسك بالكتاب والسنة ، وزهد فى الدنيا ، وتواضع لعباد اللّه ، رفعه اللّه وأعزه ، فإذا خرج عن هذا الوصف انعكس حاله إلى أسفل ، والعياذ باللّه.

ولما ذكر شريعة موسى أعقبه بشريعة نبينا – صلوات اللّه وسلامه عليهم أجمعين ، فقال :

[سورة الجاثية (٤٥) : الآيات ١٨ الى ٢٠]

ثُمَّ جَعَلْناكَ عَلى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْها وَلا تَتَّبِعْ أَهْواءَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ (١٨) إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ (١٩) هذا بَصائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدىً وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٢٠)

يقول الحق جل جلاله : ثُمَّ جَعَلْناكَ يا محمد بعد اختلاف أهل الكتاب ، عَلى شَرِيعَةٍ على طريقة عظيمة الشأن ، ومنهاج واضح مِنَ الْأَمْرِ الدين ، وأصل الشريعة فى اللغة : مورد الماء ، أي : الطريق الموصلة إليه ، ثم جعل للطريق الموصلة إلى حياة القلوب والأرواح لأن الماء به حياة الأشباح ، فَاتَّبِعْها بإجراء أحكامها فى نفسك وفى غيرك ، من غير إخلال بشيء منها. قال ابن عرفه : الخطاب له عليه السّلام ، والمراد غيره لأنه معلوم الاتباع التام ، أو : دم على اتباعها. هـ.

وَلا تَتَّبِعْ أَهْواءَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ أي : لا تتبع آراء الجهلة واعتقاداتهم الزائغة التابعة للشهوات ، وهم رؤساء قريش ، كانوا يقولون له صلّى اللّه عليه وسلم : ارجع إلى دين آبائك. إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً مما أراد بك إن اتبعتهم ، أي : لن ينفعونك بدفع ما ينزل بك بدلا من اللّه شيئا إن اتبعت أهواءهم ، وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ

(٣٠٨/٥)

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٣٠٩

بَعْضٍ

فلا يواليهم ولا تتبع أهواءهم إلا من كان ظالما مثلهم ، وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ أي : ناصر المتقين ، الذين أنت قدوتهم ، فدم على ما أنت عليه من توليته خاصة ، والإعراض عما سواه بالكلية.

هذا بَصائِرُ لِلنَّاسِ أي : هذا القرآن واتباع الشريعة بصائر لقلوب النّاس ، كما جعل روحا وحياة لها ، فإنّ من تمسك بالكتاب والسنة ، وأمعن فيها النّظر ، وعمل بمقتضاهما ، فتحت بصيرته ، وحيي قلبه ، وَهُدىً من الضلالة وَرَحْمَةٌ من العذاب ، لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ لمن كمل إيمانه وإيقانه بالأمور الغيبية.

الإشارة : الشريعة لها ظاهر وباطن ، وهو لبها وخالصها ، فالعامة أخذوا بظاهرها ، فأخذوا بكلّ ما يبيحه ظاهر الشريعة من الرّخص والسهولة ، ولا نظر عندهم لقلوبهم من النّقص والزيادة ، والخاصة أخذوا بباطنها ، فأخذوا منها بالمهم ، وتركوا كلّ ما يفتنهم أو ينقص من نور إيقانهم ، فوصلوا بذلك إلى

حضرة ربهم ، فيقال للمريد : ثم جعلناك على طريقة واضحة من أمر الخاصة ، فاتبعها ، ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون ما يزيد فى قلوبهم وما ينقص. إنهم لن يغنوا عنك من اللّه شيئا إن أبعدك بميلك إليهم واتباع أغراضهم.

قال القشيري : إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً إن أراد بك نعمة ، فلا يمنعها أحد ، وأن أراد بك فتنة فلا يصرفها عنك أحد ، فلا تعلّق بمخلوق فكرك ، ولا توجه ضميرك إلى شيء ، وثق به ، وتوكّل عليه. هـ. وأهل الغفلة بعضهم أولياء بعض ، يتوالون على حظوظ الدنيا وشهواتها ، وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ الذين اتقوا كلّ ما يشغل عن اللّه ، هذا بَصائِرُ لِلنَّاسِ أي : سبب فتح بصائرهم ، وَهُدىً أي : إشارة لطريق الوصول ، ورحمة للأرواح والقلوب ، لقوم يوقنون ، أي : لأهل اليقين الكبير.

قال القشيري : هذا بَصائِرُ لِلنَّاسِ ، أنوار البصيرة إذا تلألأت انكشفت دونها تهمة التجويز ، ونظر النّاس على مراتب ، من نظر بنور نجومه ، فهو صاحب عقل ، ومن نظر بنور فراسته فهو صاحب ظن ، يقوّيه لوح ، ولكنه من وراء ستر ، ومن نظر بيقين فهو على تحكم برهان ، ومن نظر بعين إيمان فهو بوصف اتباع ، ومن نظر بنور بصيرة ، فهو على نهار ، وشمسه طالعة ، وشمسه عن السحاب مصحية. هـ.

ثم بيّن حال من لا يرجو أيام اللّه ومن يرجوه ، فقال :

[سورة الجاثية (٤٥) : الآيات ٢١ الى ٢٢]

أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ سَواءً مَحْياهُمْ وَمَماتُهُمْ ساءَ ما يَحْكُمُونَ (٢١) وَخَلَقَ اللَّهُ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزى كُلُّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (٢٢)

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٣١٠

قلت (أم) : منقطعة ، والهمزة لانكار الحسبان ، من قرأ «سواء» بالرفع «١» فخبر مقدم ، (و محياهم) : مبتدأ ، ومن قرأ بالنصب فحال من ضمير الظرف ، أي : كائنين كالذين آمنوا ، حال كونهم مستويا محياهم ومماتهم ، و«محياهم» – حينئذ – : فاعل بسواء ، وقرأ الأعمش : «ومماتهم» بالنصب على الظرفية.

يقول الحق جل جلاله : أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا

اكتسبوا السَّيِّئاتِ

من الكفر والمعاصي ، وسميت الأعضاء جوارح لاكتسابها الخير والشر ، ويقال : فلان جارحة أهله أي

: كاسبهم ، أي : أظنوا أن نصيّرهم كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ
، وهم فيما هم فيه من محاسن الأعمال ، ونعاملهم معاملتهم فى رفع الدرجات ، أي : حتى يكونوا سَواءً
فى مَحْياهُمْ وَمَماتُهُمْ
،
كلّا ، بل نجعل أهل الإيمان فى محياهم ومماتهم متنعمين بطاعة مولاهم ، مطمئنين به ، يحيون حياة طيبة ، ويموتون موتة حسنة ، وفى مماتهم مكرمين بلقاء مولاهم ، فى روح وريحان ، وجنات نعيم ، ونجعل أهل الكفر والعصيان فى محياهم فى ذلّ المعصية ، وكد الحرص وكدر العيش ، وفى الممات فى ضيق العذاب الخالد ، ساءَ ما يَحْكُمُونَ
أي : ساء حكمهم هذا ، أو : بئس شيئا حكموا به.
قال النّسفى : والمعنى إنكار أن يستوى المسيئون والمحسنون محيا ومماتا لافتراق أحوالهم أحياء ، حيث عاش هؤلاء على القيام بالطاعات ، وأولئك على اقتراف السيئات ، ومماتا ، حيث مات هؤلاء على البشرى بالرحمة والكرامة ، وأولئك على اليأس من الرّحمة والنّدامة. وقيل : معناه : إنكار أن يستووا فى [الممات ، كما استووا فى] «٢» الحياة فى الرّزق والصحة. ساء ما يحكمون ، فليس من أقعد على بساط الموافقة ، كمن أبعد فى مقام المخالفة ، بل تفرّق بينهم ، فنعلى المؤمنين ، ونخزى الكافرين. هـ.
وسبب نزول الآية : افتخار وقع للكفار على المؤمنين ، قالوا : لئن كانت آخرة كما تزعمون لنفضلن فيها كما فضلنا فى الدنيا ، فردّ اللّه عليهم ، وأبطل أمنيتهم «٣».
وَخَلَقَ اللَّهُ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ لتدل على قدرته على البعث وغيره ، قال البيضاوي : كأنه دليل على الحكم السابق ، من حيث إن خلق ذلك بالحق المقتضى للعدل ، يقتضى انتصار المظلوم من الظالم ، والتفاوت بين المحسن والمسيء ، إذا لم يكن فى المحيا كان بعد الممات. هـ. وَلِتُجْزى كُلُّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ : عطف

---

(١) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر برفع «سواء» وقرأ حفص وحمزة والكسائي وخلف بالنصب. انظر الإتحاف ٢/ ٤٦٧. [.....]
(٢) ما بين المعقوفتين من تفسير النّسفى ، وأثبته لاقتضاء السياق ذلك.
(٣) ذكره البغوي فى التفسير (٧/ ٢٤٤).

على هذه العلة المحذوفة ، أي : لتدل ولتجزى ، أو على «بالحق» لأن فيه معنى التعليل إذ معناه : خلقها مقرونة بالحكمة والصواب ، دون العبث ولتجزى ... إلخ ، أو : ليعدل وتجزى كلّ نفس بما كسبت ، وَهُمْ أي : النفوس ، المدلول عليها بكلّ نفس لا يُظْلَمُونَ بنقص الثواب أو زيادة عقاب.

الإشارة : أم حسب الذين ماتوا على دنس الإصرار ، أن نجعلهم كالمطهرين الأبرار ، أم حسب الذين عاشوا فى البطالة والتقصير أن نجعلهم كالذين عاشوا فى الجد والتشمير؟ «أم حسب الذين عاشوا فى غم الحجاب ، وصاروا إلى سوء الحساب ، أن نجعلهم كالذين تهذبوا حتى ارتفع عنهم الحجاب ، وصاروا إلى غاية الكرامة والاقتراب؟

لا استواء بينهم فى المحيا ولا فى الممات ، الأولون عاشوا معيشة ضنكا ، وصاروا بعد الموت إلى النّدامة والحسرة ، والآخرون عاشوا عيشة راضية ، وماتوا موتة طيبة ، وصاروا إلى كرامة أبدية ، ولهذا بكت الأكابر عند قراءتها ، فروى عن تميم الداري : أنه كان يصلى ليلة عند المقام ، فبلغ هذه الآية ، فجعل يبكى ويرددها إلى الصباح. وعن الفضيل : أنه بلغها ، فجعل يبكى ، ويقول : يا فضيل! ليت شعرى من أىّ الفريقين أنت؟. وعن الرّبيع بن خيثم : أنه قام يصلى ليلة ، فمر بهذه الآية ، فمكث ليلة حتى أصبح يبكى بكاء شديدا ، وكانت تسمى مبكاة العابدين.

وسبب تسوية العاصي مع المطيع الانهماك فى الهوى ، كما أبان ذلك الحق تعالى بقوله :

[سورة الجاثية (٤٥) : آية ٢٣]

أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلهَهُ هَواهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلى بَصَرِهِ غِشاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلا تَذَكَّرُونَ (٢٣)

يقول الحق جل جلاله : أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلهَهُ هَواهُ أي : أباح لنفسه كلّ ما تهواه ، سواء كان مباحا أو غير مباح ، فكأنه يعبده كما يعبد الرّجل إلهه ، وإليه أشار فى المباحث بقوله :

ومن أباح النّفس ما تهواه فإنما معبوده هواه

فالآية وإن نزلت فى هوبالكفر فهى متناولة لكلّ هوى النّفس الأمّارة ، قال ابن جبير : نزلت فى قريش والعرب ، كانوا يعبدون الحجارة والذهب والفضة ، فإذا وجدوا شيئا أحسن ألقوه وعبدوا غيره «١».

هـ. ومتابعة الهوى كلها مذمومة ، فإن كان ما هوته محرّما أفضى بصاحبه إلى العقاب ، وإن كان مباحا بقي صاحبه فى غم الحجاب وسوء الحساب ، وأسر نفسه وكدّ طبعه. وفى الحديث عنه صلّى اللّه عليه وسلم : «ما عبد تحت السماء أبغض إلى اللّه تعالى من

---

(١) ذكره القرطبي (٧/ ٦١٧٣) والبغوي (٧/ ٢٤٥).

هوى» «١» ، وقال صلّى اللّه عليه وسلم : «ثلاث مهلكات شحّ مطاع ، وهوى متبع ، وإعجاب المرء بنفسه» «٢» وقال أيضا : «الكيّس من دان نفسه ، وعمل لما بعد الموت ، والعاجز من أتبع نفسه هواها ، وتمنّى على اللّه» «٣» ، وسيأتى فى الإشارة تمامه.

ثم قال تعالى : وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلى عِلْمٍ أي : خذله على علم منه ، باختياره الضلالة ، أي : عالما بضلاله ، وتبديله لفطرة اللّه التي فطر النّاس عليها. وقيل : نزلت فى أمية بن أبى الصلت ، وكان عنده علم بالكتب المتقدمة ، فكان ينتظر بعثة الرّسول صلّى اللّه عليه وسلم ، فلما ظهر ، قال : ما كنت لأومن لرسول ليس من ثقيف ، وأشعاره محشوة بالتوحيد ، ولكن سبق له الشقاء ، فلم يؤمن ، وختم على سمعه فلا يقبل وعظا وقلبه ، فلا يعتقد حقّا ، أي : لا يتأثر بالمواعظ ، ولا يتفكر فى الآيات والنّذر. وَجَعَلَ عَلى بَصَرِهِ غِشاوَةً أي : ظلمة مانعة من الاعتبار والاستبصار ، فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ من بعد إضلال اللّه إياه؟ أَفَلا تَذَكَّرُونَ أفلا تتعظون ، فتسلمون الأمور إلى مولاها ، يضل من يشاء ويهدى من يشاء.

الإشارة : حقيقة الهوى كلّ ما تعشقه النّفس ، وتميل إليه من الحظوظ العاجلة ، ويجرى ذلك فى المآكل ، والمشارب ، والملابس ، والمناكح ، والجاه ، ورفع المنزلة ، فليجاهد العبد نفسه فى ترك ذلك كله ، حتى لا تحب إلا ما هو طاعة يقرب إلى اللّه ، كما قال صلّى اللّه عليه وسلم : «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تابعا لما جئت به» «٤» فإن كان فى طريق الإرادة والتربية ترك كلّ ما تميل إليه نفسه وتسكن إليه ، ولو كان طاعة ، كما قال البوصيرى رضي اللّه عنه :

وراعها وهى فى الأعمال سائمة وإن هى استحلت المرعى فلا تسم

فإنّ حلاوة الطاعة سموم قاتلة ، يمنع الوقوف معها من الترقي إلى حلاوة الشهود ولذة المعرفة ، وكذلك الركون إلى الكرامات ، والوقوف مع المقامات ، كلها أهوية تمنع مما هو أعلى منها من مقام العيان ، فلا يزل المريد يجاهد نفسه ، ويرحلها عن هذه الحظوظ ، حتى تتمحض محبتها فى الحق تعالى ، فلا يشتهى إلا شهود ذاته الأقدس ، أو ما يقضيه عليه ، فإذا ظهر بهذا المقام لم تبق له مجاهدة ولا رياضة ، وكان ملكا حرا ، فيقال له حينئذ :

---

(١) الحديث ذكره القرطبي فى تفسيره (٧/ ٦١٧٣) عن أبى أمامة.

(٢) أخرجه مطولا البزار (كشف الأستار/ ٨١) ، وأبو نعيم فى الحلية (٢/ ٢٤٣) من حديث أنس رضي اللّه عنه. وأخرجه الطبراني فى الأوسط (ح ٥٧٥٤) من حديث ابن عمر رضي اللّه عنه.

(٣) أخرجه أحمد (٤/ ١٢٤) وابن ماجه فى (الزهد ، بات ذكر الموت والاستعداد له ، ح ٤٢٦٠) والترمذي ، وحسّنه فى (صفة القيامة والرّقائق ، ح ٢٤٥٩) والحاكم (٤/ ٢٥١) «وصحّحه وأقره

الذهبي» والطبراني فى الكبير (٧/ ٣٣٨ ، ح ٧١٤١) وابن المبارك فى الزهد (٥٦ ح ٢٥) من حديث شداد بن أوس.

(٤) أخرجه البغوي فى شرح السنة (٢١٣) والبغدادي فى تاريخ بغداد (٤/ ٣٦٩) من حديث عبد اللّه بن عمرو بن العاص. وقد بسط الكلام على هذا الحديث الحافظ ابن رجب فى «جامع العلوم والحكم» فراجعه إن شئت.

(٣١٢/٥)

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٣١٣

لك الدهر طوع ، والأنام عبيد فعش ، كل يوم من أيامك «١» عيد.

وطريق السير فى هذا أن يساس نفسه شيئا فشيئا ، يمنعها من المكروهات ، ثم من المباحات شيئا فشيئا ، حتى تستأنس ، يترك شهوة ثم أخرى ، وهكذا ، وأما لو منعها الكلّ دفعة واحدة فربما تمل وتسقط ، وقد قال عليه الصلاة والسّلام : «لا يكن أحدكم كالمنبت ، لا أرضا قطع ، ولا ظهرا أبقى» «٢». وإلى هذا أشار فى المباحث ، حيث قال :

واحتل على النّفس فرّب حيله أنفع فى النّصرة من قبيله

وأعظم الحظوظ حب الجاه والتقدم ، فلا يسامحها المريد فى شيء من ذلك قط ، ولينزل بها إلى الخمول والسفليات ، وأما شهوة البطن والفرج فما تشوفت إليه النّفس من ذلك فليمنعها منها كليا ، وما أتاها من غير حرص ولا تشوف فليأخذ منه قدر الحاجة ، مع الشكر عليه ، هكذا يسير حتى يتحقق وصوله ، ويتمكن من معرفة الحق ، وحينئذ فلا كلام معه ، كما تقدم ، ولا بد من صحبة شيخ عارف كامل ، يلقيه زمام نفسه ، فيحمله بهمته ، وإلا فلا طاقة على مجاهدتها أصلا ، وجرّب ففى التجريب علم الحقائق.

قال القشيري : من لم يسلك سبيل الاتباع ، ولم يستوف أحكام الرّياضة ، ولم ينسلخ عن هواه بالكلية ، ولم يؤدبه إمام مقتدى به ، فهو ينحرف فى كلّ وهدة ، ويهيم فى كلّ ضلالة ، ويضلّ فى كلّ فجّ ، خسرانه أكثر من ربحه ، ونقصانه أوفر من رجحانه ، أولئك فى ضلال بعيد ، زمامهم بيد هواهم ، أولئك أهل المكر ، استدرجوا وما يشعرون. هـ. وفى الحكم : «لا يخاف أن تلتبس الطرق عليك ، وإنما يخاف من غلبة الهوى عليك» «٣». فمن غلبه الهوى غلبه الوجود بأسره ، وتصرف فيه ، أحب أم كره ، ومن غلب هواه غلب الوجود بأسره ، وتصرف فيه بهمته كيف شاء.

حكى عن أبى عمران الواسطي ، قال : انكسرت بنا السفينة ، فبقيت أنا وامرأتى على ألواح ، وقد ولدت فى تلك الليلة صبية ، فصاحت بي ، وقالت : يقتلنى العطش ، فقلت : هو ذا يرى حالنا ،

فرفعت رأسى ، فإذا رجل جالس فى يده سلسلة من ذهب ، فيها كوز من ياقوت أحمر ، فقال : هاك اشربا ، فأخذت الكوز ، فشربنا ، فإذا هو أطيب من

---

(١) هكذا ، وأرى – أنها «زمانك» ليستقيم الوزن.

(٢) أخرجه البيهقي السنن (٣/ ١٨) والبزار (٧٤) والحاكم فى معرفة علوم الحديث (ص ٩٦) والشهاب القضاعي فى مسنده (ح ١١٤٧ ، وح ١١٤٨) عن جابر مرفوعا ، بلفظ «إن هذا الدين متين ، فأوغل فيه برفق ، فإنّ المنبت ..» إلخ الحديث ، وزاد القضاعي بعد «فأوغل فيه برفق» : «ولا تبغض إلى نفسك عبادة اللّه» وأخرجه بنحوه البيهقي فى الشعب (ح ٣٨٨٥) عن السيدة عائشة رضي اللّه عنها ، و(ح ٣٨٨٦) عن عمرو بن العاص رضي اللّه عنه.

وانظر الشذرة فى الأحاديث المشتهرة (ح ٨٩٣) وكشف الخفاء (٢٣٣٩).

(٣) حكمة رقم (١٠٧) انظر تبويب الحكم ص ١٧.

المسك ، وأبرد من الثلج ، وأحلى من العسل ، فقلت : من أنت؟ فقال : أنا عبد لمولاك ، فقلت : بم وصلت إلى هذا؟

فقال : تركت هواى لمرضاته ، فأجلسنى فى الهواء ، ثم غاب ولم أره. هـ. وقال سهل رضي اللّه عنه : هواك داؤك ، فإن خالفته فدواؤك ، وقال وهب : إذا عرض لك أمران ، وشككت فى خيرهما ، فانظر أبعدهما من هواك فأته. هـ. ومثله فى الحكم : «إذا التبس عليك أمران ، فانظر أثقلهما على النّفس ، فاتبعه ، فإنه لا يثقل عليها الا ما كان حقا». فالعز كله فى مخالفة الهوى ، والذل والهوان كله فى متابعة الهوى ، فنون الهوان سرقت من الهوى ، كما قال الشاعر :

لون الهوان من الهوى مسروقة أسير كلّ هوى أسير هوان.

وقال آخر :

إن الهوى لهو الهوان بعينه فإذا هويت فقد لقيت هوانا

وإذا هويت فقد تعبّدك الهوى فاخضع لحبّك كائنا من كانا

وقال ابن المبارك :

ومن البلاء للبلاء علامة ألا يرى لك عن هواك نزوع

العبد أعنى النّفس فى شهواتها والحرّ يشبع تارة ويجوع. «١»

ولابن دريد :

إذا طالبتك النّفس يوما بشهوة وكان إليها للخلاف طريق

فدعها وخالف ما هويت فإنما هواك عدو والخلاف صديق

وقال أبو عبيد الطوسي :

والنّفس إن أعطيتها مناها فاغرة نحو هواها فاها

هذا ، وللآية إشارة آخري ، رويت عن بعض مشايخنا ، قال : يمكن أن تكون الآية مدحا ، يقول تعالى : أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلهَهُ ، وهو اللّه تعالى ، ومحبوبه وهواه ، لا يهوى معه غيره ، وأضله اللّه ، فى محبته ، على علم منه باللّه ، وختم على سمعه وقلبه بمحبته ، فلا يسمع إلا منه ، ولا يحب غيره ، وجعل على بصره غشاوة ، فلا يرى سواه ، فمن

---

(١) انظر ديوان ابن المبارك (ص ٨٢) والبيت فيه : [والعبد عبد النّفس] كما جاء البيتان فى ديوان سيدنا علىّ بن أبى طالب رضي اللّه عنه ، (ص ١٢٢) ومعهما بيت ثالث ، هو :

وكفاك من عبر الحوادث أنه يبلى الجديد ويحصد المزروع

يهديه هذه الهداية العظمى من بعد اللّه ، «١» وهذا يسلّم فى طريق الإشارة ، لأنها خارجة عن سياق العبارة ، وللقرآن أسرار باطنة ، يعرفها أهل الباطن فقط ، فسلّم تسلم.

ثم ذكر مقالة أهل الأهواء والضلال ، فقال :

[سورة الجاثية (٤٥) : الآيات ٢٤ الى ٢٥]

وَقالُوا ما هِيَ إِلاَّ حَياتُنَا الدُّنْيا نَمُوتُ وَنَحْيا وَما يُهْلِكُنا إِلاَّ الدَّهْرُ وَما لَهُمْ بِذلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ (٢٤) وَإِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا بَيِّناتٍ ما كانَ حُجَّتَهُمْ إِلاَّ أَنْ قالُوا ائْتُوا بِآبائِنا إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (٢٥)

يقول الحق جل جلاله : وَقالُوا من غاية غيهم وضلالهم : ما هِيَ أي : ما الحياة لأنهم وعدوا حياة ثانية ، إِلَّا حَياتُنَا الدُّنْيا التي نحن فيها ، نَمُوتُ وَنَحْيا أي : يصيبنا الموت والحياة فيها ، وليس وراء ذلك حياة ، أو : نموت بأنفسنا ونحيا ببقاء أولادنا ، أو : يموت بعض ويحيا بعض ، أو : نكون مواتا نطفا فى الأصلاب ، ونحيا بعد ذلك. وقيل : هذا كلام من يقول بالتناسخ ، فإنه عقيدة أكثر عبدة الأوثان ، أي : يموت الرّجل ، ثم تجعل روحه فى شبح آخر ، فيحيا به ، وهو باطل عند أهل الإسلام. ثم قالوا :

وَما يُهْلِكُنا إِلَّا الدَّهْرُ إلا مرور الزمان وهو فى الأصل : مدة بقاء العالم ، من : دهره : إذا غلبه ، وكانوا يزعمون أن مرور الزمان بالليالي والأيام هو المؤثّر فى هلاك الأنفس ، وينكرون ملك الموت ، وقبضه الأرواح بأمر اللّه تعالى ، وكانوا يضيفون كلّ حادثة تحدث إلى الدهر والزمان ، كما قال شاعرهم :

أشاب الصغير وأفنى الكبير كرّ الغداة ومرّ العشىّ.

ومنه قول تبع الأكبر ، أو غيره :

منع البقاء تغرّب الشمس وطلوعها من حيث لا تمسى

وطلوعها بيضاء صافية وغروبها صفراء كالورس «٢»

تجرى على كبد السماء كما يجرى حمام الموت بالنفس

اليوم أعلم ما يجىء به ومضى بفصل قضائه أمس

---

(١) فى هذا الكلام نظر.

(٢) الورس : نبات كالسمسم أصفر يزرع باليمن ويصبغ به ، ويتخذ منه الغمرة للوجه. وقيل صنف من الكمكم ، وقيل : يشبهه. انظر اللسان (ورس ٦/ ٤٨١٢) ومحيط المحيط (ص ٩٦٥).

فإن كان تبّعا المتقدم فنسبة الفعل إلى الدهر مجاز ، كما سيأتى ، وعقيدة الموحدين ألّا فاعل إلا اللّه ، فالدهر مسخّر بأمر اللّه وقدرته ، بل هو من أسرار اللّه وأنوار صفاته ، ولذلك قال صلّى اللّه عليه وسلم : «لا تسبّوا الدهر ، فإن اللّه هو الدهر» «١» وقال صلّى اللّه عليه وسلم : «قال اللّه تعالى : يؤذينى ابن آدم ، يسبّ الدّهر ، وأنا الدهر ، بيدي الأمر ، أقلّب الليل والنّهار» «٢» فالأمور كلها بيد اللّه ، والدهر إنما هو مظهر لعجائب القدرة ، كما قال أبو على الثقفي رضي اللّه عنه :

يا عاتب الدهر إذا نابه «٣» لا تلم الدهر على غدره

الدهر مأمور له آمر قد انتهى الدهر إلى أمره

كم كافر أمواله جمّة تزاد أضعافا على كفره؟

ومؤمن ليس له درهم يزداد إيمانا على فقره؟

وقد ينسب أهل التوحيد الفعل إلى الدهر مجازا ، تغزلا ، فى أشعارهم ، كما قال عبد الملك بن مروان ، حين ضعف حاله :

فاستأثر الدهر الغداة بهم والدهر يرمينى وما أرمى

يا دهر قد أكثرت فجعتنا بسراتنا وقرت فى العظم
وتركتنا لحمّا على وضم «٤» لو كنت تستبقى من اللحم!!
وسلبتنا ما لست تعقبنا يا دهر ما أنصفت فى الحكم!!.

قال تعالى : وَما لَهُمْ بِذلِكَ مِنْ عِلْمٍ أي : ليس لهم بما ذكر من اقتصار الحياة على ما فى الدنيا ، وإسناد التأثير إلى الدهر ، (من علم) يستند إلى عقل ولا نقل ، إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ما هم إلا قوم قصارى أمرهم الظن والتقليد ، هذا معتقدهم الفاسد فى أنفسهم.

---

(١) أخرجه مسلم فى (الألفاظ من الأدب ، باب النّهى عن سب الدهر ، رقم ٢٢٤٦ ، ح ٥) من حديث أبى هريرة رضي اللّه عنه. قال الخطابي : معناه أنا صاحب الدهر ، ومدبر الأمور التي ينسبونها إلى الدهر فمن سب الدهر من أجل أنه فاعل هذه الأمور عاد سبه إلى ربه الذي هو فاعلها. انظر فتح الباري (٨/ ٤٣٨). [.....]

(٢) أخرجه البخاري فى (التفسير – تفسير سورة الجاثية ، باب وَما يُهْلِكُنا إِلَّا الدَّهْرُ ح ٦٢٨٤) وفى (الأدب ، باب لا تسبوا الدهر) ومسلم فى (الموضع السابق ، ح ٢) من حديث أبى هريرة رضي اللّه عنه.

(٣) فى الأصول : [يا عالما بعجب من دهره] والمثبت من تفسير القرطبي.

(٤) الوضم : خشبة الجزار يقطع عليها اللحم ، وكلّ ما وقيت به اللحم عن الأرض من خشب وحصير. يجمع على أوضام وأوضمة.
وتركهم لحما على وضم ، أي أوقع بهم فذلّلهم وأوجعهم. انظر اللسان (وضم ٦/ ٤٨٦١).

(٣١٦/٥)

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٣١٧

وَإِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا الناطقة بالحق ، الذي من جملته البعث ، بَيِّناتٍ واضحات الدلالة على ما نطقت به ، أو مبينات له ، ما كانَ حُجَّتَهُمْ ما كان متمسكا لهم شيء من الأشياء ، إِلَّا أَنْ قالُوا ائْتُوا بِآبائِنا إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ فى أنّا نبعث بعد الموت ، أي : لا شبهة لهم إلا هذا القول الباطل ، الذي يستحيل أن يكون من قبيل الحجة ، أي : ليس لهم حجة إلا العناد والاستبعاد. وتسميته حجة إما لسوقهم إياه مساق الحجة فى زعمهم ، أو تهكما بهم ، كقول القائل : «تحية بينهم ضرب وجيع». قال ابن عرفة : وَإِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ ... الآية ، أي : إنهم مع كونهم ظانين فهم بحيث لو استدل لهم لما ازدادوا إلا ضلالا ، وقد تقرر فى علم الجدل أن المصمم على الشيء يصعب نقله عنه ، بخلاف الظان والشاك ،

فأتت هذه الآية نفيا لما يتوهم فى هؤلاء أنهم حيث لا يقين عندهم يسهل رجوعهم ، حين تظهر الحجة. هـ. ومن نصب «حجتهم» فخبر كان ، ومن رفعه فاسمها «١».

الإشارة : قال القشيري : وَقالُوا ما هِيَ إِلَّا حَياتُنَا الدُّنْيا ... الآية ، اغتروا بما وجدوا عليه خلفهم ، وأرخوا فى البهيمية عنانهم وعمرهم ، وأغفوا عن ذكر الفكرة قلوبهم ، فلا بالعلم استبصروا ، ولا من الحقائق استمدوا ، رأس ما لهم الظن ، وهم غافلون ، وإذا تتلى عليهم الآيات طلبوا إحياء موتاهم ، وسوف يرون ما استبعدوا. هـ.

ثم قرر البعث الذي أنكروه ، فقال :

[سورة الجاثية (٤٥) : الآيات ٢٦ الى ٣٢]

قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ لا رَيْبَ فِيهِ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٢٦) وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ (٢٧) وَتَرى كُلَّ أُمَّةٍ جاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعى إِلى كِتابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٨) هذا كِتابُنا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٩) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ (٣٠)

وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آياتِي تُتْلى عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنْتُمْ قَوْماً مُجْرِمِينَ (٣١) وَإِذا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لا رَيْبَ فِيها قُلْتُمْ ما نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلاَّ ظَنًّا وَما نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ (٣٢)

---

(١) قرأ الجمهور «حجتهم» بالنصب ، وعن الحسن وغيره «حجتهم» بالرفع ، اسم كان ، و«إلا أن قالوا» الخبر ، وهى قراءة شاذة. انظر :

الإتحاف (٢/ ٤٦٧) وإعراب القراءات الشاذة للعكبرى (٢/ ٤٧١).

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٣١٨

قلت : (و يوم) : منصوب بيخسر ، و«يومئذ» بدل منه ، و«كل أمة تدعى» : مبتدأ وخبر ، ومن نصب «١» فبدل من «كل أمة» ، (و الساعة لا ريب فيها) من رفعها فمبتدأ «٢» ، ومن نصبها فعطف على (وعد اللّه).

يقول الحق جل جلاله : قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ فى الدنيا ثُمَّ يُمِيتُكُمْ عند انقضاء أعماركم ، لا كما تزعمون من أنكم تحيون وتموتون بحكم الدهر ، ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ بعد الموت إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ للجزاء ، لا رَيْبَ فِيهِ أي : فى جمعكم فإنّ من قدر على البدء قدر على الإعادة ، والحكمة اقتضت الجمع للجزاء لا محالة ،

وتأخيره ليوم معلوم ، والرّدّ لأبائهم كما اقترحوا ، حيث كان مزاحما للحكمة التشريعية ، امتنع إيقاعه لرفع الإيمان بالغيب حينئذ ، وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ قدرة اللّه على البعث ، وحكمة إمهاله ، لإعراضهم عن التفكر بالانهماك فى الغفلة ، وهو استدراك من قوله : (لا ريب) ، إما من تمام الكلام المأمور به ، أو مستأنف من جهته تعالى ، تحقيقا للحق ، وتنبيها على أن ارتيابهم إنما هو لجهلهم وتقصيرهم فى التفكر والنّظر ، لا لأن فيه شائبة ريب ما.

وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ أي : له التصرف فيهما وفيما بينهما ، وهو بيان لاختصاص الملك المطلق باللّه ، إثر بيان تصرفه تعالى فى النّاس بالإحياء والإماتة ، والبعث والجمع والجزاء ، وكأنه دليل لما قبله ، وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ الداخلون فى الباطل ، وهو الكفر ، وَتَرى كُلَّ أُمَّةٍ من الأمم المجموعة جاثِيَةً باركة على الرّكب ، مستوفزة من هول ذلك اليوم ، يقال : جثا فلان يجثو : إذا جلس على ركبتيه ، قال سلمان رضي اللّه عنه : فى القيامة ساعة هى عشر سنين ، يخرّ النّاس فيها جثاة على ركبهم ، حتى إن إبراهيم ينادى : نفسى نفسى «٣». هـ. وروى : أن جهنم حين يؤمر بها أن تساق إلى الموقف ، تنفلت من أيدى الزبانية ، حتى تهم أن تأتى على أهل الموقف جميعا ، وتزفر زفرة تذهب بحاسة الآذان ، فيجثوا الكلّ على الرّكب ، حتى المرسلين ، وكلّ واحد يقول : نفسى نفسى ، لا أسألك اليوم غيرها ، ونبينا عليه الصلاة والسّلام يقول : «أمتى أمتى». نقله الغزالي ، وعن ابن عباس : جاثية : مجتمعة ، وقيل : جماعات ، من : الجثوة ، وهى الجماعة.

كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعى إِلى كِتابِهَا صحيفة أعمالها ، والمراد الجنس ، أي : صحائف أعمالها ، الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ فى الدنيا ، ثم يقال لهم : هذا كِتابُنا ، أضيف الكتاب إليهم أولا لملابسته إياهم ، لأن أعمالهم مثبتة فيه ، وإلى اللّه ثانيا لأنه مالكه ، والآمر للملائكة بكتبه ، وأضيف لنون العظمة تفخيما لشأنه ، وتهويلا

---

(١) قرأ يعقوب بنصب «كل» وقرأ الباقون برفعها.

(٢) قرأ حمزة «والساعة» بالنصب ، وقرأ الباقون بالرفع.

(٣) ذكره البغوي فى تفسيره (٧/ ٢٤٦) والقرطبي (٧/ ٦١٨٠).

لأمره ، يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ يشهد عليكم ملتبسا بالحق ، من غير زيادة ولا نقصان ، إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ أي : نستكتب ونطلب نسخ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ فى الدنيا ، من الأعمال ، حسنة أو سيئة ، وقال ابن عزيز

: نستنسخ :

نثبت ، ويقال : نستنسخ : نأخذ نسخته ، وذلك أن الملكين يرفعان عمل الإنسان ، صغيره وكبيره ، فيثبت اللّه منه ما كان له ثواب أو عقاب ، ويطرح منه اللغو ، وروى عن ابن عباس وغيره حديثا : «أن اللّه يأمر بعرض أعمال العباد كلّ يوم خميس ، فينقل من الصحف التي ترفع الحفظة ، كل ما هو معدّ أن يكون له ثواب وعقاب ، ويلقى الباقي ، فهذا هو النّسخ من أصل.

وقيل : المراد بكتابنا : اللوح المحفوظ. قال صلّى اللّه عليه وسلم : «أول ما خلق اللّه القلم من نور مسيرة خمسمائة عام ، واللوح من نور مسيرة خمسمائة عام ، فقال للقلم : أجر ، فجرى بما هو كائن إلى يوم القيامة من عمل ، برها وفاجرها ، ورطبها ويابسها ، ثم قرأ : هذا كِتابُنا يَنْطِقُ .. الآية» ، فيروى «أن الملائكة تصعد كلّ يوم إلى الملك الموكل باللوح ، فيقولون : أعطنا ما يعمل صاحبنا اليوم ، فينسخ من اللوح عمله ذلك اليوم ، ويعطيه إياهم ، فإذا انقضى أجله ، قال لهم : لا نجد لصاحبكم عملا بقي له ، فيعلمون أنه انقضى أجله».

ثم فصّل أحوال أهل الموقف ، فقال : فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ، أي : جنته ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ الظاهر ، الذي لا فوز وراءه ، وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فيقال لهم على وجه التقريع والتوبيخ : أَفَلَمْ تَكُنْ آياتِي تُتْلى عَلَيْكُمْ أي : ألم تكن تأتيكم رسلى فلم تكن آياتي تتلى عليكم ، فحذف المعطوف عليه ، ثقة ، بقرينة الكلام ، فَاسْتَكْبَرْتُمْ عن الإيمان بها ، وَكُنْتُمْ قَوْماً مُجْرِمِينَ أي : قوما عادتكم الإجرام.

وَإِذا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ أي : وكنتم إذا قيل لكم : إن وعد اللّه بالجزاء حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لا رَيْبَ فِيها أي : فى وقوعها قُلْتُمْ ما نَدْرِي مَا السَّاعَةُ أىّ شىء هى الساعة ، استهزاء بها ، إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا ، أصله : نظن ظنا ، ومعناه : إثبات الظن ، فحسب ، فأدخل حرف النّفى والاستثناء ليفيد إثبات الظن مع نفى ما سواه. وقال المبرد : أصله : إن نحن إلا نظن ظنا ، وإنما أوّله لأنه لا يصح التفريع فى المصدر المؤكد ، لعدم حصول الفائدة ، إذ لا معنى لقولك : لا نضرب إلا ضربا ، وجوابه : إن المصدر نوعى لا مؤكد ، أي : ظنا حقيرا ضعيفا. وفى الآية اللف والنّشر المعكوس «١». فقوله : قُلْتُمْ ما نَدْرِي مَا السَّاعَةُ راجع لقوله : وَالسَّاعَةُ لا رَيْبَ فِيها ، وقوله : إِنْ نَظُنُّ إِلَّا

---

(١) اللف والنّشر : هو أن يذكر متعدد ثم يذكر ما لكلّ من أفراده ، شائعا من غير تعيين ، اعتمادا على تصرف السامع فى رده إليه ، وهو إما أن يكون النّشر فيه على ترتيب اللف ، نحو : وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ، وإما أن يكون على خلاف ترتيبه ، نحو فَمَحَوْنا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنا آيَةَ النَّهارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسابَ.

انظر التعريفات (٢٤٤) ومحيط المحيط (ص ٥٦١).

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٣٢٠

ظَنًّا راجع لقوله : إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ، وكذا قوله : وَما نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ أي : لا يقين عندنا ، وهو راجع لقوله إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ. قاله ابن عرفة. ولعل هؤلاء غير القائلين : ما هِيَ إِلَّا حَياتُنَا الدُّنْيا. واللّه أعلم.

الإشارة : قل اللّه يحييكم الحياة الفانية ، ثم يميتكم عن حظوظكم ، وعن شهود وجودكم ، ثم يجمعكم به إلى يوم القيامة ، لا يعزلكم عن رؤيته أبدا ، ولكن أكثر النّاس لا يعلمون أن هذا يقع فى الدنيا ، مع أن الملك للّه يتصرف فيه كيف شاء ، يوصّل من أراد ، ويبعد من شاء. ويوم تقوم الساعة يخسر الباطلون والمبطلون ، ويفوز المجتهدون والواصلون. وترى كلّ أمة جاثية من هيبة المتجلى باسمه القهار ، وهذه القهرية – نعم – لا ينجو منها خاص ولا عام لأن الطبع البشرى يثبت عند صدمات الجلال. وقوله تعالى : كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعى إِلى كِتابِهَا هو أيضا عام ، فيستبشر المجتهدون ، ويحزن البطالون ، ولا يظلم ربك أحدا ، فاليوم يوم عمل ، وغدا يوم جزاء ، فأهل الإيقان يفوزون بغاية النّعيم والرّضوان ، وأهل الشك يخلدون فى الخسران ، فيظهر لهم ما لم يكونوا يحتسبون ، كما قال :

[سورة الجاثية (٤٥) : الآيات ٣٣ الى ٣٧]

وَبَدا لَهُمْ سَيِّئاتُ ما عَمِلُوا وَحاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (٣٣) وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنْساكُمْ كَما نَسِيتُمْ لِقاءَ يَوْمِكُمْ هذا وَمَأْواكُمُ النَّارُ وَما لَكُمْ مِنْ ناصِرِينَ (٣٤) ذلِكُمْ بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آياتِ اللَّهِ هُزُواً وَغَرَّتْكُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا فَالْيَوْمَ لا يُخْرَجُونَ مِنْها وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (٣٥) فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّماواتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعالَمِينَ (٣٦) وَلَهُ الْكِبْرِياءُ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٣٧)

يقول الحق جل جلاله : وَبَدا لَهُمْ أي : ظهر لهؤلاء الكفرة سَيِّئاتُ ما عَمِلُوا قبائح أعمالهم على ما هى عليه من الصورة المنكرة الهائلة ، وعاينوا وخامة عاقبتها ، أو : جزاؤها ، فإن جزاء السيئة سيئة مثلها ، وَحاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ أي : نزل بهم جزاء استهزائهم من العقاب العظيم ، وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنْساكُمْ نترككم ترك المنسى ، كَما نَسِيتُمْ فى الدنيا لِقاءَ يَوْمِكُمْ هذا أي : كما تركتم الاستعداد له ، ولم تبالوا به. وإضافة اللقاء إلى اليوم إضافة المصدر إلى ظرفه ، أي : لقاء اللّه فى يومكم هذا ، أو لقاء جزائه ، وَمَأْواكُمُ النَّارُ أي : منزلكم ، وَما لَكُمْ مِنْ ناصِرِينَ لا أحد يمنعكم أو يخلصكم منها.

ذلِكُمْ العذاب بِأَنَّكُمُ بسبب أنكم اتَّخَذْتُمْ آياتِ اللَّهِ المنزّلة هُزُواً مهزوا بها ، ولم ترفعوا لها رأسا ، وَغَرَّتْكُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا وألهتكم زخارف الدنيا ، فحسبتم ألّا حياة بعدها ، فَالْيَوْمَ

لا يُخْرَجُونَ مِنْها

أي : من النّار ، والالتفات إلى الغيبة للإيذان بإسقاطهم عن رتبة الخطاب ، استهانة بهم. وقرأ الأخوان بالخطاب «١». وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ أي : لا يطلب منهم أن يعتبوا ربهم ، أي : يرضوه بعمل صالح لفوات إبانه ، وإن طلبوا الرّجوع لم يقبل منهم.

فَلِلَّهِ الْحَمْدُ خاصة ، رَبِّ السَّماواتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعالَمِينَ ، فلا يستحق الحمد أحد سواه ، أي : فاحمدوا اللّه الذي هو ربكم ورب كلّ شيء ، فإن مثل هذه الرّبوبية العامة ، توجب الحمد والثناء على كلّ مربوب ، وتكرير الرّب للتأكيد والإيذان بأن ربوبيته تعالى لكلّ منهما بطريق الأصالة. وَلَهُ الْكِبْرِياءُ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ أي : وكبّروه ، فقد ظهرت آثار كبريائه وعظمته فى السموات والأرض ، وإظهارهما فى موضع الإضمار لتفخيم شأن الكبرياء ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الذي لا يغلب ، الْحَكِيمُ فى كلّ ما قضى وقدّر ، فاحمدوه وكبّروه ، وأطيعوه ، فصاحب هذه الصفات العظام مستحق لذلك.

الإشارة : وقيل اليوم ننساكم من شهود قربى ، كما نسيتم لقاء يومكم هذا ، فلو ذكرتمونى على الدوام لقربتكم على الدوام ، ولو ذكرتمونى على الانفراد لأشهدتكم ذاتى على التماد ، ولكنكم اتخذتم آيات اللّه الدالة على وجودى من الكائنات ، والدالة على شهودى من الأولياء ، هزوا ، وغرتكم الحياة الدنيا ، فاليوم لا يخرجون من غم الحجاب ، ولا يمنعون من انسداله ، ولا هم يرضون ربهم ، فيرضى عنهم ، فللّه الحمد على غناه عن الكل ، وله الكبرياء فى السموات والأرض ، أي : رداء الكبرياء منشور على أسرار ذاته فى السموات والأرض ، وهو ما ظهر من حسها ، كما هو منشور على وجهه فى جنة عدن ، كما فى الحديث.

وقال الورتجبي : نفى الحق الكبرياء عن الحدثان لأنه هو المستحق للكبرياء ، وكبرياؤه ظاهر فى كلّ ذرة ، من العرش إلى الثرى ، إذ هى كلها مستغرقة مقهورة فى أنوار كبريائه ، يعز بعزه الأولياء ، ويقهر بقهره الأعداء ، حكيم فى إبداع الخلق وإلزامهم عبوديته ، التي هى شرائعه المحكمة بحكمه ، وقال سهل رضي اللّه عنه : وله الكبرياء : العلو والقدرة والعظمة ، والحول والقوة فى جميع الملك ، فمن اعتصم به أيّده بحوله وقوته ، ومن اعتمد على نفسه وكله اللّه إليها. هـ. وباللّه التوفيق ، وصلّى اللّه على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

---

(١) قرأ حمزة والكسائي : «لا تخرجون» بفتح الياء وضم الرّاء. وقرأ الآخرون بضم الياء وفتح الرّاء. انظر الإتحاف (٢/ ٤٦٨).

(٣٢٢/٥)

سورة الأحقاف

مكية : وقيل : إلا قوله : قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ «١» الآية ، وقوله : فَاصْبِرْ كَما صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ «٢». وهى خمس وثلاثون آية. ومناسبتها لما قبلها : قوله : ذلِكُمْ بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آياتِ اللَّهِ هُزُواً «٣» أي : حيث قلتم : إن محمدا اختلقها ، مع قوله : تَنْزِيلُ الْكِتابِ مِنَ اللَّهِ ، فهى رد عليهم.

[سورة الأحقاف (٤٦) : الآيات ١ الى ٣]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

حم (١) تَنْزِيلُ الْكِتابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (٢) ما خَلَقْنَا السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما إِلاَّ بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنْذِرُوا مُعْرِضُونَ (٣)

يقول الحق جل جلاله : حم يا محمد ، أو : الوحى إلى محمد ، تَنْزِيلُ الْكِتابِ مِنَ اللَّهِ أي : هذا تنزيل القرآن ، وهو من اللّه الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ، فمن حفظه ، وعرف ما فيه ، وعمل بمضمنه كان عزيزا على اللّه ، حكيما فيما يبدئ ويعيد. ما خَلَقْنَا السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما من المخلوقات إِلَّا بِالْحَقِّ أي :

إلا ملتبسا بالحق الذي تقتضيه الحكمة التكوينية والتشريعية ، فالاستثناء مفرغ من أعم المفاعيل ، أو من أعم الأحوال ، أي : ما خلقناهما فى حال من الأحوال إلا حال ملابستنا بالحق ، وفيه من الدلالة على وجود الصانع ، وصفات كماله ، وابتناء أفعاله على حكمة بالغة ، ما لا يخفى ، وَأَجَلٍ مُسَمًّى تنتهى إليه ، وهو يوم القيامة ، يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات. وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنْذِرُوا به من هول ذلك اليوم ، الذي لا بد لكل مخلوق من الانتهاء إليه ، مُعْرِضُونَ لا يؤمنون به ، ولا يهتمون بالاستعداد له ، ويجوز أن تكون «ما» مصدرية ، أي : عن إنذارهم ذلك اليوم معرضون.

وحاصل افتتاح السورة : أنّ الوحى الخاص إلى محمد هو منزل من اللّه العزيز ، الذي عزّ عن الافتراء عليه ، وأعزّ بالوحى من تمسك به ، الحكيم فى تنزيله وحيه ، مرشدا لعباده لما فيه صلاحهم وهداهم ، ومن حكمته : أنّ

---

(١) الآية ١٠ من السورة.

(٢) الآية الأخيرة.
(٣) من الآية ٣٥ من سورة الجاثية.

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٣٢٤
خلق السموات والأرض دالا بذلك على توحيده ، وكماله فى أوصافه وتدابيره ، المقتضية لترتب دار الجزاء على دار العمل ، بحيث لا يسوّى بين مبطل ومحق ، فأرشد بخلق الأشياء إلى حكمته دلالة ، ثم بإنزال الوحى بذلك قالة ، ومع وضوح الأمر فى دلالتهما أعرض الذين كفروا من غير دليل عقلى ولا نقلى متواتر ولا آحاد ، على أنّ ما اقتضاه الوحى إلى محمد من التوحيد ، والجزاء المرتب على الإخلاص له ، والصدق فى عبودية اللّه ، والدعاء إلى محاسن الأخلاق ، مما اجتمعت عليه الرّسل قبله ، فليس بمبدع من عنده. هـ. من الحاشية.
الإشارة : حم يا حبيب ممجد ، قد مجدناك بإنزال كتابتا ، وعززناك برسالتنا ، ما خلقنا الكائنات إلا ملتبسة بأسرار الحق ، وأهل الغفلة معرضون عن هذا.
قال القشيري : حميت قلوب أهل عنايتى ، فصرفت عنها خواطر التجويز ، ورميتها فى مشاهد اليقين بنور التحقيق ، فيها شواهد برهانهم ، أي : برهان العيان – فأضفنا إليها لطائف إحساننا ، فكملت منالها من عين الوصلة.
وغديناهم بنسيم الأنس فى ساحات القربة. (العزيز) المعز للمؤمنين بإنزال الكتب ، (الحكيم) لكتابه عن التبديل والتحويل. هـ. وخواطر التجويز هى خواطر الشك فى المقدور ، يجوز الوقوع وعدمه بسبب ضعف اليقين ، فإذا انتفى عن القلب خواطر التجويز ، دخله السكون والطمأنية ، وارتاح فى ظل برد الرّضا والتسليم. واللّه تعالى أعلم.
ثم وبّخهم على الشرك بعد ظهور بطلانه ، فقال :
[سورة الأحقاف (٤٦) : الآيات ٤ الى ٦]
قُلْ أَرَأَيْتُمْ ما تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي ما ذا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّماواتِ ائْتُونِي بِكِتابٍ مِنْ قَبْلِ هذا أَوْ أَثارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (٤) وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعائِهِمْ غافِلُونَ (٥) وَإِذا حُشِرَ النَّاسُ كانُوا لَهُمْ أَعْداءً وَكانُوا بِعِبادَتِهِمْ كافِرِينَ (٦)
يقول الحق جل جلاله : قُلْ يا محمد ، توبيخا وتبكيتا لهم : أَرَأَيْتُمْ أخبرونى ما تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ، ما

تعبدون من الأصنام من دون اللّه ، أَرُونِي ما ذا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أىّ شىء خلقوا فى الأرض إن كانوا آلهة؟ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّماواتِ أي : أم لهم شركة مع اللّه فى خلق السموات ، حتى يتوهم

(٣٢٤/٥)

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٣٢٥

أن تكون لهم شائبة استحقاق للعبادة؟ فإنّ من لا مدخل له فى شىء من الأشياء ، بوجه من الوجوه ، بمعزل من ذلك الاستحقاق بأسره ، وإن كان من الأحياء العقلاء ، فما ظنك بالجماد؟ ائْتُونِي بِكِتابٍ مِنْ قَبْلِ هذا أي : من قبل القرآن ، يعنى : أن هذا الكتاب ناطق بالتوحيد ، وإبطال الشرك ، وما من كتاب أنزل من قبله من كتب اللّه إلا وهو ناطق بمثل ذلك ، فأتوا بكتاب واحد منزل من قبله ، شاهد بصحة ما أنتم عليه من عبادة غير اللّه ، أَوْ أَثارَةٍ مِنْ عِلْمٍ أو بقية من علم بقيت عندكم من علوم الأقدمين ، شاهدة باستحقاق الأصنام للعبادة ، إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ فى أن اللّه أمركم بعبادة الأوثان ، فإن الدعوى لا تصح ما لم يقم عليها برهان عقلى ، ولا سلطان نقلى ، وحيث لم يقم عليها شىء ، بل قامت على خلافها أدلة العقل والنّقل تبين بطلانها.

وَمَنْ أَضَلُّ أي : لا أحد أشد ضلالا مِمَّنْ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ ، غاية لنفى الإجابة ، وَهُمْ عَنْ دُعائِهِمْ غافِلُونَ ، لأنهم جمادات لا يسمعون.

وَإِذا حُشِرَ النَّاسُ عند قيام الساعة كانُوا لَهُمْ أَعْداءً أي : الأصنام لعبدتها ، وَكانُوا أي : الأصنام بِعِبادَتِهِمْ كافِرِينَ ، جاحدين ، يقولون : ما دعوناهم إلى عبادتنا ، والحاصل : أنهم فى الدنيا لا ينفعونهم ، وفى الآخرة يتبرءون منهم ، ويكونون عليهم ضدا ، ولمّا أسند إليهم ما يسند إلى العقلاء من الاستجابة والغفلة عبّر عنهم ب «من» و«هم» ، ووصفهم بترك الاستجابة تهكما بها وبعبدتها. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : يقال لأهل الغفلة : أرأيتم ما تركنون إليه من الخلق ، هل لهم قوة على نفعكم أو ضركم؟ أَرُونِي ما ذا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّماواتِ ... الآية. فلا أحد أضل ممن يرجو الضعيف مثله ، الذي لا يستجيب له إلى يوم القيامة ، وهو غافل عن إجابته فى الحال والمآل ، وإذا أحبه على هوى الدنيا صارت يوم القيامة عدواة ومقتا.

ثم ذكر كفرهم بالتنزيل المتقدم ، فقال :

[سورة الأحقاف (٤٦) : الآيات ٧ الى ٨]

وَإِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا بَيِّناتٍ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جاءَهُمْ هذا سِحْرٌ مُبِينٌ (٧) أَمْ يَقُولُونَ افْتَراهُ

قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئاً هُوَ أَعْلَمُ بِما تُفِيضُونَ فِيهِ كَفى بِهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٨)

(٣٢٥/٥)

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٣٢٦

يقول الحق جل جلاله : وَإِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا بَيِّناتٍ ، واضحات ، أو : مبينات ، جمع بيّنة ، وهى الحجة والشاهد ، قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ أي : لأجله وفى شأنه ، والمراد بالحق : الآيات المتلوة ، وبالذين كفروا :

المتلوّ عليهم ، فوضع الظاهر موضع الضمير للتسجيل عليهم بالكفر والمتلو بالحق ، والأصل : قالوا فى شأن الآيات ، التي هى حق لَمَّا جاءَهُمْ أي : بادهوا الحق بالجحود ساعة أتاهم ، وأول ما سمعوه ، من غير إجالة فكر ولا إعادة نظر : هذا سِحْرٌ مُبِينٌ ظاهر كونه سحر.

أَمْ يَقُولُونَ افْتَراهُ ، إضراب وانتقال من حكاية شناعتهم السابقة – وهى تسميتهم الآيات سحرا ، إلى حكاية ما هو أشنع منها ، وهو كون الرّسول صلّى اللّه عليه وسلم افْتَراهُ أي : اختلقه ، وأضافه إلى اللّه كذبا ، والضمير للحق ، والمراد به الآيات. قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئاً أي : إن افتريته على سبيل الفرض لعاجلنى اللّه بعقوبة الافتراء ، فلا تقدرون على كفه عن معاجلتى ، ولا تملكون لى شيئا من دفعه ، فكيف أفتريه وأتعرض لعقابه الذي لا مناص منه؟! هُوَ أَعْلَمُ بِما تُفِيضُونَ فِيهِ من القدح فى وحي اللّه – تعالى – والطعن فى آياته ، وتسميته سحرا تارة وفرية أخرى. كَفى بِهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ حيث يشهد لى بالصدق والبلاغ ، وعليكم بالكذب والجحود ، وهو وعيد بجزاء إفاضتهم ، وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ لمن تاب وآمن ، وهو وعد لمن آمن بالمغفرة والرّحمة ، وترغيب فى الإسلام.

الإشارة : رمى أهل الخصوصية بالسحر عادة مستمرة ، وسنّة ماضية ، ولقد سمعنا هذا فينا وفى أشياخنا مرارا ، فيقول أهل الخصوصية : إن افترينا على اللّه كذبا عاجلنا بالعقوبة ، فَلا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئاً ... الآية.

ثم أمر نبيه بالجواب عما رموه به ، فقال :

[سورة الأحقاف (٤٦) : الآيات ٩ الى ١٠]

قُلْ ما كُنْتُ بِدْعاً مِنَ الرُّسُلِ وَما أَدْرِي ما يُفْعَلُ بِي وَلا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ ما يُوحى إِلَيَّ وَما أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ مُبِينٌ (٩) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرائِيلَ عَلى مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠)

يقول الحق جل جلاله : قُلْ ما كُنْتُ بِدْعاً أي : بديعا ، كخف وخفيف ، ونصب ونصيب ، فالبدع

والبديع من الأشياء : ما لم يتقدم مثله ، أي : لست بأول مرسل فتنكر نبوتى ، بل تقدمت الرّسل قبلى ، واقترحت عليهم المعجزات ، فلم يقدروا على الإتيان بشيء إلا ما أظهره اللّه على أيديهم ، فى الوقت الذي يريد. قيل : كانت

(٣٢٦/٥)

قريش تقترح على رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم آيات تظهر لهم ، ويسألونه عن الغيبيات ، عنادا ومكابرة ، فأمر صلّى اللّه عليه وسلم بأن يقول لهم : ما كنت بدعا من الرّسل ، قادرا على ما لم يقدروا عليه ، حتى آتيكم بكلّ ما تقترحونه ، وأخبركم بكلّ ما تسألون عنه من الغيوب ، فإنّ من قبلى من الرّسل – عليهم السّلام – ما كانوا يأتون إلا بما آتاهم اللّه – تعالى – من الآيات ، ولا يخبرون إلا بما أوحى إليهم ، وَما أَدْرِي ما يُفْعَلُ بِي وَلا بِكُمْ أي : لا أدرى ما يصيبنا فيما يستقبل من الزمان من أفعاله تعالى ، وما ذا يبرز لنا من قضاياه. وعن الحسن : ما أدرى ما يصير إليه أمرى وأمركم فى الدنيا.

وعن ابن عباس رضي اللّه عنه : ما يفعل بي ولا بكم فى الآخرة.

وقال : إنه منسوخ بقوله : لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَما تَأَخَّرَ. «١» قال شيخ شيوخنا الفاسى : وهو بعيد ، ولا يصح النّسخ لأنه لا يكون فى الأخبار ، ولأنه لم يزل يعلم أن المؤمن فى الجنة ، والكافر فى النّار ، من أول ما بعثه اللّه ، لكن محمل قول ابن عباس وغيره على أنه لم تكشف له الخاتمة ، فقال : لا أدرى ، وأما من وافى على الإيمان ، فقد أعلم بنجاته من أول الرّسالة ، وإلا فكان للكفار أن يقولوا : وكيف تدعونا إلى ما لا تدرى له عاقبة؟ قاله ابن عطية. هـ. وقال أبو السعود : والأوفق بما ذكر من سبب النّزول : أن «ما» عبارة عما علمه ليس من وظائف النبوة ، من الحوادث الواقعات الدنيوية ، دون ما سيقع فى الآخرة ، فإنّ العلم بذلك من وظائف النّبوة ، وقد ورد به الوحى ، الناطق بتفاصيل الفعل بالجانبين. هذا ، وقد روى عن الكلبي : «أن أصحاب النّبى صلّى اللّه عليه وسلم قالو له صلّى اللّه عليه وسلم وقد ضجروا من إذاية المشركين : متى نكون على هذا؟ فقال : ما أَدْرِي ما يُفْعَلُ بِي وَلا بِكُمْ أأترك بمكة أو أومر بالخروج إلى أرض ذات نخيل وشجر ، قد رفعت إلىّ ورأيتها. هـ. «٢». وسيأتى فى الإشارة تحقيق المسألة – إن شاء اللّه تعالى.

ثم قال : إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا ما يُوحى إِلَيَّ أي : ما أفعل إلا الاتباع ، على معنى : قصر أفعاله صلّى اللّه عليه وسلم على اتباع الوحى ، لا قصر اتباعه على الوحى ، كما هو المتبادر ، وهو جواب عن اقتراحهم الإخبار بالغيوب ، أو عن استعجال المسلمين أن يتخلصوا من إذاية المشركين ، والأول هو الأوفق بقوله : وَما أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ أنذركم عقاب اللّه – تعالى – حسبما يوحى إلىّ من الإنذار بالمعجزات

الباهرة.

---

(١) الآية الثانية من سورة الفتح.

(٢) ذكر الواحدي فى أسباب النّزول (ص ٣٩٥) عن الكلبي ، عن أبى صالح ، عن سيدنا ابن عباس : لمّا اشتد البلاء بأصحاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم ، رأى فى المنام أنه يهاجر إلى أرض ذات نخل وشجر وماء ، فقصّها على أصحابه ، فاستبشروا بذلك ، ورأوا فيها فرجا مما هم فيه من أذى المشركين ، ثم إنهم مكثوا برهة لا يرون ذلك ، فقالوا : يا رسول اللّه! متى نهاجر إلى الأرض التي رأيت؟ فسكت النبي صلّى اللّه عليه وسلم فأنزل اللّه تعالى : وَما أَدْرِي ما يُفْعَلُ بِي وَلا بِكُمْ.

ومعلوم أن الكلبي لم يسمع من أبى صالح ، وأبا صالح لم يسمع ابن عباس رضي اللّه عنه. [.....]

(٣٢٧/٥)

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٣٢٨

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كانَ ما يوحى إلىّ من القرآن مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لا بسحر ولا مفترى ، كما تزعمون وَقد كَفَرْتُمْ بِهِ ، وَشَهِدَ شاهِدٌ عظيم مِنْ بَنِي إِسْرائِيلَ الواقفين على شئون اللّه وأسرار الوحى ، بما أتوا من التوراة.

والشاهد : عبد اللّه بن سلام ، عند الجمهور ، ولهذا قيل : إن الآية مدنية ، لأن إسلام «عبد اللّه بن سلام» بالمدينة. قلت : لمّا علم اللّه ما يكون من ابن سلام من الإسلام أخبر به قبل وقوعه ، وجعل شهادته المستقبلة كالواقعة ، فالآية مكية.

وقوله : عَلى مِثْلِهِ أي : مثل القرآن من المعاني المنطوية فى التوراة ، المطابقة لما فى القرآن من الوعد والوعيد وغير ذلك ، فإنّ ما فيه عين ما فيها فى الحقيقة ، كايعرب عنه قوله تعالى : وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ «١» والمثلية باعتبار كونه من عند اللّه. وقيل : المثل : صلة.

فَآمَنَ ذلك الشاهد لمّا تحقق برسالته. روى أنه لما قدم رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم نظر إلى وجهه ، فعلم أنه ليس بوجه كذاب ، وقال له : إنى سائلك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبىّ : ما أول أشراط الساعة؟ وما أول طعام يأكله أهل الجنة؟ وما بال الولد ينزع إلى أبيه أو إلى أمه؟ فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم : «أما أول أشراط الساعة فنار تحشر النّاس من المشرق إلى المغرب ، وأول طعام يأكله أهل الجنة فزيادة كبد الحوت ، وأما الولد فإذا سبق ماء الرّجل نزعه ، وإن سبق ماء المرأة نزعته ، فقال : أشهد أنك رسول اللّه حقا ، فأسلم «٢».

وَاسْتَكْبَرْتُمْ عن الإيمان به ، وجواب الشرط محذوف ، والمعنى : أخبرونى إن كان من عند اللّه ، وشهد بذلك أعلم بنى إسرائيل ، فآمن به من غير تلعثم ، واستكبرتم عن الإيمان به بعد هذه البينة ، فمن أضل

منكم؟ بدليل قوله تعالى : أَرَأَيْتُمْ إِنْ كانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ ... الآية «٣» أو : إن كان القرآن من عند اللّه وكفرتم به ألستم ظالمين؟ ويدل عليه قوله : إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ، والتقديران صحيحان ، لأن عدم الهداية مستلزم الضلال ، ووصفهم بالظلم للإشعار بعلة الحكم ، فإن تركه – تعالى – لهدايتهم إنما هو لظلمهم. وقال الواحدي :

معنى : إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ : إن اللّه جعل جزاء المعاندين للإيمان بعد الوضوح والبيان أن يمدهم فى ضلالتهم ، ويحرمهم الهداية. هـ.

---

(١) الآية ١٩٦ من سورة الشعراء

(٢) أخرجه البخاري فى (تفسير سورة البقرة ، باب من كان عدوا لجبريل ح ٤٤٨٠) مطولا ، عن أنس رضي اللّه عنه ، وكذا أخرجه أحمد فى المسند (٣/ ١٠٨) والبيهقي فى الدلائل (٢/ ٥٢٨ – ٥٢٩).

(٣) الآية ٥٢ من سورة فصلت

الإشارة : قل ما كنت بدعا من الرّسل ، وكذلك الوليّ يقول : ما كنت بدعا من الأولياء ، مع العصمة والحفظ وصريح الوعد بالنجاة ، لا تساع معرفتهم وعلمهم باللّه لأنهم لا يقفون مع وعد ولا وعيد لأن غيب المشيئة لا يعلم حقيقته إلا اللّه ، وقد يكون الوعد معلقا بشروط أخفاها اللّه عنهم ، ليتحقق اختصاصه بحقيقة العلم ، وفى الحديث : «لا تأمن مكرى وإن أمّنتك» ، ولذلك كان العارف لا يزول اضطراره ، ولا يكون مع غير اللّه قراره ، وعلى ذلك الششترى فى نونيته ، حيث قال :

وأي وصال فى القضيّة يدّعى وأكمل من الخلق لم يدّع الأمنا؟

هذا ، وقد قال تعالى فى حق رسوله صلّى اللّه عليه وسلم : وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولى وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضى «١» وقال : لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَما تَأَخَّرَ «٢» ، ومع ذلك كله لم يقف مع ظاهر الوعد ، لغيب المشيئة ، فقال فى حديث ابن مظعون : «واللّه لا أدرى – وأنا رسول – ما يفعل بي» وحديث ابن مظعون بالمدينة بعد الهجرة «٣» ، فتبيّن أنّ الأمن الحقيقي لا يحصل لأحد قبل الختام ، وإن كان الغالب والطرف الرّاجح أن من وعد بخير أو بشّر به ينجز له بفضل اللّه وكرمه ، والكريم إذا وعد لا يخلف ، لكن المشيئة وقهرية الرّبوبية لا تزال فوق رأس العبد حتى يلقاه. واللّه تعالى أعلم.

قال القشيري : وفى الآية دليل على فساد قول أهل البدع ، حيث لم يجوزوا إيلام البريء عقلا لأنه لو

لم يجز ذلك لكان يقول : أعلم قطعا أنى معصوم ، فلا محالة يغفر لى ، ولكنه قال هذا ليعلم أن الأمر أمره ، والحكم حكمه ، له أن يفعل بعباده ما يريد. هـ.

وقال الورتجبي : لا أدرى أين استغرق فى بحار وصال جماله الأبدى ، وهناك لججات تغيب فى ذرة منها جميع الأرواح العاشقة ، والأسرار الوالهة ، والقلوب الحائرة. هـ. والحاصل : أنه لا يدرى نهاية مناله من اللّه ، لنفى الغاية فى حقه تعالى والنّهاية ، وهو صريح استبعاد الششترى دعوى الوصال ، واللّه أعلم. هـ من الحاشية.

---

(١) الآيتان : ٤ – ٥ سورة الضحى

(٢) الآية الثانية من سورة الفتح.

(٣) حديث عثمان بن مظعون – رضي اللّه عنه – أخرجه البخاري فى (الجنائز ، باب الدخول على الميت بعد الموت إذا أدرج فى أكفانه ، ح ١٢٤٣) ولفظه : عن خارجة بن زيد بن ثابت : أن أم العلاء – امرأة من الأنصار ، بايعت النّبى صلّى اللّه عليه وسلم – أخبرته أنه اقتسم المهاجرون قرعة فطار لنا عثمان بن مظعون فأنزلناه فى أبياتنا ، فوجع وجعه الذي توفى فيه ، فلما توفى وغسّل ، وكفن فى أثوابه ، دخل رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم ، فقلت : رحمة اللّه عليك أبا السائب ، فشهادتى عليك لقد أكرمك اللّه ، فقال النّبى صلّى اللّه عليه وسلم : «وما يدريك أن اللّه قد أكرمه؟» فقلت : بأبى أنت يا رسول اللّه ، فمن يكرمه اللّه؟ فقال : «أما هو فقد جاءه اليقين ، واللّه إنى لأرجو له الخير ، واللّه ما أدرى ، وأنا رسول اللّه ، ما يفعل بي ، فو اللّه لا أزكى أحدا بعده أبدا.

(٣٢٩/٥)

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٣٣٠

ثم حكى مقالة أخرى للكفار من مقالاتهم الباطلة ، فقال :

[سورة الأحقاف (٤٦) : الآيات ١١ الى ١٢]

وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كانَ خَيْراً ما سَبَقُونا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هذا إِفْكٌ قَدِيمٌ (١١) وَمِنْ قَبْلِهِ كِتابُ مُوسى إِماماً وَرَحْمَةً وَهذا كِتابٌ مُصَدِّقٌ لِساناً عَرَبِيًّا لِيُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرى لِلْمُحْسِنِينَ (١٢)

يقول الحق جل جلاله : وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أي : لأجلهم ، وهو كلام كفار مكة ، قالوا : إنّ عامة من يتبع محمد السّقاط ، يعنون الفقراء ، كعمار وصهيب وبلال وابن مسعود – رضي اللّه عنهم – قالوا : لَوْ كانَ ما جاء به محمد من القرآن والدين خَيْراً ما سَبَقُونا إِلَيْهِ ، فإن معالى الأمور لا تنالها أيدى

الأراذل ، فإنّ عامتهم فقراء وموال ورعاة ، قالوه زعما منهم أن الرّئاسة الدينية مما تنال بأسباب دنيوية ، كما قالوا : لَوْ لا نُزِّلَ هذَا الْقُرْآنُ عَلى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ «١» ، وضلّ عنهم أنها منوطة بكمالات نفسانية ، وملكات روحانية ، مبناها : الإعراض عن زخارف الدنيا ، والإقبال على اللّه بالكلية ، وأنّ من فاز بها حازها بحذافيرها ، ومن حرمها فما له عند اللّه من خلاق. والحاصل : أن هذه المقالة سببها الرّضا عن النّفس ، وهو أصل كلّ معصية وغفلة. ثم قال تعالى : وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ ، العامل فى الظرف محذوف لدلالة الكلام عليه ، أي : وإذ لم يهتدوا به ظهر عنادهم ، وقالوا ما قالوا. فَسَيَقُولُونَ غير مكتفين بنفي خيريته : هذا إِفْكٌ قَدِيمٌ أي : كذب متقادم ، كقوله : أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ «٢».

وقال القشيري : إنه تكذيب للرسل فيما بيّن لهم ، فيما أنزل عليهم من بعثة محمد رسولا ، يعنى : فيكون كقوله تعالى : إِنَّا بِكُلٍّ كافِرُونَ «٣». وقيل لابن عباس : أين نجد فى القرآن «من كره شيئا عاداه» ، فقرأ هذه الآية : وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا .. إلخ.

وَمِنْ قَبْلِهِ أي : من قبل القرآن كِتابُ مُوسى أي : التوراة ، فكتاب : مبتدأ ، و«من قبله» : خبر ، والاستقرار هو العامل فى قوله : إِماماً وَرَحْمَةً على أنهما حالان من الكتاب ، أي : قدوة يؤتم به فى دين اللّه

---

(١) من الآية ٣١ من سورة الزخرف.

(٢) من الآية ٢٥ من سورة الأنعام.

(٣) من الآية ٤٨ من سورة القصص ، وكذا من الآية ٣٠ من سورة الزخرف.

وشرائعه ، ورحمة من اللّه – تعالى – لمن آمن به. وَهذا القرآن ، الذي يقولون فى حقه ما يقولون ، هو كِتابٌ عظيم الشأن مُصَدِّقٌ لكتاب موسى ، الذي هو إماما ورحمة ، أو : لما بين يديه من جميع الكتب الإلهية. قال ابن عرفة : وجه مناسبتها لما قبلها : أنه لما تضمن قوله : فَسَيَقُولُونَ هذا إِفْكٌ قَدِيمٌ تقبيحهم إياه بأنه إما كذب فى نفسه ، أو شبيه بما قبله من الأكاذيب والافتراءات ، عقبه ببيان أنه إما صدق فى نفسه ، أو شبيه بما قبله من الكتب الصادقة. هـ.

حال كون الكتاب لِساناً عَرَبِيًّا لِيُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا : متعلق بمصدّق ، أو بأنزل ، محذوفا ، وفيه ضمير الكتاب ، أو : اللّه – تعالى ، أو : الرسول صلّى اللّه عليه وسلم ، ويؤيده : قراءة الخطاب «١» ، وَبُشْرى لِلْمُحْسِنِينَ فى حيز النّصب ، عطف على محل «لينذر» لأنه مفعول له ، أي : للإنذار والبشرى

، أو : وهو بشرى للمحسنين ، للمؤمنين المطيعين.

الإشارة : قال فى الحكم : «أصل كلّ معصية وغفلة وشهوة : الرضا عن النّفس ، وأصل كلّ طاعة ويقظة وعفة :

عدم الرّضا منك عنها ، ولأن تصحب جاهلا لا يرضى عن نفسه ، خير من أن تصحب عالما يرضى عن نفسه ، فأىّ علم لعالم يرضى عن نفسه؟ وأىّ جهل لجاهل لا يرضى عن نفسه؟» «٢» ، وعلامة الرّضا عن النّفس : تغطية مساوئها ، وإظهار محاسنها ، كما قال الشاعر :

وعين الرّضا عن كلّ عيب كليلة ولكن عين السخط تبدى المساويا

وإذا نقصها له أحد انتقم منه وغضب ، وإذا مدحها له فرح واستبشر ، ويرى أنه أهل لكلّ خير ، وأولى من غيره ، فيقول إذا رأى من حاز خيرا أو رئاسة ، كما قال الكفار : لو كان خيرا ما سبقونا إليه ، وعلامة عدم الرّضا عنها : إظهار مساوئها ، واتهامها فى كلّ حال.

وقال أبو حفص الحداد : من لم يتهم نفسه على دوام الأوقات ، ولم يخالفها فى جميع الأحوال ، ولم يجرها إلى مكروهها فى سائر أيامه ، كان مغرورا ، ومن نظر إلى نفسه باستحسان شىء منها فقد أهلكها ، وكيف يصح لعاقل الرضا عن نفسه؟! والكريم ابن الكريم ابن الكريم يقول : وَما أُبَرِّئُ نَفْسِي «٣» هـ.

---

(١) قرأ «لتنذر» بالخطاب ، نافع ، وابن عامر ، وأبو جعفر بخلفه ، ويعقوب ، وقرأ الباقون بالغيب. انظر الإتحاف (٢/ ٤٦٩ - ٤٧٠).

(٢) حكمة رقم/ ٣٥ ، انظر تبويب الحكم ص/ ١٧.

(٣) من الآية ٣٥ من سورة يوسف.

فإذا لم يرض عن نفسه ، وهذبها ، استقامت أحواله ، وكان من المحسنين ، الذين قال اللّه - تعالى - فى شأنهم :

[سورة الأحقاف (٤٦) : الآيات ١٣ الى ١٤]

إِنَّ الَّذِينَ قالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقامُوا فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٣) أُولئِكَ أَصْحابُ الْجَنَّةِ خالِدِينَ فِيها جَزاءً بِما كانُوا يَعْمَلُونَ (١٤)

يقول الحق جل جلاله : إِنَّ الَّذِينَ قالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقامُوا أي : جمعوا بين التوحيد ، الذي هو خاصة العلم ، والاستقامة فى الظاهر ، التي هى منتهى العمل ، فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ من لحوق مكروه ، وَلا هُمْ

يَحْزَنُونَ على فوات مرغوب ، و«ثم» للدلالة على تراخى رتبة العمل ، وتوقف الاعتداد به على التوحيد. ودخلت الفاء لتضمن الموصول معنى الشرط ، والتعبير بالمضارع للدلالة على دوام نفى الحزن عنهم ، أُولئِكَ الموصوفون بما ذكر من الاسمين الجليلين ، أَصْحابُ الْجَنَّةِ خالِدِينَ فِيها : حال من أصحاب الجنة ، والعامل :

معنى الإشارة ، جَزاءً بِما كانُوا يَعْمَلُونَ من الأعمال الصالحة ، و«جزاء» مصدر لمحذوف ، أي : جوزوا جزاء ، أو بمعنى ما تقدم ، فإن قوله : أُولئِكَ أَصْحابُ الْجَنَّةِ فى معنى : جزيناهم.

الإشارة : مضى تفسير الاستقامة ، وأنّ من درج على الإيمان والاستقامة حظى بكلّ كرامة ، ووصل إلى جزيل السلامة ، وقيل : السين فى الاستقامة سين الطلب ، وأنّ المستقيم يتوسل إلى اللّه – تعالى – فى أن يقيمه على الحق ، ويثبته على الصدق. هـ.

قال الورتجبي : ما قال القوم هذا القول – أي : «ربنا اللّه» – حتى شاهدوه بقلوبهم ، وعقولهم ، وأرواحهم ، وأسرارهم ، مشاهدة الحق سبحانه ، فإذا رأوه يقولون : هذا الهلال ، وصاحوا ، وضحكوا ، فهذا القول منهم بعد كشف مشاهده الحق لهم ، فلما رأوه أحبوه وعرفوه ، وشربوا من بحار وصاله ، حتى تمكنوا ، فاستقاموا بقوتها فى موازاة رؤية أنوار الأزل والآباد ، واستقاموا فى مراد اللّه منهم ، وأداء حقوق عبوديته ، فلا يبقى عليهم خوف الحجاب ، ولا حزن العتاب ، قال اللّه تعالى : فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ. هـ.

ثم وصّى بالربوبية الصغرى بعد الكبرى ، فقال :

[سورة الأحقاف (٤٦) : الآيات ١٥ الى ١٦]

وَوَصَّيْنَا الْإِنْسانَ بِوالِدَيْهِ إِحْساناً حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهاً وَوَضَعَتْهُ كُرْهاً وَحَمْلُهُ وَفِصالُهُ ثَلاثُونَ شَهْراً حَتَّى إِذا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلى والِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صالِحاً تَرْضاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (١٥) أُولئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ ما عَمِلُوا وَنَتَجاوَزُ عَنْ سَيِّئاتِهِمْ فِي أَصْحابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كانُوا يُوعَدُونَ (١٦)

يقول الحق جل جلاله : وَوَصَّيْنَا الْإِنْسانَ بأن يحسن بِوالِدَيْهِ حُسْناً»

وقرأ أهل الكوفة إِحْساناً وهما مصدران ، وقرىء : «حسنا» بفتح الحاء والسين ، أي : يفعل بهما فعلا حسنا ، أو : وصينا إيصاء حسنا ، حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهاً وَوَضَعَتْهُ كُرْهاً أي : حملته بكره ومشقة ، ووضعته كذلك ، وذكره للحث على الإحسان والبرور بها ، فإن الإحسان إليها أوجب ، وأحق من الأب.

ونصبهما على الحال ، أي : حملته كارهة ، أو : ذات كره ، وفيه لغتان الفتح والضم ، وقيل : بالفتح مصدر ، وبالضم اسمه. وَحَمْلُهُ وَفِصالُهُ أي : ومدة حمله وفصاله ، وهو الفطام. وقرأ يعقوب : «وفصله» وهما لغتان كالفطم والفطام ، ثَلاثُونَ شَهْراً لأن فى هذه المدة عظّم مشقة التربية ، وفيه دليل على أن أقل مدة ستة أشهر لأنه إذ حط منه للفطام حولان ، لقوله تعالى : حَوْلَيْنِ كامِلَيْنِ «٢» يبقى للحمل ستة ، قيل : ولعل تعيين أقل مدة الحمل ، وأكثر مدة الرّضاع لانضباطهما ، وارتباط النّسب والرّضاع بهما.

حَتَّى إِذا بَلَغَ أَشُدَّهُ أي : اكتهل ، واستحكم عقله وقوته ، وانتهت قامته وشبابه ، وهى ما بين ثمانى عشرة سنة إلى أربعين ، وقال زيد بن أسلم : الحلم ، وقال قتادة : ستة وثلاثون سنة ، وهو الرّاجح ، وقال الحسن : قيام الحجة عليه. وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً ، وهو نهاية الأشدّ ، وتمام العقل ، وكمال الاستواء. قيل : لم يبعث نبىّ إلا بعد الأربعين ، قال ابن عطية : وإنما ذكر – تعالى – الأربعين ، لأنها حدّ الإنسان فى فلاحه ونجاته ، وفى الحديث. «إن الشيطان يمدّ يده على وجه من زاد على الأربعين ولم يتب ، فيقول : بأبى وجه لا يفلح» «٣». هـ. ومن حديث أنس قال صلّى اللّه عليه وسلم : «من بلغ أربعين سنة أمّنه اللّه من البلايا الثلاث الجنون والجذام

---

(١) أثبت المفسر – رحمه اللّه – قراءة «حسنا» بضم الحاء وسكون السين ، بلا همز ولا ألف ، مفعولا به ، وهى قراءة ابن كثير ، ونافع ، وأبى عمرو ، وابن عامر. وقرأ عاصم وحمزة والكسائي وخلف «إحسانا» على أنها مصدر. انظر السبعة/ ٥٩٦ والإتحاف ٢/ ٤٧٠.

(٢) من الآية ٢٣٣ من سورة البقرة. [.....]

(٣) ذكره ابن عطية ، (١٣/ ٣٤٨) وأبو حيان فى البحر المحيط (٨/ ٦١) بلفظ : «ان الشيطان يجر يده ..». ولم أقف على هذا الحديث عند غيرهما.

والبرص ، فإذا بلغ الخمسين خفف اللّه عنه الحساب ، فإذا بلغ ستين سنة رزقه اللّه الإنابة كما يحب ، فإذا بلغ سبعين سنة غفر اللّه ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، وشفع فى أهل بيته ، وناداه مناد من السماء : هذا أسير اللّه فى أرضه».

وهذا فى العبد المقبل على اللّه. واللّه تعالى أعلم. وقرئ : «حتى إذا استوى وبلغ أشدّه».

قالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أي : ألهمنى أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ من الهداية والتوحيد ، والاستقامة على

الدين ، وَعَلى والِدَيَّ كذلك ، وجمع بين شكر النّعمة عليه وعلى والديه لأن النّعمة عليهما نعمة عليه ، وَأَنْ أَعْمَلَ صالِحاً تَرْضاهُ ، التنكير للتفخيم والتكثير ، قيل : هو الصلوات الخمس ، والعموم أحسن ، وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي أي : واجعل الصلاح ساريا فى ذريتى راسخا فيهم ، أو : اجعل ذريتى موقعا للصلاح دائما فيهم ، إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ من كلّ ذنب ، وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ الذين أخلصوا لك أنفسهم ، وانقادوا إليك بكليتهم. «١»

قال عليّ رضي اللّه عنه : نزلت فى أبى بكر – رضي اللّه عنه ، ولم تجتمع لأحد من أصحاب النّبى صلّى اللّه عليه وسلم من المهاجرين من أسلم أبواه غيره ، وأوصاه اللّه بهما. هـ. فاجتمع لأبى بكر إسلام أبى قحافة وأمه «أم الخير» وأولاده ، عبد الرّحمن ، وابنه عتيق ، فاستجاب اللّه دعاءه فى نفسه وفى ذريته ، فإنه آمن بالنبي صلّى اللّه عليه وسلم وهو ابن ثمان وثلاثين سنة ، ودعا لهم وهو ابن أربعين سنة. قال ابن عباس : أعتق أبو بكر تسعة من المؤمنين ، منهم : بلال ، وعامر بن فهيرة ، ولم يرد شيئا من الخير إلا أعانه اللّه عليه. «٢» هـ.

قال ابن عطية : معنى الآية : هكذا ينبغى للإنسان أن يكون ، فهى وصية اللّه – تعالى – للإنسان فى كلّ الشرائع ، وقول من قال : إنها فى أبى بكر وأبويه ضعيف ، لأن هذه نزلت فى مكة بلا خلاف ، وأبو قحافة أسلم يوم الفتح. هـ. قلت : كثيرا ما يقع فى التنزيل تنزيل المستقبل منزلة الماضي ، فيخبر عنه كأنه واقع ، ومنه : وَشَهِدَ شاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرائِيلَ «٣» ووَ وَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ لا يُؤْتُونَ الزَّكاةَ «٤» ، وهذه الآية فى إسلام أبى قحافة.

واللّه تعالى أعلم.

أُولئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ ما عَمِلُوا «٥» من الطاعات ، فإن المباح لا يثاب عليه إلا بنية صالحة ، فإنه ينقلب حينئذ طاعة ، وضمّن «يتقبل» معنى يتجاوز ، فعدّاه بعن إذ لا عمل يستوجب القبول ، لو لا عفو

---

(١) ذكره القرطبي (٧/ ٦٢٠١).

(٢) انظر تفسير البغوي (٧/ ٢٥٨) وزاد المسير (٧/ ٣٧٨).

(٣) الآية ١٠ من سورة الأحقاف.

(٤) الآيتان ٦ – ٧ من سورة فصلت.

(٥) قرأة حمزة والكسائي وحفص (نتقبل ، ونتجاوز) بالنون المفتوحة و«أحسن» بالنصب ، وقرأ الباقون (يتقبل – يتجاوز) بالياء المضمومة ، ورفع «أحسن» .. انظر الإتحاف (٢/ ٤٧١).

اللّه وتجاوزه عن عامله ، إذ لا يخلو عمل من خلل أو نقص ، فإذا تجاوز الحق عن عبده قبله منه على نقصه ، فلو لا حلمه – تعالى – ورأفته ما كان عمل أهلا للقبول. وَنَتَجاوَزُ عَنْ سَيِّئاتِهِمْ فيغفرها لهم ، فِي جملة أَصْحابِ الْجَنَّةِ ، كقولك : أكرمنى الأمير فى ناس من أصحابه ، أي : أكرمنى فى جملة من أكرمهم ، ونظمنى فى سلكهم ، ومحله : نصب على الحال ، أي : كائنين فى أصحاب الجنة ، ومعدودين فيهم ، وَعْدَ الصِّدْقِ أي :

وعدهم وعدا صدقا ، فهو مصدر مؤكد ، لأن قوله : نَتَقَبَّلُ ونَتَجاوَزُ وعد من اللّه – تعالى لهم بالتقبل والتجاوز ، الَّذِي كانُوا يُوعَدُونَ فى الدنيا على ألسنة الرّسل – عليهم السّلام.

الإشارة : لمّا كانت تربية الأبوين مظهرا لنعمة الإمداد بعد ظهور نعمة الإيجاد ، وصىّ اللّه – تعالى – بالإحسان إليهما ، وفى الحقيقة : ما ثمّ إلا تربية الحق ، ظهرت فى تجلى الوالدين ، قذف الرّأفة فى قلوبهما ، حتى قاما بتربية الولد ، فالإحسان إليها إحسان إلى اللّه – تعالى – فى الحقيقة. وقال الورتجبي : وصى الإنسان بالإحسان إلى أبويه ، لأنهما أسباب وجوده ، ومصادر أفعال الحق بدا منهما بدائع قدرته ، وأنوار ربوبيته ، فحرمتهما حرمة الأصل ، ومن صبر فى طاعتهما رزقه اللّه حسن المعاشرة على بساط حرمته وقربته.

قال بعضهم : أوصى اللّه العوام ببر الوالدين لما لهما عليه من نعمة التربية والحفظ ، فمن حفظ وصية اللّه فى الأبوين ، وفّقه بركة ذلك ، لحفظ حرمات اللّه ، وكذلك رعاية الأوامر والمحافظة عليها توصل بركتها بصاحبها إلى محل الرّضا والأنس. هـ.

قال القشيري : وشر خصال الولد : التبرم بطول حياتهما ، والتأذى بما يجب من حقهما ، وعن قريب يموت الأصل ، وقد يبقى النّسل ، ولا بد أن يتبع الأصل. هـ. أي : فيعق إن عق أصله ، ويبر إن بر ، وفى الحديث : «برّوا آباءكم تبرّكم أبناؤكم» «١». ثم قال : ولقد قالوا فى هذا المعنى وأنشدوا :

رويدك إنّ الدّهر فيه كفاية لتفريق ذات البين فارتقب الدّهرا «٢». هـ.

قلت : وقد تقدم أن حرمة الشيخ أوكد من حرمة الوالدين ، فيقدم أمره على أمرهما ، كما تقدم عن الجنيد فى سورة النّساء «٣». واللّه تعالى أعلم.

---

(١) رواه الطبراني فى الأوسط (ح/ ١٠٠٢) من حديث ابن عمر رضي اللّه عنه. قال الهيثمي فى مجمع الزوائد (٨/ ١٣٨) : ورجاله رجال الصحيح غير شيخ الطبراني.

(٢) منسوب إلى أبى على الثقفي ، كما فى طبقات السلمى/ ٣٦٤ وطبقات الشافعية الكبرى (٣/ ١٩٥) ، ونسب إلى عبيد اللّه بن عبد اللّه طاهر ، فى زهر الآداب (٢/ ٦٠٤) وأمالى المرتضى (١/ ١١٩).

(٣) راجع إشارة الآية ٣٦ من سورة النّساء.

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٣٣٦

ثم ذكر وبال عقوقهما ، فقال :

[سورة الأحقاف (٤٦) : الآيات ١٧ الى ١٩]

وَالَّذِي قالَ لِوالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُما أَتَعِدانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهُما يَسْتَغِيثانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ ما هذا إِلاَّ أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ (١٧) أُولئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كانُوا خاسِرِينَ (١٨) وَلِكُلٍّ دَرَجاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمالَهُمْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (١٩)

قلت : وَالَّذِي قالَ : مبتدأ ، وخبره : أُولئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ ، والمراد ب «الذي قال» الجنس ، ولذلك جمع الخبر.

يقول الحق جل جلاله : وَالَّذِي قالَ لِوالِدَيْهِ عند دعوتهما إلى الإيمان : أُفٍّ لَكُما ، وهو صوت يصدر عن المرء عند تضجره وقنطه ، واللام لبيان المؤفف ، كما فى «هيت لك» وفيه أربعون لغة ، مبسوطة فى محلها ، أي : هذا التأفيف لكما خاصة ، أو لأجلكما دون غيركما.

وعن الحسن : نزلت فى الكافر العاقّ لوالديه ، المكذّب بالبعث ، وقيل : نزلت فى عبد الرّحمن بن أبى بكر رضي اللّه عنه ، قبل إسلامه. وأنكرت عائشة – رضي اللّه عنها – ذلك ، وقالت : واللّه ما نزل فى آل أبى بكر شيئا من القرآن ، سوى براءتي «١» ، ويبطل ذلك «٢» قطعا : قوله تعالى : أُولئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ ، لأنّ عبد الرّحمن بن أبى بكر أسلم ، وكان من فضلاء الصحابة ، وحضر فتوح الشام ، وكان له هناك غناء عظيم ، وكان يسرد الصيام. قال السدى :

ما رأيت أعبد منه. هـ. وقال ابن عباس : نزلت فى ابن لأبى بكر ، ولم يسمه ، ويرده ما تقدم عن عائشة ، ويدل على العموم : قوله تعالى : أُولئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ ، ولو أراد واحدا لقال : حق عليه القول.

ثم قال لهما : أَتَعِدانِنِي أَنْ أُخْرَجَ أي : أبعث وأخرج من الأرض ، وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي ولم يبعث أحد منهم ، وَهُما يَسْتَغِيثانِ اللَّهَ ، يسألانه أن يغيثه ويوفقه للإيمان ، أو يقولان : الغياث باللّه منك ، ومن قولك ، وهو استعظام لقوله ، ويقولان له : وَيْلَكَ دعاء عليه بالثبور والهلاك ، والمراد به : الحث والتحريض

---

(١) أخرجه بنحوه البخاري فى (التفسير – سورة الأحقاف ، باب وَالَّذِي قالَ لِوالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُما .. ح

.(٤٨٢٧

(٢) أي : القول بأن الآية نزلت فى سيدنا عبد الرّحمن بن أبى بكر رضي اللّه عنه.

(٣٣٦/٥)

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٣٣٧

على الإيمان ، لا حقيقة الهلاك ، آمِنْ باللّه وبالبعث إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ بالبعث والحساب حَقٌّ لا مرية فيه ، وأضاف الوعد إليه – تعالى – تحقيقا للحق ، وتنبيها على خطئه ، فَيَقُولُ مكذّبا لهما : ما هذا الذي تسميانه وعد اللّه إِلَّا أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ ، أباطيلهم التي سطروها فى كتبهم ، من غير أن يكون له حقيقة. أُولئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ ، وهو قوله تعالى لإبليس : لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ «١» كما ينبئ عنه قوله تعالى – : فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أي : فى جملة أمم قد مضت ، إِنَّهُمْ كانُوا خاسِرِينَ حيث ضيّعوا فطرتهم الأصلية ، الجارية مجرى رؤوس أموالهم ، باتباعهم الشيطان ، وتقليدا بآبائهم الضالين.

وَلِكُلٍّ من الفريقين المذكورين ، الأبرار والفجار ، دَرَجاتٌ مِمَّا عَمِلُوا أي : منازل ومراتب من جزاء ما عملوا من الخير والشر ، ويقال فى جانب الجنة : درجات ، وفى جانب النّار : دركات ، فغلب هنا جانب الخير.

قال الطيبي : ولكلّ من الجنسين المذكورين درجات ، والظاهر أن أحد الجنسين ما دلّ عليه قوله : إِنَّ الَّذِينَ قالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقامُوا «٢» ، والآخر قوله : وَالَّذِي قالَ لِوالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُما ، ثم غلب الدرجات على الدركات ، لأنه لمّا ذكر الفريق الأول ، ووصفهم بثبات فى القول ، واستقامة فى الفعل ، وعقّب ذلك بذكر فريق الكافرين ، ووصفهم بعقوق الوالدين ، وبإنكارهم البعث ، وجعل العقوق أصلا فى الاعتبار ، وكرر فى القسم الأول الجزاء ، وهو ذكر الجنة مرارا ثلاثا ، وأفرد ذكر النّار ، وأخّره ، وذكر ما يجمعهما ، وهو قوله : وَلِكُلٍّ دَرَجاتٌ غلّب الدرجات على الدركات لذلك ، وفيه ألا شيء أعظم من التوحيد والثبات عليه ، وبر الوالدين والإحسان إليهما ، ولا شيء أفحش من عقوق الوالدين ، وإنكار الحشر ، وفى إيقاع إنكار الحشر مقابلا لإثبات التوحيد الدلالة على أن المنكر معطل مبطل لحكمة اللّه فى إيجاد العالم. هـ.

وَلِيُوَفِّيَهُمْ «٣» أَعْمالَهُمْ ، وقرأ المكي والبصري بالغيب ، أي : وليوفيهم اللّه جزاء أعمالهم ، وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ بنقص ثواب الأولين ، وزيادة عقاب الآخرين ، واللام متعلقة بمحذوف ، أي : وليوفيهم أعمالهم ، ولا يظلمهم حقوقهم ، فعل ما فعل من ترتيب الدرجات أو الدركات.

---

(١) الآية ١٨ من سورة الأعراف.
(٢) الآية ١٣ من السورة نفسها.
(٣) أثبت المفسر – رحمه اللّه – قراءة «ولنوفيهم» بنون العظمة ، وهى قراءة نافع ، وابن عامر ، وحمزة ، والكسائي ، وقرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وعاصم : «وليوفيهم» بالياء. انظر : السبعة لابن مجاهد/ ٥٩٨. [.....]

(٣٣٧/٥)

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٣٣٨
الإشارة : عقوق الأساتيذ «١» أقبح من عقوق الوالدين ، كما أن برهما أوكد لأن الشيخ أخرجك من ظلمة الجهل إلى نور المعرفة باللّه ، والوالدان أخرجاك إلى دار التعب ، معرض لأمرين ، إما السلامة أو العطب ، والمراد بالشيخ هنا شيخ التربية ، لا شيخ التعليم ، فلا يقدّم حقه على حق الوالدين ، هذا ومن يسّر اللّه عليه الجمع بين بر الوالدين والشيخ فهو كمال الكمال. وباللّه التوفيق.
ثم ذكر جزاء العاقّ المنكر للبعث ، فقال.
[سورة الأحقاف (٤٦) : آية ٢٠]
وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّباتِكُمْ فِي حَياتِكُمُ الدُّنْيا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِها فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذابَ الْهُونِ بِما كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِما كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ (٢٠)
قلت : «ويوم» : منصوب بقول مقدّر قبل «أذهبتم» أي : يقال لهم : أذهبتم طيباتكم يوم عرضكم ، أو بالذكر ، وهو أحسن.
يقول الحق جل جلاله : وَاذكر يَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أي : يعذّبون بها ، من قولهم : عرض بنو فلان على السيف ، إذا قتلوا به ، وقيل : المراد : عرض النّار عليهم ، من قولهم : عرضت النّاقة على الحوض ، يريدون : عرض الحوض عليها ، فقلبوا. وإذا عرضوا عليها يقال لهم : أَذْهَبْتُمْ طَيِّباتِكُمْ أي :
أخذتم ما كتب لكم من حظوظ الدنيا ولذائذها فِي حَياتِكُمُ الدُّنْيا فقد قدمتم حظكم من النّعيم فى الدر الفانية.
قال ابن عرفة : قيل : المراد بالطيبات المستلذات ، والظاهر : أن المراد أسباب المستلذات ، أي : الأسباب التي تتوصلون بها إلى نيل المستلذات فى الدر الآخرة ، إذ نسيتموها فى الدنيا ، أي : تركتموها ولم تفعلوها. هـ. قلت :
يبعده قوله : وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِها أي : فلم يبق ذلك لكم شيئا منها ، بل قدمتم جنتكم فى دنياكم.

وعن عمر – رضي اللّه عنه : لو شئت كنت أطيبكم طعاما ، وألينكم لباسا ، ولكنى أستبقى طيباتى.
ولما قدم الشام صنع له طعام لم ير قبله مثله ، قال : هذا لنا ، فما للفقراء المسلمين الذين ماتوا وهم لا يشبعون من خبز الشعير؟ قال خالد :
لهم الجنة ، فاغرورقت عينا عمر وبكى ، وقال : لئن كان حظنا من الحطام ، وذهبوا بالجنة ، لقد باينونا بونا بعيدا «٢».

---

(١) أساتيذ جمع أستاذ. ويجمع أيضا على أساتذة وأستاذين ، وهو فارسى معرّب ، والأستاذ : المعلم والمقرئ والعالم ، وأستاذ الصناعة :
رئيسها. انظر محيط المحيط (ص ٩ ، مادة الأستاذ).
(٢) انظر هذه الأخبار وغيرها فى كتاب «مناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب» لابن الجوزي/ ١٥٣ – ١٦٧.

(٣٣٨/٥)

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٣٣٩
وقال أبو هريرة رضي اللّه عنه : إنما كان طعامنا مع النّبى صلّى اللّه عليه وسلم الماء والتمر ، واللّه ما كان نرى سمراءكم هذه ، وقال أبو موسى : ما كان لباسنا مع النّبى صلّى اللّه عليه وسلم إلا الصوف.
وروى : أن النّبىّ صلّى اللّه عليه وسلم دخل على أهل الصّفة ، وهم يرقعون ثيابهم بالأدم ، ما يجدون لها رقاعا ، فقال : «أنتم اليوم خير أم يوم يغدو أحدكم فى حلة ، ويروح فى أخرى ، ويغدا عليه بجفنة «١» ويراح بأخرى ، ويستر بيته كما تستر الكعبة»؟ قالوا : نحن يومئذ خير ، فقال لهم : «بل أنتم اليوم خير» «٢».
وقال عمرو بن العاص «٣» : كنت أتغدى عند عمر الخبز والزيت ، والخبز والخل ، والخبز واللبن ، والخبز والقديد ، وأجلّ ذلك اللحم الغريض «٤» ، وكان يقول : لا تنخلوا الدقيق ، فإنه كله طعام ، ثم قال عمر رضي اللّه عنه : واللّه الذي لا إله إلا هو ، لو لا أنى أخاف أن تنقص حسناتى يوم القيامة لشاركتهم فى العيش! ولكنى سمعت اللّه يقول لقوم : أَذْهَبْتُمْ طَيِّباتِكُمْ فِي حَياتِكُمُ الدُّنْيا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِها. هـ «٥».
فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذابَ الْهُونِ أي : الهوان ، وقرىء به ، بِما كُنْتُمْ فى الدنيا تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ، بغير استحقاق لذلك ، وَبِما كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ ، وتخرجون عن طاعة اللّه عز وجل ، أي : بسبب استكباركم وفسقكم.

الإشارة : مازالت الأكابر من الأولياء تتنكب الحظوظ والشهوات ، مجاهدة لنفوسهم ، وتصفية لقلوبهم ، فإنّ تتبع الشهوات يقسى القلب ، ويكسف نور العقل ، كما قال الشاعر :

إنارة العقل مكسوف بطوع هوى وعقل عاصى الهوى يزداد تنويرا.

هذا فى حال سيرهم ، فإذا تحقق وصولهم فلا كلام عليهم لأنهم يأخذون من اللّه ، ويتصرفون به فى أمورهم كلها ، فلا حرج عليهم فى نيل ما أنعم اللّه به عليهم ، حيث أمنوا ضرره ، ومن ذلك : ما روى عن إبراهيم بن أدهم ،

---

(١) الجفنة : قصعة الطعام ، والجمع جفان وجفنات.

(٢) عزاه فى كنز العمال (ح ٦٢٢٧) لهناد وأبى نعيم فى الحلية عن الحسن مرسلا. كما ذكره بنحوه (ح ٦٢٢٦) وعزاه للطبرانى والبيهقي ، عن عبد اللّه بن يزيد الخطمي.

(٣) فى القرطبي : حفص بن أبى العاص.

(٤) الغريض : الطري. انظر اللسان (غرض ، ٥/ ٣٢٤١).

(٥) ذكره بأطول من هنا : القرطبي فى تفسيره (٧/ ٦٢٠٨) ثم قال : «والذي يضبط هذا الباب ويحفظ قانونه : على المرء أن يأكل ما وجد ، طيبا كان أو قفارا ، ولا يتكلف الطيب ويتخذه عادة ، وقد كان النّبى صلّى اللّه عليه وسلم يشبع إذا وجد ، ويصبر إذا عدم ، ويأكل الحلوى إذا قدر عليها ، ويشرب العسل إذا اتفق له ، ويأكل اللحم إذا تيسر له ، ولا يعتمده أصلا ، ولا يجعله دينا ، ومعيشة النّبى صلّى اللّه عليه وسلم وسلم معلومة ...» انظر بقيته.

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٣٤٠

أنه أصلح ذات يوم طعاما كثيرا ، ودعا نفرا يسيرا ، منهم الأوزاعى والثوري ، فقال له الثوري : أما تخاف أن يكون هذا إسرافا؟ فقال : ليس فى الطعام إسراف ، إنما الإسراف فى الثياب والأثاث ، ودفع أيضا إلى بعض إخوانه دراهم ، فقال : خذ لنا بهذه زبدا وعسلا وخبزا حوارى «١» ، فقال : يا أبا إسحاق : هذا كله؟ قال : ويحك إذا وجدنا أكلنا أكل الرجال ، وإذا عدمنا صبرنا صبر الرّجال ، وإن معروفا الكرخي كأن يهدى له طيبات الطعام ، فيأكل ، فيقال له : إن أخاك بشرا كان لا يأكل من هذا ، فيقول : أخى بشر قبضه الورع ، وأنا بسطتنى المعرفة ، وإنما أنا ضيف فى دار مولاى ، إذا أطعمنى أكلت ، وإذا جوّعنى صبرت ، مالى وللاعتراض والتمييز. هـ.

والحاصل : أن النّاس أقسام ثلاثة : عوام ، لا همة لهم فى السير ، وإنما قنعوا أن يكونوا من عامة أهل

اليمين.

فهؤلاء يأخذون كلّ ما أباحته الشريعة ، إذ لا سير لهم حتى يخافوا من تخلفهم ، وخواص ، نهضت همتهم إلى اللّه ، وراموا الوصول إليه ، وهم فى السير لم يتحقق وصولهم ، أو من العبّاد والزهاد ، يخافون إن تناولوا المستلذات تفتّرت عزائمهم ، فهؤلاء يتأكد فى حقهم ترك الحظوظ والشهوات ، والقسم الثالث : خواص الخواص ، قد تحقق وصولهم ، ورسخت أقدامهم فى المعرفة ، فهؤلاء لا كلام معهم ، ولا ميزان عليهم.

قال فى الإحياء ، بعد كلام : وأكل الشهوات لا يسلّم إلا لمن نظر من مشكاة الولاية والنّبوة ، فيكون بينه وبين اللّه علامة فى استرساله وانقباضه ، ولا يكون ذلك إلا بعد خروج النّفس من طاعه الهوى والعادة بالكلية ، حتى يكون أكله إذا أكل بنية ، كما يكون إمساكه بنية ، فيكون عاملا له فى إفطاره وإمساكه. ثم قال : وينبغى أن يتعلم الحزم من عمر ، فإنه كان يرى النّبىّ صلّى اللّه عليه وسلم يحب العسل ويأكله ، ثم لم يقس نفسه عليه ، بل لمّا عرض عليه ماء مبّرد بالعسل جعل يدير الإناء فى كفه ، ويقول : أشربها فتذهب حلاوتها وتبقى تباعتها ، اعزلوا عنى حسابها ، وتركها ، رضي اللّه عنه «٢».

ثم ذكر وبال من تمتع بدنياه ، وأعرض عن أخراه ، فقال :

[سورة الأحقاف (٤٦) : الآيات ٢١ الى ٢٥]

وَاذْكُرْ أَخا عادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٢١) قالُوا أَجِئْتَنا لِتَأْفِكَنا عَنْ آلِهَتِنا فَأْتِنا بِما تَعِدُنا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٢) قالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُمْ ما أُرْسِلْتُ بِهِ وَلكِنِّي أَراكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ (٢٣) فَلَمَّا رَأَوْهُ عارِضاً مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قالُوا هذا عارِضٌ مُمْطِرُنا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيها عَذابٌ أَلِيمٌ (٢٤) تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّها فَأَصْبَحُوا لا يُرى إِلاَّ مَساكِنُهُمْ كَذلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ (٢٥)

---

(١) الحوارى هو الدقيق الأبيض ، وهو لباب الدقيق وأجوده وأخلصه. انظر اللسان (حور ٢/ ١٠٤٤).

(٢) ذكره بنحوه ابن الجوزي فى مناقب أمير المؤمنين (ص ١٦٤) عن ثابت.

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٣٤١

يقول الحق جل جلاله : وَاذْكُرْ أَخا عادٍ وهو هود عليه السّلام إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ : بدل اشتمال أي : وقت إنذاره قومه بِالْأَحْقافِ : جمع حقّف ، وهو رمل مستطيل فيه انحناء ، من : احقوقف الشيء إذا اعوجّ ،

وكان عاد أصحاب عمد ، يسكنون بين رمال مشرفة على البحر ، بأرض يقال لها : «الشّحر» بأرض اليمن. وعن ابن عباس :

الأحقاف : وادّ بين عمان ومهرة ، وقال مقاتل : كانت منازل عاد باليمن ، فى حضرموت ، بموضع يقال له : مهرة ، وإليه تنسب الإبل المهرية ، ويقال لها : المهارى ، وكانوا أهل عمد سيارة فى الرّبيع ، فإذا هاج العود رجعوا إلى منازلهم ، وكانوا من قبيلة إرم «١» ، والمشهور : أن الأحقاف اسم جبل ذا رمل مستطيل ، كانت منازل عاد حوله.

وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ : جمع نذير ، بمعنى المنذر ، أي : مضت الرّسل ، مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أي : من قبل هود ومن بعده ، وقوله : وَقَدْ خَلَتِ .. إلخ : جملة معترضة بين إنذار قومه وبين قوله : أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ مؤكدة لوجوب العمل بموجب الإنذار ، وإيذانا باشتراكهم فى العبادة المذكورة ، والمعنى : واذكر لقومك إنذار هود قومه عاقبة الشرك والعذاب العظيم ، وقد أنذر من تقدمه من الرّسل ، ومن تأخر عنه قومهم قبل ذلك. إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ إن عصيتمونى عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ يوم القيامة.

قالُوا أَجِئْتَنا لِتَأْفِكَنا لتصرفنا عَنْ آلِهَتِنا ، عن عبادتها ، فَأْتِنا بِما تَعِدُنا من العذاب العظيم إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ فى وعدك بنزوله بنا ، قالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ بوقت نزوله ، أو بجميع الأشياء التي من جملتها ذلك ، عِنْدَ اللَّهِ وحده ، لا علم لى بوقت نزوله ، ولا دخل لى فى إتيانه وحلوله ، وإنما علم ذلك عند اللّه ، فيأتيكم به فى وقته المقدّر له. وَأُبَلِّغُكُمْ ما أُرْسِلْتُ بِهِ من التخويف والإنذار من غير وقف على تعيين وقت نزول العذاب ، وَلكِنِّي أَراكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ حيث تقترحون علىّ ما ليس من وظائف الرّسل ، من الإتيان بالعذاب وتعيين وقته.

---

(١) انظر تفسير البغوي ٧/ ٢٦٢.

روى : أنهم قحطوا سنين ، ففزعوا إلى الكعبة ، وقد كانت بنتها العمالقة ، ثم خربت ، فطافوا بها ، واستغاثوا ، فعرضت لهم ثلاث سحابات سوداء وحمراء وبيضاء ، وقيل لهم : اختاروا واحدة ، فاختاروا السوداء ، فمرت إلى بلادهم ، فلما رأوها مستقبلة أوديتهم ، فرحوا واستبشروا ، وهذا معنى قوله ، تعالى : فَلَمَّا رَأَوْهُ أي : العذاب الذي استعجلوه بقولهم : فَأْتِنا بِما تَعِدُنا ، وقيل : الضمير مبهم ، يفسره قوله : عارِضاً على أنه تمييز ، أي : رأوا عارضا ، والعارض : السحاب ، سمى به لأنه يعرض السحاب فى أفق السماء. قال المفسرون : ساق اللّه السحابة السوداء التي اختاروها بما فيها من النّقمة ،

فخرجت عليهم من واد يقال له : «مغيث» ، فلما رأوها مستقبلة أوديتهم ، أي : متوجهة إليها ، فرحوا ، وقالوا : هذا عارِضٌ مُمْطِرُنا أي : ممطر إيانا ، لأنه صفة النّكرة ، فيقدر انفصاله.

قال اللّه تعالى : بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ من العذاب ، وقيل : القائل هود عليه السّلام ، رِيحٌ فِيها عَذابٌ أَلِيمٌ ، فجعلت تحمل الفساطيط ، وتحمل الظعينة فترفعها فى الجو ، فترى كأنها جرادة.

قال ابن عباس : لما دنا العارض ، قاموا فنظروا ، فأول ما عرفوا أنه عذاب رأوا ما كان خارجا من ديارهم من حالهم ومواشيهم ، تطير بهم الرّيح بين السماء والأرض ، مثل الرّيش ، فدخلوا بيوتهم ، وأغلقوا أبوابهم ، فألقت الرّيح أبوابهم ، وصرعتهم ، وأمر اللّه تعالى الرّيح فأمالت عليهم الرّمال ، فكانوا تحت الرّمل سبع ليال وثمانية أيام حسوما ، لهم أنين ، ثم أمر اللّه تعالى الرّيح ، فكشفت عنهم الرّمال ، فاحتملتهم ، فرمت منهم فى البحر ، وشدخت الباقي بالحجارة «١».

وقيل : أول من أبصر العذاب امرأة منهم ، قالت : رأيت ريحا فيها كشهب النّار ، وهو معنى قوله : تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ أي : تهلك من نفوس عاد وأموالهم الجم الكثير ، فعبّر عن الكثرة بالكلية. بِأَمْرِ رَبِّها أي : رب الرّيح ، وفى ذكر الأمر والرّب ، والإضافة إلى الرّيح ، من الدلالة على عظيم شأنه – تعالى – ما لا يخفى ، فَأَصْبَحُوا لا يُرى «٢» إِلَّا مَساكِنُهُمْ أي : فجاءت الرّيح فدمرتهم ، فصاروا بحيث لا يرى شيء إلا مساكنهم خاوية ، ومن قرأ بتاء الخطاب ، فهو لكلّ من يتأتى منه الرّؤية ، تنبيها على أن حالهم صار بحيث لو نظر كلّ أحد بلادهم لا يرى فيها إلا مساكنهم.

---

(١) انظر تفسير البغوي (٧/ ٢٦٣).

(٢) قرأ عاصم وحمزة ويعقوب «يرى» بضم الياء ، و«مساكنهم» برفع النّون ، نائب فاعل ، وقرأ الباقون «ترى» بالتاء وفتحها ، و«مساكنهم» بالنصب ، مفعولا به. انظر الإتحاف (٢/ ٤٧٢ – ٤٧٣).

كَذلِكَ أي : مثل ذلك الجزاء الفظيع نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ وننجى المؤمنين. روى أن هود عليه السّلام ومن معه من المؤمنين فى حظيرته ، ما يصيبهم من الرّيح إلا ماتلين على الجلود ، وتلذه الأنفس ، وإنها لتمرّ من عاد بالظعن بين السماء والأرض ، وتدمغهم بالحجارة. سبحان الحكيم القدير ، اللطيف الخبير.

الإشارة : إنما جاءت النّذر من عهد آدم عليه السّلام إلى قيام الساعة ، تأمر بعبادة اللّه ، ورفض كلّ ما

سواه ، فمن تمسك بذلك نجى ، ومن عبد غير اللّه ، أو مال إلى سواه ، عاجلته العقوبة فى الظاهر أو الباطن. واللّه تعالى أعلم.

ثم خوّف هذه الأمة بما جرى على عاد ، فقال :

[سورة الأحقاف (٤٦) : الآيات ٢٦ الى ٢٨]

وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيما إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنا لَهُمْ سَمْعاً وَأَبْصاراً وَأَفْئِدَةً فَما أَغْنى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلا أَبْصارُهُمْ وَلا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كانُوا يَجْحَدُونَ بِآياتِ اللَّهِ وَحاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (٢٦) وَلَقَدْ أَهْلَكْنا ما حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرى وَصَرَّفْنَا الْآياتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٢٧) فَلَوْ لا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْباناً آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذلِكَ إِفْكُهُمْ وَما كانُوا يَفْتَرُونَ (٢٨)

قلت : فِيما : موصولة ، أو موصوفة ، ومفعول اتَّخَذُوا الأول : محذوف ، وآلِهَةً : مفعول ثان ، أي : اتخذوهم آلهة ، وقُرْباناً : حال ، ولا يصح أن يكون مفعولا ثانيا ل «اتخذوا» ، و«آلهة» : بدل ، لفساد المعنى ، وأجازه ابن عطية ، ووجه فساده : أن اتخاذهم آلهة مناف لاتخاذهم قربانا لأن القربان مقصود لغيره ، والآلهة مقصودة بنفسها ، فتأمله ، و«إن» نافية ، والأصل : فيما ما مكنكم فيه ، ولمّا كان التكرار مستثقلا جيء بأن ، كما قالوا فى مهما ، والأصل : ما ما ، فلبشاعة التكرار قلبوا الألف هاء ، وقيل : «إن» صلة ، أي : فى مثل ما مكنكم فيه ، والأول أحسن.

يقول الحق جل جلاله : وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ أي : قررنا عاد ومكناهم فى التصرف فِيما أي : فى الذي ، أو فى شيء ما مَكَّنَّاكُمْ يا معشر قريش فِيهِ من السعة والبسطة ، وطول الأعمار ، وسائر مبادئ التصرفات ، فما أغنى عنهم شيء من ذلك ، حين نزل بهم الهلاك ، وهذا كقوله تعالى : كَمْ أَهْلَكْنا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ ما لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ ، «١» أو : ولقد مكنهم فى مثل ما مكنكم فيه ، فما جرى عليهم يجرى

---

(١) من الآية ٦ من سورة الأنعام.

عليكم ، حيث خالفتم نبيكم ، والأول أوفق بقوله : كانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثاراً فِي الْأَرْضِ «١» وقوله : هُمْ أَحْسَنُ أَثاثاً وَرِءْياً «٢».

وَجَعَلْنا لَهُمْ سَمْعاً وَأَبْصاراً وَأَفْئِدَةً أي : آلات الإدراك والفهم ، ليعرفوا بكلّ واحدة منها ما خلقت له ، وما نيطت به معرفته ، من فنون النّعم ، ويستدلوا بها شئون منعمها ، ويداوموا على شكرها ، ويوحدوا

خالقها ، فَما أَغْنى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ حيث لم يستعملوه فى استماع الوحى ومواعظ الرّسل ، وَلا أَبْصارُهُمْ حيث لم يبصروا ما نصب من الآيات الدالة على وحدانيته – تعالى – ووجوب وجوده ، وَلا أَفْئِدَتُهُمْ حيث لم يتفكروا بها فى عظمة اللّه – تعالى – وأسباب معرفته ، فما أغنت عنهم مِنْ شَيْءٍ أي : شيئا من الإغناء. ومِنْ : زائدة للتأكيد ، وقوله : إِذْ كانُوا يَجْحَدُونَ بِآياتِ اللَّهِ : ظرف لقوله : فَما أَغْنى جار مجرى التعليل ، لاستواء مؤدّى التعليل والظرف فى قولك : ضربته إذ أساء ، أو : لإساءته ، لأنك إذا ضربته وقت إساءته فإنما ضربته فيه لوجود إساءته فيه ، وكذلك الحال فى «حيث» دون سائر الظروف غالبا ، أي : فما أغنت عنهم آلات الإدراك لأجل جحودهم بآيات اللّه. وَحاقَ أي : نزل بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ من العذاب الذي كانوا يستعجلونه بطريق الاستهزاء ، ويقولون : فَأْتِنا بِما تَعِدُنا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ.

وَلَقَدْ أَهْلَكْنا ما حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرى يا أهل مكة ، كحجر ثمود ، وقرى لوط ، والمراد : أهل القرى ، ولذلك قال : وَصَرَّفْنَا الْآياتِ ، كرّرناه ، لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ أي : كرّرنا عليهم الحجج وأنواع العبر لعلهم يرجعون من الطغيان إلى الإيمان ، فلم يرجعوا ، فأنزلنا عليهم العذاب.

فَلَوْ لا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْباناً آلِهَةً أي : فهلا منعهم وخلصهم من العذاب الأصنام الذين اتخذوهم آلهة من دون اللّه ، حال كونها متقربا بها إلى اللّه ، حيث كانوا يقولون : ما نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونا إِلَى اللَّهِ زُلْفى «٣» ، وهؤُلاءِ شُفَعاؤُنا عِنْدَ اللَّهِ «٤» بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ أي : غابوا عن نصرتهم ، وَذلِكَ إِفْكُهُمْ وَما كانُوا يَفْتَرُونَ ، الإشارة إلى امتناع نصرة آلهتهم وضلالهم ، أي : وذلك أثر إفكهم الذي هو اتخاذها آلهة ، وثمرة شركهم ، وافترائهم على اللّه الكذب.

---

(١) الآية ٢١ من سورة غافر. [.....]

(٢) من الآية ٧٤ من سورة مريم.

(٣) من الآية ٣ من سورة الزمر.

(٤) من الآية ١٨ من سورة يونس.

وقرأ ابن عباس وابن الزبير : إِفْكُهُمْ «١» أي : صرفهم عن التوحيد. وقرئ : بتشديد الفاء ، للتكثير «٢».

الإشارة : التمكن من كثرة الحس لا يزيد إلا ضعفا فى المعنى ، وبعدا من الحق ، ولذلك يقول الصوفية

: كل ما زاد فى الحس نقص فى المعنى ، وكلّ ما نقص من الحس زاد فى المعنى ، والمراد بالمعنى : كشف أسرار الذات وأنوار الصفات ، وما مكّن اللّه – تعالى – عبده من الحواس الخمس إلا ليستعملها فيما يقربه إليه ، ويوصله إلى معرفته ، فإذا صرفها فى غير ذلك ، عوقب عليها. وباللّه التوفيق.

ثم ذكر حال من أغنى عنه سمعه ونفعه ، حيث استعمله فيما وصله إلى ربه ، فقال :

[سورة الأحقاف (٤٦) : الآيات ٢٩ الى ٣٢]

وَإِذْ صَرَفْنا إِلَيْكَ نَفَراً مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ (٢٩) قالُوا يا قَوْمَنا إِنَّا سَمِعْنا كِتاباً أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسى مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ (٣٠) يا قَوْمَنا أَجِيبُوا داعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذابٍ أَلِيمٍ (٣١) وَمَنْ لا يُجِبْ داعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءُ أُولئِكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ (٣٢)

قلت : «النفر» بالفتح : الجماعة من ثلاثة إلى عشرة ، وقيل : إلى سبعة ، ولا يقال نفر فيما زاد على عشرة ، والرّهط والقوم والعشيرة والمعشر معناهم الجمع ، ولا واحد لهم من لفظه ، وهو للرجال دون النّساء. قاله فى المصباح. ومِنَ الْجِنِّ : نعت للنفر ، وكذا يَسْتَمِعُونَ.

يقول الحق جل جلاله : وَاذكر إِذْ صَرَفْنا إِلَيْكَ نَفَراً مِنَ الْجِنِّ أي : أملناهم إليك ، وأقبلنا بهم نحوك ، وهم جن نصيبين ، أو جن نينوى ، قال فى القاموس : «نينوى» بكسر أوله ، موضع بالكوفة ، وقرية بالموصل

---

(١) انظر مختصر ابن خالويه (ص ١٤٠) والبحر المحيط (٨/ ٦٦).

(٢) «أفكهم» وبذلك قرأ أبو عياض ، كما فى مختصر ابن خالويه/ ١٤٠ والمحتسب (٢/ ٢٦٧) وزاد فى البحر المحيط (٨/ ٦٦) :

وعكرمة.

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٣٤٦

ليونس عليه السّلام. هـ. يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ

منه عليه السّلام فَلَمَّا حَضَرُوهُ أي : الرسول صلّى اللّه عليه وسلم ، أو القرآن ، أي : كانوا منه حيث يسمعونه ، قالُوا أي : قال بعضهم لبعض : أَنْصِتُوا اسكتوا مستمعين ، فَلَمَّا قُضِيَ ، تمّ وفرغ من تلاوته

، وَلَّوْا إِلى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ ، مقدّرين إنذارهم عند رجوعهم إليهم.

روى : أن الجنّ كانت تسترق السمع ، فلما حرست السماء ، ورموا بالشهب ، قالوا : ما هذا إلا لأمر حدث ، فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها ، لتعرفوا ما هذا ، فنهض سبعة أو تسعة من أشراف جن نصيبين أو نينوى ، منهم : «زوبعة» فمضوا نحو تهامة ، ثم انتهوا إلى وادي نخلة ، فوافقوا رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم وهو قائم يصلى صلاة الفجر ، فاستمعوا القرآن ، وذلك عند منصرفه من الطائف ، حين ذهب يدعوهم إلى اللّه ، فكذّبوه ، وردوا عليه ، وأغروا به سفاءهم ، فمضى على وجهه ، حتى وصل إلى نخلة ، فصلى بها الغداة ، فوافاه نفر الجن يصلى ، فاستمعوا لقراءته ، ولم يشعر بهم ، فأخبره اللّه تعالى باستماعهم «١».

وقيل : أمره اللّه – تعالى – أن ينذر الجن ، ويقرأ عليهم ، فصرف اللّه إليه نفرا منهم ، وجمعهم له ، فقال صلّى اللّه عليه وسلم :

إنى أمرت أن أقرأ على الجن ، فمن يتبعنى؟ قالها ثلاثا ، فأطرقوا إلا عبد اللّه مسعود ، قال : فانطلقنا حتى إذا كنا بأعلى مكة ، فى شعب الحجون ، فخطّ خطا ، فقال : لا تخرج عنه حتى أعود إليك ، ثم افتتح القرآن ، وسمعت لغطا شديدا ، حتى خفت على رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم فجعلت أرى أمثال النّسور تهوى وتمشى ، وغشيته أسودة كثيرة حالت بينى وبينه ، حتى ما أسمع صوته ، ثم تتقطع كقطع؟؟؟ ، ففرغ صلّى اللّه عليه وسلم مع الفجر ، فقال : أنمت؟ فقلت : لا واللّه ، ولقد هممت مرارا أن أستغيث بالناس حتى سمعتك تقرعهم بعصاك ، تقول : أجلسوا ، فقال : لو خرجت لم آمن عليك أن يتخطفك بعضهم ، ثم قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم : «هل رأيت شيئا؟» قلت : نعم ، رجالا سودا ، فى ثياب بيض ، قال : «أولئك جن نصيبن» «٢» وكانوا اثنى عشر ألفا ، والسورة التي قرأ عليهم : اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ.

فلمّا رجعوا إلى قومهم قالُوا يا قَوْمَنا إِنَّا سَمِعْنا كِتاباً أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسى ، قيل : قالوا ذلك لأنهم كانوا على اليهودية ، وعن ابن عباس : إن الجن لم تكن سمعت بأمر عيسى عليه السّلام وهو بعيد. حال كون الكتاب مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ من العقائد الصحيحة ، أو إلى اللّه ، وَإِلى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ يوصل إلى اللّه ، وهو الشرائع والأعمال الصالحة.

---

(١) أخرجه بمعناه البخاري فى (الأذان ، باب الجهر بقراءة صلاة الفجر ح ٧٧٣) وكذا أخرجه فى (التفسير ، سورة الجن) من حديث عبد اللّه بن عباس رضي اللّه عنه.

(٢) انظر تفسير البغوي ٧/ ٢٦٧.

يا قَوْمَنا أَجِيبُوا داعِيَ اللَّهِ وهو محمد صلّى اللّه عليه وسلم ، وَآمِنُوا بِهِ أي : بالرسول أو القرآن. وصفوه بالدعوة إلى اللّه – تعالى – بعد ما وصفوه بالهداية إلى الحق والطريق المستقيم لتلازمهما ، دعوهم إلى ذلك بعد بيان حقيقته واستقامته ، ترغيبا فى الإجابة ، ثم أكدوه بقولهم : يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ أي : بعض ذنوبكم ، وهو ما كان فى حق خالص للّه – تعالى – فإنّ حقوق العباد لا تغفر بالإيمان ، وقيل : تغفر. وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذابٍ أَلِيمٍ موجع.

واختلف فى مؤمنى الجن ، هل يثابون على الطاعة ، ويدخلون الجنة ، أو يجارون من النّار فقط؟ قال الفخر :

والصحيح أنهم فى حكم بنى آدم ، يستحقون الثواب على الطاعة ، والعقاب على المعصية ، وهو قول مالك ، وابن أبى ليلى ، وقال الضحاك : يدخلون الجنة ويأكلون ويشربون. هـ. ويؤيده قوله تعالى : وَلِكُلٍّ دَرَجاتٌ مِمَّا عَمِلُوا كما تقدم فى الأنعام «١».

وَمَنْ لا يُجِبْ داعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ أي : لا ينجى منه مهرب ، وإظهار «داعى اللّه» من غير اكتفاء بضميره ، للمبالغة فى الإيجاب ، بزيادة المهابة والتقرير وتربيته ، وإدخال الرّوعة. وتقييد الإعجاز بكونه فى الأرض لتوسيع الدائرة ، أي : فليس بمعجز له – تعالى – وإن هرب فى أقطار الأرض ودخل فى أعماقها.

وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءُ ينصرونه من عذاب اللّه ، وهو بيان لاستحالة نجاته بواسطة ، إثر بيان استحالة نجاته بنفسه ، وجمع «الأولياء» مبالغة ، إذا كان لا ينفعه أولياء ، فأولى واحد. أُولئِكَ الموصوفون بعدم إجابة داعى اللّه فِي ضَلالٍ مُبِينٍ أي : ظاهر ، بحيث لا تخفى ضلالته على أحد ، حيث أعرضوا عن إجابة من هذا شأنه ، وجمع الإشارة باعتبار معنى «من» ، وأفرد أولا باعتبار لفظها.

الإشارة : قد استعملت الجن الأدب بين يديه صلّى اللّه عليه وسلم حيث قالوا : أنصتوا ، فالجلوس مع الأكابر يحتاج إلى أدب كبير ، كالصمت ، والوقار ، والهيبة ، والخضوع ، كما كانت حالة الصحابة – رضي اللّه عنهم – مع الرّسول صلّى اللّه عليه وسلم إذا تكلم أنصتوا كأنما على رؤوسهم الطير. قال الشيخ أبو الحسن رضي اللّه عنه : «إذا جالست الكبراء فدع ما تعرف إلى مالا تعرف ، لتفوز بالسر المكنون» فإذا انقضى مجلس التذكير رجع كلّ واحد منذرا وداعيا إلى اللّه كلّ من لقيه ، وقد كان صلّى اللّه عليه وسلم يقول لأصحابه : «ليبلغ الشاهد الغائب» «٢» فمن بلغه ذلك واستجاب ربح وغنم ، ومن لا يجب داعى اللّه

---

(١) راجع تفسير الآية ١٣٢ من سورة الأنعام. وانظر فى حكم مؤمنى الجن : تفسير القرطبي (٧/ ٦٢٢٤) و«آكام المرجان فى أحكام الجان» للشبلى النّعمانى.

(٢) جزء من حديث خطبة الرّسول فى حجة الوداع ، أخرجه البخاري فى (الحج ، باب الخطبة أيام

منى ح ١٧٤١) ، ومسلم فى (القسامة ، باب تعليظ تحريم الدماء والأعراض والأموال رقم ١٦٧٩ ، ح ٢٩ ، ٣٠) عن أبى بكرة رضي اللّه عنه.

(٣٤٧/٥)

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٣٤٨

خاب وخسر ، والاستجابة أقسام ، قال القشيري : فمستجيب بنفسه ، ومستجيب بقلبه ، ومستجيب بروحه ، ومستجيب بسرّه ، ومن توقف عند دعاء الداعي إليه ، ولم يبادر إلى الاستجابة هجر فيما كان يخاطب به. هـ.

قلت : المستجيب بنفسه هو المستجيب بالقيام بوظائف الإسلام ، والمستجيب بقلبه القائم بوظائف الإيمان ، والمستجيب بروحه القائم بوظائف الإحسان ، والمستجيب بسره هو المتمكن من دوام الشهود والعيان ، وقول : هجر فيما يخاطب به ، أي : كان يخاطب بملاحظة الإحسان ، فإذا لم يبادر قيد بسلاسل الامتحان. واللّه تعالى أعلم.

ثم برهن على قوله ، فليس بمعجزه فى الأرض ، فقال :

[سورة الأحقاف (٤٦) : الآيات ٣٣ الى ٣٤]

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقادِرٍ عَلى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتى بَلى إِنَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٣٣) وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هذا بِالْحَقِّ قالُوا بَلى وَرَبِّنا قالَ فَذُوقُوا الْعَذابَ بِما كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (٣٤)

قلت : وَلَمْ يَعْيَ : حال من فاعل «خلق» ، يقال : عى ، كرضى ، وعى بالإدغام ، وهو أكثر. قاله فى الصحاح.

وفى القاموس : عىّ بالأمر وعيى كرضى ، وتعايا واستعيا وتعيّا : لم يهتد لوجه مراده ، أو عجز عنه ولم يطق إحكامه. هـ. وبِقادِرٍ : خبر «أن» ، ودخلت الباء لاشتمال النّفى الذي فى صدر الآية على «أنّ» وما فى حيزّها ، قال الزجاج : لوقلت : ما ظنت أنّ زيدا بقائم ، جاز.

يقول الحق جل جلاله : أَوَلَمْ يَرَوْا أي : ألم يتفكروا ولم يعلموا علما جازما أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ ، ابتداء من غير مثال يحتويه ، ولا قانون يحتذيه ، وَالحال أنه لَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ أي : لم يتعب ولم ينصب بذلك أصلا ، ولم يعجز عنه ، أليس من فعل ذلك بِقادِرٍ عَلى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتى بَلى :

جواب النّفى ، أي : بلى هو قادر على ذلك ، إِنَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ تقرير للقدرة على وجه عام ، ليكون كالبرهان على المقصود.

ثم ذكر عقاب من أنكر البعث المبرهن عليه ، فقال : وَاذكر يَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ فيقال لهم : أَلَيْسَ هذا بِالْحَقِّ ، فالإشارة إلى ما يشاهدونه من فظيع العذاب ، وفيه تهكم بهم ، وتوبيخ لهم ، على استهزائهم بوعد اللّه تعالى ووعيده ، ونفيه بقولهم : «وما نحن بمعذبين» ، قالُوا فى جواب الملائكة : بَلى

(٣٤٨/٥)

البحر المديد ج ٥ ، ص : ٣٤٩

وَرَبِّنا

إنه لحق ، أكدوا جوابهم بالقسم كأنهم يطمعون فى الخلاص بالاعتراف بحقيقتهما كما فى الدنيا ، وأنّى لهم ذلك؟ قالَ تعالى لهم : فَذُوقُوا الْعَذابَ بِما كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ بها فى الدنيا ، ومعنى الأمر : الإهانة بهم والتوبيخ لهم ، نعوذ باللّه من موارد الهوان.

الإشارة : تربية اليقين تطلب فى أمرين ، حتى يكونا كرأى العين : وجود الحق أو شهوده ، وإتيان الساعة وقربها ، حتى تكون نصب العين ، وتقدم حديث حارثة شاهدا على إيمانه ، حيث قال : «وكأنى أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون ...» الحديث.

ثم أمر بالصبر على ما يسمع من الكفرة ، فى إمكان البعث وغيره ، فقال :

[سورة الأحقاف (٤٦) : آية ٣٥]

فَاصْبِرْ كَما صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ ما يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ ساعَةً مِنْ نَهارٍ بَلاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلاَّ الْقَوْمُ الْفاسِقُونَ (٣٥)

قلت : لَهُمْ : متعلق بتستعجل ، وأما تعليقه ببلاغ فضعيف ، لا يليق بإعجاز التنزيل ، خلافا لوقف الهبطى ، وبَلاغٌ : خبر عن مضمر ، أي : هذا بلاغ.

يقول الحق جل جلاله : فَاصْبِرْ يا محمد على ما يصيبك من جهة الكفرة كَما صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ أي : الثبات والحزم مِنَ الرُّسُلِ ، فإنك من جملتهم ، بل من أكملهم وأفضلهم ، و«من» للتبعيض ، واختلف فى تعيينهم ، فقيل : هم المذكرون فى الأحزاب وَإِذْ أَخَذْنا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْراهِيمَ وَمُوسى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ «١» وهم أهل الشرائع ، الذي اجتهدوا فى تأسيسها وتقريرها ، وصبروا على تحمل مشاقها ، وسياسة من تمسك بها ، ومعاداة الطاعنين فيها. وقيل : هم الصابرون على بلاء اللّه تعالى ، كنوح صبر على إذاية قومه ، كانوا يضربونه حتى يغشى عليه ، وإبراهيم صبر على النّار ، وذبح ولده ، ومفارقة وطنه ، وترك ولده ببلد خالية من العمران ، ويعقوب على فقد ولده ، وذهاب بصره ، ويوسف على الجب والسجن ، وأيوب على الضر ، وموسى قال له قومه : إِنَّا لَمُدْرَكُونَ قالَ كَلَّا إِنَّ مَعِي

رَبِّي سَيَهْدِينِ «٢» وعلى مكابدة التيه مع قومه ، وداود بكى على خطيئته أربعين سنة ، وعيسى لم يضع لبنة على لبنة.

---

(١) الآية ٧ من سورة الأحزاب.

(٢) الآيتان ٦١ ، ٦٢ من سورة الشعراء.

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٣٥٠

وقيل : هم اثنا عشر نبيا ، أرسلوا إلى بنى إسرائيل ، فعصوهم ، فأوحى اللّه إلى الأنبياء : إنى مرسل عذابى على عصاة بنى إسرائيل ، فشقّ عليهم ، فأوحى اللّه إليهم : أن اختاروا لأنفسكم ، إن شئتم أنزلت بكم العذاب ، وأنجيت بنى إسرائيل ، وإن شئتم أنجبتكم وأنزلت ببني إسرائيل ، فتشاوروا بينهم ، فاجتمع رأيهم على أن ينزل بهم العذاب وينجى بنى إسرائيل ، فسلّط عليهم ملوك الأرض ، فمنهم من نشر بالمناشير ، ومنهم من سلخ جلدة رأسه ووجهه ، ومنهم من رفع على الخشب ، ومنهم من أحرق بالنار. نسأل اللّه العافية ، فإنهم أقوياء ونحن ضعفاء.

وقيل : «من» للتبيين ، كقولك : اشتريت ثيابا من الخز ، فكلهم أولو العزم ، وقيل : إلا يونس ، لقوله : وَلا تَكُنْ كَصاحِبِ الْحُوتِ «١» وآدم لقوله : وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً «٢».

ثم قال تعالى : وَلا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ أي : لكفار مكة نزول العذاب ، فإنه نازل بهم ، كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ ما يُوعَدُونَ من العذاب لَمْ يَلْبَثُوا فى الدنيا إِلَّا ساعَةً يسيرة مِنْ نَهارٍ لما يشاهدونه من شدة العذاب وطول مدته. قال الثعالبي : وإذا علمت أيها الأخ أن الدنيا أضغاث أحلام ، كان من الحزم اشتغالك الآن بتحصيل الزاد للمعاد ، وحفظ الحواس ، ومراعاة الأنفاس ، ومراقبة مولاك ، فاتخذه صاحبا ، ودع النّاس جانبا ، ثم نقل عن الغزالي ما يهيج النّفس إلى النّهوض إلى اللّه ، والفرار مما سواه ، فانظره.

هذا بَلاغٌ أي : هذا الذي وعظتم به كفاية فى الموعظة ، أو تبليغ من الرّسول ، أو منى إليك ، ومنك إلى العالمين. فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفاسِقُونَ أي : ما يهلك إلا الخارجون عن هذا الاتعاظ ، أو عن هذه المواعظ ، أو عن الطاعة ، أو : فلا يهلك مع هذه المواعظ البالغة ، والأدلة القاطعة إلا من هلك عن بينة ، أو : فلا يهلك مع رحمة اللّه وتفضله إلا الهالكون ، ونظير ما ختم به هنا ما ختم به سورة الأنبياء : إِنَّ فِي هذا لَبَلاغاً لِقَوْمٍ عابِدِينَ الآية «٣».

فائدة : قال ابن عباس : إذا عسر على المرأة ولدها ، فليكتب هاتين الآتين الكريمتين فى صحيفة ، ثم تغسل وجهها منها ، وتسقى منها : بسم اللّه الرّحمن الرّحيم ، لا إله إلا اللّه ، العظيم الحليم ، سبحان

اللّه رب السموات والأرض ، ورب العرش العظيم ، كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها ، كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ ما يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا ساعَةً مِنْ نَهارٍ. صدق اللّه العظيم. هـ.

---

(١) الآية ٤٨ من سورة القلم.

(٢) الآية ١١٥ من سورة طه.

(٣) الآية ١٠٦ من سورة الأنبياء. [.....]

الإشارة : أولو العزم من الأولياء هم أولو الجد والتشمير ، قد خلّصهم البلاء وشحّرهم ، فهم جلاليون الظاهر ، جماليون الباطن ، قد أسسوا منار الطريق ، وأظهروا معالم التحقيق ، قاسوا شدائد المجاهدة ، وأفضوا إلى دوام المشاهدة ، عالجوا سياسة الخلق ، حتى هدى اللّه على أيديهم الجم الغفير ، فهم خلفاء الرّسل فى تجديد الشرائع ، وإحياء الدين – جعلنا اللّه منهم بمنّه وكرمه. فيقال لكلّ وليّ من أولى العزم : فاصبر كما صبر أولو العزم من الأولياء قبلك.

قال القشيري : والصبر هو الوقوف لحكم اللّه تعالى ، والثبات من غير بثّ الاستكراه. هـ. أي : من غير إظهار الشكوى والتذكرة. قلت : وأعظم مواطن الصبر عند ورود الفاقات ، وتوالى الأزمات ، وصيانة الوجه عن ذل المخلوقات ، وللّه در القائل.

ارض بأدنى العيش واشكر عليه شكر من القلّ كثير لديه
وجانب الحرص الّذى لم يزل يحطّ قدر المتراقى إليه
وحام عن عرضك واستبقه كما يحامى اللّيث عن لبدتيه
واصبر على ماناب من نوب صبر أولى العزم ، واغمض عليه
ولبدتى الأسد : جانبا كتفيه.

ويقال لأولى العزم ، حين يؤذون من جهة الخلق : وَلا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ ... الآية. وقوله تعالى : كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ ... الآية ، قال القشيري : مدة الخلق من مبتدأ خلقتهم إلى منتهى آجالهم ، بالإضافة إلى الأزلية ، كلحظة ، بل هى أقلّ ، إذ الأول لا ابتداء له ولا انتهاء ، وأىّ خطر لما حصل فى لحظة .. خيرا كان أو شرا؟. هـ.

قال الورتجبي ، ثم بيّن أن عند معاينة سطوات القهريات ، لا يهلك فيها إلا الخارجون من نعوت استعداد معرفتى ، حين يحتجبون بظلمات نعوتهم «١» بقوله : فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفاسِقُونَ

الخارجون بالدعاوى الباطلة. هـ. وباللّه التوفيق ، وصلّى اللّه على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

---

(١) فى الورتجبي : ظنونهم.

(٣٥١/٥)

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٣٥٢

(٣٥٢/٥)

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٣٥٣

سورة محمّد «١»

مدنية. وهى ثمان وثلاثون آية ، ومناسبتها لما قبلها : قوله : (فهل يهلك إلا القوم الفاسقون) ، فإنهم الكفرة الذين أشار إليهم بقوله :

[سورة محمد (٤٧) : الآيات ١ الى ٣]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمالَهُمْ (١) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَآمَنُوا بِما نُزِّلَ عَلى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بالَهُمْ (٢) ذلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْباطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثالَهُمْ (٣)

قلت : (الذين) : مبتدأ ، و(أضل) : خبر ، و(من ربهم) : حال من ضمير الحق ، وجملة (و هو ...) إلخ : اعتراضية بين المبتدأ والخبر ، و(ذلك) : مبتدأ ، و(بأن) : خبر.

يقول الحق جل جلاله : الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أي : أعرضوا وامتنعوا عن الدخول فى الإسلام ، أو صدوا غيرهم عنه. قال الجوهري : صدّ عنه ، يصدّ ، صدودا : أعرض ، وصدّه عن الأمر صدا : منعه ، وصرفه عنه. هـ. وهم المطعمون يوم بدر «٢» ، أو : أهل الكتاب ، كانوا يصدون من أراد الدخول فى الإسلام ، منهم ومن غيرهم ، أو عام فى كل من كفر وصدّ. فهؤلاء أَضَلَّ أَعْمالَهُمْ أي : أحبطها وأبطلها ، أي : جعلها ضالة ضائعة ، ليس لها من يتقبلها ويثيب عليها ، كضالة الإبل. وليس المعنى أنه أبطلها بعد أن لم تكن كذلك ، بل بمعنى :

أنه حكم ببطلانها وضياعها ، فإنّ ما كانوا يعملونه من أعمال البر ، كصلة الأرحام ، وقرى الضيف ، وفك الأسارى ، وغيرها من المكارم ، ليس لها أثر من أصلها لعدم الإيمان ، أو : أبطل ما عملوا من

الكيد برسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم ، والصد عن سبيله ، بنصر رسوله ، وإظهار دينه على الدين كله ، وهو الأوفق بقوله : فَتَعْساً لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمالَهُمْ «٣».

---

(١) فى الأصول : «سورة محمد أو القتال».

(٢) قاله ابن عباس رضي اللّه عنه – فيما ذكره القرطبي فى تفسيره (٧/ ٦٢٣٠). «وهم اثنا عشر رجلا ، وذكر القرطبي أسماءهم.

(٣) الآية ٨ من نفس السورة.

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ قيل : هم ناس من قريش ، وقيل : من الأنصار ، وقيل : من آمن من أهل الكتاب ، والمختار أنه عام ، وَآمَنُوا بِما نُزِّلَ عَلى مُحَمَّدٍ صلى اللّه عليه وسلم ، وهو القرآن ، وخص بالذكر من بين ما يجب الإيمان به تنويها بشأنه ، وتنبيها على سمو مكانه من بين ما يجب الإيمان به ، وأنه الأصل فى الكل ولذلك أكّده بقوله : وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ أي : القرآن ، لكونه ناسخا لغيره من الكتب ، وقيل : دين محمد – صلّى اللّه عليه وسلم إذ لا يرد عليه النّسخ ، وهو ناسخ لسائر الأديان ، كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئاتِهِمْ أي : ستر بالإيمان والعمل الصالح ما كان منهم من الكفر والمعاصي لرجوعهم عنها بالتوبة وَأَصْلَحَ بالَهُمْ أي : حالهم وشأنهم ، بالتوفيق لأمور الدين ، وبالتسليط على الدنيا ، بما أعطاهم اللّه من النّصرة والعزة والتمكين فى البلاد.

ذلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْباطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ أي : ذلك الأمر ، وهو إضلال أعمال أهل الكفر ، وتكفير سيئات أهل الإيمان ، وإصلاح شأنهم كائن بسبب اتباع هؤلاء الباطل وهو الشيطان ، حيث فعلوا ما فعلوا من الكفر والصد ، واتباع هؤلاء الحق ، وهو القرآن ، أو ما جاء به صلّى اللّه عليه وسلم ، أو يراد بالباطل : الزائل الذاهب من الدّين الفاسد ، وبالحق : الدين الثابت ، أو يراد بالباطل : نفس الكفر والصد ، وبالحق : نفس الإيمان والأعمال الصالحة.

كَذلِكَ أي : مثل الضرب البديع يَضْرِبُ اللَّهُ أي : يبين لِلنَّاسِ أَمْثالَهُمْ أي : أحوال الفريقين ، وأوصافهما ، الجارية فى الغرابة مجرى الأمثال ، وهو اتباع الأولين الباطل ، وخيبتهم وخسرانهم ، واتباع الآخرين الحقّ ، وفوزهم وفلاحهم ، والضمير راجع إلى النّاس ، أو إلى المذكورين من الفريقين ، على معنى : أنه يضرب أمثالهم لأجل النّاس ليعتبروا بهم ، وقد جعل اتباع الباطل مثلا لعمل الكافرين ، واتباع الحق مثلا لعمل المؤمنين ، أو جعل الإضلال مثلا لخيبة الكفار ، وتكفير السيئات مثلا لفوز الأبرار.

الإشارة : الذين كفروا بوجود الخصوصية ، وصدوا النّاس عنها أبطل سيرهم إليه ، فكلما ساروا رجعوا ، والذين آمنوا الإيمان الكامل واتبعوا السنة النّبوية ، ستر مساوئهم ، وأصلح شأنهم ، حتى صلحوا لحضرته. قال القشيري :

الذين كفروا : امتنعوا ، وصدوا : منعوا «١» ، فلا متناعهم عن اللّه استوجبوا العقوبة ، ولمنعهم الخلق عن اللّه استوجبوا الحجبة. ثم قال فى قوله : وَأَصْلَحَ بالَهُمْ : فالكفر للأعمال محبط ، والإيمان للخلود مسقط ، ويقال : الذين اشتغلوا بطاعة اللّه ، ولم يعملوا شيئا مما خالف اللّه – فلا محالة – يقوم اللّه بكفاية أشغالهم. هـ.

---

(١) فى القشيري : وصدوا فمنعوا.

وقوله تعالى : ذلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْباطِلَ ... الآية ، قال الورتجبي : اتبع الكفرة ما وقع فى مخايلهم ، من هواجس النّفس ، ووساوس الشيطان ، ولا يقبلون طرائق الرّشد من حيث الوحى والإلهام ، وأنّ الذين صدقوا فى دين اللّه ، وشاهدوا اللّه باللّه ، اتبعوا سنة رسوله وخطابه ، وما يقع فى أسرارهم من النّور والبيان ، والإلهام والكلام ، بنعت الإخلاص فى طاعته ، والأدب فى خدمته والإعراض عن غيره. قال ابن عطاء : اتباع الباطل :

ارتكاب الشهوات وأمالى النّفس ، واتباع الحق : اتباع الأوامر والسنن. هـ. قال القشيري : اتباع الحق بموافقة السنة ، ومتابعة الجد فى رعاية الحق وإيثار رضاه ، والقيام بالطاعة ، واتباع الباطل : الابتداع والعمل بالهوى ، وإيثار الحظوظ وارتكاب المعصية. هـ.

ثم أقرّ بجهاد من كفر وصدّ ، فقال :

[سورة محمد (٤٧) : الآيات ٤ الى ٩]

فَإِذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقابِ حَتَّى إِذا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِداءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزارَها ذلِكَ وَلَوْ يَشاءُ اللَّهُ لانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلكِنْ لِيَبْلُوَا بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمالَهُمْ (٤) سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بالَهُمْ (٥) وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَها لَهُمْ (٦) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدامَكُمْ (٧) وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْساً لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمالَهُمْ (٨) ذلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا ما أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمالَهُمْ (٩)

قلت : (فضرب) : مصدر ، نائب عن فعله ، مضاف إلى مفعوله ، و(منّا) و(فداء) : مصدران لمحذوف

، و(الذين كفروا) : مبتدأ حذف خبره ، وهو العامل فى المصدر ، أي : والذين كفروا فأتعسهم تعسا ، و(أضل أعمالهم) : عطف على الخبر المحذوف.

يقول الحق جل جلاله : فَإِذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فى المحاربة فَضَرْبَ الرِّقابِ ، أصله : فاضربوا الرقاب ضربا ، فحذف الفعل وناب عن مصدره للاختصار ، مع إعطاء معنى التوكيد ، لدلالة نصبه على مؤكده ، وضرب الرّقاب عبارة عن مطلق القتل ، والتعبير به عن القتل تصوير له بأشنع صورة وتهويل لأمره ، وإرشاد للغزاة إلى أيسر ما يكون ، حَتَّى إِذا أَثْخَنْتُمُوهُمْ أكثرتم فيه القتل ، وأغلظتموه ، من : الشيء الثخين ، وهو الغليظ ،

أو : أثقلتموهم بالجراح وهزمتموهم ، فَشُدُّوا الْوَثاقَ أي : فأسروهم ، وشدوا وثاقهم ، لئلا يتفلتوا ، والوثاق بالفتح والكسر : ما يشد به. فإذا أسرتموهم فتخيروا فيهم فَإِمَّا مَنًّا أي : فإما أن تمنوا منا بعد الأسر ، وَإِمَّا فِداءً :

أن تفدوا فداء ، والمعنى : التخير بين الأمرين بعد الأسر ، بين أن يمنّوا عليهم فيطلقوهم ، وبين أن يفادوهم ، ومذهب مالك : أن الإمام مخيّر فى الأسارى بين خمسة ، وهى : المنّ ، والفداء ، والقتل ، والاسترقاق ، وضرب الجزية ، وقيل :

لا يجوز المن ولا الفداء لأن الآية منسوخة بقوله : فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ «١» فيتعين قتلهم ، والصحيح أنها محكمة. ومذهب الشافعي : أن الإمام مخير بين أربعة : القتل ، والاسترقاق ، والفداء بأسارى المسلمين ، والمنّ. ولعل لجزية عنده خاصة بأهل الكتاب.

ومذهب أبى حنيفة : التخيير بين القتل والاسترقاق فقط ، قال : والآية منسوخة لأن سورة براءة آخر ما نزل.

وعن مجاهد : ليس اليوم منّ ولا فداء ، والمراد بالمنّ فى الآية أن يمنّ عليهم بترك القتل ، فيسترقوا ، أو يمنّ عليهم بإعطاء الجزية. هـ.

والمشهور : مذهب مالك لأن النّبى صلّى اللّه عليه وسلم قتل عقبة بن أبى معيط ، والنّضر بن الحارث ، يوم بدر صبرا ، وفادى سائر الأسارى ، ومنّ على ثمامة بن أثال الحنفي ، وهو أسير ، واسترق نساء بنى قريظة ، فباعهم ، وضرب الجزية على نصارى نجران ومجوس هاجر.

ثم ذكر غاية الحرب فقال : حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزارَها أي : اضربوا رقابهم حتى تضع الحرب أثقالها ، وآلاتها ، التي لا تقوم إلا بها ، كالسلاح والكراع ، وذلك حيث لم يبق حرب ، بأن تضع أهل الحرب

عدتها. وقيل :

(أوزارها) : آثامها ، يعنى : حتى يترك أهل الحرب المشركين شركهم ، بأن يسلموا جميعا. والمختار : أن المعنى :

أثخنوا المشركين بالقتل والأسر حتى يظهر الإسلام على سائر الأديان ، ويؤمن أهل الكتاب ، طوعا أو كرها ، ويكون الدين كله للّه ، فلا يحتاج إلى قتال. وقال الحسن : معناه : حتى لا يعبد إلا اللّه. وقال ابن عطية : ظاهر اللفظ : أنها استعارة ، يراد بها التزام الأمر كذلك أبدا ، كما تقول : أنا أفعل ذلك إلى يوم القيامة. هـ. فالغاية ب «حتى» ، راجعة إلى الضرب والشد ، وما ترتب عليه من المنّ والفداء.

ذلِكَ الأمر ذلك ، أو افعلوا ذلك ، وَلَوْ يَشاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ لانتقم مِنْهُمْ بغير قتال بأن ينزل بهم أسباب الهلاك والاستئصال ، كالخسف أو الرّجف أو غير ذلك ، وَلكِنْ أمركم بالقتال لِيَبْلُوَا بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ

---

(١) الآية ٥ من سورة التوبة.

أي : المؤمنين بالكافرين ، فأمرهم بالجهاد ليستوجبوا الثواب العظيم ، وليسلم من سبق إسلامه من الكافرين. وَالَّذِينَ قُتِلُوا «١» فِي سَبِيلِ اللَّهِ لإعلاء كلمة التوحيد ، لا لغرض آخر ، فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمالَهُمْ فلن يضيعها.

سَيَهْدِيهِمْ فى الدنيا إلى طريق الرّشد والصواب ، وفى الآخرة إلى جزيل الثواب ، وقيل : يهديهم إلى جواب منكر ونكير ، وَيُصْلِحُ بالَهُمْ بأن يقبل أعمالهم ويرضى خصماءهم ، وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَها لَهُمْ. قال مجاهد : عرفهم مساكنهم فيها حتى لا يحتاجوا إلى دليل لها «٢» ، أو : طيّبها ، من : العرف ، وهو طيب الرّائحة ، ويمكن الجمع : بأن عرف المحل يهدى صاحبه الى جنته ومحله.

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ بنصر دينه وإظهار شريعه نبيه يَنْصُرْكُمْ على عدوكم ، ويفتح لكم ، وَيُثَبِّتْ أَقْدامَكُمْ فى مواطن الحرب ومواقفها ، أو على محجة الإسلام ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْساً لَهُمْ أي : فيقال : تعسا لهم ، والتعس : الهلاك ، أو السقوط والانحطاط ، أو العثار ، أو البعد. وقال ابن السكيت : التعس : أن يجر على وجهه. هـ أي : أتعسهم اللّه تعسا ، أي : أهلكهم وأبعدهم. وقال ابن عباس : «فى الدنيا بالقتل والأسر ، وفى الآخرة بالتردي فى النّار». والمراد بالذين كفروا عام ، وقيل : المراد من يضاد الذين ينصرون دين اللّه ، كأنه قيل :

إن تنصروا اللّه ينصركم ويثبت أقدامكم ، ومن لم ينصره فتعسا له ، فوضع «الذين كفروا» موضع من لم

ينصره تغليظا ، فهو وفق لأسلوب السورة من التقابل المعنوي ، فهو عطف جملة على جملة شرطية مثلها ، ولذلك دخلت الفاء فى خبر الموصول ، كما قرره الزجاج. انظر الطيّبى. هـ من الحاشية. وَأَضَلَّ أَعْمالَهُمْ أي : أحبطها وأبطلها.

ذلِكَ التعس والإضلال بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا ما أَنْزَلَ اللَّهُ من القرآن لما فيه من التوحيد وسائر الأحكام ، المخالفة لما ألفوه واشتهته أنفسهم الأمّارة بالسوء ، فَأَحْبَطَ لأجل ذلك أَعْمالَهُمْ التي كانوا عملوها ، من صلة الأرحام وغيرها.

الإشارة : نهاية الجهاد الأصغر : وضع الحرب أوزارها بالإسلام أو السّلم ، ونهاية الجهاد الأكبر : استسلام النّفس وانقيادها لما يراد منها ، أو موتها بالغيبة عنها بالكلية. قال بعض العارفين : انتهى سير السائرين إلى الظفر

---

(١) قرأ أبو عمرو وحفص (قتلوا) بضم القاف ، وقرأ الباقون (قاتلوا) بفتح القاف ، وتخفيف التاء ، وألف بينهما. انظر : السبعة لابن مجاهد/ ٦٠٠ والإتحاف ٢/ ٤٧٥ – ٤٧٦.

(٢) هذا معنى ما قاله مجاهد وأكثر المفسرين. وقول مجاهد أخرجه الطبري ، وفى الصحيح ما يدل على صحة هذا القول ، فقد أخرج البخاري فى (الرقاق ، باب القصاص يوم القيامة ح ٦٥٣٥) عن أبى سعيد الخدري قال : قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم : «يخلص المؤمنون من النّار ، فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنّار ، فيقتص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم فى الدنيا حتى إذا هذّبوا ونقّوا أذن لهم فى دخول الجنة ، فوالذى نفس محمد بيده لأحدهم أهدى بمنزله فى الجنة منه بمنزله كان فى الدنيا».

بنفوسهم ، فإن ظفروا بها وصلوا. هـ. فالإشارة بقوله : (إذا لقيتم الذين كفروا ...) إلخ إلى قتل الهوى والشيطان وسائر القواطع ، حتى إذا أثخنتموهم فشدّوا وثاقهم ، ولا تأمنوا غائلتهم.

قال القشيري ، بعد كلام : وكذلك العبد إذا ظفر بنفسه فلا ينبغى أن يبقى بعد انتقاش شوكها بقية ، ولا فى قلع شجرها مستطاعا وميسورا فالحيّة إن بقيت منها بقية من الحياة من وضع عليها إصبعه بثّت سمّها فيه. هـ. فإذا تمكنتم من معرفة اللّه ، فإما أن تمنوا عليها بترك جهادها الأكبر ، وإما أن تفدوها بالغيبة عنها فى حلاوة الشهود ، حتى تضع الحرب أوزارها بالموت ، ولو شاء اللّه لخلّصكم منها من غير جهاد ، فالقدرة صالحة ، ولكن ليختبركم ، فيظهر السائرون من القاعدين مع حظوظهم «لولا

ميادين النّفوس ما تحقق سير السائرين» «١». والذين قاتلوا نفوسهم فى سبيل اللّه وطلب معرفته ، فلن يضلّ أعمالهم ، سيهديهم إلى معرفته ، ويصلح بالهم بالاستغراق فى شهوده ، ويدخلهم جنة المعارف ، قد عرّفها لهم ، وبيّنها على أيدى الوسائط من الشيوخ العارفين ، أو طيّبها لهم ، فيهتدون بنسيم واردات التوجه ، إلى أنوار المواجهة. وقد أشار تعالى بقوله : وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ إلى طلب الإخلاص ، فلا يوصل الجهاد الأصغر ولا الأكبر إلى رضوان اللّه ، أو معرفته ، إلا بتحقق الإخلاص ، من غير التفات لغرض نفسانى ، لا عاجلا ولا آجلا.

ذكر الشيخ أبو نعيم الحافظ : أن ميسرة الخادم ، قال : غزونا فى بعض الغزوات ، فإذا بفتى «٢» جانبى ، وهو مقنع بالحديد ، فحمل على الميمنة ، ثم الميسرة ، ثم على القلب ، ثم أنشأ يقول :

أحسن بمولاك سعيد ظنّا هذا الذي كنت تمنّى «٣»

تنح يا حور الجنان عنّا ما فيك قاتلنا ولا قتلنا

لكن إلى سيدكنّ اشتقنا قد علم السر وما أعلنّا

قال : فحمل فقاتل ، فقتل منهم عددا ، ثم رجع إلى موقفه ، فتكالب عليه العدو ، فحمل ، وأنشأ يقول :

قد كنت أرجو ورجائى لم يخب ألّا يضيع اليوم كدىّ والطّلب

يا من ملأ تلك القصور باللعب لولاك ما طابت ولا طاب الطّرب

---

(١) حكمة عطائية رقم (٢٤٤) انظر الحكم بتبويب المتقى الهندي ص ١٨.

(٢) اسمه «سعيد» كما هو واضح من البيت الأول ، وترجم له أبو نعيم ب «سعيد الشهيد ، المقنع فى الحديد ، المشتاق إلى رؤية المنعم المجيد».

(٣) هكذا فى الأصول ، وفى الحلية : [هذا الذي كنت له تمنى].

ثم حمل فقاتل ، فقتل عددا كثيرا ، ثم رجع إلى مصافه ، فتكالب عليه العدو ، فحمل ثالثة ، وأنشأ يقول :

يا لعبة الخلد قفى ثمّ اسمعي مالك قاتلنا فكفّى وارجعي

ثمّ ارجعي إلى الجنان وأسرعى لا تطمعى لا تطمعى لا تطمعى

فقاتل رضي اللّه عنه حتى قتل – رحمه اللّه. هـ «١».

قوله تعالى : إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدامَكُمْ

، فيه ترغيب وتنشيط لأهل الوعظ والتذكير ، الداعين إلى اللّه ، الذين يسعون فى إظهار الدين ، وإرشاد عباد اللّه إلى محبة اللّه وطاعته. وفى الحديث عنه – صلّى اللّه عليه وسلم :

«والذي نفس محمد بيده ، لئن شئتم لأقسمن لكم ، إن أحب عباد اللّه إلى اللّه الذين يحببون اللّه إلى عباده ، ويحببون عباد اللّه إلى اللّه ، ويمشون فى الأرض بالنصيحة». وقال أيضا : «الخلق عيال اللّه ، وأحب الخلق إلى اللّه أنفعهم لعياله» «٢» وأعظم النّفع : إرشادهم إلى اللّه ، الذي هو سبب سعادتهم السرمدية.

وقال الورتجبي : نصرة العبد للّه : أن يجاهد نفسه وهواه وشيطانه ، فإنهم أعداؤه ، فإذا خاصمها يقويه اللّه وينصره عليهم ، بأن يدفع شرهم عنه ، ويجعله مستقيما فى طاعة اللّه ، ويجازيه بكشف جماله ، حتى يثبت فى مقام العبودية ، وانكشاف أنوار الرّبوبية. هـ.

قال القشيري : ونصرة اللّه للعبد بإعلاء كلمته ، وقمع أعدائه. ثم قال فى قوله تعالى : وَيُثَبِّتْ أَقْدامَكُمْ هو إدامة التوفيق ، لئلا ينهزم من صولة أعداء الدين ، ولا يضعف قلبه فى معاداتهم ، ولا ينكسر باطنه ثقة باللّه فى إعزاز دينه. هـ. ثم ذكر تعالى أضداد الداعين إلى اللّه ، الناصرين لدينه ، وهم المنتقدون عليهم ، فقال : وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْساً لَهُمْ أي : خيبة لهم ، وَأَضَلَّ أَعْمالَهُمْ ، فلا يتوصلون بها إلى معرفته ، لكونها معلولة.

ثم أمر بالتفكر والنّظر لأنه أقرب الطرق إلى التخلص من غوائل الأعداء ، فقال :

[سورة محمد (٤٧) : الآيات ١٠ الى ١٢]

أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكافِرِينَ أَمْثالُها (١٠) ذلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكافِرِينَ لا مَوْلى لَهُمْ (١١) إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَما تَأْكُلُ الْأَنْعامُ وَالنَّارُ مَثْوىً لَهُمْ (١٢)

---

(١) أخرجه أبو نعيم فى الحلية (١٠/ ١٦٥ – ١٦٦).

(٢) أخرجه البيهقي فى الشعب (ح ٧٤٤٥) والطبراني فى الكبير (ح ١٠٠٣٣) وأبو يعلى فى مسنده (٦/ رقم ٣٣١٥ و٣٣٧٠) من حديث أنس بن مالك رضي اللّه عنه ، وأخرجه البيهقي فى الشعب (ح ٧٤٤٨) وأبو نعيم فى الحلية (٢/ ١٠٢) من حديث عبد اللّه بن مسعود رضي اللّه عنه.

يقول الحق جل جلاله : أَفَلَمْ يَسِيرُوا أي : أقعدوا فلم يسيروا فِي الْأَرْضِ ، يعنى كفار مكة ، فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ من الأمم المكذبة؟ فإنّ آثار ديارهم تنبئ عن أخبارهم ، فقد دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ، فالجملة : استئناف مبنى على سؤال ، كأنه قيل : كيف كان عاقبتهم؟ فقيل : استأصل اللّه عليهم ما اختص بهم من أنفسهم وأهليهم وأموالهم ، يقال : دمّره أهلكه ، ودمّر عليه : أهلك عليه ما يختص به ، قاله أبو السعود. وفى الصحاح : الدمار : الهلاك ، دمّره تدميرا ، ودمّر عليه ، بمعنى. هـ. فظاهره : أن معناهما واحد ، وفسره فى الأساس بالهلاك المستأصل ، وقال الطيبي : فى دمّر عليهم تضمين معنى أطبق ، فعدى بعلى ، ولذلك استأصل. هـ.

وَلِلْكافِرِينَ أي : ولهؤلاء الكافرين السائرين بسيرتهم أَمْثالُها أي : أمثال تلك الهلكة المفهومة من التدمير ، أو أمثال عواقبهم أو عقوباتهم ، لكن لا على أنّ لهؤلاء أمثال ما لأولئك وأضعافه بل مثله ، وإنما جمع باعتبار مماثلته لعواقب متعددة ، حسبما تعدّد الأمم المعذّبة ، ويجوز أن يكون عذابهم أشدّ من عذاب الأولين فقد قتلوا وأسروا بأيدى من كانوا يستخفونهم ويستضعفونهم ، والقتل بيد المثل أشد ألما من الهلاك بسبب عام. وقيل :

دمّر اللّه عليهم فى الدنيا ، ولهم فى الآخرة أمثالها.

ذلِكَ أي : نصر المؤمنين وهلاك الكافرين فى الحال أو المال بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا أي : ناصرهم ومعزّهم وَأَنَّ الْكافِرِينَ لا مَوْلى لَهُمْ فيدفع عنهم ما حلّ بهم من العقوبة ، ولا يخالف هذا قوله : ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ «١» لأن المولى هناك بمعنى المالك.

إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ ، وهذا بيان لحكم ولاية اللّه لهم وثمرتها الأخروية ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ فى الدنيا بمتاعها أياما قلائل ، وَيَأْكُلُونَ غافلين عن عواقبهم ، غير متفكرين فيها كَما تَأْكُلُ الْأَنْعامُ فى مسارحها ، غافلة عما هى بصدده من النّحر والذبح ، فالتشبيه بالأنعام صادق بالغفلة عن تدبير العاقبة ، وعن شكر المنعم ، وبعدم التمييز للمضرّ من غيره ، كأكل الحرام وعدم توقيه ، وكذا كونه غير مقصور على الحاجة ، ولا على وقتها ، وسيأتى فى الإشارة إن شاء اللّه. وَالنَّارُ مَثْوىً لَهُمْ أي :

منزل ثواه وإقامته ، والجملة إما حال مقدرة من واو (يأكلون) ، أو استئناف.

---

(١) من الآية ٦٢ من سورة الأنعام. [.....]

الإشارة : تفكر الاعتبار يكون فى أربعة ، الأول : فى سرعة ذهاب الدنيا وانقراضها ، كأضغاث أحلام ، وكيف غرّت من انتشب بها ، وأخذته فى شبكتها ، حتى قدم على اللّه بلا زاد ، وكيف دمّر اللّه على أهل الطغيان ، واستأصل شأفتهم ، فينتج ذلك التشمير والتأهب ليوم الجزاء. الثاني : فى دوام دار البقاء ، ودوام نعيمها ، فينتهز الفرصة فى العمل الصالح. الثالث : فى النّعم التي أنعم اللّه بها على عباده ، الدنيوية والأخروية ، الحسية والمعنوية ، قال تعالى : وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوها «١» فينتج ذلك الشكر ، لتدوم عليه. الرابع : فى نصب هذه العوالم ، على ما هى عليه من الإبداع والإتقان ، فيثمر ذلك معرفة الصانع ، وباهر قدرته وحكمته.

وقوله تعالى : ذلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا ... إلخ ، قال القشيري : المولى : المحب ، فهو محب الذين آمنوا ، والكافرين لا يحبهم ، ويصح أن يقال : أرجى آية فى القرآن هذه الآية ، لم يقل مولى الزهّاد والعباد وأصحاب الأوراد والاجتهاد بل قال : مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا ، والمؤمن وإن كان عاصيا فهو من جملتهم. هـ – والمحبة تتفاوت بقدر زيادة الإيمان والإيقان حتى يصير محبوبا مقربا.

قوله تعالى : وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَما تَأْكُلُ الْأَنْعامُ ، وكذلك الغافل ، فالأنعام تأكل بلا تمييز ، من أي موضع وجدت ، كذلك الجاهل ، لا تمييز له من الحلال أو من الحرام ، والأنعام ليس لها وقت لأكلها ، بل تأكل فى كل وقت ، وكذلك الغافل والكافر. فقد ورد «أن الكافر يأكل فى سبعة أمعاء ، والمؤمن يجتزئ بما تيسر» «٢» ، كما فى الخبر : «ما ملأ آدمي وعاء شرا من بطن» «٣». والأنعام تأكل على الغفلة ، فمن كان فى أكله ناسيا لربه ، فأكله كأكل الأنعام. انظر القشيري.

ولما أمرهم بالنظر فلم يفعلوا ، هددهم بالهلاك ، فقال :

[سورة محمد (٤٧) : الآيات ١٣ الى ١٤]

وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْناهُمْ فَلا ناصِرَ لَهُمْ (١٣) أَفَمَنْ كانَ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْواءَهُمْ (١٤)

---

(١) من الآية ٣٤ من سورة إبراهيم.

(٢) ورد بلفظ «إن المؤمن يأكل فى معىّ واحد ، وإن الكافر يأكل فى سبعة أمعاء» ، الحديث أخرجه البخاري فى (الأطعمة ، باب المؤمن يأكل فى معى واحد ، ح ٥٣٩٣) ومسلم فى (الأشربة باب المؤمن يأكل فى معى واحد رقم ٢٠٦١ ، ح ١٨٤) من حديث ابن عمر رضي اللّه عنه.

(٣) بعض حديث أخرجه الترمذي فى (الزهد ، باب ما جاء فى كراهية كثرة الأكل ، ح ٢٣٨٠) وقال : «حديث صحيح» وابن ماجه فى (الأطعمة ، باب الاقتصاد فى الأكل وكراهة الشبع ، ح ٣٣٤٩) والنّسائى فى الكبرى (آداب الأكل ، باب ذكر القدر الذي يستحب للإنسان من الأكل ح ٦٧٦٨) والحاكم (٤/ ١٢١) «وصحّحه الذهبي» من حديث مقدام بن معدى كرب.

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٣٦٢

قلت : (كأيّن) : كلمة مركبة من الكاف و«أىّ» ، بمعنى كم الخبرية ، ومحلها : الرفع بالابتداء ، وقوله : (هى أشد) : نعت لقرية ، و(أهلكناهم) : خبر ، وحذف المضاف ، أي : أهل قرية ، بدليل «أهلكناهم».

يقول الحق جل جلاله : وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أي : كثير من أهل قرية هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ مكة ، الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أي : تسببوا فى خروجك ، أي : وكم من قوم هم أشدّ قوة من قومك الذين أخرجوك ، أَهْلَكْناهُمْ بأنواع العذاب ، فَلا ناصِرَ لَهُمْ فلم يكن لهم من ينصرهم ويدفع العذاب عنهم ، فأنتم يا معشر قريش أهون منهم ، وأولى بنزول ما حجل بهم.

أَفَمَنْ كانَ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ أي : حجة واضحة ، وبرهان قاطع ، وهو القرآن المعجز ، وسائر المعجزات ، يعنى : رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم ، كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ ، وهم أهل مكة ، زين الشيطان شركهم وعداوتهم للّه ولرسول صلّى اللّه عليه وسلم ، وَاتَّبَعُوا أَهْواءَهُمْ الزائغة ، وانهمكوا فى فنون الضلالات ، من غير أن يكون لهم شبهة توهم صحة ما هم عليه ، فضلا عن حجة تدل عليها.

وقيل : المراد بمن كان على بينة : المؤمنون فقط ، المتمسكون بأدلة الدين.

قال أبو السعود : وجعلها عبارة عن النّبى عليه السّلام وعن المؤمنين ، لا يساعده النّظم الكريم ، على أن الموازاة بينه صلّى اللّه عليه وسلم ، وبين من زيّن له سوء عمله مما يأباه منصبه الجليل. والتقدير : أليس الأمر كما ذكر؟ فمن كان مستقرا على حجة ظاهرة ، وبرهان نيّر من مالك أمره ومربّيه ، وهو القرآن ، وسائر الحجج العقلية ، كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ من الشرك وسائر المعاصي ، مع كونه فى نفسه أقبح القبائح. هـ.

الإشارة : فى الآية تهديد لمن يؤذى أولياء اللّه ، ويخرجهم من مواطنهم بالهلاك العاجل أو الآجل.

وقوله تعالى : أَفَمَنْ كانَ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ تقدم فى سورة هود الكلام عليها «١». وقال القشيري هنا ، فى تفسير البينة :

هى الضياء والحجة والاستبصار بواضح المحجة ، فالعلماء فى ضياء برهانهم ، والعارفون فى ضياء بيانهم ، فهؤلاء بأحكام أدلة الأصول يبصرون ، وهؤلاء بحكم الإلهام والوصول يستبصرون. هـ.

ثم عرّف بالجنة ، التي تقدمت فى قوله : عَرَّفَها لَهُمْ ، فقال :

---

(١) راجع إشارة الآية ١٧ من سورة هود.

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٣٦٣

[سورة محمد (٤٧) : آية ١٥]

مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيها أَنْهارٌ مِنْ ماءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيها مِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا ماءً حَمِيماً فَقَطَّعَ أَمْعاءَهُمْ (١٥)

قلت : (مثل) : مبتدأ حذف خبره ، أي : صفة الجنة ما تسمعون ، وقدّره سيبويه : فيما يتلى عليكم مثل الجنة ، وقيل : المثل زائد ، أي : الجنة فيها أنهار ... إلخ ، و(كمن هو خالد) : خبر لمحذوف ، أي : أمن هو خالد فى هذه الجنة ، كمن هو خالد فى النّار؟.

يقول الحق جل جلاله : مَثَلُ الْجَنَّةِ أي : صفتها العجيبة ، العظيمة الشأن الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ الشرك والمعاصي ، هو ما نذكره لكم ، فِيها أَنْهارٌ مِنْ ماءٍ غَيْرِ آسِنٍ غير متغير الطعم واللون والرّائحة ، يقال : أسن الماء :

إذا تغير ، سواء أنتن أم لا ، فهو آسن وأسن ، وَأَنْهارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ كما تتغير ألبان الدنيا بالحموضة وغيرها ، وانظر إذا تمنّاه كذلك مربّيا أو مضروبا. والظاهر : أنه يعطاه كذلك ، إذ فيها ما تشتهيه الأنفس. وَأَنْهارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ أي : لذيذة ، ليس فيها كراهة طعم وريح ، ولا غائلة سكر ، وإنما هى تلذذ محض. و«لذة» :

إما تأنيث «لذّ» ، بمعنى لذيذ ، أو : مصدر نعت به للمبالغة.

وَأَنْهارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى لم يخرج من بطون النّحل فيخالطه شمع أو غيره ، وفى حديث الترمذي : «إنّ فى الجنة بحر الماء ، وبحر اللبن ، وبحر العسل ، وبحر الخمر ، ثم تشقّق الأنهار بعد» «١» قال : حسن صحيح. وعن كعب : نهر دجلة من نهر ماء الجنة ، والفرات نهر من لبنها ، والنيل من نهر خمرها ، وسيحان من نهر عسلها ، والكل يخرج من الكوثر «٢». قلت : ولعل الثلاثة لمّا خرجوا إلى الدنيا تغير حالهم ، ليبقى الإيمان بالغيب. واللّه تعالى أعلم.

قيل : بدئ من هذه الأنهار بالماء لأنه لا يستغنى عنه قط ، ثم باللبن لأنه يجرى مجرى المطعوم والمشروب فى كثير من الأوقات ، ثم بالخمر لأنه إذا حصل الرّىّ والمطعوم تشوقت النّفس إلى ما يلتذ به ، ثم بالعسل لأنه فيه الشفاء فى الدنيا مما يعرض من المشروب والمطعوم فهو متأخر فى الرّتبة.

---

(١) أخرجه الترمذي فى (صفة الجنة ، باب ما جاء فى صفة أنهار الجنة ح ٢٥٧١) والدارمي فى (الرقائق ، باب فى أنهار الجنة ح ٢٨٣٦) وأحمد فى المسند (٥/ ٥) عن حكيم بن معاوية عن أبيه ،

قال الترمذي : «حديث حسن صحيح».

(٢) ذكره بلفظه القرطبي (٧/ ٦٢٤٤) والبغوي فى التفسير (٧/ ٢٨٢) وذكره بلفظ مقارب السيوطي فى الدر (٦/ ٢٥) وعزاه للحرث بن أبى أسامة فى مسنده ، عن كعب.

هذا ، وقد وجدت على هامش النّسخة الأم ما يلى : هذا من خرافات كعب ، التي كثر بهما القصاص والوعاظ مسائل العلم ، بدون طائل ولا جدوى ، والحديث الصحيح إنما فيه أنها من الجنة ، فإما أن ذلك حقيقة على ظاهره ، وإما أن يكون خرج مخرج التشبيه ، كما هو قول طائفة».

قلت : حديث أنها من أنهار الجنة أخرجه مسلم فى (الجنة ، باب ما فى الدنيا من أنهار الجنة ، ح ٢٨٣٩) عن أبى هريرة ، ولفظه :

«سيحان وجيحان والنّيل والفرات كلّ من أنهار الجنة».

(٣٦٣/٥)

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٣٦٤

وَلَهُمْ فِيها مع ما ذكر من فنون الأنعام مِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ أي : صنف من كلّ الثمرات. وَلهم مَغْفِرَةٌ عظيمة مِنْ رَبِّهِمْ أي : كائنة من ربهم ، فهو متعلق بمحذوف ، صفة لمغفرة ، مؤكدة لما أفاده التنكير من الفخامة الذاتية بالفخامة الإضافية ، أي : مغفرة عظيمة من ربهم. وعبّر بعنوان المغفرة دون الرّحمة إشعارا بأن الميل إلى نعيم الأشباح نقص فى الدارين يستوجب المغفرة.

أيكون هذا كَمَنْ هُوَ خالِدٌ فِي النَّارِ؟ أو : مثل الجنة كمثل جزاء من هو خالد فى النّار؟ وهو كلام فى صورة الإثبات ، ومعناه : النفي ، لانطوائه تحت حكم كلام مصدّر بحرف الإنكار ، ودخوله فى حيّزه ، وهو قوله :

أَفَمَنْ كانَ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ «١» ، وفائدة حذف حرف الإنكار : زيادة تصوير لمكابرة من يسوّى بين المتمسك بالبيّنة والتابع لهواه ، وأنه بمنزلة من يثبت التسوية بين الجنة ، التي يجرى فيها تلك الأنهار ، وبين النّار ، التي يسقى أهلها الحميم الحار ، المشار إليه بقوله : وَسُقُوا ماءً حَمِيماً حارا فى النّهاية ، إذا دنا منهم شوى وجوههم ، ووقعت فروة رؤوسهم فَقَطَّعَ أَمْعاءَهُمْ مصارينهم ، التي هى مكان تلك الأشربة. نسأل اللّه العافية.

الإشارة : مثل جنة المعارف ، التي وعدها المتقون كلّ ما يشغل عن اللّه ، فيها أنهار من ماء علوم الحقيقة ، غير متغير صفاؤها ، ولا متكدرة أنوارها ، وأنهار من لبن علوم الشريعة المؤيّدة بالكتاب والسنة ، لم تتغير حلاوة معاملتها ، ولا لذة مناجاتها ، وأنهار من خمرة الشهود ، لذة للشاربين لها ، تذهل حلاوتها العقول ، وتفوت عن مدارك النقول ، وأنهار من عسل حلاوة المكالمة والمسارة

والمناجاة ، صافيات الأوقات ، محفوظة من المكدرات ، ولهم فيها من طرف الحكم ، وفواكه العلوم ، ما لا تحصيه الطروس ، ولا تدركه محافل الدروس.

قال القشيري : (مثل الجنة) ، أي : صفتها كذا ، وللأولياء اليوم ، لهم شراب الوفاء ، ثم شراب الصفاء ، ثم شراب الولاء ، ثم شراب فى حال اللقاء ، ولكلّ من هذه الأشربة عمل ، ولصاحبه سكر وصحو ، فمن تحسى شراب الوفاء لم ينظر إلى أحد من الخلق فى أيام غيبته عن إحساسه ، وأنشدوا :

وما سرّ صدرى منذ شطّت بك النّوى أنيس ولا كأس ولا متطرف «٢»

---

(١) الآية ١٤ من سورة محمد.

(٢) ورد :

وما سر قلبى منذ شط به النّوى نعيم ولا كأس ولا متصرف

ونسب إلى عبد اللّه بن أحمد بن مصروف. انظر يتيمة الدهر ٣/ ١٠٨.

ومن شرب بكأس الصفا خلص له عن كلّ شوب بلا كدورة فى عهده ، فهو فى كلّ وقت ظامئ عن نفسه ، خال عن مطالباته ، قائم به ، بلا شغل فى الدنيا ولا فى الآخرة ، ومن شرب كأس الولاء عدم فيه القرار ، ولم يغب سيره لحظة ، ليلا ولا نهارا ، ومن شرب فى حال اللقاء أنس على الدوام ببقائه فلم يطلب مع بقائه شيئا آخر ، لا من عطائه ولا من لقائه لاستهلاكه فى علائه عند سطوات كبريائه. هـ.

قلت : أما شراب الوفاء فهو عقد الإرادة مع الشيخ ، أو عقد المحبة والخدمة مع الحق ، فيجب الوفاء بكلّ منهما ، وهو كشرب العطشان من الماء العذب ، وأما شراب الصفاء فهو صفاء العلم باللّه ، وهو كاللبن تتغذى به الأرواح فى حال ترقيها إلى الحضرة ، وأما شراب الولاء فهو شراب أهل التمكين من الولاية الكبرى ، فيشربون من الخمرة الأزلية ، فيسكرون ، ثم يصحون ، وفيها يقول الششترى رضي اللّه عنه :

لا شراب الدوالي ، إنها أرضيه خمرها دون خمرى ، خمرتى أزليه «١»

وأما شراب حال اللقاء فالمراد به : أوقات رجوعهم إلى البقاء ، فيتفننون فى علوم الحكمة وحلاوة المعاملة.

واللّه تعالى أعلم.

ثم شفع بأضدادهم ، فقال :

[سورة محمد (٤٧) : الآيات ١٦ الى ١٨]

وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ما ذا قالَ آنِفاً أُولئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْواءَهُمْ (١٦) وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زادَهُمْ هُدىً وَآتاهُمْ تَقْواهُمْ (١٧) فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جاءَ أَشْراطُها فَأَنَّى لَهُمْ إِذا جاءَتْهُمْ ذِكْراهُمْ (١٨)

قلت : (آنفا) : قال الزمخشري ومن تبعه : ظرف ، أي : الساعة ، وقال أبو حيان : لا أعلم أحدا عدّه من الظروف ، وجوّز «مكيّ» فيه الظرف والحالية ، . قال الهروي : «آنفا» مأخوذة من : ائتنفت الشيء : إذا ابتدأته ، وروضة أنف : إذا لم ترع. المعنى : ما ذا قال فى وقت يقرب من وقتنا؟. و(أن تأتيهم) : بدل اشتمال من الساعة.

يقول الحق جل جلاله : وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ، وهم المنافقون ، كانوا يحضرون مجلس رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم ، ويسمعون كلامه ولا يعونه ، ولا يراعونه حق رعايته ، تهاونا منهم ، حَتَّى إِذا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ

---

(١) انظر الديوان ص ٣١٠. والدوالى : العنب

من الصحابة – رضي اللّه عنهم – : ما ذا قالَ آنِفاً ما الذي قال الساعة؟ على طريقة الاستهزاء ، أو : ما القول الذي ائتنفه الآن قبل انفصالنا عنه؟.

وقال مقاتل : كان النّبى صلّى اللّه عليه وسلم يخطب ، ويعيب المنافقين ، فسمع المنافقون قوله ، فلما خرجوا من المسجد ، سألوا ابن مسعود عما قال النّبى صلّى اللّه عليه وسلم استهزاء «١». وقال ابن عباس : «أنا من الذين أتوا العلم ، وقد سئلت فيمن سئل» «٢».

ويقال : الناس ثلاثة : سامع عامل ، وسامع غافل ، وسامع تارك.

أُولئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلى قُلُوبِهِمْ لعدم توجهها إلى الخير أصلا ، وَاتَّبَعُوا أَهْواءَهُمْ الباطلة ، فلذلك فعلوا ما فعلوا ، مما لا خير فيه ، وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا إلى طريق الحق زادَهُمْ اللّه بذلك هُدىً علما وبصيرة ، أو شرح صدر بالتوفيق والإلهام ، أو : زادهم ما سمعوا من الرّسول صلّى اللّه عليه وسلم هداية على ما عندهم ، وَآتاهُمْ تَقْواهُمْ أعانهم عليها ، أو : آتاهم جزاء تقواهم ، أو : بيّن لهم ما يتقون.

فَهَلْ يَنْظُرُونَ أي : ما ينتظرون إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً أي : تباغتهم بغتة ، وهى الفجاءة ، والمعنى :

أنهم لا يتذكرون بأحوال الأمم الخالية ، ولا بالإخبار بإتيان الساعة ، وما فيها من عظائم الأهوال ، وما ينظرون إلا إتيان نفس الساعة بغتة ، فَقَدْ جاءَ أَشْراطُها علاماتها ، جمع : شرط بالتحريك ، بمعنى : العلامة ، وهى مبعث محمد صلّى اللّه عليه وسلم ، وانشقاق القمر ، والدخان ، على قول. وقيل : قطع الأرحام ، وقلة الكرام ، وكثر اللئام ، فقوله تعالى : فَقَدْ جاءَ أَشْراطُها تعليل لمفاجأتها ، لا لمطلق إتيانها ، على معنى : أنه لم يبق من الأمور الموجبة للتذكير أمر مترقب ينتظرونه سوى إتيان نفس الساعة ، إذ قد جاء أشراطها ، فلم يرفعوا لها رأسا ، ولم يعدوها من مبادئ إتيانها فيكون إتيانها بطريق المفاجأة لا محالة.

فَأَنَّى لَهُمْ إِذا جاءَتْهُمْ ذِكْراهُمْ ، قال الأخفش : التقدير : فأنّى لهم ذكراهم إذا جاءتهم ، أي : فمن أين لهم التذكير والاتعاظ إذا جاءتهم الساعة؟ ف «ذكراهم» : مبتدأ ، و«أنّى» : خبر مقدم ، و«إذا جاءتهم» : اعتراض ، وسط بينهما ، رمز إلى غاية سرعة مجيئها ، والمقصود : عدم نفع التذكير عند مجيئها ، كقوله تعالى : يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرى «٣».

---

(١) ذكره البغوي فى تفسيره (٧/ ٢٨٣).

(٢) أخرجه ابن جرير (٢٦/ ٥١) والحاكم (التفسير ٢/ ٤٥٧) بلفظ : «كنت فيمن يسئل» والحديث صحّحه الحاكم ، من طريق سعيد بن جبير ، ووافقه الذهبي.

(٣) من الآية ٢٣ من سورة الفجر.

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٣٦٧

الإشارة : مجلس الوعظ والتذكير ، إن كان المذكّر من أهل التنوير ، نهض المستمع له إلى اللّه قطعا ، لكن ذلك يتفاوت على قدر سريان النّور فيه قطعا ، فمنهم من يصل النّور إلى ظاهر قلبه ، ومنهم من يصل إلى داخل القلب ، ومنهم من يصل إلى روحه ، ومنهم من يصل إلى سره ، وذلك على قدر التفرغ والاستعداد ، فمن وصل النّور إلى ظاهر قلبه نهض إلى العمل الظاهر ، وكان بين حب الدنيا والآخرة ، ومن وصل إلى قلبه نهض بقلبه إلى اللّه ، ورفض الدنيا وراءه ، ومن وصل إلى روحه انكشف عنه الحجاب ، ومن وصل إلى سره تمكن من شهود الحق.

وفى الحكم : «تسبق أنوار الحكماء أقوالهم ، فحيثما سار التنوير وصل التعبير» «١» ، وهذا إن حضر مستفيدا ، وأما إن حضر منتقدا ، فهو قوله تعالى : وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ .. الآية ، والذين اهتدوا لدخول طريق التربية زادهم هدى ، فلا يزالون يزيدون تربية وترقية إلى أن يصلوا إلى مقام التمكين من

الشهود. قال القشيري : والذين اهتدوا بأنواع المجاهدات زادهم هدى لأنوار المشاهدات ، واهتدوا بتأمل البرهان ، فزادهم هدى بروح البيان ، أو اهتدوا بعلم اليقين ، فزادهم هدى بحق اليقين. هـ.

ثم ذكر سبب الهداية وأساسها ، فقال :

[سورة محمد (٤٧) : آية ١٩]

فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلاَّ اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْواكُمْ (١٩)

يقول الحق جل جلاله : فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلَّا اللَّهُ أي : إذا علمت أن مدار السعادة ، والفوز بالنعيم فى دار البقاء هو التوحيد والطاعة ، ومناط الشقاء والخسران فى دار الهوان هو الإشراك والعصيان ، فاثبت على ما أنت عليه من التوحيد ، واعلم أنه لا إله فى الوجود إلا اللّه ، فلا يستحق العبادة غيره ، وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وهو ما قد يصدر منه صلّى اللّه عليه وسلم من خلاف الأولى ، عبّر عنه بالذنب نظرا إلى منصبه الجليل ، كيف لا ، وحسنات الأبرار سيئات المقربين؟ ف كل مقام له آداب ، فإذا أخلّ بشيء من آدابه أمر بالاستغفار ، فلمقام الرّسالة آداب ، ولمقام الولاية آداب ، ولمقام الصلاح آداب ، وضعف العبودية لا يقوم بجميع حقوق الرّبوبية ، قال تعالى : وَما قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ «٢».

وبالجملة ، فالقيام بالآداب مع اللّه – تعالى – على ما يستحقه – سبحانه – حتى يحيط العبد بجميع الآداب مع عظمة

---

(١) حكمة (رقم ١٨٢) انظر تبويب الحكم للمتقى الهندي (ص ٣٦).

(٢) من الآية ٦٧ من سورة الزمر. [.....]

الربوبية محال عادة ، قال صلّى اللّه عليه وسلم مع جلالة منصبه : «لا أحصى ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك» «١» ف كل ما قرب العبد من الحضرة شدد عليه فى طلب الأدب ، فإذا أخذته سنة أمر بالاستغفار ، ولذلك كان صلّى اللّه عليه وسلم يستغفر فى المجلس سبعين مرة ، أو مائة ، على ما فى الأثر «٢».

وقال شيخ شيوخنا ، سيدى عبد الرّحمن الفاسى ، بعد كلام : والحق أن استغفاره صلّى اللّه عليه وسلم طلب ثبات المغفرة والستر من الوقوع ، لا طلب العفو بعد الوقوع ، وقد أخبره تعالى بأنه فعل. وقد يقال : استغفار تعبد لا غير. قال : والذي يظهر لى أن أمره بالاستغفار مع وعد اللّه بأنه مغفور له إشارة إلى الوقوف مع غيب المشيئة ، لا مع الوعد ، وذلك حقيقة ، والوقوف مع الوعد شريعة. وقال الطيبي

: إذا تيقنت أن الساعة آتية ، وقد جاء أشراطها ، فخذ بالأهم فالأهم ، والأولى فالأولى ، فتمسك بالتوحيد ، ونزّه اللّه عما لا ينبغى ، ثم طهّر نفسك بالاستغفار عما لا يليق بك ، من ترك الأولى ، فإذا صرت كاملا فى نفسك فكن مكملا لغيرك ، فاستغفر لِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ. هـ. أي : استغفر لذنوبهم ، بالدعاء لهم ، وترغيبهم فيما يستدعى غفران ذنوبهم.

وفى إعادة الجار تنبيه على اختلاف متعلّقيه إذ ليس موجب استغفاره صلّى اللّه عليه وسلم كموجب استغفارهم ، فسيئاته – عليه السّلام – فرضا – حسناتهم. وفى حذف المضاف ، وإقامة المضاف إليه مقامه – أي : ولذنب المؤمنين – إشعار بعراقتهم فى الذنوب ، وفرط افتقارهم إلى الاستغفار.

وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْواكُمْ أي : يعلم متقلبكم فى الدنيا ، فإنها مراحل لا بد من قطعها ، ويعلم مثواكم فى العقبى فإنها مواطن إقامتكم ، فلا يأمركم إلا بما هو خير لكم فيهما ، فبادروا إلى الامتثال لما أمركم به ، فإنه المهم لكم ، أو : يعلم متقلبكم : فى معايشكم ومتاجركم ، ومثواكم : حيث تستقرون فى منازلكم ، أو متقلبكم : فى حياتكم ، ومثواكم : فى القبور ، أو : متقلبكم : فى أعمالكم الحسنة أو السيئة ، ومثواكم : من الجنة أو النّار ، أو : يعلم جميع أحوالكم فلا يخفى عليه شىء منها ، فمثله حقيق بأن يخشى ويتقى ويستغفر.

الإشارة : قال القشيري : قال تعالى لنبيه صلّى اللّه عليه وسلم : فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلَّا اللَّهُ ، وكان عالما ، ولكن أمره باستدامة العلم واستزادته ، وذلك فى الثاني من حاله فى ابتداء العلم ، لأن العلم أمر ، ولا يجوز البقاء على الأمر الواحد ، ف كل لحظة يأتى فيها علم. ويقال : كان له علم اليقين ، فأمر بعين اليقين ، أو : كان له عين اليقين ، فأمر

---

(١) بعض حديث صحيح ، أخرجه مسلم فى (الصلاة ، باب ما يقال فى الرّكوع والسجود ح ٤٨٦) من حديث السيدة عائشة – رضي اللّه عنها.

(٢) أخرج مسلم فى (الذكر والدعاء والتوبة ، باب الاستغفار واستحباب الاستغفار والاستكثار منه ح ٢٧٠٢) عن الأغر المزني ، قال :

قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم : «إنه ليغان على قلبى وإنى لأستغفر اللّه فى كلّ يوم مائة مرة».

بحق اليقين. ويقال : قال صلّى اللّه عليه وسلم : «أنا أعملكم باللّه وأخشاكم له» فنزلت الآية «١» ، أي : أمر بالتواضع. وهنا سؤال :

كيف قال : «فاعلم» ولم يقل صلّى اللّه عليه وسلم بعد : علمت ، كما قال إبراهيم حين قال له : أَسْلِمْ قالَ أَسْلَمْتُ «٢» ويجاب :

بأن اللّه تعالى أخبر عنه بقوله : آمَنَ الرَّسُولُ «٣» والإيمان هو العلم ، فإخبار الحق – تعالى – عنه أتم من إخباره عن نفسه بقوله : علمته.

ويقال : إبراهيم عليه السّلام لما قال : أَسْلَمْتُ ابتلى ، ونبينا صلّى اللّه عليه وسلم لم يقل علمت ، فعوفى ، ويقال : فرق بن موسى ، لمّا احتاج إلى زيادة العلم أحيل على الخضر ، ونبينا صلّى اللّه عليه وسلم قال له : قُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً «٤» فكم بين من أحيل فى استزاده العلم على عبد ، وبين من أمر باستزادة العلم من الحق. ويقال : إنما أمره بقوله : فَاعْلَمْ بالانقطاع إليه من الحظوظ من الخلق ، ثم بالانقطاع منه إليه ، وإذا قال العبد هذه الكلمة على العادة ، والغفلة عن الحقيقة ، [وهى نصف البيان] «٥» فليس لهذا القول كبير قيمة ، وهذا إذا تعجب من شيء فذكر هذه الكلمة ، فليس له قدر ، وإذا قاله مخلصا ذاكرا لمعناها ، متحققا بحقيقتها ، فإن قاله بنفسه فهو فى وطن التفرقة ، وعندهم هذا من الشّرك الخفىّ ، وإن قاله بالحق فهو إخلاص ، والعبد أولا يعلم ربه بدليل وحجة ، فعلمه بنفسه ضرورى ، وهو أصل الأصول ، وعليه ينبنى كلّ علم استدلالى ، ثم تزداد قوة علمه بزيادة البيان ، وزيادة الحجج ، ويتناقص علمه بنفسه لغلبة ذكر اللّه بقلبه عليه ، فإذا انتهى لحال المشاهدة ، واستيلاء سلطان الحقيقة عليه ، صار علمه فى تلك الحالة ضروريا ، ويقل إحساسه بنفسه ، حتى يصير علمه بنفسه كالاستدلال ، وكأنه غافل عن نفسه ، أو ناس لنفسه ، ويقال : الذي فى البحر غلب عليه ما يأخذه من الرّؤية عن ذكر نفسه ، فإذا ركب البحر فرّ من هذه الحالة ، فإذا غرق فى البحر فلا إحساس له بشيء سوى ما هو مستغرق فيه مستهلك. هـ.

قلت : لا مدخل للحجج هنا ، وإنما هو أذواق وكشوفات ، فالصواب أن يقول : ثم تزداد قوة علمه ، بزيادة الكشف والذوق ، حتى يغيب عن وجوده ، بشهود معبوده ، فيتناقض علمه ، فيصير علمه باللّه ضروريا ، وعلمه بعدم وجوده ضروريا ، واللّه تعالى أعلم.

---

(١) نزول الآية فى هذا لم أقف عليه ، أما الحديث فصحيح ، فقد ترجم البخاري فى صحيحه (كتاب الإيمان ، باب قول النّبى صلّى اللّه عليه وسلم «أنا أعلمكم باللّه» ح ٢٠) وأورد حديث السيدة عائشة – رضي اللّه عنها – قالت : كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم إذا أمرهم من الأعمال بما يطيقون ، قالا : إنا لسنا كهيئتك يا رسول اللّه ، إن اللّه قد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، فيغضب صلّى اللّه عليه وسلم ، حتى يعرف الغضب فى وجهه ، ثم يقول : «إن أتقاكم وأعلمكم باللّه أنا». وأخرج البخاري أيضا فى (الأدب ، باب من لم يواجه النّاس بالعتاب ح ٦١٠١) عن السيدة عائشة – رضى عنها – قالت : صنع رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم شيئا ، فترخص فيه ، فتنزه عنه قوم ، فبلغ ذلك النّبى صلّى اللّه عليه وسلم ، فخطب فحمد اللّه ، ثم قال : «ما بال أقوام يتنزهون عن الشيء أصنعه ،

فاللّه إنى لأعلمهم باللّه عز وجل ، وأشدهم له خشية».

(٢) من الآية ١٣١ من سورة البقرة.

(٣) من الآية ٢٨٥ سورة البقرة.

(٤) من الآية ١١٤ من سورة طه.

(٥) فى القشيري : [أي كان بصفة النّسيان] وهو أنسب.

(٣٦٩/٥)

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٣٧٠

وقوله تعالى : وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ قال الورتجبي عن الجنيد : إي : اعلم حقيقة أنك بنا ولنا وبنا ، علمتنا ، وإياك أن ترى نفسك فى ذلك ، فإن خطر بك خاطر غير ، فاستغفر من خاطرك ، فلا ذنب ولا خطب أعظم ممن رجع عنا إلى سوانا ، ولو فى خطرة ونفس. ثم قال عن الأستاذ القشيري : إذا علمت أنك علمته فاستغفر لذنبك من هذا فإن الحق علا جلال قدره أن يعلمه غيره. هـ. قلت : وحاصله : أنّ استغفاره صلّى اللّه عليه وسلم ما عسى أن يخطر بباله رؤية وجوده ، كما قال الشاعر :

وجودك ذنب لا يقاس به ذنب فلا وجود للغير معه أصلا ، فهو الذي عرف نفسه بنفسه ، ووحّد نفسه بنفسه ، وقدّس نفسه بنفسه ، وعظّم نفسه بنفسه ، كما قال الهروي رضي اللّه عنه حين سئل عن التوحيد الخاص :

ما وحّد الواحد من واحد إذ كلّ من وحّده جاحد

توحيد من ينطق عن نعته عارية أبطلها الواحد

توحيده إيّاه توحيده ونعت من ينعته لاحد «١»

ثم ذكر حال المؤمنين والمنافقين عند نزول الوحى ، فقال :

[سورة محمد (٤٧) : الآيات ٢٠ الى ٢٤]

وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْ لا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلى لَهُمْ (٢٠) طاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكانَ خَيْراً لَهُمْ (٢١) فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحامَكُمْ (٢٢) أُولئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمى أَبْصارَهُمْ (٢٣) أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلى قُلُوبٍ أَقْفالُها (٢٤)

يقول الحق جل جلاله : وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْ لا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فيها ذكر الجهاد ، وذلك أنّ المؤمنين كان حرصهم على الجهاد يبعثهم على تمنى ظهور الإسلام ، وتمنى قتال العدو ، فكانوا يأنسون بالوحى ،

(١) راجع التعليق على هذه الأبيات عند إشارة الآيات : ٢ – ٤ من سورة الفاتحة.

(٣٧٠/٥)

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٣٧١

ويستوحشون إذا أبطأ ، وكان المنافقون على العكس من ذلك ، فَإِذا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فى معنى الجهاد مُحْكَمَةٌ أي : مبيّنة غير متشابهة ، لا تحتمل وجها إلا وجوب الجهاد. وعن قتادة : كل سورة فيها ذكر القتال فهى محكمة «١» لأن النّسخ لا يرد عليها لأن القتال نسخ ما كان قبل من الصلح والمهادنة ، وهو غير منسوخ إلى يوم القيامة. هـ.

وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتالُ أي : أمر فيها بالجهاد رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ نفاق ، أي : رأيت المنافقين فيما بينهم يضجرون منها ، يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ أي : تشخص أبصارهم جبنا وجزعا كما ينظر من أصابته الغشية عند الموت.

قال القشيري : كان المسلمون تضيق صدورهم لتأخر الوحى ، وكانوا يتمنون أن ينزل الوحى بسرعة ، والمنافقون إذا ذكر القتال يكرهون ذلك لما كان يشق عليهم القتال ، فكانوا بذلك يفتضحون وينظرون إليه نظر المغشىّ عليه من الموت أي : بغاية الكراهة لذلك ، فَأَوْلى لَهُمْ تهديد ، أي : الوعيد لهم. هـ.

وقيل : المعنى :

فويل لهم ، وهو أفعل ، من : الولي ، وهو القرب ، والمعنى : الدعاء عليهم بأن يليهم المكروه ، ويقرب من ساحتهم ، وقيل : أصله : أويل ، فقلب ، فوزنه : أفلع ، قال الثعلبي : يقال لمن همّ بالعطب ثم أفلت : أولى لك ، أي : قاربت العطب.

وقوله تعالى : طاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ : استئناف ، أي : طاعة للّه وللرسول ، وقول معروف حسن خير لهم ، أو : يكون حكاية قول المنافقين ، أي : قالوا : أمرنا طاعة وقول معروف ، قالوه نفاقا ، فيكون خبرا عن مضمر ، وقيل :

«أولى» : مبتدأ ، و«طاعة» : خبره ، وهذا أحسن ، وهو المشهور من استعمال «أولى» بمعنى : أحق وأصوب ، أي :

فالطاعة والقول المعروف أولى لهم وأصوب.

فَإِذا عَزَمَ الْأَمْرُ أي : فإذا جدّ الأمر ولزمهم القتال فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ فى الإيمان والطاعة لَكانَ الصدق خَيْراً لَهُمْ من كراهة الجهاد ، وقيل : جواب «إذا» وهو العامل فيها – محذوف ، أي : فإذا عزم الأمر خالفوا أو تخلفوا ، أو نافقوا ، أو كرهوا.

فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحامَكُمْ أي : فلعلكّم إن أعرضتم عن دين اللّه وسنة رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم أن ترجعوا إلى ما كنتم عليه فى الجاهلية من الإفساد فى الأرض ، بالتغاور والتناهب ، وقطع الأرحام ، بمقاتلة بعض الأقارب بعضا ، أو : فهل عسيتم إن توليتم أمور النّاس وتأمّرتم عليهم أن تفسدوا فى الأرض ، تفاخرا على الملك ، وتهالكا على الدنيا ، فإن أحوالكم شاهدة بذلك من خراب الدين ، والحرص على الدنيا. قال فى

---

(١) أخرج قول قتادة ، الطبري (٢٦/ ٥٤).

الحاشية الفاسية : والأشهر أنه من الولاية ، أي : إن وليتم الحكم ، وقد جاء حديث أنهم قريش أخذ اللّه عليهم إن ولوا أمر النّاس ألا يفسدوا ، ولا يقطعوا الأرحام ، قاله ابن حجر «١». هـ.

وخبر «عسى» : «أن تفسدوا» ، والشرط اعتراض بين الاسم والخبر ، والتقدير : فهل عسيتم أن تفسدوا فى الأرض إن توليتم. تقول : عسى يا فلان إن فعلت كذا أن يكون كذا ، فهل عسيت أنت ذلك ، أي : فهل توقعت ذلك؟

أُولئِكَ المذكورون ، فالإشارة إلى المخاطبين ، إيذانا بأن ذكر مساوئهم أوجب إسقاطهم عن رتبة الخطاب ، وحكاية أحوالهم الفظيعة لغيرهم ، وهو مبتدأ ، وخبره : الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ أبعدهم عن رحمته ، فَأَصَمَّهُمْ عن استماع الحق والموعظة لتصاممهم عنه بسوء اختيارهم ، وَأَعْمى أَبْصارَهُمْ لتعاميهم عما يشاهدونه من الآيات المنصوبة فى الأنفس والآفاق.

أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ فيعرفون ما فيه من المواعظ والزواجر حتى لا يقعوا فيما وقعوا فيه من الموبقات ، أَمْ عَلى قُلُوبٍ أَقْفالُها فلا يصل إليها وعظ أصلا ، و«أم» منقطعة ، وما فيها من معنى «بل» للانتقال من التوبيخ على عدم التدبر إلى التوبيخ بكون قلوبهم مقفلة ، لا تقبل التدبر والتفكر ، والهمزة للتقرير. وتنكير «قلوب» ، إما لتهويل حالها ، وتفظيع شأنها ، بإبهام أمرها فى الفساد والجهالة ، كأنه قيل : قلوب منكرة لا يعرف حالها ، ولا يقادر قدرها فى القسوة ، وإما لأنّ المراد بها قلوب بعض منهم ، وهم المنافقون ، وإضافة الأقفال إليها للدلالة على أنها مخصوصة بها ، مناسبة لها ، غير مجانسة لسائر الأفعال المعهودة.

قال القشيري : إذا تدبروا القرآن أفضى بهم إلى حس العرفان ، وأزاحهم عن ظلمة التحيّر أَمْ عَلى قُلُوبٍ أَقْفالُها أقفل الحقّ على قلوب الكفار ، فلا يدخلها زواجر التنبيه ، ولا تنبسط عليها شعاع العلم

، ولا يحصل فيهم الخطاب ، والباب إذا كان مقفلا ، فكما لا يدخل فيه شيء لا يخرج ما فيه ، كذلك هى قلوب الكفار مقفلة فلا الكفر الذي فيها يخرج ، ولا الإيمان الذي يدعون إليه يدخل فى قلوبهم. هـ.

وقال ابن عطية : هو الرّان الذي منعهم من الإيمان ، ثم ذكر حكاية الشاب ، وذلك أن وفد اليمن قدم على النّبيّ صلى اللّه عليه وسلم وفيهم شاب ، فقرأ عليهم النّبيّ صلّى اللّه عليه وسلم هذه الآية ، فقال الشابّ : عليها أقفالها حتى يفتحها اللّه ويفرجها ، قال عمر :

---

(١) فى فتح الباري (التفسير ، سورة سيدنا محمد صلّى اللّه عليه وسلم ٨/ ٤٤٥) وعزى ابن حجر الحديث المشار إليه للطبرى فى تهذيبه ، من حديث عبد اللّه بن مغفل. ونصه : «سمعت النّبى صلّى اللّه عليه وسلم يقول : فَهَلْ ، عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قال : هم هذا الحي من قريش ، أخذ اللّه عليهم إن ولوا النّاس أن لا يفسدوا فى الأرض ولا يقطعوا أرحامهم».

فعظم فى عينى ، فما زالت فى نفس عمر رضي اللّه عنه – حتى ولّى الخلافة ، فاستعان بذلك الفتى «١». هـ. وفى الحديث :

«إذا أراد اللّه بعبد خيرا فتح له قفل قلبه ، وجعل فيه اليقين» «٢».

الإشارة : أهل التوجه والرّياضة يفرحون بما ينزل بهم ، مما يثقل على نفوسهم ، كالفاقات والأزمات ، وتسليط الخلق عليهم ، وغير ذلك من النّوائب لتموت نفوسهم فتحيا قلوبهم وأرواحهم بمعرفة اللّه ، والذين فى قلوبهم مرض كالوساوس والخواطر يفرون من ذلك ، وينظرون – حين يرون أمارات ذلك – نظر المغشى عليه من الموت ، فالأولى لهم الخضوع تحت مجارى الأقدار ، والرّضا والتسليم لأحكام الواحد القهار ، فإذا عزم الأمر بالتوجه إلى جهاد النّفس ، أو بالسفر إلى من يداويها ، فلو صدقوا فى الطلب ، وتوجهوا للطبيب ، لكان خيرا لهم. فهل عسيتم إن توليتم وأعرضتم عن ذلك ، ولم تسافروا إلى الطبيب ، أن تفسدوا فى الأرض بالمعاصي والغفلة ، وتقطعوا أرحامكم ، إذ لا يصل رحمه حقيقة إلا من صفا قلبه ، ودخله الخوف والهيبة ، أولئك الذين أبعدهم اللّه عن حضرته ، فأصمّهم عن سماع الداعي إلى اللّه ، وأعمى أبصارهم عن رؤية خصوصيته ، وأنوار معرفته ، أفلا يتدبرون القرآن ، فإنّ فيه علوم الظاهر والباطن ، لكن إذا زالت عن القلوب الأقفال ، وحاصلها أربعة : حب الدنيا ، وحب الرّئاسة ، والانهماك فى الحظوظ والشهوات ، وكثرة العلائق والشواغل ، فإن سلم من هذه صفا قلبه ،

وتجلت فيه أسرار معانى الذات والصفات ، فيتدبر القرآن ، ويغوص فى بحر أسراره ، ويستخرج يواقيته ودرره. وباللّه التوفيق.

ثم ذكر من رجع بعد التوجه ، فقال :

إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا ...

---

(١) أخرجه الطبري (٢٦/ ٥٨) والبغوي فى التفسير (٧/ ٢٨٧) وزاد السيوطي عزوه فى الدر (٦/ ٥٢) لإسحاق بن راهويه ، وابن المنذر ، وابن مردويه ، عن عروة.

(٢) ذكره فى كنز العمال (ح ٣٠٧٦٨) وعزاه لأبى الشيخ عن أبى ذر. وقال المناوى فى الفيض (١/ ٢٦٠) : «وفيه سعيد بن إبراهيم ، قال الذهبي : مجهول». وبقية الحديث : «جعل فيه اليقين والصدق ، وجعل قلبه واعيا لما سلك فيه ، وجعل قلبه سليما ، ولسانه صادقا ، وخليقته مستقيمة ، وجعل أذنه سميعة ، وعينه بصيرة».

[سورة محمد (٤٧) : الآيات ٢٥ الى ٢٨]

إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلى أَدْبارِهِمْ مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلى لَهُمْ (٢٥) ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا ما نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرارَهُمْ (٢٦) فَكَيْفَ إِذا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبارَهُمْ (٢٧) ذلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا ما أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمالَهُمْ (٢٨)

يقول الحق جل جلاله : إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلى أَدْبارِهِمْ أي : رجعوا إلى الكفر ، وهم المنافقون ، الذين وصفوا قبل بمرض القلوب ، وغيره ، من قبائح الأفعال والأحوال ، فإنهم كفروا به صلّى اللّه عليه وسلم مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى بالدلائل الظاهرة ، والمعجزات القاهرة. وقيل : اليهود ، وقيل : أهل الكتابين جميعا ، كفروا به صلّى اللّه عليه وسلم بعد ما وجدوا نعته فى كتابهم ، وعرفوا أنه المنعوت بذلك ، وقوله تعالى : الشَّيْطانُ سَوَّلَ لَهُمْ ، الجملة : خبر «إن» أي :

الشيطان زيّن لهم ذلك ، أو : سهّل لهم ركوب العظائم ، من : السّول ، وهو الاسترخاء ، أي : أرخى العنان لهم ، حتى جرّهم إلى مراده ، وَأَمْلى لَهُمْ ومدّ لهم فى الآمال والأمانى ، وقرأ البصري : «وأملى» بالبناء للمفعول ، أي :

أملهوا ومدّ فى عمرهم.

ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا ما نَزَّلَ اللَّهُ الإشارة إلى ما ذكر من ارتدادهم ، لا إلى الإملاء ، ولا إلى التسويل – كما قيل – إذ ليس شيئا منهما سببا فى القول الآتي أي : ذلك الارتداد بسبب أنهم – أي المنافقون – قالوا لليهود الذين كرهوا ما نزّل اللّه من القرآن على رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم بعد ما علموا أنه من عند اللّه حسدا وطمعا فى نزوله عليهم : سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ أي : عداوة محمد [والقعود عن] «١» نصر دينه ، أو : فى نصرهم والدفع عنهم إن نزل بهم شيء ، من قبله عليه السّلام ، وهو الذي حكاه عنهم بقوله تعالى : أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوانِهِمُ ... الآية «٢» وهم بنو قريظة والنّضير ، الذين كانوا يوالونهم ويوادونهم ، وإنما كانوا يقولون لهم ذلك سرا ، كما ينبئ عنه قوله تعالى : وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرارَهُمْ «٣» أي : جميع أسرارهم التي من جملتها : قولهم هذا ، وقرأ الأخوان وحفص بكسر الهمزة مصدر ، أي : إخفاءهم لما يقولون لليهود.

فَكَيْفَ تكون حيلتهم وما يصنعون إذا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلائِكَةُ حال كونهم يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبارَهُمْ ، وهو تصوير لحال توفيهم على أهول الوجوه وأفظعها. وعن ابن عباس رضي اللّه عنه : «لا يتوفى أحد على

---

(١) ما بين المعقوفتين ليس فى الأصول ، وأثبته لاقتضاء السياق له.

(٢) الآية ١١ من سورة الحشر. [.....]

(٣) قرأ حفص وحمزة والكسائي «إسرارهم» بكسر الهمزة ، مصدر «أسرّ» ، وقرأ الباقون «بالهمزة المفتوحة» جمع : سرّ.

انظر الهداية للمهدوى (٢/ ٥١٦) والإتحاف ٢/ ٤٧٨.

معصية إلا تضرب الملائكة وجهه ودبره» «١». ذلِكَ التوفى الهائل بِأَنَّهُمُ ، بسبب أنهم اتَّبَعُوا ما أَسْخَطَ اللَّهَ من الكفر والمعاصي ومعاونة الكفرة ، وَكَرِهُوا رِضْوانَهُ من الطاعة والإيمان ونصر المؤمنين ، فَأَحْبَطَ لأجل ذلك أَعْمالَهُمْ التي عملوها حال الإيمان وبعد الارتداد ، من أعمال البر.

[سورة محمد (٤٧) : الآيات ٢٩ الى ٣٠]

أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغانَهُمْ (٢٩) وَلَوْ نَشاءُ لَأَرَيْناكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيماهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمالَكُمْ (٣٠)

أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ، هم المنافقون الذين فصلت أحوالهم الشنيعة ، أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغانَهُمْ أحقادهم ، ف «أم» منقطعة ، وأ «ن» مخففة ، واسمها : ضمير الشأن ، أي : أظن المنافقون

الذين فى قلوبهم حقد وعداوة أنه لن يخرج اللّه حقادهم ، ولن يبرزها لرسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم والمؤمنين ، فيبقى أمورهم مستورة؟ بل لا يكاد يدخل ذلك تحت الاحتمال.

وَلَوْ نَشاءُ لَأَرَيْناكَهُمْ ودللناك عليهم بأمارات ، حتى تعرفهم بأعينهم ، معرفة مزاحمة للرؤية. والالتفات لنون العظمة لإبراز العناية بالإرادة ، وفى مسند أحمد ، عن ابن مسعود : خطبنا رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم فحمد اللّه ، وأثنى عليه ، ثم قال : «إن منكم منافقين ، فمن سميت فليقم ، ثم قال : قم يا فلان ، حتى سمى ستة وثلاثين» «٢» انظر الطيبي. فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيماهُمْ بعلامتهم التي نسمهم بها ، وعن ابن عباس رضي اللّه عنه : ما خفى عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم بعد هذه الآية شيء من المنافقين كان يعرفهم بسيماهم ، ولقد كنا فى بعض الغزوات وفيها تسعة من المنافقين ، يشكرهم النّاس «٣» فناموا ، فأصبح على وجه كلّ واحد منهم مكتوب : هذا منافق» «٤» قال ابن زيد : قصد اللّه إظهارهم ، وأمرهم أن يخرجوا من المسجد ، فأبوا إلا أن يتمسكوا بلا إله إلا اللّه ، فحقنت دمائهم ، ونكحوا ونكح منهم بها.

وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ أي : واللّه لتعرفنهم فِي لَحْنِ الْقَوْلِ أي : مجراه وأسلوبه وإمالته عن الاعتدال لما فيه من التذويق والتشديق ، وقد كانت ألسنتهم حادة ، وقلوبهم خاربة ، كما قال تعالى : وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ ...

الآية «٥» ، من فى قلبه شيء لا بد أن يظهر على لسانه ، كما قيل : «ما كمن فيك ظهر على فيك».

وهذه الجمل كلها داخلة تحت «لو» معلقة بالمشيئة ، واللحن يطلق على وجهين : صواب وخطأ ، فالفعل من الصواب : لحن يلحن لحنا ،

---

(١) ذكره القرطبي (٧/ ٦٢٥٧) بنحوه.

(٢) أخرجه أحمد فى المسند (٥/ ٢٧٣) والطبراني فى الكبير (١٧/ ٢٤٦ ح ٦٨٧).

(٣) فى القرطبي : يشك فيهم النّاس.

(٤) على هامش النّسخة الأم مايلى : «هذا غريب جدا ، بل باطل عن ابن عباس». قلت : والخبر ذكره القرطبي فى التفسير (٧/ ٦٢٥٩) عن أنس.

(٥) الآية ٤٠٢ من سورة البقرة.

كفرح ، فهو لحن ، إذا فطن للشيء ، ومنه قوله صلّى اللّه عليه وسلم : «ولعل بعضكم أن يكون ألحن

بحجته من بعض» «١» أي : لقوته على تصريف الكلام. والفعل من الخطأ : لحن يلحن لحنا ، كجعل ، فهو لاحن إذا أخطأ ، والأصل فيه : إزالة الكلام عن جهته ، مأخوذ من : اللحن ، وهو ضد الإعراب ، وهو الذهاب عن الصواب فى الكلام «٢». وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمالَكُمْ فيجازيكم بحسب قصدكم إذ الأعمال بالنيات ، وهذا وعد للمؤمنين ، وإيذان بأن حالهم بخلاف حال المنافقين ، أو : يعلم جميع أعمال العباد ، فيميز خيرها من شرها.

الإشارة : إن الذين ارتدوا على أدبارهم ، أي : رجعوا عن صحبة المشايخ ، بعد ما ظهر لهم أسرار خصوصيتهم الشيطان سول لهم وأملى لهم ، وتقدم عن القشيري : أنه يتخلف عنهم يوم القيامة ، ولا يلحق بالمقربين ، ولو يشفع فيه ألف عارف ، بل من كمال المكر به أن يلقى شبهه فى الآخرة على غيره ، حتى يتوهم عارفوه من أهل المعرفة أنه هو ، فلا يشفع أحد فيه لظنهم أنه معهم ، فإذا ارتفعوا إلى عليين محيت صورته ، ورفع إلى مقام العامة ، انظر معناه فى آل عمران «٣».

وقال هنا : الذي طلع فجر قلبه وتلألأ نور التوحيد فيه ، ثم ارتد قبل طلوع نهار إيمانه انكسف شمس يومه ، وأظلم نهار عرفانه ، ودجا ليل شكّه ، وغابت نجوم عقله ، فحدّث عن ظلماتهم ولا حرج. هـ. ولا سيما إذا تحزّب مع العامة فى الإذاية ، وقال للذين كرهوا ما نزّل اللّه على أهل الخصوصية من الأسرار : سنطيعكم فى بعض الأمر من إذايتهم ، واللّه يعلم إسرارهم ، وباقى الوعيد الذي فى الآية ربما يشملهم. وقوله تعالى : أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أي : عداوة لأولياء اللّه أن لن يخرج اللّه أضغانهم؟ بل يخرجها ويظهر وبالها ، ويفتضحون ولو بعد حين ، وقوله تعالى : وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ فى قوة الخطاب ، ومفهوم الكلام لأن الأسرة تدلّ على السريرة ، وما خامر القلوب فعلى الوجوه يلوح ، وأنشدوا فى المعنى :

لست «٤» من ليس يدرى ما هوان من كرامه إنّ للحبّ وللبغض على الوجه علامه

المؤمن ينظر بنور الفراسة ، والعارف ينظر بعين التحقيق ، والموحّد ينظر باللّه ، ولا يستتر عليه شىء. هـ من القشيري.

---

(١) بعض حديث أخرجه البخاري فى (الشهادات ، باب من أقام البينة بعد اليمين ح ٢٦٨٠) ومسلم فى (الأقضية ، باب الحكم بالظاهر واللحن بالحجة ح ١٧١٣). من حديث أم سلمة – رضي اللّه عنها.

(٢) انظر اللسان (لحن ٥/ ٤٠١٣ – ٤٠١٤).

(٣) راجع إشارة الآية ٩٠ من سورة آل عمران. (١/ ٣٧٩).

(٤) هكذا فى الأصول ، وأظنه : لست ممن.

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٣٧٧

ثم ذكر اختباره لأهل الصدق ، فقال :

[سورة محمد (٤٧) : الآيات ٣١ الى ٣٢]

وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَا أَخْبارَكُمْ (٣١) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدى لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئاً وَسَيُحْبِطُ أَعْمالَهُمْ (٣٢)

يقول الحق جل جلاله : وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ أي : واللّه لنختبرنّكم بالأمر بالجهاد ، ونحوه من التكاليف الشاقة ، أي : نعاملكم معاملة المختبر ليكون أبلغ فى إظهار العدل ، حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ على مشاق الجهاد والتكاليف ، علما ظاهرا ، يتعلق به الجزاء بعد تعلق العلم به فى الأزل ، وَنَبْلُوَا أَخْبارَكُمْ أي : ونختبر أسراركم بإظهار ما فيها من خير أو شر ، بالنهوض أو التخلف ، وقيل : أراد بأخباركم : أعمالكم ، عبّر بالأخبار عن الأعمال على سبيل الكناية لأن الإخبار تابع لوجود المخبر عنه ، إن كان الخبر حسنا كان المخبر عنه – وهو العمل – حسنا ، وإن كان الخبر قبيحا فالمخبر عنه قبيح. هـ.

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا الناس عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ أي : عادوه مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدى بما شاهدوا من نعته فى التوراة ، وبما ظهر على يديه من المعجزات ، ونزل من الآيات ، وهم بنوا قريظة والنّضير ، أو : المطعمون يوم بدر من رؤساء قريش ، لَنْ يَضُرُّوا بكفرهم وصدهم اللَّهَ شَيْئاً من الأشياء ، أو :

شيئا من الصد ، أو : لن يضروا رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم بمشاقته ، وقد حذف المضاف لتعظيم شأنه وتعظيم مشاقته.

وَسَيُحْبِطُ أَعْمالَهُمْ أي : مكائدهم التي نصبوها فى إبطال دينه تعالى ، ومشاقة رسوله صلّى اللّه عليه وسلم ، فلا يصلون بها إلى ما كانوا يبغون من الغوائل ، ولا يثمر لهم إلا القتل والجلاء عن أوطانهم.

الإشارة : قال القشيري : فى الابتلاء والامتحان يتبين جواهر الرّجال ، فيظهر المخلص ، ويفتضح الممارق «١» ، وينكشف المنافق. هـ. وكان الفضيل إذا قرأ هذه الآية بكى ، وقال : اللهم لا تبلنا فإنك إن بلوتنا فضحتنا وهتكت أستارنا. هـ. ويبغى أن يزيد : وإن بلوتنا فأيّدنا ، وباللّه التوفيق. إن الذين جحدوا وصدوا النّاس عن طريق الوصول ، وخرجوا عن منهاج السنة ، لن يضروا اللّه شيئا فإن للّه رجالا يقومون بالدعوة ، لا يضرهم من عاداهم ، حتى يأتى أمر اللّه ، وسيحبط أعمال الصادّين المعوّقين ، فلا ينهضون إلى اللّه نهوض الرّجال ، بشؤم انتقادهم. واللّه تعالى أعلم.

---

(١) فى القشيري : المماذق.

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٣٧٨

ولمّا ذمّ الذين كرهوا الجهاد ، أمر المؤمنين بالطاعة فيه ، وألّا يكونوا أمثال أولئك ، فقال :

[سورة محمد (٤٧) : الآيات ٣٣ الى ٣٨]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلا تُبْطِلُوا أَعْمالَكُمْ (٣٣) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ ماتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ (٣٤) فَلا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمالَكُمْ (٣٥) إِنَّمَا الْحَياةُ الدُّنْيا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلا يَسْئَلْكُمْ أَمْوالَكُمْ (٣٦) إِنْ يَسْئَلْكُمُوها فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغانَكُمْ (٣٧)

ها أَنْتُمْ هؤُلاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّما يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَراءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثالَكُمْ (٣٨)

يقول الحق جل جلاله : يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ فيما يأمركم به من الجهاد وغيره وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فيما سنّه لكم ، وَلا تُبْطِلُوا أَعْمالَكُمْ بما أبطل به هؤلاء أعمالهم من الكفر والنّفاق ، وغير ذلك من مفسدات الأعمال ، كالعجب والرّياء ، والمن والأذى ، وليس فيه دليل على إحباط الطاعات بالكبائر ، خلافا للمعتزلة ، أو : لا تبطلوا أعمالكم بأن تقطعوها قبل تمامها. وبها احتج الفقهاء على وجوب إتمام العمل فأوجبوا على من شرع فى نافلة إتمامها ، وأخذه عن الآية ضعيف لأن السياق إنما هو فى إحباط العمل بالكفر ، لقوله قبل : وَسَيُحْبِطُ أَعْمالَهُمْ ثم قال : يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تكونوا كهؤلاء الذين أحبط اللّه أعمالهم بكفرهم وصدهم عن سبيل اللّه ، ومشاقتهم الرّسول ، ويؤيده أيضا : قوله تعالى : إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ ماتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ، هذا عام فى كلّ من مات على الكفر ، وإن صح نزوله فى أهل القليب «١».

فَلا تَهِنُوا لا تضعفوا عن الجهاد وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ ، أي : لا تدعوا الكفار إلى الصلح والمسالمة فإن ذلك إعطاء الدنيّة – أي : الذلة – فى الدين ، ويجوز أن يكون منصوبا بإضمار «أن» فى جواب النّهى أي : لا تهنوا مع

---

(١) انظر تفسير البغوي (٧/ ٢٩٠) والقرطبي (٧/ ٦٢٦٢).

إعطاء السلم ، وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ : الأغلبون ، وَاللَّهُ مَعَكُمْ بالنصر والمعونة ، ومن كان غالبا ومنصورا واللّه معه ، لا يتصور منه إظهار الذلة والضراعة لعدوه ، وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمالَكُمْ لن يضيعها ، من : وترت الرّجل : إذا قتلت له قتيلا ، من ولد أو أخ أو حميم ، فأفردته منه ، حتى صار وترا ، عبّر عن ترك الإثابة فى مقابلة العمل بالوتر ، الذي هو إضاعة شيء معتد به من الأنفس والأموال ، مع أن الأعمال غير موجبة للثواب على قاعدة أهل السنّة ، إبرازا لغاية اللطف ، بتصوير الثواب بصورة الحق المستحق ، وتنزيل ترك الإثابة منزلة إضاعة أعظم الحقوق وإتلافها ، سبحانه من رب رحيم!.

إِنَّمَا الْحَياةُ الدُّنْيا لَعِبٌ وَلَهْوٌ لا ثبات لها ، ولا اعتداد بها ، فلا تؤثروا حياتها الفانية على الحياة الأبدية بالموت فى الجهاد الأصغر أو الأكبر ، وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ أي : ثواب إيمانكم وأعمالكم من الباقيات الصالحات ، التي فيها يتنافس المتنافسون ، وَلا يَسْئَلْكُمْ أَمْوالَكُمْ بحيث يخل أداؤها بمعايشكم ، وإنما سألكم نزرا يسيرا هو ربع العشر ، تؤدونه إلى فقرائكم.

إِنْ يَسْئَلْكُمُوها أي : جميع أموالكم فَيُحْفِكُمْ أي : يجهدكم بطلب الكل ، فالإحفاء والإلحاف : المبالغة فى السؤال ، وبلوغ الغاية ، يقال : أحفاه فى المسألة : إذا لم يترك شيئا من الإلحاح ، وأحفى شاربه : استأصله ، أي : إن يسألكم جميعها تَبْخَلُوا فلا تعطوا شيئا ، وَيُخْرِجْ أَضْغانَكُمْ أي : أحقادكم لأن عند سؤال المال يظهر الصادق من الكاذب ، وضمير «لا يسألكم» وما بعدها للّه أو لرسوله.

وضمير «يخرج» للّه تعالى ، ويؤيده القراءة بنون العظمة «١» ، أو البخل لأنه سبب الأضغان.

ها أَنْتُمْ هؤُلاءِ أي : يا هؤلاء ، وقيل : (ها) : للتنبيه ، و(هؤلاء) : موصول بمعنى «الذين» ، وصلته : تُدْعَوْنَ أي : أنتم الذين تدعون لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ هى النّفقة فى الغزو والزكاة ، كأنه قيل : الدليل على أنه لو أحفاكم لبخلتم أنكم تدعون إلى أداء ربع العشر ، فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ أي : فمنكم ناس يبخلون به ، وَمَنْ يَبْخَلْ بالصدقة وأداء الفريضة فَإِنَّما يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ فإنّ كلّا من نفع الإنفاق وضرر البخل عائد إليه ، وفى حديث الترمذي : «السخي قريب من اللّه ، قريب من الجنة ، قريب من النّاس ، بعيد من النّار ، والبخيل بعيد من اللّه ، بعيد من الجنة ، بعيد من النّاس ، قريب من النّار ، ولجاهل سخى أحبّ إلى اللّه من عابد بخيل» «٢» وفى رواية : «من عالم بخيل» والبخل يتعدى ب «عن» ، و«على» ، لتضمنه معنى : الإمساك والتعدي.

---

(١) وبها قرأ يعقوب الحضرمي ، انظر البحر المحيط (٨/ ٨٥).

(٢) أخرجه الترمذي فى (البر والصلة ، باب ما جاء فى السخاء ، ح ١٩٦١) والبغوي فى التفسير (٢/ ١٠٤ - ١٠٥) والطبراني فى الأوسط (ح ٢٣٦٣) من حديث أبى هريرة رضي اللّه عنه قال الترمذي : «هذا حديث غريب». [.....]

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٣٨٠

وَاللَّهُ الْغَنِيُّ عن كلّ ما سواه ، ويفتقر إليه كلّ ما عداه ، وَأَنْتُمُ الْفُقَراءُ أي : إنه – تعالى – لا يأمر بذلك لحاجته إليه لأنه الغنىّ عن الحاجات ، ولكن لحاجتكم وفقركم إلى الثواب ، وَإِنْ تَتَوَلَّوْا أي : وإن تعرضوا أيها العرب عن طاعته ، وطاعة رسوله ، والإنفاق فى سبيله يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ، يخلف قوما خيرا منكم وأطوع ، ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثالَكُمْ فى الطاعة ، بل أطوع ، راغبين فيما يقرب إلى اللّه ورسوله ، وهم فارس ، وسئل رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم عن هؤلاء القوم – وكان سلمان إلى جنبه ، فضرب على فخذه ، فقال : «هذا وقومه ، والذي نفسى بيده لو كان الإيمان بالثريا لتناوله رجال من فارس» «١».

قلت : صدق الصادق المصدوق ، فكم خرج منهم من جهابذة العلماء ، وأكابر الأولياء ، كالجنيد ، إمام الصوفية ، والغزالي ، حبر هذه الأمة ، وأضرابهما. وقيل : الملائكة ، وقيل : الأنصار ، وقيل : كندة ، وقيل : الروم ، والأول أشهر.

الإشارة : يا أيها الذين آمنوا أطيعوا اللّه وأطيعوا الرّسول ، أو خليفته ، وهو الداعي إلى اللّه على بصيرة العيان ، ولا تبطلوا أعمالكم ، برجوعكم عن السير ، بترك المجاهدة قبل المشاهدة. إنّ الذين كفروا بوجود خصوصية التربية ، وصدوا النّاس عنها ، ثم ماتوا على ذلك ، لن يستر اللّه مساوئهم ، ولا يغيّبهم عن شهود نفوسهم التي حجبتهم عن اللّه. فلا تهنوا : لا تضعفوا ، أيها المترفهون ، عن مجاهدة نفوسكم ، فينقطع سيركم ، وذلك بالرجوع إلى الدنيا ، ولا تدعوا إلى السلم والمصالحة بينكم وبين نفوسكم ، وأنتم الأعلون ، قد أشرفتم على الظفر بها ، واللّه معكم لقوله :

وَالَّذِينَ جاهَدُوا فِينا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ «٢» ، ولن ينقصكم شيئا من أعمالكم ، بل يريكم ثمرتها ، عاجلا وآجلا ، ولا يفترنّكم عن المجاهدة طول الأمل.

إنما الحياة الدنيا لعب ولهو أي : ساعة من نهار ، وإن تؤمنوا بكلّ ما وعد اللّه ، وتتقوا كلّ ما يشغل عن اللّه ، يؤتكم أجوركم عاجلا وآجلا ، ولا يسألكم الداعي إليه جميع أموالكم ، إنما يسألكم ما يخف عليكم ، تقدموه بين يدى نجواكم ، ولو سألكم جميع أموالكم لبخلتم ، ويخرج أضغانكم ، وهذا فى حق عامة المريدين ، وأما الخاصة الأقوياء ، فلو سئلوا أرواحهم لبذلوها ، واستحقروها فى جنب ما نالوا من الخصوصية ، وأما أموالهم فأهون عندهم من أن يبخلوا بشيء منها ، ويقال لعامة الطالبين للوصول : ها أَنْتُمْ هؤُلاءِ تُدْعَوْنَ ... الآية.

---

(١) أخرجه الترمذي فى (التفسير – سورة سيدنا محمد صلّى اللّه عليه وسلم ح ٣٢٦٠ ، ٣٢٦١)

وقال «هذا حديث غريب» والحاكم (٢/ ٤٥٨) «وصححه ، وسكت عنه الذهبي». والطبري فى (٢٦/ ٦٦ – ٦٧) وعبد الرّزاق فى المصنف (١١/ ٦٦) والبغوي فى التفسير (٧/ ٢٩٢) وفى شرح السنة (١٤/ ٢٠٠) عن أبى هريرة رضي اللّه عنه وزاد السيوطي فى الدر (٦/ ٥٥) عزوه لعبد بن حميد ، وابن أبى حاتم ، والطبراني فى الأوسط ، (ح ٨٨٣٨) والبيهقي فى الدلائل (٦/ ٣٣٤).

(٢) الآية ٦٩ من سورة العنكبوت.

قال القشيري : واللّه الغنى لذاته بذاته ، ومن غنائه : تمكنه من تنفيذ مراده ، واستغناؤه عما سواه ، وأنتم الفقراء إلى اللّه ، فى نعمة الإيجاد ، ونعمة الإمداد ، فى الابتداء ليخلقكم ، وفى الوسط ليربيكم ، وفى الانتهاء يفنيكم عن أنانيتكم ، ويبقيكم بهويته ، فاللّه غنى عنكم من الأزل إلى الأبد ، وأنتم الفقراء محتاجون إليه من الأزل إلى الأبد «١». هـ.

وإن تتولوا عن السير ، وتركنوا إلى الرّخص والشهوات قبل التمكين ، يستبدل قوما غيركم ، يكونوا أحزم منكم ، وأشد مجاهدة ، صادقين فى الطلب ، ثابتين القدم فى آداب العبودية ، قد أدركتهم جذبات العناية ، وهبّت عليهم ريح الهداية ، ثم لا يكونوا أمثالكم فى التولي والضعف ، حتى يصلوا إلى مولاهم. وباللّه التوفيق ، وهو الهادي إلى سواء الطريق ، وصلّى اللّه على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه وسلم.

---

(١) بالمعنى.

سورة الفتح

مدنية. وهى تسع وعشرون آية. ومناسبتها لما قبلها : قوله تعالى : وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ «١» فإنه بشارة بالفتح الذي أشار إليه سبحانه بقوله :

[سورة الفتح (٤٨) : الآيات ١ الى ٣]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا فَتَحْنا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً (١) لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَما تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِراطاً مُسْتَقِيماً (٢) وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْراً عَزِيزاً (٣)

يقول الحق جل جلاله : إِنَّا فَتَحْنا لَكَ ، الفتح عبارة عن الظفر بالبلدة عنوة أو صلحا ، بحرب أو بدون ، فإنه ما لم يقع الظفر منغلق ، مأخوذ من : فتح باب الدار. وإسناده إلى نون العظمة لإسناد الفعل إلى اللّه تعالى خلقا وإيجادا. قيل : المراد به فتح مكة ، وهو المروي عن أنس رضي اللّه عنه ، بشّر به صلّى اللّه عليه وسلم عند انصرافه من الحديبية.

والتعبير عنه بصيغة الماضي على سنن الأخبار الإلهية المحققة الوقوع ، للإيذان بتحققه ، تأكيدا للتبشير ، وتصدير الكلام بحرف التحقيق لذلك ، وفيه من الفخامة والدلالة على علو شأن المخبر به – وهو الفتح – ما لا يخفى. وقيل :

هو فتح الحديبية ، وهو الذي عند البخاري عن أنس «٢» ، وهو الصحيح عند ابن عطية ، وعليه الجمهور. وفيها أخذت البيعة على الجهاد ، وهو كان سبب إظهار الإسلام وفشوه ، وذلك أنّ المشركين كانوا ممنوعين من مخالطة أهل الإسلام ، للحرب التي كانت بينهم ، فلما وقع الصلح اختلط النّاس بعضهم مع بعض ، وجعل الكفار يرون أنوار الإسلام ، ويسمعون القرآن ، فأسلم حينئذ بشر كثير قبل فتح مكة.

وقد ورد عنه صلّى اللّه عليه وسلم حين بلغه أن رجلا قال : ما هذا بفتح ، لقد صدّونا عن البيت ، ومنعونا ، قال : «بل هو أعظم الفتوح ، وقد رضي المشركون أن يدفعوكم بالراح ، ويسألوكم القضية ، ويرغبوا إليكم فى الأمان ، وقد رأوا منكم

---

(١) الآية ٣٥ من سورة «محمد» صلى اللّه عليه وسلم.

(٢) أخرجه البخاري فى (التفسير – سورة الفتح ، باب إِنَّا فَتَحْنا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً ح ٤ ٤٨٣).

ما يكرهون» «١». وعن الشعبي أنه قال : نزلت سورة الفتح بالحديبية ، وأصاب رسول اللّه صلّى اللّه

عليه وسلم فى تلك الغزوة ما لم يصب فى غزوة ، حيث بويع بيعة الرّضوان ، وغفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، وبلغ الهدى محلّه ، وبشروا بخيبر ، وظهرت الرّوم على فارس ، ففرح به المسلمون ، وكان فى فتح الحديبية آية عظيمة ، وهى أنه نزح ماؤها حتى لم يبق فيها قطرة ، فتمضمض رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم ثم مجّه فيها ، فدرّت بالماء ، حتى شرب جميع من كان معه «٢» ، وقيل : جاش بالماء حتى امتلأت ولم ينفد ماؤها بعد «٣». وقيل : هو جميع ما فتح له صلّى اللّه عليه وسلم ، من الإسلام ، والدعوة ، والنّبوة ، والحجة ، والسيف ، ولا فتح أبين منه وأعظم ، وهو رأس الفتوح كافة إذ لا فتح من فتوح الإسلام إلا هو شعبة من شعبه ، وفرع من فروعه. وقيل : الفتح : بمعنى القضاء ، والمعنى : قضينا لك على أهل مكة أن تدخلها من قابل ، وأيّا ما كان فحذف المفعول للقصد إلى نفس الفعل ، والإيذان بأنّ مناط التبشير هو نفس الفتح الصادر عنه سبحانه ، لا خصوصية المفتوح. قاله أبو السعود.

فَتْحاً مُبِيناً ظاهر الأمر ، مكشوف الحال ، فارقا بين الحق والباطل. وقوله تعالى : لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ غاية للفتح ، من حيث إنه مترتب على سعيه صلّى اللّه عليه وسلم فى إعلاء كلمة اللّه ، بمكابدة مشاق الحروب ، واقتحام موارد الخطوب ، أي : جعلنا الفتح على يديك ، وبسبب سعيك ، ليكون سببا لغفران اللّه لك ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَما تَأَخَّرَ أي : جميع ما فرط منك من ترك الأولى ، وما سيقع ، وتسميته ذنبا بالنظر إلى منصبه الجليل ، وتقدم قريبا تحقيقه «٤». وقول الجلال «٥» : «اللام للعلة الغائية فمدخولها مسبب لا سبب» ، لا يريد التعليل على حقيقته العقلية ، فإنه عليه تعالى محال ، وإنما يريد صورة التعليل ، الذي هو حكمة الشيء ، وفائدته العائدة على خلقه ، فضلا وإحسانا ، فالحكم والمصالح غاية لأفعاله تعالى ، ومنافع راجعة إلى المخلوقات ، وليس شيء منها غرضا وعلة غائية لفعله ، بحيث يكون سببا لإقدامه على الفعل ، وعلة غائية للفعل لغناه تعالى ، وكماله فى ذاته عن الاستكمال

---

(١) ذكره السيوطي مطولا فى الدر (٦/ ٥٨) وعزاه للبيهقى.

(٢) أخرج البخاري فى (المغازي ، باب غزوة الحديبية ح ٤١٥٠) عن البراء قال : تعدون أنتم الفتح فتح مكة وقد كان فتح مكة فتحا ، ونحن نعدّ الفتح بيعة الرّضوان ، يوم الحديبية ، كنا مع النّبى صلّى اللّه عليه وسلم أربع عشرة مائة ، والحديبية بئر ، فنزحناها فلم نترك فيها قطرة ، فبلغ ذلك النّبى صلّى اللّه عليه وسلم ، فأتانا ، فجلس على شفيرها ، ثم دعا بإناء من ماء فتوضا ، ثم مضمض ودعا ، ثم صبّه فيها ، فتركناها غير بعيد ، ثم إنها أصدرتنا ما شئنا نحن وركابنا».

وقوله صلّى اللّه عليه وسلم : «أصدرتنا» أي : رجعتنا ، يعنى : أنهم رجعوا عنها وقد رووا.

(٣) على هامش النّسخة الأم ما يلى : قلت : هذه القصة تكررت منه صلّى اللّه عليه وسلم فى عدة مرات ، وفى مواطن متعددة ، فلا خصوصية للحديبية بذلك. هـ.

(٤) عند الآية ١٩ من سورة «محمد» صلى اللّه عليه وسلم.

(٥) أي : جلال الدين المحلى فى تفسير الجلالين (٥١١). وقد فسر المحلى من أول سورة الكهف الى آخر سورة النّاس.

(٣٨٤/٥)

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٣٨٥

بفعل من الأفعال ، وما ورد فى الآيات والأحاديث مما يوهم الغرض والعلة فإنه يحمل على الغايات المترتبة والحكمة ، فاحتفظ بذلك. قاله صاحب الحاشية الفاسية. واللائق أن المعنى : إنا فتحنا لك وقضينا لك بأمر عاقبته أن جمع اللّه لك بين سعادة الدنيا والآخرة ، بأن غفر لك ، وأتم نعمته عليك وهداك ، ونصرك. فاللام لام العاقبة لا لام العلة فإن إفضال اللّه على رسوله لا يعلل ولا يوازى بعمل. هـ.

وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ بإعلاء الدين ، وضم الملك إلى النّبوة ، وغيرها مما أفاض عليه من النّعم الدينية والدنيوية ، وَيَهْدِيَكَ صِراطاً مُسْتَقِيماً أي : يثبتك على الطريق القويم ، والدين المستقيم ، والاستقامة وإن كانت حاصلة قبل الفتح ، لكن حصل بعد ذلك من اتضاح سبيل الحق ، واستقامة مناهجه ، ما لم يكن حاصلا قبل.

وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ أي : يظهر دينك ، ويعزّك ، فإظهار الاسم الجليل لكونه خاتمة الغايات ، ولإظهار كمال العناية بشأن النّصر ، كما يعرب عنه تأكيده بقوله : نَصْراً عَزِيزاً أي : نصرا فيه عزة ومنعة ، أو : قويا منيعا ، على وصف المصدر بوصف صاحبه ، مجازا ، للمبالغة ، أو : عزيزا صاحبه.

الإشارة : إنّا فتحنا لك فتحا مبينا ، بأن كشفنا لك عن أسرار ذاتنا ، وأنوار صفاتنا ، وجمال أفعالنا ، فشاهدتنا بنا ، ليغفر لك اللّه ، أي : ليغيبك عن وجودك فى شعور محبوبك ، ويستر عنك حسك ورسمك ، حتى تكون بنا فى كل شيء ، قديما وحديثا ، قال القشيري : وذنب الوجود هو الشرك فى الوجود ، وغفره : ستره بنور الوحدة ، لمحو ظلمة الاثنينية هـ. ويتم نعمته عليك بالجمع بين شهود الرّبوبية ، والقيام بآداب العبودية ، ودلالة الخلق على شهود قيام الديمومية ، ويهديك طريقا مستقيما توصل إلى حضرتنا ، فتسلكها وتبينها لمن يكون على قدمك ، وينصرك اللّه نصرا عزيزا ، بالتمكن فى شهود ذاتنا ، والعكوف فى حضرتنا ، محفوفا بالنصرة والعناية ، محمولا فى محفّة الرّعاية.

ولمّا نزل قوله : لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ قال المؤمنون : هذا لك يا رسول اللّه ، فمالنا؟ فأنزل اللّه «١» :

[سورة الفتح (٤٨) : الآيات ٤ الى ٧]

هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدادُوا إِيماناً مَعَ إِيمانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَكانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً (٤) لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها

وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئاتِهِمْ وَكانَ ذلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزاً عَظِيماً (٥) وَيُعَذِّبَ الْمُنافِقِينَ وَالْمُنافِقاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَساءَتْ مَصِيراً (٦) وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَكانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً (٧) _____

(١) أخرجه البخاري فى (المغازي ، باب غزوة الحديبية ح ٤١٧٢) من حديث أنس ، وفيه : «فنزلت عليه لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ ... الآية».

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٣٨٦

يقول الحق جل جلاله : هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ أي : السكون والطمأنينة ، فعلة ، من : السكون ، كالبهيتة من البهتان ، فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ حتى لم يتضعضعوا من الشروط التي عقدها صلّى اللّه عليه وسلم مع المشركين ، من ردّ من أسلم منهم ، وعدم ردهم من رجع إليهم ، ومن دخول مكة قابلا بلا سلاح ، وغير ذلك مما فعله صلّى اللّه عليه وسلم معهم بالوحى ، وما صدر عن عمر رضي اللّه عنه فلشدة قوته وصلابته ، وما زال يعتق ويفعل أمورا كفارة لذلك. وقيل : (السكينة) :

الصبر على ما أمر به اللّه من الشرائع والثقة بوعد اللّه ، والتعظيم لأمر اللّه ، لِيَزْدادُوا إِيماناً مَعَ إِيمانِهِمْ أي :

يقينا إلى يقينهم ، أو : إيمانا بالشرائع مع إيمانهم بالعقائد.

وعن ابن عباس رضي اللّه عنه قال : بعث اللّه نبيه بشهادة «ألا إله إلا اللّه» فلما صدّقوه فيها ، زادهم الصلاة ، فلما صدّقوه ، زادهم الزكاة ، فلما صدّقوه ، زادهم الحج ، فلما صدّقوا زادهم الجهاد ، ثم أكمل لهم دينهم «١» ، فذلك قوله :

لِيَزْدادُوا إِيماناً مَعَ إِيمانِهِمْ ، وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ يدبرها كما يريد ، يسلط بعضها على بعض تارة ، ويوقع الصلح بينهما أخرى ، حسبما تقتضيه مشيئته المبنية على الحكم والمصالح ، وَكانَ اللَّهُ عَلِيماً مبالغا فى العلم بجميع الأمور ، حَكِيماً فى تدبيره وتقديره.

لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ ، اللام متعلق بما يدل عليه ما ذكر من قوله : وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ من معنى التصرف ، أي : دبّر ما دبّر من تسليط المؤمنين ، ليعرفوا نعمة اللّه ويشكروها ، فيدخلهم جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها ، وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئاتِهِمْ أي : يغطّى عنهم مساوئهم ، فلا يظهرها لهم ولا لغيرهم.

وتقديم الإدخال على التكفير ، مع أن الترتيب فى الوجود على العكس للمسارعة إلى بيان ما هو المطلب الأعلى.

وَكانَ ذلِكَ أي : ما ذكر من الإدخال والتكفير عِنْدَ اللَّهِ فَوْزاً عَظِيماً لا يقادر قدره لأنه منتهى

---

(١) أخرجه الطبري (٢٦/ ٧٢) وزاد السيوطي فى الدر المنثور (٦/ ٦٢) عزوه لابن المنذر ، والطبراني ، وابن مردويه ، والبيهقي فى الدلائل.

هذا ، وعلى هامش النّسخة الأم ما يلى : قلت : هذا يقتضى أن الحج فرض قبل الجهاد ، وليس كذلك ، بل الجهاد فرض قبل الزكاة ، فينبغى أن لا يكون هذا صحيحا. هـ.

ما امتدت إليه أعناق الهمم من جلب نفع ودفع ضر. و«عند اللّه» : حال من «فوزا عظيما» لأنه صفته فى الأصل ، فلما قدّم عليه صار حالا ، أي : كائنا عند اللّه فى علمه وقضائه. والجملة : اعتراض مقرّر لما قبله.

وَيُعَذِّبَ الْمُنافِقِينَ وَالْمُنافِقاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكاتِ لما أغاظهم من ذلك وكرهوه ، وهو عطف على «يدخل» ، وفى تقديم المنافقين على المشركين ما لا يخفى من الدلالة على أنهم أحق منهم بالعذاب.

الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ أي : ظن الأمر السّوء ، وهو ألا ينصر اللّه رسوله والمؤمنين ، ولا يرجعهم إلى مكة ، فالسّوء عبارة عن رداءة الشيء وفساده ، يقال : فعل سوء ، أي : مسخوط فاسد. عَلَيْهِمْ دائِرَةُ السَّوْءِ أي : ما يظنونه ويتربصونه بالمؤمنين ، وهو دائر عليهم وحائق بهم. وفيه لغتان : فتح السين وضمها ، كالكره والكره ، والضّعف والضّعف ، غير أن المفتوح غلب عليه أن يضاف إليه ما يراد ذمّه من كلّ شيء ، وأما السوء فجار مجرى الشيء الذي هو نقيض الخير ، أي : الدائرة التي يذمونها ويسخطونها دائرة عليهم ، ولا حقة بهم ، وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَساءَتْ مَصِيراً لهم ، وهو عطف لما استوجبوه فى الآخرة على ما استوجبوه فى الدنيا ، وعطف «ولعنهم» وما بعده بالواو ، مع أن حقهما الفاء المفيدة للسببية إيذانا باستقلال كلّ واحد منهما بالوعيد ، وأصالته ، من غير اعتبار استتباع بعضها لبعض.

وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ ، إعادة لما سبق ، وفائدتها : التنبيه على أن للّه جنود الرّحمة وجنود العذاب ، كما ينبئ عنه التعرض لوصف العزة فى قوله : وَكانَ اللَّهُ عَزِيزاً أي : غالبا ، فلا يردّ بأسه حَكِيماً فلا يعترض صنعه. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : هو الذي أنزل السكينة فى قلوب المتوجهين ، حتى سكنوا لصدمات تجلى الجلال ، وأنوار الجمال ، وسكنوا تحت مجارى الأقدار ، كيفما برزت ، بمرارة أو حلاوة. قال القشيري : والسكينة :

ما يسكن إليه القلب من أنوار الإيمان والإيقان ، أو العرفان بمشاهدة العيان ، بل الاستغراق فى بحر العين بلا أين. هـ. «١» ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم ، فيترقوا من مقام الإسلام إلى مقام الإيمان ، ومن مقام الإيمان إلى مقام الإحسان ، أو من علم اليقين إلى عين اليقين ، ومن عين اليقين إلى حق اليقين ، أو من المراقبة إلى المشاهدة ، أو من رؤية الأسباب إلى مسبب الأسباب.

وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وهى الجنود التي يمد اللّه بها الرّوح فى محاربتها للنفس ، حتى تغلبها وتستولى عليها ، وهى اليقين ، والعلم ، والذكر ، والفكر ، والواردات الإلهية ، التي تأتى من حضرة القهار ، فتدمغ

---

(١) لم أقف على النّص فى مظانه فى تفسير القشيري.

كل ما تصادمه من الأغيار والأكدار ، وكان اللّه عليما بمن يستحق هذه الواردات ، حكيما فى ترتيبها وتدبيرها ، ليدخل من تأيد بها جنات المعارف ، تجرى من تحتها أنهار العلوم والحكم ، ويغطى عنهم مساوئهم حتى يصلوا إليه ، بما منه إليهم ، لا بما منهم إليه وهذا هو الفوز العظيم ، يفوز صاحبه بالنعيم المقيم ، فى جوار الكريم. ويعذب أهل النفاق المنتقدين على أولياء اللّه ، المتوجهين إليه ، الظانين باللّه ظن السوء ، وهو أن خصوصية التربية انقطعت. وللّه جنود السموات والأرض ، أي : جنود الحجاب ، وهو جند النّفس ، من الهوى والشيطان ، والدنيا والنّاس ، يسلطها على من يشاء من عباده ، إن يبقى فى ظلمة الحجاب ، واللّه غالب على أمره.

ثم شهد لرسوله بالرسالة ، بعد بشارته بالفتح والعصمة ، فقال :

[سورة الفتح (٤٨) : الآيات ٨ الى ١٠]

إِنَّا أَرْسَلْناكَ شاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً (٨) لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً (٩) إِنَّ الَّذِينَ يُبايِعُونَكَ إِنَّما يُبايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّما يَنْكُثُ عَلى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفى بِما عاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً (١٠)

يقول الحق جل جلاله : إِنَّا أَرْسَلْناكَ شاهِداً تشهد على أمتك يوم القيامة ، كقوله : وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً «١» وهو حال مقدّرة ، وَمُبَشِّراً لأهل الطاعة بالجنة ، وَنَذِيراً لأهل المعصية بالنار ، لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ، والخطاب للرسول والأمة ، وَتُعَزِّرُوهُ تقوّوه بنصر دينه ، وَتُوَقِّرُوهُ أي : تعظّموه بتعظيم رسوله وسائر حرماته ، وَتُسَبِّحُوهُ تنزهوه ، أو تصلوا له ، من : السبحة ، بُكْرَةً وَأَصِيلًا

غدوة وعشية ، قيل : غدوة : صلاة الفجر ، وعشية : الظهر والعصر والمغرب والعشاء. والضمائر للّه تعالى. ومن فرّق فجعل الأولين للنبى صلّى اللّه عليه وسلم والأخير للّه تعالى ، فقد أبعد. وقرأ المكي والبصري بالغيب فى الأربعة ، والضمائر للناس ، وقرأ ابن السميفع «٢» : «وتعززوه» بزائين «٣» ، أي : تنصروه وتعزوا دينه.

---

(١) من الآية ١٤٣ من سورة البقرة. [.....]

(٢) فى الأصول : «السميقع».

(٣) وهى قراءة شاذة. انظر المحتسب ٢/ ٢٧٥.

إِنَّ الَّذِينَ يُبايِعُونَكَ على الجهاد ، بيعة الرّضوان إِنَّما يُبايِعُونَ اللَّهَ لأنه خليفة عنه ، فعقد البيعة معه صلى اللّه عليه وسلم كعقدها مع اللّه من غير تفاوت بينهما ، كقوله : مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطاعَ اللَّهَ «١» ثم أكد ذلك بقوله : يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ يعنى : أن يد رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم الذي تعلو أيدى المبايعين هى يد اللّه ، من باب مبالغة التشبيه ، فَمَنْ نَكَثَ نقض البيعة ، ولم يف بها فَإِنَّما يَنْكُثُ عَلى نَفْسِهِ فلا يعود ضرر نكثه إلا عليه ، قال جابر رضي اللّه عنه : «بايعنا رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم تحت الشجرة على الموت ، وعلى ألّا نفرّ ، فما نكث أحد منا البيعة ، إلا جدّ بن قيس المنافق ، اختبأ تحت إبط بعيره ، ولم يسر مع القوم «٢». وَمَنْ أَوْفى بِما عاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ ، يقال : وفيت بالعهد وأوفيت. وقرأ حفص بضم الهاء من «عليه» توسلا لتفخيم لام الجلالة ، وقيل : هو الأصل ، وإنما كسر لمناسبة الياء. أي : ومن وفّى بعهده بالبيعة فَسَيُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً الجنة وما فيها.

الإشارة : لكلّ جيل من النّاس يبعث اللّه من يذكّرهم ، ويدعوهم إلى اللّه ، بمعرفته ، أو بإقامة دينه ، ليدوم الإيمان باللّه ورسوله ، ويحصل النّصر والتعظيم للدين إلى يوم الدين ، ولولا هؤلاء الخلفاء لضاع الدين. وقوله تعالى : إِنَّ الَّذِينَ يُبايِعُونَكَ الآية ، قال الورتجبي : ثم صرّح بأنه عليه السّلام مرآة لظهور ذاته وصفاته ، وهو مقام الاتصاف بأنوار الذات والصفات فى نور الفعل ، فصار هو هو ، إذ غاب الفعل فى الصفة ، وغابت الصفة فى الذات.

فقال : إِنَّ الَّذِينَ يُبايِعُونَكَ ... الآية. وإلى ذلك يشير الحلّاج وغيره. وقال فى القوت : هذه أمدح آية فى كتاب اللّه عز وجل ، وأبلغ فضيلة فيه لرسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم لأنه جعله فى اللفظ بدلا عنه ، وفى الحكم مقامه ، ولم يدخل فيه كاف التشبيه ، فيقول : كأنما ، ولا لام الملك ، فيقول : للّه ،

وليس هذا من الرّبوبية للخلق سوى رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم. هـ.

وقال الحسن بن منصور الحلاج : لم يظهر الحق تعالى مقام الجمع على أحد بالتصريح إلا على أخص نسمه وأشرفه ، فقال : إِنَّ الَّذِينَ يُبايِعُونَكَ إِنَّما يُبايِعُونَ اللَّهَ. هـ.

قال القشيري : وفى هذه الآية تصريح بعين الجمع ، كما قال : وَما رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ «٣» وقال فى مختصره :

يشير إلى كمال فنائه وجوده عليه السّلام فى اللّه وبقائه باللّه. هـ. فالآية تشير إلى مقام الجمع ، المنبه عليه فى الحديث :

«فإذا أحببته كنت سمعه ، وبصره ، ويده» «٤» وسائر قواه ، الذي هو سر الخلافة والبقاء باللّه ، وهذا الأمر حاصل

---

(١) من الآية ٨٠ من سورة النّساء.

(٢) أخرجه مسلم فى (الإمارة ، باب استحباب مبايعة الإمام الجيش عند إرادة القتال ، رقم ١٨٥٦ ، ح ٦٨ ، ٦٩).

(٣) من الآية ١٧ من سورة الأنفال.

(٤) سبق تخريج الحديث.

لخلفائه صلّى اللّه عليه وسلم من العارفين باللّه ، أهل الفناء والبقاء ، وهم أهل التربية النّبوية فى كلّ زمان ، فمن بايعهم فقد بايع اللّه ، ومن نظر إليهم فقد نظر إلى اللّه ، فمن نكث العهد بعد عقده معهم فإنما ينكثه على نفسه ، فتيبس شجرة إرادته ، ويطمس نور بصيرته ، فيرجع إلى مقام عامة أهل اليمين ومن أوفى بما عاهد عليه اللّه فسيؤتيه أجرا عظيما شهود ذاته المقدسة على الدوام ، والظفر بمقام المقربين ، ثبتنا اللّه على منهاجه القويم ، من غير انتكاص ولا رجوع ، آمين.

ثم ذكر من تخلّف عن البيعة ، فقال :

[سورة الفتح (٤٨) : الآيات ١١ الى ١٤]

سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرابِ شَغَلَتْنا أَمْوالُنا وَأَهْلُونا فَاسْتَغْفِرْ لَنا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ ما لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً إِنْ أَرادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرادَ بِكُمْ نَفْعاً بَلْ كانَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيراً (١١) بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلى أَهْلِيهِمْ أَبَداً وَزُيِّنَ ذلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ

ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنْتُمْ قَوْماً بُوراً (١٢) وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنا لِلْكافِرِينَ سَعِيراً (١٣) وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشاءُ وَكانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً (١٤)

يقول الحق جل جلاله : سَيَقُولُ لَكَ يا محمد إذا رجعت من الحديبية الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرابِ وهم الذين تخلفوا عن الحديبية ، وهم أعراب غفار ، ومزينة ، وجهينة ، وأسلم ، وأشجع ، والديل ، وذلك أنه صلّى اللّه عليه وسلم حين أراد المسير إلى مكة ، عام الحديبية ، معتمرا ، استنفر من حول المدينة من الأعراب وأهل البوادي ، ليخرجوا معه ، حذرا من قريش أن يعرضوا له بحرب ، أو يصدوه عن البيت ، وأحرم صلّى اللّه عليه وسلم وساق معه الهدى ليعلم أنه لا يريد حربا ، فتثاقل كثير من الأعراب ، وقالوا : نذهب إلى قوم غزوه فى داره بالمدينة ، وقتلوا أصحابه ، فنقاتلهم ، وظنوا أنه لا ينقلب إلى المدينة ، فأوحى اللّه تعالى إليه ما قالوا «١» ، حيث تعللوا وقالوا : شَغَلَتْنا أَمْوالُنا وَأَهْلُونا

---

(١) انظر تفسير البغوي (٧/ ٣٠٠).

ولم يكن تخلفنا عنك اختيارا ، بل عن اضطرار ، فَاسْتَغْفِرْ لَنا ، فأكذبهم اللّه بقوله : يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ ما لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ، فليس تخلفهم لأجل ذلك ، وإنما تخلفوا شكا ونفاقا ، وطلبهم الاستغفار أيضا ليس بصادر عن حقيقة.

قُلْ لهم : فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً فمن يمنعكم من مشيئة اللّه وقضائه إِنْ أَرادَ بِكُمْ ضَرًّا أي : ما يضركم من هلاك الأهل والمال وضياعها ، حتى تخلفتم عن الخروج لحفظها ، أَوْ أَرادَ بِكُمْ نَفْعاً أي : من يقدر على ضرركم إن أراد بكم نزول ما ينفعكم ، من حفظ أموالكم وأهليكم ، فأىّ حاجة إلى التخلف لأجل القيام بحفظهما والأمر كله بيد اللّه؟ بَلْ كانَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيراً ، إضراب عما قالوه ، وبيان لكذبه بعد بيان فساده على تقدير صدقه ، أي : ليس الأمر كما يقولون ، بل كان اللّه خبيرا بجميع الأعمال ، التي من جملتها تخلفكم وما هو سببه ، فلا ينفعكم الكذب مع علم اللّه بجميع أسراركم.

بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلى أَهْلِيهِمْ أَبَداً بأن يستأصلهم المشركون بالموت ، فخشيتم إن كنتم معهم أن يصيبكم ذلك ، فتخلفتم لأجل ذلك ، لا لما ذكرتم من المعاذير الباطلة ، وَزُيِّنَ ذلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ زيّنه الشيطان وقبلتموه ، واشتغلتم بشأن أنفسكم ، غير مبالين بهم ، وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ ، والمراد به الظن الأول ، والتكرير لتشديد التوبيخ والتسجيل عليه بالسوء ، أو ما يعمه وغيره من الظنون

الفاسدة ، كعلو الكفر ، وظهور الفساد ، وعدم صحة رسالته صلّى اللّه عليه وسلم ، فإن الجازم بصحتها لا يحول حول فكره هذه الظنون الباطلة ، وَكُنْتُمْ قَوْماً بُوراً هالكين عند اللّه ، مستوجبين لسخطه وعقابه ، جمع : بائر ، كعائذ وعوذ ، من بار الشيء : هلك وفسد ، أي : كنتم قوما فاسدين فى أنفسكم وقلوبكم ونيّاتكم.

وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنا أعددنا لِلْكافِرِينَ أي : لهم ، فأقيم الظاهر مقام المضمر للإيذان بأن من لم يجمع بين الإيمان باللّه وبرسوله فهو كافر مستوجب السعير. ونكّر سَعِيراً لأنها نار مخصوصة ، كما نكّر ناراً تَلَظَّى «١». وهذا كلام وارد من قبله تعالى ، غير داخل فى الكلام المتقدم ، مقرر لبوارهم ، ومبيّن لكيفيته ، أي : ومن لم يؤمن كهؤلاء المتخلفين ، فإنا أعتدنا له سعيرا يحترق بها.

وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ يدبره تدبير قادر حكيم ، ويتصرف فيهما وفيما بينهما كيف يشاء ، يَغْفِرُ لِمَنْ يَشاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشاءُ بقدرته وحكمته ، من غير دخل لأحد فى شيء ، ومن حكمته : مغفرته

---

(١) الآية ١٤ من سورة الليل.

للمؤمنين وتعذيبه للكافرين. وَكانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً ، مبالغا فى المغفرة والرّحمة لمن يشاء ، أي : لمن تقتضى الحكمة مغفرته ممن يؤمن به وبرسوله ، وأما من عداه من الكفر فبمعزل من ذلك قطعا.

الإشارة : هذه الآية تجر ذيلها على من تخلف من المريدين عن زيارة المشايخ من غير عذر بيّن ، واعتذر بأعذار كاذبة ، يقول بلسانه ما ليس فى قلبه ، وما زالت الأشياخ تقول : كل شيء يسمح فيه إلا القدوم «١» إذ به تحصل التربية والترقية ، وتقول أيضا : من جلس عنا لعذر صحيح عذرناه ، وربما يصل إليه المدد فى موضعه ، ومن جلس لغير عذر لا نسامح له ، بل يحرم من زيادة الإمداد ، ومن الترقي فى المقامات والأسرار ، وما قطع الناس عن اللّه إلا أموالهم وأهلوهم اشتغلوا بهم ، وحرموا السير والوصول ، ف كل مريد شغله عن زيارة شيخه أهله وماله لا يأتى منه شيء. قل : فمن يملك لكم من اللّه شيئا إن أراد بكم ضرا ، بأن قطعكم عنه بعلة الأهل والمال ، أو :

أراد بكم نفعا ، بأن وصلكم إليه ، وغيّب عنكم أهلكم ومالكم ، بل كان اللّه بما تعملون خبيرا ، يعلم من تحلف لعذر صحيح ، أو لعذر باطل. وباللّه التوفيق.

ثم قال :

[سورة الفتح (٤٨) : الآيات ١٥ الى ١٦]

سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلى مَغانِمَ لِتَأْخُذُوها ذَرُونا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلامَ اللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونا كَذلِكُمْ قالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنا بَلْ كانُوا لا يَفْقَهُونَ إِلاَّ قَلِيلاً (١٥) قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرابِ سَتُدْعَوْنَ إِلى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْراً حَسَناً وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَما تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذاباً أَلِيماً (١٦)

يقول الحق جل جلاله : سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ المذكورون آنفا إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلى مَغانِمَ أي : مغانم خيبر تَأْخُذُونَها حسبما وعدكم اللّه بها ، وخصّكم بها ، عوض ما فاتكم من مغانم مكة. و(إذا) : ظرف لما قبله ، لا شرط لما بعده ، أي : سيقولون عند انطلاقكم إلى مغانم خيبر : ذَرُونا نَتَّبِعْكُمْ إلى خيبر ، ونشهد معكم قتال أهلها يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلامَ اللَّهِ الذي وعد به أهل الحديبية بأن يخصّهم بغنائم خيبر ولا يشاركهم فيها أحد ، فأراد المخلّفون أن يشاركوهم ويبدلوا وعد اللّه. وكانت وقعة الحديبية فى ذى الحجة سنة ست ، فلما رجع إلى

---

(١) أي : القدوم على مشايخ التربية وزيارتهم.

المدينة أقام بها بقية ذى الحجة ، ثم غزا فى أول السابعة خيبر ، ففتحها ، وغنم أموالا كثيرة ، فخصصها بأهل الحديبية ، بأمره تعالى ، قُلْ لهم إقناطا لهم : لَنْ تَتَّبِعُونا إلى خيبر ، وهو نفى بمعنى النّهى ، للمبالغة ، أي :

لا تتبعونا ، أو : نفى محض ، إخبار من اللّه تعالى بعدم اتباعهم وألا يبدّل القول لديه.

كَذلِكُمْ قالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ أي : من قبل انصرافهم إلى الغنيمة ، وأنّ غنيمة خيبر لمن شهد الحديبية فقط ، فَسَيَقُولُونَ للمؤمنين عند سماع هذا النّهى : بَلْ تَحْسُدُونَنا أي : ليس ذلك النّهى من عند اللّه ، بل تحسدوننا أن نشارككم فى الغنائم ، بَلْ كانُوا لا يَفْقَهُونَ كلام اللّه إِلَّا قَلِيلًا شيئا قليلا ، يعنى : مجرد اللفظ ، أو : لا يفهمون إلا فهما قليلا وهو فطنتهم لأمور الدنيا دون الدين ، وهو ردّ لقولهم الباطل ، ووصف لهم بسوء الفهم والجهل المفرط. والفرق بين الإضرابين : أن الأول ردّ أنّ يكون حكم اللّه ألا يتبعوهم وإثبات الحسد ، والثاني إضراب عن وصفهم بإضافة الحسد إلى المؤمنين إلى وصفهم بما هو أعظم منه ، وهو الجهل وقلة الفقه.

قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرابِ وهم الذين تخلفوا عن الحديبية : سَتُدْعَوْنَ إِلى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ يعنى : بنى حنيفة ، قوم مسيلمة الكذاب ، وأهل الرّدة الذين حاربهم أبو بكر رضي اللّه عنه ، لأن المشركين

وأهل الرّدة هم الذين لا يقبل منهم إلا الإسلام أو السيف. واستدل بالآية على حقيّة خلافة أبى بكر ، وأخذها من القرآن بقوله :

سَتُدْعَوْنَ فكان الداعي لهؤلاء الأعراب إلى قتال بنى حنيفة ، وكانوا أولى بأس شديد ، هو أبو بكر ، بلا خلاف ، قاتلوهم ليسلموا لا ليعطوا الجزية بأمر الصدّيق. وقيل : هم فارس ، والداعي لقتالهم «عمر» ، فدلت على صحة إمامته ، وهو يدل على صحة إمامة أبى بكر. تُقاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ أي : يكون أحد الأمرين ، إما المقاتلة أو الإسلام ، ومعنى «يسلمون» على هذا التأويل : ينقادون لأن فارس مجوس ، تقبل منهم الجزية ، فَإِنْ تُطِيعُوا من دعاكم إلى قتالهم يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْراً حَسَناً هو الغنيمة فى الدنيا ، والجنة فى الآخرة ، وَإِنْ تَتَوَلَّوْا عن الدعوة ، كما توليتم من قبل فى الحديبية ، يُعَذِّبْكُمْ عَذاباً أَلِيماً لتضاعف جرمكم. وقد تضمنت الآية إيجاب طاعة الأمراء بالوعد بالثواب عليها ، والوعيد بالعقاب على التولي ، وقد تقدم فى النّساء «١».

الإشارة : سيقول المخلفون عن السير بترك مجاهدة النّفوس ، التي بها يتحقق سير السائرين : ذرونا نتبعكم فى السير إلى اللّه من غير مجاهدة ولا تجريد ، يريدون أن يبدلوا كلام اللّه ، وهو قوله : وَالَّذِينَ جاهَدُوا فِينا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنا «٢» ، فخص الهداية إلى الوصول بالمجاهدة ، لا بالبقاء مع حظوظ النّفوس ، قل : لن تتبعونا فى

---

(١) راجع تفسير الآية ٥٩ من سورة النّساء ، (١/ ٥١٩).

(٢) الآية ٦٩ من سورة العنكبوت.

السير ، ولو فعلتم ما فعلتم بلا مجاهدة ، كذلك حكم الحكيم العليم ، فإن قالوا : حسدتمونا ، حيث لم تسيرونا على ما نحن عليه ، فقد دلّ ذلك على جهلهم ، وعدم فهمهم ، قل للمخلفين على السير ، بالبقاء مع حظوظهم : ستدعون إلى مجاهدة قوم أولى بأس شديد ، وهو النّفس ، بتحميلها ما يثقل عليها ، كالذل ، والفقر ، والهوى بمخالفته ، والدنيا بالزهد فيها ورميها وراء الظهر ، والنّاس بالفرار منهم جملة ، إلا من يدلّ على اللّه ، تقاتلوهم ، أو يسلمون ، بأن ينقادوا لكم ، ويصيروا طوع أيديكم ، فإن تطيعوا يؤتكم اللّه أجرا حسنا ، وهو لذة الشهوة ، ورؤية الملك الودود ، عاجلا وآجلا ، وإن تتولوا كما توليتم فى زمان البطالة ، وبقيتم مع هوى نفوسكم ، يعذّبكم عذابا أليما ، بغم الحجاب وسوء العقاب.

قال القشيري : قوله تعالى : فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْراً حَسَناً دلت الآية على أنه يجوز أن تكون للعبد بداية غير مرضية ، ثم تتغير للصلاح ، وأنشدوا :

إذا فسد الإنسان بعد صلاحه فرجّ له بعد الفساد صلاحا «١»

قلت : وجه الاستدلال : أن طاعتهم كانت بعد التخلف والعصيان ، فقبلت منهم.

ثم استثنى أهل الأعذار الصحيحة ، فقال :

[سورة الفتح (٤٨) : آية ١٧]

لَيْسَ عَلَى الْأَعْمى حَرَجٌ وَلا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذاباً أَلِيماً (١٧)

يقول الحق جل جلاله : لَيْسَ عَلَى الْأَعْمى حَرَجٌ فى التخلف عن الغزو وَلا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ ، وَلا عَلَى الْمَرِيضِ الذي لا يقدر على الحرب حَرَجٌ لأن الجهاد منوط بالاستطاعة ونفى الحرج ، وهؤلاء أعذارهم ظاهرة صحيحة ، فلا حرج عليهم فى التخلف. وفى التصريح بنفي الحرج مع كلّ طائفة مزيد اعتناء بأمرهم ، وتوسيع لدائرة الرّخصة. وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فيما ذكر من الأوامر والنّواهى ، يُدْخِلْهُ «٢» جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ. وَمَنْ يَتَوَلَّ يعرض عن الطاعة يُعَذِّبْهُ عَذاباً أَلِيماً لا يقادر قدره. وقرأ نافع والشامي بنون العظمة ، والباقي بياء الغيبة.

---

(١) فى القشيري [فرجّ له عود الصلاح لعلّه].

(٢) أثبت المفسر – رحمه اللّه – قراءة «ندخله» و«نعذبه» بنون العظمة ، وهى قراءة نافع ، وابن عامر ، وأبى جعفر ، وقرأ الباقون «يدخله» و«يعذبه» بالياء. انظر الإتحاف (٢/ ٤٨٢).

الإشارة : أصحاب هذه الأعذار إن صحبوا الرّجال ، وحطوا رؤوسهم لهم ، وبذلوا نفوسهم وفلوسهم ، سقط عنهم السفر إلى صحبة أشياخهم ، ووصلت الواردات والأمداد إليهم فى أماكنهم ، ونالوا مراتب الرّجال ، حيث حبسهم العذر من العمى والعرج والمرض المزمن ، واللّه يرزق العبد على قدر نيته وهمته.

ثم ذكر شأن بيعة الرّضوان ، فقال :

[سورة الفتح (٤٨) : الآيات ١٨ الى ٢١]

لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ ما فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ

وَأَثابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً (١٨) وَمَغانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَها وَكانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً (١٩) وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَها فَعَجَّلَ لَكُمْ هذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِراطاً مُسْتَقِيماً (٢٠) وَأُخْرى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْها قَدْ أَحاطَ اللَّهُ بِها وَكانَ اللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً (٢١)

يقول الحق جل جلاله : لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ ، وهم الذين ذكر شأن مبايعتهم بقوله : إِنَّ الَّذِينَ يُبايِعُونَكَ ... الآية ، وبهذه الآية سميت بيعة الرّضوان ، و«إذ» منصوب ب «رضى» ، وصيغة المضارع لاستحضار الصورة العجيبة ، و(تحت الشجرة) : متعلق به ، أو : بمحذوف ، حال من مفعوله ، أي : رضى عنهم وقت مبايعتهم لك تَحْتَ الشَّجَرَةِ أو : حاصلا تحتها.

روى : أنه صلّى اللّه عليه وسلم ، لمّا نزل الحديبية ، بعث خراش بن أمية الخزاعي ، رسولا إلى أهل مكة ، فهمّوا به ، وأنزلوه عن بعيره ، فمنعته الأحابيش ، فلما رجع دعا بعمر ليبعثه ، فقال : يا رسول اللّه إنى أخاف قريشا على نفسى ، وليس بمكة من بنى عدى أحد يمنعنى ، ولكن عثمان أعز بمكة منى ، فبعث عثمان إلى أبى سفيان وأشراف قريش ، يخبرهم أنه صلّى اللّه عليه وسلم جاء زائرا إلى البيت ، معظّما لحرمته ، ولم يرد حربا ، فوقروه ، وقالوا : إن شئت أن تطوف بالبيت فافعل ، فقال : ما كنت لأطوف قبل أن يطوف رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم ، فاحتبس عندهم ، فأرّجف بأنهم قتلوه ، فقال صلى اللّه عليه وسلم : «لا نبرح حتى نناجز القوم» ودعا النّاس إلى البيعة ، فبايعوه تحت الشجرة – وكانت سمرة «١» وقيل : سدرة – على أن يقاتلوا قريشا ، ولا يفروا ، «٢» وأول من بايع «أبو سنان الأسدى» ، واسمه : وهب بن عبد اللّه بن محصن ، ابن

---

(١) السمرة : واحده السّمر ، كرجل : شجرة الطلح. انظر النّهاية (سمر ٢/ ٣٩٩). [.....]

(٢) أخرجه البخاري فى (الجهاد والسبر باب البيعة فى الحرب أن لا يفروا ح ٢٩٥٨) عن عبد اللّه بن عمر رضي اللّه عنه ، وأخرجه مسلم فى (الإمارة ، باب استحباب مبايعة الإمام الجيش عند إرادة القتال ح ١٨٥٦) من حديث جابر بن عبد اللّه رضي اللّه عنه.

أخى عكاشة بن محصن. وقيل : بايعوه على الموت عنده «١» ، فقال لهم رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم : «أنتم اليوم خير أهل الأرض» «٢» وقال أيضا : «لا يدخل النّار أحد ممن بايع تحت الشجرة» «٣». وكانوا ألفا وخمسمائة وخمسة وعشرين ، وقيل : ألفا وأربعمائة. والحديبية بتخفيف الياء ، قاله فى المصباح ، وهى على عشرة أميال من مكة.

فَعَلِمَ ما فِي قُلُوبِهِمْ من الإخلاص ، وصدق الضمائر فيما بايعوا عليه. وقال القشيري : علم ما فى قلوبهم من الاضطراب والتشكيك. وذلك أنه صلّى اللّه عليه وسلم رأى فى منامه أنهم يدخلون المسجد الحرام آمنين ، فبشّر أصحابه ، فلما صدوا خامر قلوبهم شك «٤» ، فَأَنْزَلَ اللّه السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ أي : اليقين والطمأنينة ، فذهب عنهم. ثم قال :

وفى الآية دليل على أنه قد يخطر ببال الإنسان خواطر مشكّكة ، وفى الرّيب موقعة ، ثم لا عبرة ، فإن اللّه تعالى إذا أراد بعبده خيرا ألزم التوحيد قلبه ، وقارن التحقيق سرّه ، فلا يضرّه كيد الشيطان. قال تعالى : إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا ... الآية «٥».

فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ أي : الطمأنينة والأمن ، وسكون النّفس ، بالربط على قلوبهم ، وَأَثابَهُمْ أي : جازاهم فَتْحاً قَرِيباً وهو فتح خيبر عقب انصرافهم من الحديبية كما تقدم. وَمَغانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَها وهى مغانم خيبر ، وكانت أرضا ذات عقار وأموال ، فقسمها بينهم ، وَكانَ اللَّهُ عَزِيزاً منيعا فلا يغالب ، حَكِيماً فيما يحكم به فلا يعارض.

---

(١) أخرجه البخاري فى (المغازي ، باب غزوة الحديبية ح ٤١٦٩) ومسلم فى (الإمارة باب البيعة فى الحرب أن لا يفروا ح ١٨٦٠) عن سلمة بن الأكوع.

وقد بيّن العلماء أنه لا تنافى بين من قال : إنهم بايعوا النّبى صلّى اللّه عليه وسلم يومئذ على الموت ، وبين من قال : إنهم بايعوه على عدم الفرار.

قال الحافظ ابن حجر فى الفتح (٧/ ٥١٥ : فحاصل الجمع أنّ من أطلق أن البيعة كانت على الموت أراد لازمها ، لأنه إذا بايع أنه لا يفر لزم من ذلك أن يثبت ، والذي يثبت إما أن يغلب وإما أن يؤسر ، والذي يؤسر إما أن ينجو وإما أن يموت ، ولمّا كان الموت لا يؤمن فى مثل ذلك أطلقه الرّاوى.

وحاصله : أن أحدهما حكى صورة البيعة ، والآخر حكى ما تئول إليه ، وجمع الترمذي بأن بعضا بايع على الموت ، وبعضا بايع على أن لا يفر. هـ.

(٢) أخرجه البخاري فى (المغازي ، باب غزوة الحديبية ، ح ٤١٥٤) ومسلم فى (الإمارة ، باب استحباب مبايعة الإمام الجيش عند إرادة القتال ، رقم ١٨٥٦ ، ح ٧١) من حديث جابر عبد اللّه رضي اللّه عنه.

(٣) أخرجه أحمد فى المسند (٣/ ٣٥٠). وأبو داود فى (السنة ، باب فى الخلفاء ح ٤٦٥٣) والترمذي فى (المناقب ، باب ما جاء فى فضل من بايع تحت الشجرة ح ٣٨٦٠) وقال : حديث حسن صحيح.

وأخرج مسلم فى (فضائل الصحابة باب من فضائل أصحاب الشجرة ح ٢٤٩٦) من حديث جابر ، عن أم مبشّر ، أنها سمعت النبي صلّى اللّه عليه وسلم يقول عند حفصة : «لا يدخل النّار – إن شاء اللّه – من أصحاب الشجرة أحد ، الذين بايعوه تحتها».

(٤) فى القشيري : شيء.
(٥) الآية ٢٠١ من سورة الأعراف.

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٣٩٧
وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَها هو ما فتح على المؤمنين ، وغنموه مع النّبى صلّى اللّه عليه وسلم وبعده إلى يوم القيامة. والالتفات إلى الخطاب لتشريفهم فى مقام الامتنان. فَعَجَّلَ لَكُمْ هذِهِ المغانم ، يعنى مغانم خيبر ، وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ أي : أيدى أهل خيبر وحلفاءهم من أسد وغطفان حين جاءوا لنصرتهم ، فقذف اللّه فى قلوبهم الرّعب فانصرفوا ، وقيل : أيدى أهل مكة بالصلح ، وَلِتَكُونَ هذه الكفّة آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وعبرة يعرفون أنهم من اللّه بمكان ، وأنه ضامن لنصرتهم والفتح عليهم ، أو : لتكون آية يعرفون بها صدق الرّسول صلّى اللّه عليه وسلم من وعده إياهم عند رجوعه من الحديبية بما ذكر من المغانم ، ودخول مكة ، ودخول المسجد الحرام آمنين. واللام إما متعلقة بمحذوف مؤخر ، أي : وليكون آية لهم فعل ما فعل من التعجيل والكف ، وإما يتعلق بعلة أخرى محذوفة من أحد الفعلين ، أي : فعجّل لكم هذه وكفّ أيدى النّاس عنكم لتغنموها ولتكون ... إلخ ، وَيَهْدِيَكُمْ صِراطاً مُسْتَقِيماً أي : يزيدكم بصيرة ويقينا وثقة بوعد اللّه حتى تثقوا فى أموركم كلها بوعد اللّه تعالى.
قال الثعلبي ، ولمّا فتح النّبىّ صلّى اللّه عليه وسلم حصون خيبر سمع أهل فدك ما صنع – عليه السلام – بأهل خيبر ، فأرسلوا له يسألونه أن يسيرهم ويحقن دماءهم ، ويخلوا له الأموال ، ففعل ، ثم صالح أهل خيبر ، على أن يعملوا فى أموالهم على النصف ، على أنه إن شاء أجلاهم متى شاء «١» ، ففعلوا ، فكانت خيبر فيئا للمسلمين ، وكانت فدك خالصة له صلّى اللّه عليه وسلم ، إذ لم يوجف عليها بخيل ولا ركاب ، ولما اطمأن صلّى اللّه عليه وسلم بعد فتح خيبر أهدت له زينب الحارث اليهودية شاة مصليّة مسمومة ، أكثرت فى ذراعها السم ، فأخذ صلّى اللّه عليه وسلم الذراع ، فأكل منه ، ثم كلمه ، فأمسك ، وأكل معه بشر بن البراء بن معرور ، فمات من ساعته ، وسلم صلّى اللّه عليه وسلم حتى قام عليه بعد سنتين ، فمات به ، فجمع له بين الشهادة والنّبوة «٢».
ثم قال تعالى : وَأُخْرى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْها أي : وعجّل لكم مغانم أخرى ، وهى مغانم هوازن فى غزوة حنين. ووصفها بعدم القدرة عليها لما كان فيها من الجولة. قَدْ أَحاطَ اللَّهُ بِها قدر عليها واستولى ، وأظهركم عليها ، وهى صفة أخرى ل «أخرى» مفيدة لسهولة بأسها بالنسبة إلى قدرته تعالى ، بعد بيان صعوبة منالها بالنظر إلى حذرهم. ويجوز فى «أخرى» النصب بفعل مضمر ، يفسره قَدْ أَحاطَ اللَّهُ بِها ، أي : وقضى اللّه أخرى ، ولا ريب فى أن الإخبار بقضاء إياها بعد اندراجها فى جملة الغنائم الموعودة

بقوله : وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغانِمَ كَثِيرَةً فيه مزيد فائدة ، وإنما الفائدة فى بيان تعجيلها وتأخير هذه.

---

(١) حديث مصالحة النّبى صلّى اللّه عليه وسلم لأهل خيبر ، أخرجه البخاري فى (فرض الخمس ، باب ما كان النّبى ، صلى اللّه عليه وسلم يعطى المؤلفة قلوبهم وغيرهم من الخمس ونحوه ح ٣١٥٢) ومسلم فى (المساقاة ، باب المساقاة والمعاملة بجزء من الثمر والزرع ، ح ١٥٥١) عن ابن عمر رضي اللّه عنه.

(٢) انظر سيرة ابن هشام (٢/ ٣٣٧ - ٣٣٨) وتفسير البغوي (٧/ ٣١١). وحديث أكلة خيبر أخرجه البخاري فى (الهبة ، باب قبول الهدية من المشركين ، ح ٢٦١٧) ومسلم فى (السّلام ، باب السم ، ح ٢١٩٠) عن أنس رضي اللّه عنه.

(٣٩٧/٥)

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٣٩٨

وقال ابن عباس والحسن ومقاتل : وَأُخْرى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْها هى فارس والرّوم. وقال مجاهد : ما فتحوا حتى اليوم «١». هـ. قلت : بل إلى يوم القيامة وهذا أظهر الأقوال. أي : لم تقدروا على أخذها الآن وستأخذونها ، وَكانَ اللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً لأن قدرته تعالى عامة التعلق ، لا تختص بشيء دون شيء. قال ابن عرفة : مذهبنا أن المستحيل لا يصدق عليه شيء ، فيبقى النّظر : هل يطلق على الواجب شيء ، لقوله تعالى : قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهادَةً قُلِ اللَّهُ «٢» أم لا يطلق عليه شى ء؟ فإن قلنا : يصلح الإطلاق وجب التخصيص فى الآية ، فيكون عاما مخصوصا ، وإن قلنا بعدم صحته ، فيبقى النّظر : هل المراد بالقدرة الإحداث أو الصلاحية ، فإن أريد الإحداث فهى مخصوصة ، وإن أريد الصلاحية فهو عام غير مخصوص. هـ.

الإشارة : مشايخ التربية خلفاء الرّسول صلّى اللّه عليه وسلم فحين بايعهم على عقد الإرادة فكأنما بايع الرّسول ، فيقال على طريق الإشارة : لقد رضي اللّه عن المؤمنين المتوجهين ، إذ يبايعونك أيها العارف تحت الشجرة ، تحت ظل شجرة همتك ، فعلم ما فى قلوبهم من الصدق ، فأنزل السكينة عليهم ، حتى سكنوا تحت مشاق التربية والرّياضة ، وأثابهم فتحا قريبا ، وهو الوصول إلى حضرة العيان ، ومغانم كثيرة فتوحات ومكاشفات ، وأسرار ، وترقيات كثيرة ، إلى ما لا نهاية له ، يأخذونها. ووعدكم اللّه مغانم كثيرة تأخذونها بعد الفتح ، من الرّجوع إلى البقاء وبقاء البقاء ، والتوسع فى المقامات ، والترقي فى معارج المكاشفات ، فعجّل لكم هذه ، هو مقام الفناء ، وكفّ أيدى القواطع عنكم ، لتتوجهوا إلى مولاكم ، لتكون عبرة للمؤمنين المتخلفين عن السير ، يهتدون بهديكم ، ويهديكم صراطا مستقيما :

طريق الوصول إلى حضرة القدس ، ومحل الأنس ، وأخرى لم تقدروا عليها فى الدنيا ، ادخرها لكم يوم القيامة ، هو المقام فى مقعد صدق عند مليك مقتدر.

وقال الورتجبي : لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ أي : رضى عنهم فى الأزل ، وسابق علم القدم ، ويبقى رضاه إلى الأبد لأن رضاه صفة الأزلية الباقية الأبدية ، لا تتغير بتغير الحدثان ، ولا بالوقت والزمان ، ولا بالطاعة والعصيان ، فإذا هم فى اصطفائيته باقون إلى الأبد ، لا يسقطون من درجاتهم بالزلات ولا بالبشرية ، ولا بالشهوات ، لأن أهل الرّضا محروسون برعايته ، لا تجرى عليهم نعوت أهل البعد ، وصاروا متصفين بوصف رضاه ، فرضوا عنه كما رضى عنهم ، قال تعالى : رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ «٣» ، وهذا بعد قذف نور الأنس فى قلوبهم بقوله : فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ فسكنت قلوبهم إليه ، واطمأنت به لتنزّل اليقين. هـ.

---

(١) ذكره البغوي فى تفسيره (٧/ ٣١٢).

(٢) من الآية ١٩ من سورة الأنعام.

(٣) من الآية ١١٩ من سورة المائدة.

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٣٩٩

قلت : هذا لمن تحققت محبوبيته ممن رسخت قدمه فى شهود الحق ، واطمأن به ، وأما قبل هذا فالأمر مبهم.

قال اللجائى ، فى كتابه «قطب العارفين» : وإياك أن تعتقد أنّ فى النّاس شرا منك ، وإن كان عاصيا وأنت مطيع ، فإنّ الأمر يحدث بعد الأمر ، وسر اللّه تعالى فى خلقه غامض ، لا يدرى من يبوء بالشقاوة ، ولا من يفوز بالسعادة ، وقد يتلقى العبد رضا اللّه تعالى بحسنة واحدة ، ويتلقى سخطه بذنب واحد ، فإنّ أمر اللّه خفى فى غموض المشيئة ... إلخ.

ثم بشّرهم بالنصر ، فقال :

[سورة الفتح (٤٨) : الآيات ٢٢ الى ٢٤]

وَلَوْ قاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبارَ ثُمَّ لا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلا نَصِيراً (٢٢) سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً (٢٣) وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكانَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيراً (٢٤)

يقول الحق جل جلاله : وَلَوْ قاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا من أهل مكة ولم يصالحوا ، أو من خلفاء خيبر ،

الذين جاءوا لنصرهم لَوَلَّوُا الْأَدْبارَ منهزمين ثُمَّ لا يَجِدُونَ وَلِيًّا يلى أمرهم ، وَلا نَصِيراً ينصرهم. سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ : مصدر مؤكد ، أي : سنّ اللّه غلبة أنبيائه سنة ماضية ، وهو قوله : لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي «١» وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا تغيرا.

وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ أي : أيدى كفار أهل مكة وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ عن أهل مكة بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ أي : أقدركم وسلّطكم عليهم ، يعنى : قضى بينهم وبينكم المكافّة والمحاجزة بعد ما خوّلكم الظفر عليهم والغلبة ، وذلك أن عكرمة بن أبى جهل خرج فى خمسمائة إلى الحديبية ، يطلب غرة بالمسلمين ، فبعث رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم خالد بن الوليد على جند ، فهزمهم ، حتى أدخلهم حيطان مكة ، ثم عاد ثانيا

---

(١) من الآية ٢١ من سورة المجادلة.

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٤٠٠

فهزمه ، ثم عاد فهزمه «١» ، هكذا نقله الثعلبي وغيره. فانظره مع ما فى الاكتفاء للكلاعى : أن خالدا كان مع المشركين فى الحديبية ، وإنما أسلم بعد الحديبية قبل الفتح ، وكان فى السنة الثامنة ، والحديبية فى السادسة ، والذي ذكر النّسفى أنه عليه السّلام بعث من هزمهم ، ولم يسمه ، وهزم خالد لبعض قريش إنما كان فى الفتح ، لا فى الحديبية ، فلعل الرّاوى غلط. وقال أنس : إن ثمانين رجلا من أهل مكة هبطوا على النّبى صلّى اللّه عليه وسلم وأصحابه من جبل التنعيم عند صلاة الفجر ، عام الحديبية ، ليقاتلوا المسلمين ، فأخذهم النّبى صلّى اللّه عليه وسلم سلما ، فأعتقهم ، فنزلت الآية «٢».

ووجه المنّة فى كفّ أيدى المؤمنين عن الكافرين : ما ذكر بعد من قوله : وَلَوْ لا رِجالٌ مُؤْمِنُونَ ... الآية ، أو : ما تطرق بسببه من الصلح وانقيادهم إليه ، فإنهم لما رأوا أصحابهم انهزموا أذعنوا للصلح ، وقال القشيري : بعد أن اضطرهم المسلمون إلى بيوتهم ، أنزل اللّه هذه الآية يمنّ عليهم ، حيث كفّ أيدى بعضهم عن بعض ، عن قدرة من المسلمين ، لا عن عجز ، فأما الكفار فكفّوا أيديهم رعبا وخوفا ، وأما المسلمون فنهيا من قبل اللّه ، لما فى أصلابهم من المؤمنين. هـ. وَكانَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ من مقاتلتهم وهزمهم أولا ، والكفّ عنهم ثانيا ، لتعظيم بيته الحرام ، وقرأ البصري بياء الغيب ، أي : بما يعمل المشركون بَصِيراً فيجازى كلّا بما يستحقه.

[سورة الفتح (٤٨) : آية ٢٥]

هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفاً أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْ لا رِجالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِساءٌ مُؤْمِناتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَؤُهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذاباً أَلِيماً (٢٥)

هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ وَصدوا الْهَدْيَ حال كونه مَعْكُوفاً أي : محبوسا عن أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ أي : مكانه الذي يحلّ به نحره ، وهو منى وكان صلّى اللّه عليه وسلم ساق سبعين بدنة ، فلما صدّ ، نحرها بموضعه ، وبه استدل من قال : أنّ المحصر ينحر هداياه بموضعه ، وروى أن خيامه صلّى اللّه عليه وسلم كانت فى الحل ، ومصلّاه فى الحرم ، وهناك نحرت هداياه صلّى اللّه عليه وسلم. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : يقال لمن سبقت لهم العناية ، وحفّت بهم الرّعاية : لو قاتلكم الذين كفروا من النّفس الأمارة ، والشيطان ، والهوى ، وسائر القواطع ، لولّوا الأدبار ، ثم لا يجدون تسلطا عليكم أبدا ، سنّة اللّه التي قد خلت فيمن توجه إليه بصدق الطلب ، ودخل تحت تربية الرّجال ، فإن همتهم دائرة عليه ، ولن تجد لسنة اللّه تبديلا. وهو الذي كفّ أيدى الأعداء من القواطع عنكم ، وكفّ أيديكم عنهم ، من بعد أن أظفركم عليهم ، فإنّ النّفس إذا تعذبت واطمأنت وجب الكفّ عن مجاهدتها ، ووجب البرور بها ، وتصديقها فيما تحدثه ، وكذا سائر القواطع تجب الغيبة عنها ، وعدم

---

(١) أخرجه ابن جرير (٢٦/ ٩٥) وانظر الكافي الشاف (ح ٤٢٤) فقد قال الحافظ ابن حجر معقبا : «فى صحته نظر لأن خالدا لم يكن أسلم فى الحديبية. وظاهر السياق أن هذه القصة كانت فى الحديبية». وسيذكر الشيخ بعد قليل حديث أنس. وهو أصح لوروده فى الصحيح.

(٢) أخرجه مسلم فى (الجهاد ، باب قول اللّه تعالى : وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ ح ١٨٠٨) من حديث أنس رضي اللّه عنه. [.....]

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٤٠١

الالتفات إليها غيبة فى اللّه واشتغالا بشهوده. وقيل لبعضهم : متى ينتهى سير الطالبين؟ قال : «الظفر بنفوسهم ، فإن ظفروا بها وصلوا». وأيض : الا تجتمع المجاهدة مع المشاهد ، فإذا تحققت المشاهدة فلا مجاهدة. هم الذين كفروا من النّفوس المتمردة ، والهوى ، وصدوكم عن مسجد الحضرة ، والهدى معكوفا ، وحبسوكم عن التقرب إلى اللّه بالنفس والمال أن يبلغ محله ، بأن تمنعكم من إعطائه ، أو تشيبه بما يفسده من الرّياء والعجب ، لئلا تبلغ محل الإخلاص.

ثم ذكر حكمة منعهم من دخول مكة عام الحديبية ، فقال :

قلت : (أن تطؤوهم) : بدل اشتمال من رجال ونساء ، ومن ضمير «تعلموهم» وبغير متعلق بتطؤهم ، وجواب «لولا» محذوف ، أغنى عنه جواب «لو» أي : لما كف أيديكم عنهم.

يقول الحق جل جلاله : وَلَوْ لا رِجالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِساءٌ مُؤْمِناتٌ بمكة ، ضعفوا عن الهجرة لَمْ تَعْلَمُوهُمْ لم تعرفوهم بأعيانهم لاختلاطهم مع المشركين ، أَنْ تَطَؤُهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ أي : غير عالمين بهم فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ أي : مشقة ومكروه. وفى تفسير المحلى «المعرة» بالإثم نظر ، مع فرض عدم العلم ، إلا أن يحمل على صورة الإثم ، وهو الخطأ ، وفيه الكفارة. والمعرة : مفعلة من : عراه : إذا دهاه ما يكرهه وشقّ عليه ، وهو هنا الكفارة إذا قتله خطأ ، وسوء مقالة المشركين أنهم فعلوا بأهل دينهم مثل ما فعلوا بنا من غير تمييز ، والإثم إذا قصد قتله. والوطء عبارة عن الإيقاع والإبادة.

والحاصل أنه كان بمكة قوم مسلمون مختلطون بالمشركين ، غير متميّزين منهم ، فقيل : ولولا كراهة أن تهلكوا ناسا من المؤمنين بين ظهرانى المشركين وأنتم غير عارفين بهم ، فتصيبكم بإهلاكهم مشقة ومكروه ، ولما كففنا أيديكم عنهم ، ولسلطانكم عليهم.

وكان ذلك الكفّ لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ أي : فى توفيقه لزيادة الخير والطاعة لمؤمنيهم ، أو : ليدخلهم فى الإسلام من رغب فيه من مشركيهم مَنْ يَشاءُ زيادته أو هدايته ، فاللام متعلقة بمحذوف ، تعليل لما دلت عليه الآية ، وسيقت له ، من كفّ الأيدى عن أهل مكة ، والمنع من قتلهم ، صونا لما بين أظهرهم من المؤمنين.

لَوْ تَزَيَّلُوا أي : تفرقوا وتميز المسلمون من الكافرين ، لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذاباً أَلِيماً بقتل

مقاتلتهم ، وسبى ذراريهم. ويجوز أن يكون : «لو تزيلوا» كالتكرير ل «لولا ..» لمرجعهما لمعنى واحد ، ويكون (لعذّبنا ...) إلخ ، هو جواب «لولا» والتقدير : ولولا أن تطئوا رجالا مؤمنين ونساء مؤمنات من غير علم ، ولو كانوا متميزين لعذبناهم بالسيف.

الإشارة : إذا اختلط أهل الانتقاد مع أهل الاعتقاد ، لا يعم البلاء المعدّ لأهل الانتقاد ، ولو تزيلوا لعذبنا المنكرين عذابا أليما ، وكذلك إذا اختلط الفجار مع الأبرار ، وغلب جمع الأبرار ، لا يعم البلاء ، ويصرف عن الجميع ، فلو تزيل الفجار لعذبوا عذابا أليما.

قال القشيري : قد تكون فى النّفس أوصاف مستحسنة ، تليق بالفيض الإلهى ، مع أوصاف مذمومة ، فلو سلطناكم على إهلاكها بالمرة ، لفاتكم ما فيها من الأوصاف الحسنة ، فتصيبكم معرة ، ليدخل اللّه

فى رحمته بالوصول إلى حضرته من يشاء من النّفوس ، بتصفية ما فيها من الرّذائل. لو تزيلوا تميز ما يصلح قلعه ، كالكبر ، والشر ، والحرص والحقد ، أو ما يصلح تبديله ، كالبخل بالسخاء ، والحرص بالقناعة ، والغضب بالحلم ، والجبن بالشجاعة ، والشهوة بالعفة ، لعذّبنا النّفوس المتمردة عذابا أليما ، بإهلاكها بالكلية. بالمعنى.

ثم وصف أهل الكفر المتقدمين الآن بالحمية ، فقال :

[سورة الفتح (٤٨) : آية ٢٦]

إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوى وَكانُوا أَحَقَّ بِها وَأَهْلَها وَكانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً (٢٦)

يقول الحق جل جلاله : واذكر إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا من قريش أي : ألقوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ أي : الأنفة والتكبر ، أو : صيّروا الحمية راسخة فى قلوبهم حَمِيَّةَ الْجاهِلِيَّةِ : بدل ، أي : حميّة الملة الجاهلية ، أو الحميّة النّاشئة من الجاهلية ، ووضع الموصول موضع ضميرهم ، إذ تقدم ذكرهم ، لذمّهم بما فى حيز الصلة ، وتعليل الحكم به. والجعل بمعنى الإلقاء ، فلا يتعدى إلى مفعولين ، أو : بمعنى التصيير ، فالمفعول الثاني محذوف ، كما تقدم. و«الذين» : فاعل ، على كلّ حال. فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ أي : أنزل فى قلوبهم الطمأنينة والوقار ، فلم يتضعضعوا من الشروط التي شرطت قريش.

(٤٠٢/٥)

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٤٠٣

روى : أن رسول اللّه لمّا نزل الحديبية بعثت قريش سهيل بن عمرو ، وحويطب بن عبد العزّى ، ومكرز بن حفص ، على أن يعرضوا على رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم أن يرجع من عامه ذلك ، على أن تخلى له قريش مكة من العام القابل ثلاثة أيام ، ففعل ذلك ، وكتب بينهم كتابا ، فقال صلّى اللّه عليه وسلم لعليّ رضي اللّه عنه : «اكتب «بسم اللّه الرّحمن الرّحيم» فقال سهيل وأصحابه : ما نعرف هذا ، ولكن اكتب : باسمك اللهم ، ثم قال : «اكتب : هذا ما صالح عليه رسول اللّه أهل مكة» فقالوا : لو كنا نعلم أنك رسول اللّه ما صددناك عن البيت وما قاتلناك ، ولكن اكتب : هذا ما صالح عليه محمد بن عبد اللّه أهل مكة ، فقال صلّى اللّه عليه وسلم : «اكتب ما يريدون ، فأنا أشهد أنّى رسول ، وأنا محمد بن عبد اللّه» فهمّ المسلمون أن يأبوا ذلك ، ويبطشوا بهم ، فأنزل اللّه السكينة عليهم ، فتوقّروا وحلموا «١». وفى رواية البخاري : فكتب عليّ رضي اللّه عنه : «هذا ما قضى عليه محمد رسول اللّه» فلما أبوا ذلك ، قال صلّى اللّه عليه وسلم لعليّ : «امح رسول اللّه ، واكتب : محمد بن

عبد اللّه» ، فقال : وللّه لا أمحوك أبدا ، فأخذ صلّى اللّه عليه وسلم الصحيفة وكتب ما أرادوا. قيل : كتب بيده معجزة ، وقيل : أمر من كتب ، وهو الأصح.

وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوى ، شهادة «لا إله إلا اللّه» «٢» ، وقيل : «بسم اللّه الرّحمن الرّحيم ، وقيل : محمد رسول اللّه ، وقيل : الوفاء بالعهد ، والثبات عليه. وإضافتها إلى التقوى لأنها سببها وأساسها ، وقيل : كلمة أهل التقوى.

وَكانُوا أَحَقَّ بِها أي : متصفين بمزيد استحقاق بها ، على أن صيغة التفضيل للزيادة مطلقا ، أو : أحق بها من غيرهم من سائر الأمم وَكانوا أيضا أَهْلَها المتأهلون لها بتأهيل اللّه إياهم. قال القشيري : كلمة التقوى هى التوحيد عن قلب صادق ، وأن يكون مع الكلمة الاتقاء من الشرك ، وكانوا أحق بها فى سابق حكمه ، وقديم علمه ، وهذا إلزام إكرام ولطف ، لا إلزام إكراه وعنف ، وإلزام بر ، لا إلزام جبر. هـ. وَكانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً فيجرى الأمور على مساقها ، فيسوق كلّا إلى ما يستحقه.

الإشارة : لا يصل العبد إلى مولاه حتى تكون نفسه أرضية ، وروحه سماوية ، يدور مع الحق أينما دار ، ويخضع للحق أينما ظهر ، ولأهله أينما ظهروا ، لم تبق فيه حميّة ولا أنفه ، بل يكون كالأرض يطأها البار والفاجر ، ولا تميز بينهما ، وأما من فيه حمية الجاهلية ، فهو من أهل الخذلان ، وأما أهل العناية ، فأشار إليهم بقوله : فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلى رَسُولِهِ

---

(١) أخرجه البيهقى فى دلائل النّبوة (باب سياق قصة الحديبية ٤/ ١٠٥) من حديث عروة بن الزبير ، مرسلا ، والقصة هى الصحيح ، فقد أخرجها البخارى فى (الصلح ، باب كيف يكتب : هذا ما صالح فلان بن فلان ، ح ٢٦٩٨) كما أخرجها مطولة فى (الشروط ، باب الشروط فى الجهاد ، ٥/ ٣٢٩ – ٣٣٣) من حديث عروة بن الزبير ، عن المسور بن مخرمة ومروان ، وأخرجها مسلم فى (الجهاد ، باب صلح الحديبية ح ١٧٨٣) من حديث البراء بن عازب – رضي اللّه عن الصحابة أجمعين.

(٢) هذا هو التفسير المروى عن الرّسول صلّى اللّه عليه وسلم. وأخرجه الترمذى فى (التفسير – سورة الفتح ح ٣٢٦٥) وأحمد فى المسند (٥/ ١٣٨ ، ح ٢١١٥١) والحاكم (٢/ ٤٦١) «وصحّحه ووافقه الذهبى» والطبرانى فى الكبير (١/ ١٦٨) من حديث علىّ رضي اللّه عنه. وأخرجه البيهقى فى الأسماء والصفات (ص ١٠٩) من حديث الطفيل بن أبىّ ، عن أبيه.

فكان متواضعا سهلا لينا ، كما قال تعالى : وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ «١» وعلى المؤمنين ، فأخبر عنهم

بقوله : أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَماءُ بَيْنَهُمْ «٢» الآية ، «وألزمهم كلمة التقوى» ، «لا إله إلا اللّه» لأنها تهذب الأخلاق ، وتخرج ما فى القلب من الأمراض والنّفاق لأن النّفى : تنزيه وتخلية ، والإثبات : نور وتحلية ، فلا يزال النّفى يخرج من القلب ما فيه هى الظلمة والمساوئ ، حتى يتطهر ويتصف بكمال المحاسن.

قال فى نوادر الأصول ، لمّا تكلم على وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوى : هو «لا إله إلا اللّه» ، وجه تسميتها بذلك : أنه اتقى بها ونفى ما أحدث م ... ن الشرك ، حمية للتوحيد وعصبية وغيرة ، اقتضاها نور التوحيد والمحبة ، فنفى القلب كلّ رب ادعى العباد ربوبيته ، وولهت قلوبهم إليه ، فابتدأ هذا القلب – الذي وصفنا – بالنفي لأرباب الأرض ، ثم سما عاليا حتى انتهى إلى الرّب الأعلى ، فوقف عنده ، وتذلل وخشع له ، واطمأن ووله إليه. وقال لنبيه : سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى «٣» أي : إن هذه أرباب متفرقون ، والرّب اللّه الواحد القهار ، فهداه إلى الرّب الأعلى ، وقال : وَأَنَّ إِلى رَبِّكَ الْمُنْتَهى «٤». ثم قال : ألزم قلوبهم هذه الكلمة بنور المحبة ، كما قال : حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ «٥» ، فبحلاوة الحب ، وزينة البهاء ، صارت الكلمة لازمة لقلوبهم.

وأما قوله : وَكانُوا أَحَقَّ بِها وَأَهْلَها فإنما صاروا كذلك لأن اللّه كان ولا شيء ، فخلق المقادير ، وخلق الخلق فى ظلمة ، ثم رش عليهم من نوره ، فمن أصابه من ذلك النّور اهتدى ، ومن أخطأه ضل ، فقد علم من يخطئه ممن يصيبه. ثم ذكر أحاديث ، من ذلك : حديث [ابن عمرو] «٦» : «إن اللّه خلق خلقه ، ثم جعلهم فى ظلمة ، ثم أخذ من نوره ما شاء ، فألقاه عليهم ، فأصاب النّور من شاء أن يصيبه ، وأخطأ من شاء أن يخطئه ...» الحديث «٧». ثم قال بعد كلام طويل : ثم لمّا نفخ الرّوح فى آدم أخرج نسم بنيه ، أهل اليمين ، من كتفه الأيمن فى صفاء وتلألؤ ، وأصحاب الشمال [كالحمّة] «٨» سود من كتفه الأيسر ، والسابقون أمام الفريقين ، المقربون ، وهم الرّسل والأنبياء والأولياء ،

---

(١) الآية ٤ من سورة القلم.

(٢) من الآية ٢٩ من سورة الفتح.

(٣) الآية الأولى من سورة الأعلى.

(٤) من الآية ٤٢ من سورة النّجم.

(٥) من الآية ٧ من سورة الحجرات.

(٦) فى الأصول [ابن عمر] والمثبت هو الصحيح ، فالحديث مروى عن عبد اللّه بن عمرو بن العاص.

(٧) أخرجه بنحوه الترمذي وحسّنه فى (الإيمان ، باب افتراق هذه الأمة ، ح ٢٦٤٢) وأحمد فى المسند (ح ٦٨٥٤) ومطولا (ح ٦٦٤٤) والحاكم (١/ ٣٠ – ٣١) «وصحّحه ووافقه الذهبي» وكذا صحّحه ابن حبان (ص ٤٤٩) من حديث عبد اللّه بن عمرو بن العاص ، وقال الهيثمي فى المجمع (٧/ ١٩٣ – ١٩٤) : «رواه أحمد بإسنادين ، والبزار والطبراني ، ورجال أحد إسنادى أحمد ثقات».

(٨) فى الأصول [كالحمية] والمثبت من نوادر الأصول ، وهو الصحيح.
والحم : الأسود من كلّ شيء ، والاسم : الحمّة. انظر اللسان (حمم ٢/ ١٠٠٩).

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٤٠٥
فقرّبهم «١» كلهم ، وأخذ عليهم الميثاق على الإقرار بالعبودية ، وأشهدهم على أنفسهم ، وشهد عليهم بذلك ، ثم ردهم إلى الأصلاب ليخرجهم تناسلا إلى الأرحام «٢». هـ.
وقال الجنيد رضي اللّه عنه فى قوله : وَكانُوا أَحَقَّ بِها وَأَهْلَها : من أدركه عناية السبق فى الأزل جرى عليه عنوان المواصلة ، وهو أحق بها ، لما سبق إليه من كرامة الأزل. هـ. والحاصل : أنهم أحق بها بالسبق بالاصطفائية ، وبقيت نعوتها وأنوارها فى قلوبهم ، دون الذين حجبهم اللّه عن رؤية نورها. قاله فى الحاشية.
ثم بشّرهم بفتح مكة ، وصدق الرّؤيا التي رآها النّبى صلّى اللّه عليه وسلم ، فقال :
[سورة الفتح (٤٨) : آية ٢٧]
لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرامَ إِنْ شاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لا تَخافُونَ فَعَلِمَ ما لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذلِكَ فَتْحاً قَرِيباً (٢٧)
يقول الحق جل جلاله : لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيا أي : صدقه فى رؤياه ولم يكذبه – تعالى اللّه عن الكذب – فحذف الجارّ وأوصل الفعل كقوله : صَدَقُوا ما عاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ «٣» يقال : صدقه الحديث : إذا حققه وبيّنه له ، أو : أخبره بصدق ، روى أنه صلّى اللّه عليه وسلم رأى فى النّوم ، قبل خروجه إلى الحديبية ، كأنّه وأصحابه قد دخلوا مكة آمنين ، وقد حلقوا وقصّروا ، فقص الرّؤيا على أصحابه ، ففرحوا ، وحسبوا أنهم داخلوها ، وقالوا : إن رؤيا رسول اللّه حق. واللّه تعالى قد أبهم الأمر عليهم لينفرد بالعلم الحقيقي ، فلما صدوا ، قال عبد اللّه بن أبىّ وغيره من المنافقين : واللّه ما حلقنا ولا قصّرنا ، ولا رأينا المسجد الحرام ، فنزلت «٤» : لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ فيما أراه ، وما كذب عليه ، ولكن فى الوقت الذي يريد.
وقوله : بِالْحَقِّ ، إما صفة لمصدر محذوف ، أي : صدقا ملتبسا بالحق ، أي : بالغرض الصحيح ، والحكمة البالغة التي تميز بين الرّاسخ فى الإيمان والمتزلزل فيه ، أو : حال من الرّؤيا ، أي : ملتبسة بالحق ليست من قبيل

---

(١) فى نوادر الأصول : [فقررهم].

(٢) النقل بتصرف.

(٣) من الآية ٢٣ من سورة الأحزاب.

(٤) أخرجه البيهقي فى دلائل النّبوة (باب نزول الفتح مرجع الحديبية ٤/ ٣٦٤) وابن جرير فى التفسير (٢٦/ ١٠٧) عن مجاهد ، مرسلا. [.....]

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٤٠٦

أضغاث الأحلام ، ويجوز أن يكون قسما ، أي : أقسم بالحق لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرامَ ، وعلى الأول : جواب القسم محذوف ، أي : واللّه لتدخلن المسجد الحرام ، والجملة القسمية : استئناف بيانى ، كأن قائلا قال : ففيم صدقه؟ فقال :

(لتدخلن المسجد إن شاء اللّه). وهو تعليق للعدة بالمشيئة لتعليم العباد. قال ثعلب : استثنى اللّه فيما يعلم ليستثنى الخلق فيما لا يعلمون. وقال فى القوت : استثنى اللّه معلما لعباده ورادا لهم إلى مشيئته ، وهو أصدق القائلين ، وأعلم العالمين. هـ. أو : للإشعار بأن بعضهم لا يدخلونه ، لموت ، أو : غيبة ، أو غير ذلك ، أو : هو حكاية لما قاله ملك الرّؤيا لرسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم ، أو لما قاله صلّى اللّه عليه وسلم لأصحابه ، حين قصّ عليهم ، أي : واللّه لتدخلنها آمِنِينَ من غائلة العدو ، فهو حال من فاعل «لتدخلن» والشرط معترض. مُحَلِّقِينَ رُؤُسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ أي : محلقا بعضكم ، ومقصرا آخرون ، لا تَخافُونَ بعد ذلك أبدا ، فهو حال أيضا ، أو استئناف ، فَعَلِمَ ما لَمْ تَعْلَمُوا من الحكمة فى تأخير فتح مكة إلى العام القابل ، فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذلِكَ فتح مكة فَتْحاً قَرِيباً وهو فتح خيبر ، لتستروح إليه قلوب المؤمنين ، إلى أن يتيسر الفتح الموعود. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : العارف الكامل لا يركن إلى شيء دون اللّه تعالى ، فلا يطمئن إلى وعد ، ولا يخاف من وعيد ، بل هو عبد بين يدى سيده ، ينظر ما يبرز من زمن عنصر قدرته ، فإن بشّر بشيء فى النّوم أو اليقظة ، لا يركن إليه ، ولا يقف معه لأن غيب المشيئة غامض ، وإن خوّف بشيء فى النّوم أو غيره ، لا يفزع ولا يجزع لأن الغنى باللّه والأنس به غيّبه عن كلّ شيء ، وفى اللّه خلف من كلّ تلف «ما ذا فقد من وجدك؟ «١»» واللّه يتولى الصالحين ، وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً .. الآية «٢».

قال فى الإبريز «٣» : الرؤيا المحزّنة إنما هى اختبار من اللّه للعبد ، هل يبقى مع ربه أو ينقطع عنه ، فإن كان العبد متعلقا به تعالى ، ورأى الرّؤيا المحزنة ، لم يلتفت إليها ، ولما يبال بها لعلمه بأنه منسوب إلى من بيده تصاريف الأمور ، وأنّ ما اختاره تعالى سبقت به المشيئة ، فلا يهوله أمر الرّؤيا ، ولا يلقى إليها بالا ، وهذه لا تضره بإذن اللّه تعالى : وإذا كان العبد غير متعلق بربه ، ورأى رؤيا محزنة ، جعلها

نصب عينيه ، وعمّر بها باطنه ، وانقطع بها عن ربه ، ويقدّر أنها لا محالة نازلة به ، فهذا هو الذي تضره لأنّ من خاف من شيء سلّطه عليه. هـ.

---

(١) من مناجاة الشيخ ابن عطاء السكندرى. انظر تبويب الحكم للمتّقى الهندي (ص ٤٢).

(٢) الآية ٢ من سورة الطلاق.

(٣) لسيدى عبد العزيز الدبّاغ – رحمه اللّه تعالى.

وسئل سهل التستري رضي اللّه عنه عن الاستثناء فى هذه الآية ، فقال : تأكيدا فى الافتقار إليه ، وتأديبا لعباده فى كل حال ووقت. هـ. أي : أدّبهم لئلا يقفوا مع شيء دونه.

ثم ردّ حميّة الجاهلية فى عدم إقرارهم برسالته صلّى اللّه عليه وسلم ، فقال :

[سورة الفتح (٤٨) : الآيات ٢٨ الى ٢٩]

هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفى بِاللَّهِ شَهِيداً (٢٨) مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَماءُ بَيْنَهُمْ تَراهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْواناً سِيماهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْراةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوى عَلى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً (٢٩)

يقول الحق جل جلاله : هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدى بالتوحيد ، أي : ملتبسا به ، أو : بسببه ، أو : لأجله ، وَدِينِ الْحَقِّ وبدين الإسلام ، وبيان الإيمان والإحسان. وقال الورتجبي : ودين الحق : هو بيان معرفته والأدب بين يديه. هـ. لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ليعليه على جنس الدين ، يريد الأديان كلها من أديان المشركين وأهل الكتاب ، وقد حقق ذلك سبحانه ، فإنك لا ترى دينا قط إلا والإسلام فوقه بالعزة والغلبة ، إلا ما كان من النّصارى بالجزيرة «١» ، حيث فرّط أهل الإسلام ، وقيل : هو عند نزول عيسى عليه السّلام حين لا يبقى على وجه الأرض كافر. وقيل : هو إظهاره بالحجج والآيات. وَكَفى بِاللَّهِ شَهِيداً على أن ما وعده كائن. وعن الحسن :

شهد على نفسه أنه سيظهر دينه ، أو : كفى به شهيدا على نبوة محمد صلّى اللّه عليه وسلم وهو تمييز ، أو حال.

مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ أي : ذلك المرسل بالهدى ودين الحق هو محمد رسول اللّه ، فهو خبر عن مضمر ،

و«رسول» : نعت ، أو : بدل ، أو : بيان ، أو : «محمد» : مبتدأ و«رسول» : خبر ، وَالَّذِينَ مَعَهُ : مبتدأ ، خبره : أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَماءُ بَيْنَهُمْ

---

(١) يعنى الأندلس.

(٤٠٧/٥)

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٤٠٨

أو : «الذين» : عطف على «محمد» ، و«أشداء» : خبر الجميع ، أي : غلاظ شداد على الكفار فى حربهم ، رحماء متعاطفون بينهم ، يعنى : أنهم كانوا يظهرون لمن خالف دينهم الشّدة والصلابة ، ولمن وافق دينهم الرّأفة والرّحمة ، وهذا كقوله تعالى : أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكافِرِينَ «١» ، وبلغ من تشديدهم على الكفار أنهم كانوا يتحرّزون من ثيابهم أن تلزق بثياب الكفار ، ومن أبدانهم أن تمسّ أبدانهم ، وبلغ من تراحمهم فيما بينهم : أنهم كانوا لا يرى مؤمن مؤمنا إلا صافحه وعانقه.

وهذا الوصف الذي مدح اللّه به الصحابة – رضي اللّه عنهم – مطلوب من جميع المؤمنين ، لقوله صلّى اللّه عليه وسلم : «ترى المؤمنين فى تراحمهم وتوادّهم وتعاطفهم كالجسد الواحد ، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمّى» «٢». رواه البخاري ، وقال أيضا : «نظر الرّجل إلى أخيه شوقا خير من اعتكاف سنة فى مسجدى هذا» ، «٣» ذكره فى الجامع.

تَراهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً أي : تشاهدهم حال كونهم راكعين ساجدين لمواظبتهم على الصلوات ، أو : على قيام الليل ، كما قال من شاهد حالهم : رهبان بالليل أسدّ بالنهار ، وهو استئناف ، أو : خبر ، يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْواناً أي : ثوابا ورضا وتقريبا سِيماهُمْ علاماتهم فِي وُجُوهِهِمْ فى جباههم مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ أي : من التأثير الذي يؤثّره كثرة السجود. وما روى عنه عليه السّلام : «لا تعلموا صوركم» «٤» أي : لا تسموها ، إنما هو فيمن يتعمد ذلك باعتماد جبهته على الأرض ، ليحدث ذلك فيها ، وذلك رياء ونفاق ، وأما إن حدث بغير تعمد ، فلا ينهى عنه ، وقد ظهر على كثير من السلف الصالح غرة فى جباههم مع تحقق إخلاصهم.

وقال منصور : سألت مجاهدا عن قوله : سِيماهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ أهو الأثر يكون بين عينى الرّجل؟ قال : لا ربما يكون بين عينى الرّجل مثل ركبة البعير ، وهو أقسى قلبا من الحجارة ، ولكنه نور فى وجوههم من الخشوع.

وقال ابن جريج : هو الوقار والبهاء ، وقيل : صفرة الوجوه ، وأثر السهر. وقال الحسن : إذا رأيتهم حسبتهم مرضى ، وما هم مرضى. وقال سفيان وعطاء : استنارت وجوههم من طول ما صلّوا بالليل ،

لقوله عليه السّلام : «من كثرت صلاته

---

(١) من الآية ٥٤ من سورة المائدة.

(٢) أخرجه البخاري فى (الأدب ، باب رحمة النّاس والبهائم ، ح ٦٠١١) ومسلم فى (البر والصلة باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم ، ح ٢٥٨٦) من حديث النّعمان بن بشير رضي اللّه عنه.

(٣) عزاه السيوطي فى الجامع الصغير (ح ٩٢٦٦) للحكيم عن ابن عمرو ، وضعّفه.

(٤) على هامش النّسخة الأم : «هذا حديث لا أصل له».

(٤٠٨/٥)

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٤٠٩

بالليل حسن وجهه بالنّهار» «١» وقال ابن عطية : إنه من قول شريك «٢» لا حديث ، فانظره ، وقال ابن جبير : فى وجوههم يوم القيامة يعرفون به أنهم سجدوا فى الدنيا للّه تعالى. هـ.

ذلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْراةِ ، الإشارة إلى ما ذكر من نعوتهم الجليلة ، وما فيها من معنى البعد مع قرب العهد للإيذان بعلو شأنه ، وبعد منزلته فى الفضل ، أي : ذلك وصفهم العجيب الجاري فى الغرابة مجرى الأمثال ، هو نعتهم فى التوراة ، أي : كونهم أشدّاء على الكفار ، رحماء بينهم ، سيماهم فى وجوههم.

ثم ذكر وصفهم فى الإنجيل فقال : وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ .. إلخ ، وقيل : عطف على ما قبله ، بزيادة «مثل» ، أي : ذلك مثلهم فى التوراة والإنجيل ، ثم بيّن المثل فقال : هم كزرع أَخْرَجَ شَطْأَهُ فراخه ، يقال : أشطأ الزرع : أفرخ ، فهو مشطىء ، وفيه لغات : شطأه بالسكون والفتح ، وحذف الهمزة ، كقضاة. و«شطه» ، بالقصر.

فَآزَرَهُ فقوّاه ، من : المؤازرة ، وهى الإعانة ، فَاسْتَغْلَظَ فصار من الرّقة إلى الغلظ ، فَاسْتَوى عَلى سُوقِهِ فاستوى على قصبه ، جمع : ساق ، يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ يتعجبون من قوّته ، وكثافته ، وغلظه ، وحسن نباته ومنظره. وهو مثل ضربه اللّه لأصحابه صلّى اللّه عليه وسلم فى بدء الإسلام ، ثم كثروا واستحكموا ، بترقى أمرهم يوما بيوم ، بحيث أعجب النّاس أمرهم ، فكان الإسلام يتقوى كما تقوى الطاقة من الزرع ، بما يحتفّ بها مما يتولّد منها.

وقيل : مكتوب فى الإنجيل : سيخرج قوم ينبتون نبات الزرع ، يأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر «٣». وعن عكرمة : أخرج شطأه بأبى بكر ، فآزره بعمر ، فاستغلظ بعثمان ، فاستوى على سوقه بعلي. «٤». وحكى النّقاش عن ابن عباس ، أنه قال : الزرع النّبى صلّى اللّه عليه وسلم ، فآزره علىّ بن أبى

طالب ، فاستغلظ بأبى بكر ، فاستوى على سوقه بعمر. هـ.

---

(١) أخرجه ابن ماجة فى (إقامة الصلاة والسنة فيها ، باب ما جاء فى قيام الليل ، ح ١٣٣٣) قال : «حدثنا إسماعيل بن محمد الطلحي ، ثنا ثابت بن موسى أبو يزيد ، عن شريك ، عن الأعمش ، عن أبى سفيان ، عن جابر رضي اللّه عنه الحديث» ورفعه ..

(٢) «شريك» أحد رواة الحديث. قال السندي :

معنى الحديث ثابت بموافقة القرآن ، وشهادة التجربة ، لكن الحفّاظ على أن الحديث بهذا اللفظ غير ثابت. وأخرج البيهقي فى الشعب ، عن محمد بن عبد الرّحمن بن كامل قال : قلت لمحمد بن عبد اللّه بن نمير : ما تقول فى ثابت بن موسى؟ قال : شيخ له فضل وإسلام ودين وصلاح وعبادة ، قلت : ما تقول فى هذا الحديث؟ قال : غلط من الشيخ ، وأما غير ذلك فلا يتوهم عليه. وقد تواردت أقوال الأئمة على عدّ هذا الحديث فى الموضوع ، على سبيل الغلط ، لا العمد ، وخالفهم القضاعي فى مسند الشهاب ، فمال فى الحديث إلى ثبوته. انظر حاشية سنن ابن ماجة (١/ ٤٢٣). وانظر أيضا – تفسير القرطبي (٧/ ٦٣٠٢).

(٣) أخرجه الطبري (٢٦/ ١١٤) عن قتادة.

(٤) انظر هذه الأقوال فى تفسير البغوي (٧/ ٣٢٥).

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٤١٠

واختار ابن عطية : أن المثل شامل للنبى صلّى اللّه عليه وسلم وللصحابة ، فإنّ النّبى صلّى اللّه عليه وسلم بعث وحده ، فهو الزرع ، حبّة واحدة ، ثم كثر المسلمون ، فهم كالشطء ، تقوّى بهم صلّى اللّه عليه وسلم.

لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ تعليل لما يعرب عنه الكلام من تشبيههم بالزرع فى ذكائه واستحكامه ، أي : جعلهم كذلك ليغيظ بهم من كفر باللّه.

وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً استئناف مبيّن لما خصّهم به من الكرامة فى الآخرة ، بعد بيان ما خصّهم به فى الدنيا ، ويجوز أن يرجع لقوله : (ليغيظ بهم ...) إلخ : أي : ليغيظ بهم وعدهم بالمغفرة والأجر العظيم لأن الكفار إذا سمعوا ما أعدّ لهم فى الآخرة مع ما خصّهم فى الدنيا من العزة والنّصر غاظهم ذلك أشد الغيظ ، و«من» فى «منهم» للبيان ، كقوله : فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثانِ «١» ، أي : وعد اللّه الذين آمنوا من هؤلاء.

الإشارة : هو الذي أرسل رسوله بالهدى : بيان الشرائع ، ودين الحق : بيان الحقائق ، فمن جمع بينهما من أمته ظهر دينه وطريقته ، وهذا هو الوليّ المحمدي ، أعنى : ظاهره شريعة ، وباطنه حقيقة ، وما وصف به سبحانه أصحاب الرّسول صلّى اللّه عليه وسلم هو وصف الصوفية ، أهل التربية النّبوية ، خصوصا طريق الشاذلية ، حتى قال بعضهم : من حلف أن طريق الشاذلية عليها كانت بواطن الصحابة ما حنث. وقوله تعالى : يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْواناً قال الورتجبي : أي : يطلبون مزيد كشف فى الذات والدنو والوصال والبقاء مع بقائه بلا عتاب ولا حجاب ، وهذا محل الرضوان الأكبر. هـ.

وقوله تعالى : سِيماهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ أي : نورهم فى وجوههم ، لتوجههم نحو الحق ، فإنّ من قرب من نور الحق ظهرت عليه أنوار المعرفة ، وجمالها وبهاؤها ، ولو كان زنجيا أو حبشيا ، وفى ذلك قيل :

وعلى العارفين أيضا بهاء وعليهم من المحبّة نور

ويقال : السيما للعارفين ، والبهجة للمحبين ، فالسيما هى الطمأنينة ، والرّزانة ، والهيبة والوقار ، كل من رآهم بديهة هابهم ، ومن خالطهم معرفة أحبهم ، والبهجة : حسن السمت والهدى ، وغلبة الشوق ، والعشق ، واللهج بالذكر اللساني. واللّه تعالى أعلم.

---

(١) من الآية ٣٠ من سورة الحج.

وروى السلمى عن عبد العزيز المكي : ليس السيما النّحولة والصفرة ، ولكنه نور يظهر على وجوه العابدين ، يبدو من باطنهم على ظاهرهم ، يتبين ذلك للمؤمنين ، ولو كان ذلك فى زنجى أو حبشى.

وعن بعضهم : ترى على وجوههم هيئة لقرب عهدهم بمناجاة سيدهم. وقال ابن عطاء : ترى عليهم طلع الأنوار لائحة. وقال الورتجبي :

المؤمن وجه للّه بلا قفا ، مقبلا عليه ، غير معرض عنه ، وذلك سيما المؤمن. هـ. وباللّه التوفيق ، وصلّى اللّه على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٤١٣

سورة الحجرات

مدنية. وهى ثمانى عشرة آية. ومناسبتها لما قبلها : أنه تعالى لمّا مدح الصحابة ، وبشّرهم بالمغفرة علّمهم الأدب لأنه من أعظم أسباب المغفرة والقرب ، فقال :

[سورة الحجرات (٤٩) : الآيات ١ الى ٣]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْواتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمالُكُمْ وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ (٢) إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْواتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ (٣)

يقول الحق جل جلاله : يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ، تصدير الخطاب بالنداء ، تنبيه المخاطبين على أنّ ما فى حيّزه أمر خطير يستدعى اعتنائهم بشأنه ، وفرط اهتمامهم بتلقيه ومراعاته ، ووصفهم بالإيمان لتنشيطهم ، والإيذان بأنه داع إلى المحافظة عليه ووازع عن الإخلال به ، لا تُقَدِّمُوا أي : لا تفعلوا التقديم ، على ترك المفعول للقصد إلى نفس الفعل من غير اعتبار تعلقه بأمر من الأمور ، على طريقة قولهم : فلان يعطى ويمنع ، أو :

لا تقدّموا أمورا من الأمور ، على حذف المفعول ، للعموم ، أو : يكون التقديم بمعنى التقدم ، من «قدّم» اللازم ، ومنه :

مقدمة الجيش ، للجماعة المتقدّمة ، ويؤيده قراءة من قرأ : (لا تقدّموا) «١» بحذف إحدى التاءين ، أي : لا تتقدموا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ، أي : لا تقطعوا أمرا قبل أن يحكما به ، وحقيقة قولك : جلست بين يدى فلان : أن تجلس بين الجهتين المسامتتين ليمينه وشماله قريبا منه ، فسميت الجهتان يدين لكونهما على سمت اليدين مع القرب منهما ، توسعا ، كما يسمّى الشيء باسم غيره إذا جاوره.

---

(١) وهى قراءة يعقوب ، أحد القراء العشرة. انظر الإتحاف (٢/ ٤٨٥). [.....]

وفى هذه العبارة ضرب من المجاز الذي يسمى تمثيلا ، وفيه فائدة جليلة ، وهى : تصوير الهجنة والشناعة فيما نهوا عنه من الإقدام على أمر من الأمور دون الاحتذاء على أمثلة الكتاب والسنة. ويجوز أن يجرى مجرى قولك :

سرّنى زيد وحسن ماله ، فكذلك هنا المعنى : لا تقدّموا بين يدى رسول اللّه – صلّى اللّه عليه وسلم.

وفائدة هذا الأسلوب : الدلالة على قوة الاختصاص ، ولمّا كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم من اللّه بالمكان الذي لا يخفى سلك به هذا المسلك ، وفى هذا تمهيد لما نقم منهم من رفع أصواتهم فوق صوته لأن من فضّله اللّه بهذه الأثرة ، واختصه بهذا الاختصاص ، كان أدنى ما يجب له من التهيّب والإجلال : أن لا يرفع صوت بين يديه ، ولا يقطع أمر دونه ، فالتقدم عليه تقدم على اللّه لأنه لا ينطق عن الهوى ، فينبغى الاقتداء بالملائكة حيث قيل فيهم : لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ ... إلخ «١».

قال عبد اللّه بن الزبير : قدم وفد من تميم على رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم. فقال أبو بكر : لو أمّرت عليهم القعقاع بن معبد ، وقال عمر : يا رسول اللّه بل أمّر الأقرع بن حابس فقال أبو بكر : ما أردت إلا خلافى ، وقال عمر : ما أردت خلافك ، وارتفعت أصواتهما ، فنزلت «٢». فعلى هذا يكون المعنى : لا تقدّموا ولاة ، والعموم أحسن كما تقدم. وعبارة البخاري : «وقال مجاهد : (لا تقدموا) لا تفتاتوا على رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم حتى يقضى اللّه – عز وجل – على لسانه» «٣».

وعن الحسن : أن ناسا ذبحوا يوم الأضحى قبل الصلاة ، فنزلت ، فأمرهم رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم أن يعيدوا «٤» ، وعن عائشة :

أنها نزلت فى النّهى عن صوم يوم الشك «٥».

وَاتَّقُوا اللَّهَ فى كلّ ما تأتون وتذرون من الأحوال والأفعال ، التي من جملتها ما نحن فيه ، إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ لأقوالكم عَلِيمٌ بأفعالكم ، فمن حقّه أن يتّقى ويراقب.

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْواتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ ، شروع فى النّهى عن التجاوز فى كيفية القول عند النّبى صلّى اللّه عليه وسلم ، بعد النّهى عن التجاوز فى نفس القول والفعل ، وإعادة النّداء مع قرب العهد للمبالغة فى الإيقاظ والتنبيه ، والإشعار باستقلال كلّ من الكلامين باستدعاء الاعتناء بشأنه أي : لا تبلغوا بأصواتكم وراء حدّ يبلغه

---

(١) من الآية ٢٧ من سورة الأنبياء.

(٢) أخرجه البخاري فى (التفسير ، باب إِنَّ الَّذِينَ يُنادُونَكَ مِنْ وَراءِ الْحُجُراتِ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ ح ٤٨٤٧).

(٣) ذكره البخاري فى (التفسير ، سورة الحجرات). وأخرجه الطبري (٢٦/ ١١٦).

(٤) أخرجه الطبري (٢٦/ ١١٧). وعزاه السيوطي فى الدر (٦/ ٨٦) لابن أبى الدنيا فى الأضاحى.

(٥) عزاه السيوطي فى الدر (٦/ ٨٦) لابن النّجار فى تاريخه ، والطبراني فى الأوسط ، وابن مردويه. هذا ، وما ذكره المفسر عن السيدة عائشة والحسن إنما هو داخل فى عموم الآية ، لا أنه سبب النّزول لأن ما ذكر عن السيدة عائشة والحسن مخالف للرواية الصحيحة الواردة فى سبب النّزول ، والتي أخرجها البخاري.

(٤١٤/٥)

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٤١٥

صوته صلّى اللّه عليه وسلم ، بل يكون كلامه عاليا لكلامكم ، وجهره باهرا لجهركم ، حتى تكون مزيّته عليكم لائحة ، وسابقته لديكم واضحة.

وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ إذا كلمتموه كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أي : جهرا كائنا كالجهر الجاري فيما بينكم ، بل اجعلوا أصواتكم أخفض من صوته ، واختاروا فى مخاطبته القول اللين القريب من الهمس ، كما هو الدأب فى مخاطبة المهاب المعظّم ، وحافظوا على مراعاة هيبة النّبوة وجلالة مقدارها. وقيل : معنى : لا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ : لا تقولوا : يا محمد ، يا أحمد ، بل : يا رسول اللّه. يا نبى اللّه ، ولمّا نزلت هذه الآية ما كلم رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم أبو بكر إلا كأخى السّرار «١».

وعن ابن عباس رضي اللّه عنه : أنها نزلت فى ثبات بن قيس بن شماس ، وكان فى أذنيه وقر ، وكان جهوريّ الصوت ، وكان إذا تكلم رفع صوته ، وربما كان يكلّم النّبيّ صلّى اللّه عليه وسلم فيتأذى من صوته. هـ. والصحيح ما تقدم. وفى الآية أنهم [لم] «٢» ينهوا عن الجهر مطلقا ، وإنما نهوا عن جهر مخصوص ، أي : الجهر المنعوت بمماثلة ما اعتادوه فيما بينهم ، وهو الخلوّ عن مراعاة هيبة النّبوة ، وجلالة مقدارها.

وقوله : أَنْ تَحْبَطَ أَعْمالُكُمْ مفعول من أجله ، أي : لا تجهروا خشية أن تحبط أعمالكم ، وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ فإنّ سوء الأدب ربما يؤدى بصاحبه إلى العطب وهو لا يشعر. ولمّا نزلت الآية جلس ثابت بن قيس فى بيته ولم يخرج ، فتفقّده صلّى اللّه عليه وسلم ، فدعاه فسأله ، فقال : يا رسول اللّه لقد أنزلت عليك هذه الآية ، وإنى رجل جهير الصوت ، فأخاف أن يكون عملى قد حبط ، فقال له صلّى اللّه عليه وسلم : «لست هناك ، تعيش بخير ، وتموت بخير ، وإنك من أهل الجنة» «٣».

وأما ما يروى عن الحسن : أنها نزلت فى المنافقين ، الذي كانوا يرفعون أصواتهم فوق صوته صلّى اللّه عليه وسلم فقد قيل :

محمله : أنّ نهيهم مندرج تحت نهى المؤمنين بدليل النّص.

إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْواتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أي : يخفضون أصواتهم فى مجلسه ، تعظيما له ، وانتهاء

عما نهوا عنه ، أُولئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوى أي : أخلصها وصفّاها ، من قولهم : امتحن الذهب وفتنه : إذا أذابه ، وفى القاموس : محنه ، كمنعه : اختبره ، كامتحنه ، ثم قال : وامتحن القول : نظر فيه ودبّره ، واللّه قلوبهم : شرحها ووسّعها ، وفى الأساس : ومن المجاز : محن الأديم : مدّده حتى وسعه ، وبه فسّر قوله تعالى :

---

(١) أخرجه الحاكم (٢/ ٤٦٢) «وصحّحه على شرط مسلم ، وأقره الذهبي» ، والبيهقي فى الشعب (رقم ١٥٢٠ و١٥٢١) عن أبى هريرة رضي اللّه عنه.

(٢) فى الأصول : [لن].

(٣) أخرجه بمعناه البخاري فى (المناقب ، باب علامات النّبوة فى الإسلام ح ٣٦١٣) ومسلم فى (الإيمان ، باب مخافة المؤمن أن يحبط عمله ، رقم ١٨٧ ح ١١٩) من حديث أنس بن مالك رضي اللّه عنه.

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٤١٦

امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوى أي : شرحها ووسعها ، لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ أي : مغفرة لذنوبهم ، وأجر عظيم : نعيم الجنان.

الإشارة : على هذه الآية والتي بعدها اعتمد الصوفية فيما دوّنوه من آداب المريد مع الشيخ ، وهى كثيرة أفردت بالتأليف ، وقد جمع شيخنا البوزيدى الحسنى رضي اللّه عنه كتابا جليلا جمع فيه من الآداب ما لم يوجد فى غيره ، فيجب على كلّ مريد طالب للوصول مطالعته والعمل بما فيه.

والذي يؤخذ من الآية : أنه لا يتقدم بين يدى شيخه بالكلام ، لا سيما إذا سأله أحد ، فمن الفضول القبيح أن يسبق شيخه بالجواب ، فإنّ السائل لا يرضى بجواب غير الشيخ ، مع ما فيه من إظهار علمه ، وإشهار شأنه ، والتقدم على شيخه. ومن ذلك أيضا : ألّا يقطع أمرا دون مشورته ، ما دام تحت الحجرية ، وألّا يتقدم أمامه فى المشي إلا بإذنه ، وأن يغضّ صوته عند حضوره ، بل لا يتكلم إلا أن يأذن له فى الكلام ، ويكون بخفض صوت وتعظيم.

قلت : وما زالت أشياخنا تأمرنا بالتكلم عند المذاكرة إذ بالكلام تعرف أحوال الرّجال ، وسمعت شيخ شيخنا ، مولاى العربي الدرقاوى الحسنى رضي اللّه عنه يقول : حكّونا فى المذاكرة ليظهر العلم ، وكونوا معنا كما قال القائل : حك لى نربل لك ، لا كما قال القائل : سفّج لى نعسل لك. هـ. لكن يكون بحثه مع الشيخ على وجه الاسترشاد والاستعلام ، من غير معارضة ولا جدال ، وإلا فالسكوت

أسلم.

قال القشيري : لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ : لا تعملوا فى أمر الدين من ذات أنفسكم شيئا ، وقّفوا حيثما وقفتم ، وافعلوا ما به أمرتم ، أي : اعملوا بالشرع لا بالطبع فى طلب الحق ، وكونوا من أصحاب الاقتداء والاتباع ، لا من أرباب الابتداء أو الابتداع.

وقال فى قوله تعالى : لا تَرْفَعُوا أَصْواتَكُمْ ... الآية ، يشير إلى أنه من شرط المؤمن : ألا يرى رأيه وعقله واختياره فوق رأى النّبى والشيخ ، ويكون مستسلما لرأيه ، ويحفظ الأدب فى خدمته وصحبته ، وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أي : لا تخاطبوه كخطاب بعضكم لبعض ، بل خاطبوه بالتعظيم والتبجيل ، ولا تنظروا إليه بالعين التي تنظرون إلى أمثالكم ، وإنه لحسن خلقه قد يلاعبكم ، فلا تنبسطوا معه ، متجاسرين عليه بما يعاشركم من خلقه ، ولا تبدأوه بحديث حتى يفاتحكم ، أن تحبط أعمالكم بسوء أدبكم ، وأنتم لا تشعرون. إنّ الذين يغضون أصواتهم عند رسول اللّه وعند شيخه أولئك الذين امتحن اللّه قلوبهم للتقوى ، أي :

انتزع عنها حبّ الشهوات ، وصفّاها من دنس سوء الأخلاق ، وتخلقت بمكارم الأخلاق ، حتى انسلخت من عادات البشرية «١». هـ.

---

(١) بالمعنى

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٤١٧

وقال فى القوت : الوقاية مقرونة بالنصرة فإذا تولّاه نصره على أعدائه ، وأعدى عدوه نفسه ، فإذا نصره عليها ، أخرج الشهوة منها ، فامتحن قلبه للتقوى ، ومحّض نفسه ، فخلّصها من الهوى .. هـ.

ثم ذكر من لم يستعمل الأدب مع الحضرة النّبوية ، فقال :

[سورة الحجرات (٤٩) : الآيات ٤ الى ٥]

إِنَّ الَّذِينَ يُنادُونَكَ مِنْ وَراءِ الْحُجُراتِ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ (٤) وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكانَ خَيْراً لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٥)

يقول الحق جل جلاله : إِنَّ الَّذِينَ يُنادُونَكَ مِنْ وَراءِ الْحُجُراتِ من خارجها ، أو : من خلفها ، أو : من أمامها ، فالوراء : الجهة التي توارى عنك الشخص تظلّله من خلف أو من قدّام ، و«من» لابتداء الغاية ، وأنّ المناداة نشأت من ذلك المكان ، والحجرة : الرقعة من الأرض ، المحجورة بحائط يحوط عليها ، فعلة ، بمعنى مفعولة ، كالقبضة ، والجمع : حجرات ، بضمتين ، وبفتح الجيم ، والمراد :

حجرات النّبى صلّى اللّه عليه وسلم ، وكان لكلّ امرأة حجرة.
نزلت فى وفد بنى تميم ، وكانوا سبعين ، وفيهم عينية بن حصن الفزاري ، والأقرع بن حابس ، وفدوا على النبي صلّى اللّه عليه وسلم وقت الظهيرة ، وهو راقد ، فنادوا رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم من وراء حجراته ، وقالوا : اخرج إلينا يا محمد فإنّ مدحنا زين ، وذمّنا شين ، فاستيقظ ، وخرج عليه السّلام وهو يقول : «ذلكم اللّه الذي مدحه زين ، وذمّه شين» ، فقالوا : نحن قوم من بنى تميم ، جئنا بشاعرنا وخطيبنا ، لنشاعرك ، ونفاخرك ، فقال صلّى اللّه عليه وسلم : «ما بالشعر بعثت ، ولا بالفخار أمرت» ، ثم أمر صلّى اللّه عليه وسلم خطيبهم فتكلّم ، ثم قال لثابت بن قيس بن شماس – وكانخطيب النّبى صلّى اللّه عليه وسلم : قم ، فقام ، فخطب ، فأفحم خطيبهم ، ثم قام شاب منهم ، فأنشأ يقول :

نحن الكرام فلا حىّ يعادلنا فينا الرّؤوس وفينا يقسم الرّبع
ونطعم النّاس عند القحط كلّهم إنّا كذلك عند الفخر نرتفع «١»

---

(١) هكذا جاء فى الأصول ، أما فى البحر المحيط (٨/ ١٠٦ – ١٠٧) وأسباب النّزول للواحدى (ص ٤٠٥) وغيرهما من المصادر ، فذكروا بعد البيت الأول :
ونطعم النّاس عند القحط كلهم من السديف إذا لم يؤنس الفزع
إذا أبينا فلا يأبى لنا أحد إنا كذلك عند الفخر نرتفع.

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٤١٨
فقال صلّى اللّه عليه وسلم لحسّان : قم فأجبه ، فقال :
إنّ الذوائب من فهر وإخوتهم قد شرّعوا سنّة للناس تتبع
يرضى بها كلّ من كانت سريرته تقوى الإله وكلّ الفخر يصطنع «١»
ثم قال الأقرع شعرا افتخر به ، فقال عليه السّلام – لحسّان ، قم فأجبه ، فقال حسّان :
بنى دارم ، لا تفخروا ، إنّ فخركم يعود وبالا عند ذكر المكارم
هبلتم ، علينا تفخرون وأنتم لنا خول من بين ظئر وخادم «٢»
فقال صلّى اللّه عليه وسلم : «لقد كنت غنيا عن هذا يا أخا بنى دارم أن يذكر منك ما قد ظننت أن النّاس قد نسوه» ، ثم قال الأقرع : تكلم خطيبنا ، فكان خطيبهم أحسن قيلا ، وتكلم شاعرنا فكان شاعرهم أشعر. هـ «٣».

هذا ومناداتهم من وراء الحجرات إما لأنهم أتوها حجرة حجرة ، فنادوه صلّى اللّه عليه وسلم من ورائها ، أو : بأنهم تفرقوا على الحجرات متطلبين له صلّى اللّه عليه وسلم ، أو : نادوه من وراء الحجرة التي كان فيها ، ولكنها جمعت إجلالا لرسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم. وقيل :

الذي ناداه عيينة بن حصن والأقرع ، وإنما أسند إلى جميعهم لأنهم راضون بذلك وأمروا به. أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ ، إذ لو كان لهم عقل لما تجاسروا على هذه العظيمة من سوء الأدب.

وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا أي : ولو تحقق صبرهم وانتظارهم ، فمحل (أنهم صبروا) رفع على الفاعلية لأنّ «أن» تسبك بالمصدر ، لكنها تفيد التحقق والثبوت ، للفرق بين قولك : بلغني قيامك ، وبلغني أنك قائم ، و«حتى» تفيد أن الصبر ينبغى أن يكون مغيّا بخروجه عليه السّلام ، فإنها مختصة بالغايات. والصبر : حبس النّفس على أن تنازع إلى هواها ، وقيل : «الصبر مرّ ، لا يتجرعه إلا حرّ». أي : لو تأنوا حتى تخرج إليهم بلا مناداة لكان الصبر خيرا لهم من الاستعجال ، لما فيه من رعاية حسن الأدب ، وتعظيم الرّسول ، الموجبتين للثناء والثواب ، والإسعاف بالمسئول إذ روى أنهم وفدوا شافعين فى أسارى بنى العنبر ، وذلك أنه صلّى اللّه عليه وسلم بعث سرية إلى حى بنى العنبر ، وأمّر عليهم عيينة

---

(١) انظر ديوان حسان بشرح البرقوقى ص ٣٠١. وفيه :

إن الذوائب من فهر وإخوتهم قد بينوا سنة للناس تتبع

يرضى بها كلّ من كانت سريرته تقوى الإله وبالأمر الذي شرعوا

(٢) انظر ديوان حسان ص ٤٣٧.

(٣) أخرجه الواحدي فى أسباب النّزول ص (٤٠٤ - ٤٠٦) عن جابر بن عبد اللّه. وعزاه الحافظ ابن حجر فى الكافي الشاف (ص ١٥٥ - ١٥٦ رقم ١٥) للثعلبى. وأخرج الجزء الأول من القصة ، الترمذي فى (التفسير ، باب ومن سورة الحجرات ، ح ٣٢٦٧) عن البراء بن عازب رضي اللّه عنه.

ابن حصن ، فهربوا وتركوا عيالهم ، فسباهم عيينة ، ثم قدم رجالهم يفدون الذراري ، فلما رأتهم الذرارىّ أجهشوا إلى آبائهم يبكون ، فعجلوا أن يخرج إليهم النّبى صلّى اللّه عليه وسلم ، فنادوه حتى أيقظوه من نومه ، فخرج إليهم ، فأطلق النّصف وفادى النصف «١» ، وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ بليغ المغفرة والرّحمة واسعهما ، فلن يضيق ساحتهما عن هؤلاء إن تابوا وأصلحوا.

الإشارة : من آداب المريد ألّا يوقظ شيخه من نومه ، ولو بقي ألف سنة ينتظره ، وألّا يطلب خروجه إليه

حتى يخرج بنفسه ، وألّا يقف قبالة باب حجرته لئلا يرى بعض محارمه. ومن آدابه أيضا : ألا يبيت معه فى مسكن واحد ، وألّا يأكل معه ، إلا أن يعزم عليه ، وألّا يجلس على فراشه أو سجّادته إلا بأمره ، وإذا تعارض الأمر والأدب ، فهل يقدّم الأمر أو الأدب؟ خلاف ، وقد تقدم فى صلح الحديبية : أن سيدنا عليا – كرم اللّه وجهه – قدّم الأدب على الأمر ، حين قال له صلّى اللّه عليه وسلم : «امح اسم رسول اللّه من الصحيفة» «٢» ، فأبى ، وقال : «واللّه لا أمحوك أبدا».

واللّه تعالى أعلم.

ومن جملة الأدب : التأنى فى الأمور وعدم العجلة ، كما أبان ذلك بقوله تعالى :

[سورة الحجرات (٤٩) : الآيات ٦ الى ٨]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جاءَكُمْ فاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلى ما فَعَلْتُمْ نادِمِينَ (٦) وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيانَ أُولئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ (٧) فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٨)

يقول الحق جل جلاله : يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جاءَكُمْ فاسِقٌ بِنَبَإٍ. نزلت فى الوليد بن عقبة بن أبى معيط ، وكان من فضلاء الصحابة – رضي اللّه عنه – بعثه النّبى صلّى اللّه عليه وسلم إلى بنى المصطلق ، بعد الوقعة مصدّقا ، وكان بينه وبينهم عداوة فى الجاهلية ، فخرجوا يتلقّونه ، تعظيما لأمر النّبى صلّى اللّه عليه وسلم ، فظن أنهم مقاتلوه فرجع ، وقال لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : قد ارتدوا ومنعوا الزكاة ، فهمّ صلّى اللّه عليه وسلم أن يغزوهم ، ثم أتوا النّبىّ صلّى اللّه عليه وسلم وأخبروه أنهم إنما خرجوا يتلقّونه تكرمة

---

(١) انظر تفسير البغوي (٧/ ٣٣٧). [.....]

(٢) راجع تفسير الآية ٢٦ من سورة الفتح.

فاتهمهم النّبى صلّى اللّه عليه وسلم وبعث إليهم «خالد بن الوليد» خفية مع عسكر ، وأمره أن يخفى عليهم قدومه ، ويتطلع عليهم ، فإن رأى ما يدلّ على إيمانهم أخذ زكاتهم ورجع ، وإن رأى غير ذلك استعمل فيهم ما يستعمل فى الكفار ، فسمع خالد فيهم آذان صلاتى المغرب والعشاء ، فأخذ صدقاتهم ، ولم ير منهم إلا الطاعة ، فنزلت الآية «١».

وسمّى الوليد فاسقا لعدم تثبّته فخرج بذلك عن كمال الطاعة ، وفى تسميته بذلك زجر لغيره ، وترغيب له فى التوبة ، واللّه تعالى أعلم بغيبه ، حتى قال بعضهم : إنها من المتشابه ، لما ثبت من تحقق إيمان الوليد. وقال أبو عمر فى الاستيعاب : لا يصح أن الآية نزلت فى قضية الوليد لأنه كان فى زمن النّبى صلّى اللّه عليه وسلم من «٢» ثمانية أعوام ، أو من عشرة ، فكيف يبعثه رسولا؟! «٣» هـ. قلت : لا غرابة فيه ، وقد كان صلّى اللّه عليه وسلم يؤمّر أسامة بن زيد على جيش ، فيه أبو بكر وعمر ، مع حداثة سنّه ، كما فى البخاري وغيره.

وفى تنكير (فاسق) و(نبأ) شياع فى الفسّاق والأنباء ، أي : إذا جاءكم فاسق أىّ فاسق كان ، بأيّ خبر

فَتَبَيَّنُوا أي : فتوقفوا فيه ، وتطلّبوا بيان الأمر وانكشاف الحقيقة ، ولا تعتمدوا قول من لا يتحرى الصدق ، ولا يتحامى الكذب ، الذي هو نوع من الفسوق.

وفى الآية دليل على قبول خبر الواحد العدل لأنا لو توقفنا فى خبره لسوّينا بينه وبين الفاسق ، ولخلا التخصيص به عن الفائدة. وقرأ الأخوان : «فتثبتوا» والتثبّت والتبيّن متقاربان ، وهما : طلب الثبات والبيان والتعرّف.

أَنْ تُصِيبُوا أي : لئلا تصيبوا قَوْماً بِجَهالَةٍ : حال ، أي : جاهلين بحقيقة الأمر وكنه القصة.

فَتُصْبِحُوا فتصيروا عَلى ما فَعَلْتُمْ نادِمِينَ مغتمين على ما فعلتم ، متمنين أنه لم يقع ، والنّدم : ضرب من الغم وهو أن يغتم على ما وقع ، يتمنى أنه لم يقع ، وهو غم يصحب الإنسان صحبة لها دوام فى الجملة.

وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ فلا تكذبوا ، فإن اللّه يخبره ، فيهتك سر الكاذب ، أو : فارجعوا إليه واطلبوا رأيه ، ثم استأنف بقوله : لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ لوقعتم فى العنت وهو الجهد والهلاك.

---

(١) أخرجه أحمد فى المسند (٤/ ٢٧٩) والطبراني فى الكبير (٣/ ٤٠١) والطبري (٢٦/ ١٢٣) وعبد الرّزاق فى التفسير (٢/ ٢٣١) وقال الهيثمي فى المجمع (٧/ ١١١) : «رواه الطبراني ، وفيه موسى بن عبيدة ، وهو ضعيف ، وانظر : تفسير ابن كثير (٤/ ٢٠٦ – ٢١٠) والفتح السماوي مع حاشية المحقق (٣/ ١٠٠١).

(٢) هكذا فى الأصول ، وأظنه : «ابن»

(٣) لم أقف عليه بهذا اللفظ ، ولا على معناه ، وإنما وجدت ما يفيد ترجيح ابن عبد البر بأن الوليد لم يكن غلاما فى هذا الوقت. راجع الاستيعاب (٤/ ١١٤). وهذا أيضا ما رجحه ابن حجر فى الإصابة (٣/ ٦٠١) حيث قال : قلت : ومما يؤيد أنه كان رجلا : أنه كان قدم فى فداء ابن عم أبيه «الحارث بن أبى وجزة بن أبى عمرو بن أمية» ، وكان أسر يوم بدر ، فافتداه بأربعة آلاف. حكاه أصحاب المغازي. هـ.

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٤٢١

والتعبير بالمضارع للدلالة على أنّ عنتهم إنما يلزم فى استمرار طاعته لهم فى كلّ ما يعرض من الأمور ، وأما طاعته فى بعض الأمور استئلافا لهم ، فلا. انظر أبا السعود. وهذا يدل على أنّ بعض المؤمنين زيّن لرسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم الإيقاع ببني المصطلق تصديقا لقول الوليد ، وأنّ بعضهم كانوا يتصوّنون ويتحرّجون الوقوع بهم تأنيا وتثبتا فى الأمر ، وهم الذين استثناهم اللّه بقوله :

وَلكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمانَ ، وأسنده إلى الكلّ تنبيها على أن أكثرهم تحرّجوا الوقوع بهم وتأنّوا ، وقيل : هم الذين امتحن اللّه قلوبهم للتقوى ، وهو تجديد للخطاب وتوجيه إلى بعضهم بطريق الاستدراك ، بيانا لبراءتهم عن أوصاف الأولين وإحمادا لأفعالهم ، أي : ولكنه – تعالى – جعل الإيمان محبوبا لديكم وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ حتى رسخ فيها ، ولذ كل صدر منكم ما يليق به من التثبت والتحرّج ، وحاصل الآية على هذا : واعلموا أنّ فيكم رسول اللّه ، فلا تقرّون معه على خطأ ، لو يطيعكم فى كثير من الأمر لعنتّم ، ولكنّ اللّه حبّب إلى بعضكم الإيمان ، فلا يأمر إلا بما هو صواب من التأنّى وعدم العجلة.

قلت : والأحسن فى معنى الاستدراك : أنّ التقدير : لو يطيعكم فى كثير من الأمر لعنتّم ، ولكن اللّه لا يقره على طاعتكم بل ينزل عليه الوحى بما فيه صلاحكم وراحتكم لأنّ اللّه حبّب إليكم الإيمان وزيّنه فى قلوبكم ، فلا يسلك بكم إلى ما يليق بشأنكم من الحفظ والعصمة.

ثم قال : وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيانَ ولذلك تحرجتم عمّا لا يليق مما لا يخير فيه مما يؤدى إلى عنتكم ، قال ابن عرفة : العطف فى هذه الآية تدلى فالكفر أشدّها ، والفسوق دونه ، والعصيان أخفّ لصدقه على ترك المندوبات ، حسبما نقل ذلك البغداديون وحملوا عليه ، ومن لم يجب الدعوة فقد عصى أبا القاسم. هـ.

أُولئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ أي : أولئك المستثنون ، أو : المتصفون بالإيمان ، المزيّن فى قلوبهم ، هم السالكون على طريق السّوى ، الموصل إلى الحق ، أي : أصابوا طريق الحق ، ولم يميلوا عن الاستقامة. والرّشد : الاستقامة على طريق الحق مع تصلّب فيه ، من : الرشادة ، وهى الصخرة الصماء.

فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً أي : إفضالا من اللّه وإنعاما عليهم مفعول من أجله ، أي : حبّب وكرّه للفضل والنّعمة عليهم وَاللَّهُ عَلِيمٌ مبالغ فى العلم ، فيعلم أحوال المؤمنين وما بينهم من التفاضل ، حَكِيمٌ يفعل ما يفعل لحكمة بالغة.

الإشارة : إن جاءكم خاطر سوء بنبإ سوء فتبينوا وتثبتوا ، ولا تبادروا بإظهاره ، خشية أن تصيبوا قوما بجهالة ، فتظنوا بهم السوء ، وتقعوا فى الغيبة ، فتصبحوا على ما فعلتم نادمين ، فالمنافق قلبه على

طرف لسانه ، إذا خطر فيه شيء نطق به ، فهذا هالك ، والمؤمن لسانه من وراء قلبه ، إذا خطر شيء نظر فيه ، ووزنه بميزان الشرع ، فإن كان

(٤٢١/٥)

فيه مصلحة نطق به ، وإلا ردّه وكتمه ، فالواجب : وزن الخواطر بالقسطاس المستقيم ، فلا يظهر منها إلا ما يعود عليه منفعته.

وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ ، قد بيّن لكم ما تفعلون وما تذرون ، ظاهرا وباطنا ، ومن اتصل بخليفة الرّسول ، وهو الشيخ حكّمه على نفسه ، فإن خطر فى قلبه شيء يهمّ أمره عرضه عليه ، والشيخ ينظر بعين البصيرة ، لو يطيعكم فى كثير من أمركم التي تعزمون عليها لعنتّم ، ولكنّ اللّه حبب إليكم الإيمان ، وزيّنه فى قلوبكم ، فتستمعون لما يأمركم به ، وتمتثلون أمره ، وكرّه إليكم الكفر والفسوق الخروج عن أمره ونهيه ، والعصيان لما يأمركم به ، فلا ترون إلا ما يسرّكم ، ويفضى بكم إلى السهولة والرّاحة ، فضلا من اللّه ونعمة ، فإنّ السقوط على الشيخ إنما هو محض فضل وكرم ، فللّه الحمد وله الشكر دائما سرمدا.

وللقشيرى إشارة أخرى ، قال : إن جاءكم فاسق بنبإ يشير إلى تسويلات النّفوس الأمّارة بالسوء ، ومجيئها كل ساعة بنبإ شهوة من شهوات الدنيا فتبينوا ربحها من خسرانها ، من قبل أن تصيبوا قوما من القلوب وصفائها بجهالة ، فإنّ ما فيه شفاء النّفوس وحياتها فيه مرض القلوب ومماتها فتصبحوا صباح القيامة على ما فعلتم نادمين ، واعلموا أن فيكم رسول اللّه ، يشير إلى رسول الإلهام فى أنفسكم ، يلهمكم فجور نفوسكم وتقواها ، لو يطيعكم فى كثير من أمر النّفس الأمّارة ، لعنتم لوقعتم فى الهلاك ، ولكنّ اللّه حبّب إليكم الإيمان بالإلهامات الرّبانية ، وزيّنه فى قلوبكم بقلم الكرم ، وكرّه بنور نظر العناية إليكم الكفر ، والفسوق : هو ستر الحق والخروج إلى الباطل ، والعصيان ، وهو الإعراض عن طلب الحق ، أولئك هم الرّاشدون إلى الحق بإرشاد الحق ، فضلا من اللّه ونعمة منه ، ينعم به على من شاء من عباده ، واللّه عليم حكيم «١». هـ.

ثم أمر الرّاشدين المتقدمين بالإصلاح بين النّاس ، إذ لا ينجح فى الغالب إلا على أيديهم ، فقال :

[سورة الحجرات (٤٩) : الآيات ٩ الى ١٠]

وَإِنْ طائِفَتانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُما فَإِنْ بَغَتْ إِحْداهُما عَلَى الْأُخْرى فَقاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُما بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٩) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٠)

(١) لم أقف على هذا النّص فى محله من لطائف الإشارات.

(٤٢٢/٥)

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٤٢٣

يقول الحق جل جلاله : وَإِنْ طائِفَتانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا أي : تقاتلوا. والجمع باعتبار المعنى لأن كل طائفة جمع كقوله : هذانِ خَصْمانِ اخْتَصَمُوا «١» ، فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُما بالنصح والدعاء إلى حكم اللّه تعالى ، فَإِنْ بَغَتْ إِحْداهُما عَلَى الْأُخْرى ولم تتأثر بالنصيحة فَقاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ ترجع إِلى أَمْرِ اللَّهِ إلى حكمه ، أو : إلى ما أمر به من الصلح وزوال الشحناء ، والفيء : الرجوع ، وقد يسمى به الظل والغنيمة ، لأن الظل يرجع بعد نسخ الشمس ، والغنيمة ترجع من أيدى الكفار إلى المسلمين.

وحكم الفئة الباغية : وجوب قتالها ، فإذا كفّت عن القتال أيديها تركت. قال ابن جزى : وأمر اللّه فى هذه الآية بقتال الفئة الباغية وذلك إذا تبيّن أنها باغية ، فأما الفتن التي تقع بين المسلمين فاختلف العلماء فيها على قولين ، أحدهما : أنه لا يجوز النّهوض ، فى شيء منها ولا القتال ، وهذا مذهب سعد بن أبى وقاص ، وأبى ذر ، وجماعة من الصحابة ، وحجتهم حديث : «قتال المسلم كفر» «٢» ، وحديث : الأمر بكسر السيوف فى الفتن ، والقول الثاني :

النهوض فيها واجب ، لتكف الفئة الباغية ، وهذا مذهب علىّ ، وعائشة ، وطلحة ، وأكثر الصحابة ، وهو مذهب مالك وغيره من الفقهاء ، وحجتهم هذه الآية. فإذا فرّعنا على القول الأول ، فإن دخل داخل على من اعتزل الفرقتين منزله يريد نفسه أو ماله فعليه دفعه ، وإن أدّى ذلك إلى قتله لحديث : «من قتل دون نفسه وماله فهو شهيد» «٣».

وإذا فرّعنا على الثاني ، فاختلف مع من يكون النّهوض من الفئتين؟ فقيل : مع السواد الأعظم ، وقيل : مع العلماء ، وقيل : مع من يرى أنّ الحق معه. هـ.

قلت : إذا وقعت الحرب بين القبائل فمن تعدّت تربتها إلى تربة غيرها فهى باغية ، يجب كفّها ، وإذا وقعت بين الحدود فالمشهور : النهوض ، ثم يقع السؤال عن السبب فمن ظهر ظلمه وجب كفّه ، فإن أشكل الأمر ، فالإمساك عن القتال أسلم. واللّه تعالى أعلم.

فَإِنْ فاءَتْ عن البغي ، وأقلعت عن القتال فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُما بِالْعَدْلِ بفصل ما بينهما على حكم اللّه تعالى ، ولا تكتفوا بمجرد متاركتهما لئلا يكون بينهما قتال فى وقت آخر ، وتقييد الإصلاح بالعدل لأنه مظنة الحيف لوقوعه بعد المقاتلة ، وقد أكد ذلك بقوله : وَأَقْسِطُوا أي : واعدلوا فى كلّ ما تأتون وما تذرون ،

(١) من الآية ١٩ من سورة الحج.

(٢) أخرجه أحمد فى المسند ، (١/ ١٧٨) والترمذي فى (الإيمان ، باب سباب المؤمن فسوق ، ح ٢٦٣٤) والنّسائى فى (تحريم الدم ، باب قتال المسلم) من حديث ابن مسعود رضي اللّه عنه.

(٣) أخرجه البخاري فى (المظالم ، باب من قاتل دون ماله ح ٢٤٨٠) من حديث عبد اللّه بن عمرو بن العاص ، بلفظ : «من قتل دون ماله فهو شهيد». وأخرجه أبو داود فى (السنة ، باب فى قتال اللصوص ح ٤٧٧٢) والترمذي فى (الديات ، باب من قاتل دون ماله ح ١٤٢١) وكذا ابن ماجة والنّسائى ، من حديث سعيد بن زيد ، بلفظ : «من قتل دون ماله فهو شهيد ، ومن قتل دون دينه فهو شهيد ، ومن قتل دون دمه فهو شهيد ، ومن قتل دون أهله فهو شهيد».

(٤٢٣/٥)

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٤٢٤

إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ العادلين ، فيجازيهم أحسن الجزاء ، والقسط بالفتح : الجور ، وبالكسر : العدل ، والفعل من الأول : قسط فهو قاسط : جار ، ومن الثاني : أقسط فهو مقسط : عدل ، وهمزته للسلب ، أي : أزال القسط ، أي : الجور.

والآية نزلت فى قتال حدث بين الأوس والخزرج ، وذلك أنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم ذهب يعود سعد بن عبادة ، فمرّ بمجلس من الأنصار ، فيه أخلاط من المسلمين والمنافقين ، فوقف صلّى اللّه عليه وسلم على المجلس ، ووعظ وذكّر ، فقال عبد اللّه ابن أبى : يا هذا ، لا تؤذنا فى مجالسنا ، واجلس فى موضعك ، فمن جاءك فاقصص عليه ، فقال عبد اللّه بن رواحة : بل أغشنا يا رسول اللّه وذكّرنا ، فارتفعت أصواتهما ، وتضاربوا بالنعال ، فنزلت الآية ، وقيل غير ذلك «١».

وفى الآية دليل على أنّ الباغي لا يخرج ببغيه عن الإيمان ، وأنه يجب نصرة المظلوم ، وعلى فضيلة الإصلاح بين النّاس.

إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ أي : منتسبون إلى أصل واحد ، وهو الإيمان الموجب للحياة الأبدية ، فيجب الاجتهاد فى التآلف بينهما لتحقق الأخوة. والفاء فى قوله : فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ للإيذان بأنّ الأخوة الدينية موجبة للإصلاح. ووضع المظهر مقام المضمر مضافا إلى المأمورين للمبالغة فى تأكيد وجوب الإصلاح والتحضيض عليه ، وتخصيص الاثنين بالذكر لإثبات وجوب الإصلاح فيما فوق ذلك بطريق الأولى لتضاعف الفتنة والفساد فيه. وقيل : المراد بالأخوين : الأوس والخزرج. وقرأ يعقوب : «إخوتكم» بالجمع. وَاتَّقُوا اللَّهَ فيما تأتون وتذرون ، التي من جملتها : الإصلاح بين النّاس لَعَلَّكُمْ

تُرْحَمُونَ راجين أن ترحموا على تقواكم ، لأن التقوى تحملكم على التواصل والائتلاف ، وهو سبب نزول الرّحمة.

الإشارة : النفس الطبيعية والرّوح متقابلان ، والحرب بينهما سجال ، فالنفس تريد السقوط إلى أرض الحظوظ والبقاء مع عوائدها ، والرّوح تريد العروج إلى سماء المعارف وحضرة الأسرار ، وبينما اتصال والتصاق ، فإن غلبت النفس هبطت بالروح إلى الحضيض الأسفل ، ومنعتها من العلوم اللدنية والأسرار الرّبانية ، وإن غلبت الرّوح ، عرجت بالنفس إلى أعلى عليين ، بعد تزكيتها وتصفيتها ، فتكسوها حلة الرّوحانية ، وينكشف لها من العلوم والأسرار ما كان للروح ، ولكلّ جند تقابل به ، فيقال من طريق الإشارة : وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما ، بأن تؤخذ

---

(١) والذي فى الصحيح : ما أخرجه البخاري فى (الصلح ، باب ما جاء فى الإصلاح بين النّاس ، ح ٢٦٩١) ومسلم فى (الجهاد والسير ، باب فى دعاء النّبى صلّى اللّه عليه وسلم وصبره على أذى المنافقين ح ١٧٩٩) عن أنس بن مالك قال : قيل للنبى صلّى اللّه عليه وسلم : لو أتيت عبد اللّه بن أبيّ؟ قال : فانطلق إليه ، وركب حمارا ، وانطلق المسلمون ، وهى أرض سبخة ، فلما أتاه النّبى صلّى اللّه عليه وسلم قال : إليك عنى ، فو اللّه لقد آذاني نتن حمارك. فقال رجل من الأنصار : واللّه لحمار رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم أطيب ريحا منك ، قال : فغضب لعبد اللّه رجل من قومه. قال : فغضب لكلّ واحد منهما أصحابه ، قال : فكان بينهم ضرب بالجريد وبالأيدى وبالنعال ، قال : فبلغت أنها نزلت فيهم :

وَإِنْ طائِفَتانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُما.

(٤٢٤/٥)

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٤٢٥

النفس بالسياسة شيئا فشيئا ، ينقص من حظوظها شيئا فشيئا ، حتى تتزكى وتعالج الرّوح لدخول الحضرة ، وعكوف الهم فى الذكر شيئا فشيئا ، حتى تدخل الحضرة وهى لا تشعر ، ثم تشعر ويقع الاستغراق. وأما إن قطعت النّفس عن جميع مألوفاتها مرة واحدة ، أو كلفت الرّوح الحضور فى الذكر على الدوام مرة واحدة ، أفسدتهما ، لقوله : صلى اللّه عليه وسلم :

«ادخلوا فى هذا الدين برفق ، فما شاد أحدكم الدين إلا غلبه» «١» وقال أيضا : «لا يكن أحدكم كالمنبت ، لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى» «٢» فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغى ، بأن تردع النّفس إن طغت ، وتأخذ لجام الروح إن هاجت ، حتى تفيء إلى أمر اللّه ، وهو الاعتدال ، فيعطى

كلّ ذى حق حقه ، ويوفى كلّ ذى قسط قسطه.

وقوله تعالى : إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ قال الورتجبي : افهم أيها العاقل أن اللّه سبحانه خلق الأرواح المقدسة من عالم الملكوت ، وألبسها أنوار الجبروت فمواردها من قربه مختلفة ، لكن عينها واحدة ، وخلق هياكلها وأشباحها من تربة الأرض التي أخلصها من جملتها ، وزيّنها بنور قدرته ، ونفخ فيها تلك الأرواح ، [وجعل من الأرواح والأجسام النفوس] «٣» الأمّارة التي ليست من قبيل الأرواح ، ولا من قبيل الأجسام ، وجعلها مخالفة للأرواح ومساكنها ، فأرسل اللّه عليها جند العقول ، يدفع بها شرّها ، فإذا امتحن اللّه عباده المؤمنين هيّج نفوسهم الأمّارة ليظهر حقائق درجاتهم من الإيمان ، فأمرهم أن يعينوا العقل والرّوح والقلب على النّفس حتى تنهزم لأن المؤمنين كالبنيان يشد بعضهم بعضا.

ثم بيّن أنّ فى الإصلاح بين الإخوان الفلاح والنّجاة ، إذا كان مقرونا بالتقوى التي تقدس البواطن من البغي والحسد بقوله : (و اتقوا اللّه لعلكم ترحمون) فإذا فهمت ما ذكرت علمت أنّ حقيقة الأخوة مصدر الاتحاد ، فإنهم كنفس واحدة لأن مصادرهم مصدر واحد ، [وهو] «٤» آدم ، ومصدر روح آدم نور الملكوت ، ومصدر جسمه تربة الجنة فى بعض الأقوال. لذلك يصعد الرّوح إلى الملكوت ، والجسم إلى الجنة ، كما قال صلّى اللّه عليه وسلم : «كل شيء يرجع إلى أصل «٥»». هـ. قلت : صعود الرّوح إلى الملكوت هو شهود معانى الأسرار فى دار الجنة ، ونزول الجسم إلى الجنة هو تمتعه بنعيم حسها فى عالم الأشباح ، وكلّ ذلك بعد الموت ، وأحسن العبارة أن يقال : لأن مصادرهم مصدر واحد ، وهو بحر الجبروت ، المتدفق بأنوار الملكوت ، والوجود بأسره موجة من بحر الجبروت.

---

(١) يريد الشيخ حديث : «إن الدين يسر ، ولن يشادّ الدين أحد إلا غلبه ...» الحديث أخرجه البخاري فى (الإيمان ، باب الدين يسر ، ح ٣٩) من حديث أبى هريرة رضي اللّه عنه.

(٢) سبق تخريج الحديث عند تفسير الآية ٢٣ من سورة الجاثية

(٣) عبارة الورتجبي : [وجعل بين الأرواح والأجسام والنّفوس].

(٤) فى الأصول : [بنوا] والمثبت من الورتجبي.

(٥) على هامش النّسخة الأم مايلى : لعله يريد : «كل ميسر لما خلق له» أما بهذا اللفظ فلا نراه وارد. واللّه أعلم. هـ. [.....]

ثم قال الورتجبي : قال أبو بكر النّقاش : سألت الجنيد عن الأخ الحقيقي؟ فقال : هو أنت فى الحقيقة

، غير أنه غيرك فى الهيكل. قلت : يعنى أن النّاس فى الحقيقة ذات واحدة ، وما افترقوا إلا فى الهياكل ، فكلهم أخوة. وقال أبو عثمان الحيرى : أخوة الدين أثبت من أخوة النّسب ، فإن أخوة النّسب تقطع بمخالفة الدين ، وأخوة الدين لا تقطع بمخالفة النّسب. هـ. وتقدم لنا شروط الأخوة فى قوله تعالى : الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ ... الآية «١».

وقال القشيري هنا : ومن حق الأخوة ألا تلجأه إلى الاعتذار ، بل تبسط عذره ، أي : تذكر عذره قبل أن يعتذر ، فإن أشكل عليك وجهه عدت بالملامة على نفسك فى خفاء عذره عليك ، وتتوب عليه إذا أذنب ، وتعوده إذا مرض ، وإذا أشار عليك بشيء فلا تطالبه بالدليل وإيراد الحجة ، كما أنشدوا : إذا استنجدوا لم يسألوا من دعاهم لأيّة حرب أم لأىّ مكان «٢». هـ.

ومن أوكد شروطها «٣» : التعظيم ، كما أبان ذلك بقوله تعالى :

[سورة الحجرات (٤٩) : آية ١١]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسى أَنْ يَكُونُوا خَيْراً مِنْهُمْ وَلا نِساءٌ مِنْ نِساءٍ عَسى أَنْ يَكُنَّ خَيْراً مِنْهُنَّ وَلا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلا تَنابَزُوا بِالْأَلْقابِ بِئْسَ الاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (١١)

يقول الحق جل جلاله : يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسى أَنْ يَكُونُوا خَيْراً مِنْهُمْ أي : عسى أن يكون المسخور منهم خيرا عند اللّه – تعالى – من الساخرين لأن النّاس لا يطّلعون إلا على الظواهر ، وهو تعليل للنهى ، والقوم خاص بالرجال لأنهم القوامون على النّساء ، وهو فى الأصل : جمع قائم ، كصوم وزور ، فى جمع صائم وزائر ، واختصاص القوم بالرجال صريح فى الآية إذ لو كانت النّساء داخلة فى الرّجال ، لم يقل :

وَلا نِساءٌ مِنْ نِساءٍ ، وحقق ذلك زهير فى قوله :

وما أدرى وسوف إخال أدرى أقوم آل حصن أم نساء؟ «٤»

وأمّا قولهم فى قوم فرعون ، وقوم عاد : هم الذكور والإناث ، فليس لفظ القوم شاملا لهم ، ولكن قصد ذكر الذكور ، والإناث تبع لهم.

---

(١) الآية ٦٧ من سورة الزخرف.

(٢) البيت ينسب إلى وداك بن ثميل المازني. كما فى العقد الفريد (٥/ ٢٠٢) ، ونهاية الأرب (٣/ ٢٢٩).

(٣) أي : الأخوة.

(٤) حيث أراد بالقوم الرّجال دون النّساء. والبيت من الوافر. انظر ديوان زهير (١٢) والمغني (١/ ٤١).

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٤٢٧

وَلا يسخر نِساءٌ مؤمنات مِنْ نِساءٍ منهن عَسى أَنْ يَكُنَّ أي : المسخور منهن خَيْراً مِنْهُنَّ أي : الساخرات ، فإنّ مناط الخيرية فى الفريقين ليس ما يظهر من الصور والأشكال ، والأوضاع والأطوار ، التي عليها يدور أمر السخرية ، وإنما هى الأمور الكامنة فى القلوب ، من تحقيق الإيمان ، وكمال الإيقان ، وموارد العرفان ، وهى خفيّة ، فقد يصغّر العبد من عظّم اللّه ، ويتحقر من وقّره اللّه ، فيسقط من عين اللّه ، فينبغى ألا يجترئ أحد على الاستهزاء بأحد إذا رآه رثّ الحال ، أو ذا عاهة فى بدنه ، ولو فى دينه ، فلعله يتوب ويبتلى بما ابتلى به. وفى الحديث : «لا تظهر الشماتة لأخيك فيعافيه اللّه ويبتليك» «١». وعن ابن مسعود رضي اللّه عنه : البلاء موكّل بالقول ، لو سخرت من كلب لخشيت أن أحوّل كلبا. هـ.

وتنكير القوم والنّساء إما لإرادة البعض ، أي : لا يسخر بعض المؤمنين والمؤمنات من بعض ، وإما لإرادة الشيوع ، وأن يصير كلّ جماعة منهم منهية عن السخرية ، وإنما لم يقل : رجل من رجل ، ولا امرأة من امرأة إعلاما بإقدام غير واحد من رجالهم وغير واحدة من نسائهم على السخرية ، واستفظاعا للشأن الذي كانوا عليه.

وَلا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ ولا يعيب بعضكم بعضا بالطعن فى نسبه أو دينه ، واللمز : الطعن والضرب باللسان ، والمؤمنون كنفس واحدة ، فإذا عاب المؤمن المؤمن فقد عاب نفسه. وقيل : معناه : لا تفعلوا ما تلمزون به أنفسكم بالتعرض للكلام لأن من فعل ما استحق به اللمز فقد لمز نفسه حقيقة. وَلا تَنابَزُوا بِالْأَلْقابِ أي : لا يدع بعضكم بعضا بلقب السوء ، فالتنابز بالألقاب : التداعي بها. والتلقيب المنهي عنه ما يدخل على المدعوّ به كراهية ، لكونه تقصيرا به وذمّا له ، فأمّا ما يحبه فلا بأس به ، وكذا ما يقع به التمييز ، كقول المحدّثين : حدثنا الأعمش والأحدب والأعور.

روى أن قوما من بنى تميم استهزأوا ببلال وخبّاب وعمّار وصهيب ، فنزلت «٢». وعن عائشة – رضي اللّه عنها – أنها كانت تسخر من زينب بنت خزيمة ، وكانت قصيرة. وعن أنس : عيّرت نساء النّبى صلّى اللّه عليه وسلم أمّ سلمة بالقصر ، فنزلت «٣». وروى : أنها نزلت فى ثابت بن قيس ، وكان به وقر – أي : صمم – فكانوا يوسّعون له فى مجلس رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، فأتى قوما وهو يقول : تفسّحوا ، حتى انتهى إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم فقال لرجل : تنحّ فلم يفعل ، فقال : من هذا؟

فقال : أنا فلان ، فقال : فلان بن فلانة – يريد أمّا كان يعير بها فى الجاهلية ، فخجل الرّجل ، فنزلت ، فقال ثابت : واللّه لا أفخر على أحد بعد هذا أبدا «٤».

(١) أخرجه الترمذي فى (صفة القيامة والرّقائق ، باب ٥٤ ، ح ٢٥٠٦) من حديث واثلة بن الأسقع رضي اللّه عنه. وقال الترمذي : «حديث حسن غريب».

(٢) عزاه السيوطي فى الدر (٦/ ٩٦ – ٩٧) لابن أبى حاتم ، عن مقاتل.

(٣) ذكره الواحدي فى أسباب النّزول (ص ٤٠٩).

(٤) ذكره البغوي فى تفسيره ٧٠/ ٣٤٢ – ٣٤٣) عن ابن عباس رضي اللّه عنه.

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٤٢٨

وقال ابن زيد : معنى وَلا تَنابَزُوا بِالْأَلْقابِ لا يقل أحد : يا يهودى ، بعد إسلامه ، ولا يا فاسق ، بعد توبته.

بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمانِ يعنى : أن اللقب بئس الاسم هو ، وهو ارتكاب الفسق بعد الإيمان ، وهو استهجان للتنابز بالألقاب ، وارتكاب هذه الجريمة بعد الدخول فى الإسلام ، أو : بئس قول الرّجل لأخيه : يا فاسق ، بعد توبته ، أو : يا يهودى ، بعد إيمانه ، أي : بئس الرّمى بالفسوق بعد الإيمان.

روى : أنّ الآية نزلت فى صفية بنت حيى ، أتت رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم فقالت : إن النّساء يقلن لى : يا يهودية بنت يهوديّين ، فقال صلّى اللّه عليه وسلم : «هلّا قلت : إن أبى هارون ، وعمى موسى ، وزوجى محمد صلّى اللّه عليه وسلم» «١» ، أو : يراد بالاسم هنا :

الذكر ، من قولهم : طار اسمه فى النّاس بالكرم أو اللؤم ، كأنه قيل : بئس الذكر المرتفع للمؤمنين بسبب ارتكاب هذه الجرائم أن يذكروا بالفسق.

وقوله : بَعْدَ الْإِيمانِ ، استقباح للجمع بين الإيمان والفسق الذي يحظره الإيمان ، كما تقول : بئس الشأن بعد الكبرة الصّبوة. وَمَنْ لَمْ يَتُبْ عما نهى عنه فَأُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ بوضع المخالفة موضع الطاعة ، فإن تاب واستغفر خرج من الظلم.

وعن حذيفة رضي اللّه عنه : شكوت إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم ذرب لسانى ، فقال : «أين أنت من الاستغفار؟ إنى لأستغفر اللّه كل يوم مائة مرة» «٢» ، والذرب – بفتح الذال والرّاء : الفحش ، وفى حديث ابن عمر : كنا نعدّ لرسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم فى المجلس الواحد مائة مرة : «رب اغفر لى ، وتب علىّ ، إنك أنت التواب الرّحيم» «٣».

الإشارة : مذهب الصوفية التعظيم والإجلال لكل ما خلق اللّه ، كائنا من كان لنفوذ بصيرتهم إلى شهود

الصانع والمتجلّى ، دون الوقوف مع حس الصنعة الظاهرة ، وقالوا : «شروط التصوف أربعة : كف الأذى ، وحمل الجفا ، وشهود الصفا ، ورمى الدنيا بالقفا». فشهود الصفا يجرى فى الأشياء كلها ، فإياك يا أخى أن تحقر أحدا من خلق اللّه فتطرد عن بابه ، وأنت لا تشعر ، وللّه در القائل :

---

(١) أخرج الترمذي فى (المناقب ، باب فضل أزواج النّبى صلّى اللّه عليه وسلم ح ٣٨٩٤) والنّسائى فى الكبرى (عشرة النّساء ٣٣) من حديث أنس رضي اللّه عنه.

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ٣٩٤ و٣٩٦ ، ح ٢٣٢٣٣ و٢٣٢٥٥) وابن أبى شيبة (كتاب الدعاء ٦/ ٥٧ ، ح ٢٩٤٣٢) والحاكم (٢/ ٤٥٧) «وصحّحه وأقره الذهبي» والبيهقي فى الشعب (٦٧٨٦).

(٣) أخرجه أبو داود فى (الصلاة ، باب فى الاستغفار ، ح ١٥١٦) والترمذي فى (الدعوات ، باب ما يقول إذا قام من مجلسه ، ح ٣٤٣٤) وقال : «حديث حسن صحيح غريب» وابن ماجة فى (الأدب ، باب الاستغفار ، ح ٣٨١٤) والنّسائى فى عمل اليوم والليلة (ص ١٤٨) وزاد السيوطي عزوه فى الدر (٦/ ٤٨) لابن أبى شيبة وابن مردويه ، والبيهقي فى الأسماء والصفات.

(٤٢٨/٥)

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٤٢٩

للّه فى الخلق أسرار وأنوار ويصطفى اللّه من يرضى ويختار

لا تحقرنّ فقيرا إن مررت به فقد يكون له حظّ ومقدار

والمرء بالنّفس لا باللّبس تعرفه قد يخلق الغمد والهندىّ بتّار

والتّبر فى التّرب قد تخفى مكانته حتّى يخلّصه بالسّبك مسبار

وربّ أشعث ذى طمرين مجتهد له على اللّه فى الإقسام إبّرار

وعن أبى سعيد الخراز ، قال : دخلت المسجد الجامع ، فرأيت فقيرا ، عليه خرقتان ، فقلت فى نفسى : هذا وأشباهه كل على النّاس ، فنادانى ، وتلا : وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ما فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ «١» فاستغفرت اللّه فى سرى ، فنادانى وقال : وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبادِهِ «٢» ثم غاب عنى فلم أره. هـ.

وقال صلّى اللّه عليه وسلم : «إن المستهزئين بالناس يفتح لأحدهم باب من الجنة ، فيقال لأحدهم : هلّم ، فيجيء بغمه وكربه ، فإذا جاء أغلق دونه ، ثم يفعل به هكذا مرارا ، من باب إلى باب ، حتى يأتيه الإياس» «٣». بالمعنى من البدور السافرة.

ثم نهى عن الظن ، فقال :

[سورة الحجرات (٤٩) : آية ١٢]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلا تَجَسَّسُوا وَلا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ (١٢)

يقول الحق جل جلاله : يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ أي : كونوا فى جانب منه ، يقال : جنّبه الشرّ إذا أبعده عنه ، أي : جعله فى جانب منه ، و«جنّب» يتعدى إلى مفعولين ، قال تعالى : وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنامَ «٤» ، ومطاوعه : اجتنب ، ينقص مفعولا ، وإبهام «الكثير» لإيجاب التأمل فى كل ظن ، حتى يعلم من

---

(١) من الآية ٢٣٥ من سورة البقرة.

(٢) من الآية ٢٥ من سورة الشورى.

(٣) أخرجه البيهقي فى شعب الإيمان (ح ٦٧٥٧) عن الحسن ، مرسلا. [.....]

(٤) من الآية ٣٥ من سورة إبراهيم.

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٤٣٠

أىّ قبيل هو ، فإنّ من الظن ما يجب اتباعه كالظن فيما لا قاطع فيه من العمليات ، وحسن الظن باللّه تعالى ، ومنه ما يحرم ، وهو ما يوجب نقصا بالإلهيات والنّبوات ، وحيث يخالفه قاطع ، وظن السوء بالمؤمنين ، ومنه ما يباح ، كأمور المعاش.

إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ، تعليل للأمر بالاجتناب ، قال الزجاج : هو ظنّك بأهل الخير سوءا ، فأما أهل الفسق فلنا أن نظنّ بهم مثل الذي ظهر عليهم ، وقيل المعنى : اجتنبوا اجتنابا كثيرا من الظن ، وتحرّزوا منه ، إن بعض الظن إثم ، وأولى كثيره ، والإثم : الذنب الذي يستحق صاحبه العقاب ، وفى الحديث عنه صلّى اللّه عليه وسلم : «إياكم والظن ، فإن الظنّ أكذب الحديث» «١» ، فالواجب ألّا يعتمد على مجرد الظن ، فيعمل به ، أو يتكلم بحسبه.

قال ابن عطية : وما زال أولو العزم يحترسون من سوء الظن ، ويجتنبون ذرائعه. قال النّووى : واعلم أن سوء الظن حرام مثل القول ، فكما يحرم أن تحدّث غيرك بمساوئ إنسان يحرم أن تحدّث نفسك بذلك ، وتسيء الظن به ، والمراد : عقد القلب وحكمه على غيره بالسوء ، فأما الخواطر ، وحديث النّفس ، إذا لم يستقر ويستمر عليه صاحبه ، فمعفوّ عنه باتفاق لأنه لا اختيار له فى وقوعه ، ولا طريق له إلى الانفكاك عنه. هـ.

وقال فى التمهيد : وقد ثبت عن النّبى صلّى اللّه عليه وسلم أنه قال : «حرّم اللّه من المؤمن : دمه وماله وعرضه ، وألا يظنّ به إلا الخير» «٢». هـ. ونقل أيضا أن عمر بن عبد العزيز كان إذا ذكر عنده رجل بفضل أو صلاح ، قال : كيف هو إذا ذكر عنده إخوانه؟ فإن قالوا : ينتقص منهم ، وينال منهم ، قال عمر : ليس هو كما تقولون ، وإن قالوا : إنه يذكر منهم جميلا ، ويحسن الثناء عليهم ، قال : هو كما تقولون إن شاء اللّه. هـ. وفى الحديث أيضا : «خصلتان ليس فوقهما شيء من الخير ، حسن الظنّ باللّه ، وحسن الظن بعباد اللّه. وخصلتان ليس فوقهما شيء من الشر ، سوء الظن باللّه ، وسوء الظن بعباد اللّه».

وَلا تَجَسَّسُوا لا تبحثوا عن عورات المسلمين ومعايبهم ، يقال : تجسس الأمر : إذا تطلبه وبحث عنه ، تفعل من : الجسّ. وعن مجاهد : خذوا ما ظهر ودعوا ما ستر اللّه. وقال سهل : لا تبحثوا عن طلب ما ستر اللّه على

---

(١) أخرجه بطوله البخاري فى (الأدب ، باب يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ ح ٦٠٦٦) ومسلم فى (البر والصلة ، باب تحريم الظن ، ح ٢٥٦٣).

(٢) انظر التمهيد (٢٠/ ١٥٧) ، وأخرج الطبراني فى الكبير (١١٠/ ٣٧ ح ١٠٩٦٦) عن ابن عباس – رضي اللّه عنهما – قال : نظر رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم إلى الكعبة فقال : «لا إله إلا اللّه» ما أطيبك وأطيب ريحك وأعظم حرمتك ، والمؤمن أعظم حرمة منك ، إن اللّه عز وجل جعلك حراما ، وحرّم من المؤمن ماله ودمه وعرضه وأن يظن به ظنا سيئا».

عباده ، وفى الحديث : «لا تتبعوا عورات المسلمين فإنّ من تتبع عورات المسلمين تتبع اللّه عورته حتى يفضحه ولو فى جوف بيته» «١».

قال ابن عرفة : من هو مستور الحال فلا يحلّ التجسس عليه ، ومن اشتهر بشرب خمر ونحوه فالتجسس عليه مطلوب أو واجب. هـ. قلت : معناه : التجسس عليه بالشم ونحوه ليقام عليه الحد ، لا دخول داره لينظر ما فيها من الخمر ونحوه ، فإنه منهى عنه ، وأمّا فعل عمر – رضي اللّه عنه – فحال غالبة ، يقتصر عليها فى محلها. وانظر الثعلبي ، فقد ذكر عن عمر رضي اللّه عنه أنه فعل من ذلك أمورا ، ومجملها ما ذكرنا.

وقرئ بالحاء «٢» ، من «الحس» الذي هو أثر الجس وغايته ، وقيل : التجسس – بالجيم – يكون

بالسؤال ، وبالحاء يكون بالاطلاع والنّظر ، وفى الإحياء : التجسس – أي : بالجيم – فى تطلع الأخبار ، والتحسس بالمراقبة بالعين. هـ.

وقال بعضهم : التجسس – بالجيم – فى الشر ، وبالحاء فى الخير ، وقد يتداخلان.

والحاصل : أنه يجب ترك البحث عن أخبار النّاس ، والتماس المعاذر ، حتى يحسن الظن بالجميع ، فإنّ التجسس هو السبب فى الوقوع فى الغيبة ، ولذلك قدّمه الحق – تعالى – على النّهى عن الغيبة ، حيث قال : وَلا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً أي : لا يذكر بعضكم بعضا بسوء. فالغيبة : الذكر بالعيب فى ظهر الغيب ، من الاغتياب ، كالغيلة من الاغتيال. وسئل صلّى اللّه عليه وسلم عن الغيبة ، فقال : «ذكرك أخاك بما يكره ، فإن كان فيه فقد اغتبته ، وإن لم يكن فيه فقد بهتّه» «٣».

وعن معاذ : كنا مع رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم فذكر القوم رجلا ، فقالوا : لا يأكل إلا إذا أطعم ، ولا يرحل إلا إذا رحّل ، فما أضعفه! فقال عليه السّلام : «اغتبتم أخاكم» ، فقالوا : يا رسول اللّه ، أو غيبة أن يحدّث بما فيه؟ قال : «فحسبكم غيبة أن تحدّثوا عن أخيكم بما فيه» «٤». قال أبو هريرة : قام رجل من عند النّبى صلّى اللّه عليه وسلم فرأوا فى قيامه عجزا ، فقالوا : يا رسول اللّه ، ما أعجز فلانا! فقال عليه السّلام : «أكلتم لحم أخيكم واغتبتموه»»

.

---

(١) أخرجه الترمذي فى (البر والصلة ، باب ما جاء فى تعظيم المؤمن ح ٢٠٣٢) وابن حبان (موارد ص ٣٥٩) من حديث ابن عمر رضي اللّه عنه. وأخرجه أبو داود فى (الأدب ، باب فى الغيبة ، ح ٤٨٨٠) من حديث أبى برزة الأسلمى.

(٢) نسبها فى البحر المحيط (٨/ ١١٣) للحسن وأبى رجاء وابن سيرين.

(٣) أخرجه مسلم فى (البر والصلة ، باب تحريم الغيبة ح ٣٥٨٩) من حديث أبى هريرة رضي اللّه عنه.

(٤) رواه الأصبهانى فى الترغيب (٢٢٠٨) عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده. ولم أقف عليه من حديث معاذ رضي اللّه عنه.

(٥) عزاه المنذرى فى الترغيب والترهيب (ح ٤١٧٠) لأبى يعلى فى مسنده (٦١٥١) والطبراني – واللفظ له – عن أبى هريرة رضي اللّه عنه.

قال النّووى : الغيبة : كل ما أفهمت به غيرك نقصان مسلم عاقل ، وهو حرام. هـ. قوله : ما أفهمت ... إلخ ، يتناول اللفظ الصريح والكناية والرّمز والتعريض والإشارة بالعين والرّأس ، والتحكية بأن يفعل مثله ، كالتعارج ، أو يحكى كلامه على هيئته ليضحك غيره ، فهذا كله حرام ، إن فهم المخاطب تعيين الشخص المغتاب ، وإلا فلا بأس ، واللّه تعالى أعلم. ولا فرق بين غيبة الحي والميت ، لما ورد : «من شتم ميتا أو اغتابه فكأنما شتم ألف نبى ، ومن اغتابه فكأنما اغتاب ألف ملك ، وأحبط اللّه له عمل سبعين سنة ، ووضع على قدمه سبعين كية من نار» «١».

والسامع للغيبة كالمغتاب ، إلّا أن يغير أو يقوم ، وورد عن الشيخ أبى المواهب التونسى الشاذلى أن النّبى صلّى اللّه عليه وسلم قال له : «فإن كان ولا بد من سماعك غيبة النّاس – أي : وقع منك – فاقرأ سورة الإخلاص والمعوذتين ، واهد ثوابها للمغتاب فإن اللّه يرضيه عنك بذلك». هـ.

وعن ابن عباس رضي اللّه عنه : الغيبة إدام كلاب النّاس. هـ. وتشبيههم بالكلاب فى التمزيق والتخريق ، فهم يمزقون أعراض النّاس ، كالكلاب على الجيفة ، لا يطيب لهم مجلس إلا بذكر عيوب النّاس. وفى الحديث : «رأيت ليلة أسرى بي رجالا لهم أظفار من نحاس ، يخمشون وجوههم ولحومهم ، فقلت : من هؤلاء يا جبريل؟ فقال : هؤلاء الذين يأكلون لحوم النّاس ويقعون فى أعراضهم» «٢».

أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً ، هذا تمثيل وتصوير لما يناله المغتاب من عرض المغتاب على أفحش وجه. وفيه مبالغات ، منها : الاستفهام الذي معناه التقرير ، ومنها : فعل ما هو الغاية فى الكراهة موصولا بالمحبة ، ومنها : إسناد الفعل إلى أَحَدُكُمْ إشعارا بأنّ أحدا من الأحدين لا يحبّ ذلك ، ومنها : أنه لم يقتصر على تمثيل الاغتياب بأكل لحم مطلق الإنسان ، بل جعله أخا للآكل ، ومنها : أنه لم يقتصر على أكل لحم الأخ حتى جعله ميتا. وعن قتادة : كما تكره إن وجدت جيفة مدوّدة أن تأكل منها كذلك فاكره لحم أخيك. هـ.

ولمّا قررهم بأن أحدا منهم لا يحب أكل جيفة أخيه عقّب ذلك بقوله : فَكَرِهْتُمُوهُ أي : وحيث كان الأمر كما ذكر فقد كرهتموه ، فكما تحققت كراهتكم له باستقامة العقل فاكرهوا ما هو نظيره باستقامة الدين.

وَاتَّقُوا اللَّهَ فى ترك ما أمرتم باجتنابه ، والنّدم على ما صدر منكم منه ، فإنكم إن اتقيتم وتبتم تقبّل اللّه توبتكم ، وأنعم عليكم بثواب المتقين التائبين ، إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ مبالغ فى قبول التوبة ، وإفاضة الرّحمة ، حيث جعل التائب كمن لا ذنب له ، ولم يخص تائبا دون تائب ، بل يعم الجميع ، وإن كثرت ذنوبه.

---

(١) على هامش النّسخة الأم : يا أستاذ هذا الحديث كذب موضوع ، ظاهر من لفظه. هـ.

(٢) أخرجه أبو داود فى (الأدب ، باب فى الغيبة ، ح ٤٨٧٨) وأحمد (٣/ ٢٢٤) من حديث أنس رضي اللّه عنه.

(٤٣٢/٥)

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٤٣٣

روى أنّ سلمان كان يخدم رجلين من الصحابة ، ويصلح طعامهما ، فنام عن شأنه يوما ، فبعثاه إلى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فقال : «ما عندى شى ء» فأخبرهما سلمان ، فقالا : لو بعثناه إلى بئر سميحة لغار ماؤها. فلما جاءا إلى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قال لهما : «مالى أرى حمرة اللّحم فى أفواهكما؟» فقالا : ما تناولنا لحما ، فقال : «إنكما قد اغتبتما ، من اغتاب مسلما فقد أكل لحمه» ، ثم قرأ الآية «١».

وقيل : غيبة الخلق إنما تكون بالغيبة عن الحق. هـ. قاله النّسفى. قال بعضهم : والغيبة صاعقة الدين ، فمن أراد أن يفرّق حسناته يمينا وشمالا فليغتب النّاس. وقيل : مثل صاحب الغيبة مثل من نصب منجنيقا فهو يرمى به حسناته يمينا وشمالا ، شرقا وغربا. هـ. والأحاديث والحكايات فى ذم الغيبة كثيرة ، نجانا اللّه منها بحفظه ورعايته.

وهل هى من الكبائر أو من الصغائر؟ خلاف ، رجّح بعض أنها من الصغائر لعموم البلوى بها ، قال بعضهم : هى فاكهة القراء ، ومراتع النّساء ، وبساتين الملوك ، ومزبلة المتقين ، وإدام كلاب النّاس. هـ «٢».

الإشارة : من نظر النّاس بعين الجمع عذرهم فيما يصدر منهم ، وحسّن الظن فيما لم يصدر منهم ، وعظّم الجميع ، ومن نظرهم بعين الفرق طال خصمه معهم فيما فعلوا ، وساء ظنّه بهم فيما لم يفعلوا ، وصغّرهم حيث لم ير منهم ما لا يعجبه ، فالسلامة : النظر إليهم بعين الجمع ، وإقامة الحقوق عليهم فى مقام الفرق ، قياما بالحكمة فى عين القدرة. وفى الحديث : «ثلاثة دبت لهذه الأمة الظن ، والطيرة ، والحسد» قيل : فما النّجاة؟ قال :

«إذا ظننت فلا تحقّق ، وإذا تطيرت فامض ، وإذا حسدت فلا تبغ» «٣» أو كما – قال عليه السّلام.

قال القشيري : النفس لا تصدّق ، والقلب لا يكذّب ، والتمييز بينهما مشكل ، ومن بقيت عليه من حظوظه بقية – وإن قلّت – فليس له أن يدّعى بيان القلب – أي : استفتاءه – بل يتهم نفسه ما دام عليه شيء من نفسه ، ويجب أن يتهم نفسه فى كل ما يقع له من نقصان غيره ، هذا أمير المؤمنين عمر قال وهو يخطب النّاس : «كل النّاس أفقه من عمر حتى النّساء» «٤». هـ.

---

(١) قال المناوى فى الفتح السماوي (٣/ ١٠٠٤) : «ذكره الثعلبي بغير إسناد ، وروى معناه الأصبهانى فى الترغيب عن عبد الرّحمن ابن أبى ليلى».

(٢) على هامش النّسخة الأم مايلى : غريب هذا الترجيح ، وأغرب منه دليله ، فالأحاديث الكثيرة الصحيحة تفيد أن الغيبة من الكبائر ، بل من أكبرها ، بل من أربى الرّبا ، وأشد من ست وثلاثين زنية ، والزنا والرّبا من الكبائر ، وأيضا : هى من حقوق الخلق ، التي لا تكفّر إلا بالاستحلال ، فكيف تكون من الصغائر أ. هـ.

(٣) ذكره ابن عبد البر فى التمهيد (٦/ ١٢٥) بلفظ (ثلاث لا يسلم منهن أحد ..) الحديث ، وعزاه لعبد الرّزاق ، عن إسماعيل بن أمية. وذكره الهيثمي فى المجمع (٨/ ٨١) وابن كثير فى التفسير (٤/ ١٣) بلفظ «ثلاث لازمات لأمتى ..» الحديث ، وفيه : «وإذا حسدت فاستغفر اللّه» وعزاه كل منهما للطبرانى عن حارثة بن النّعمان. وقال الهيثمي : «وفيه إسماعيل بن قيس الأنصاري ، وهو ضعيف».

(٤) قاله رضي اللّه عنه بعد أن خطب ناهيا عن المغالاة فى مهور النّساء ، وأن لا يزدن عن أربعمائة درهم ، فقالت له امرأة من قريش : أما سمعت اللّه يقول : وَآتَيْتُمْ إِحْداهُنَّ قِنْطاراً [النساء/ ٢٠]. ذكره فى كنز العمال (رقم ٤٥٧٩٨) وعزاه لسعيد بن منصور ، وأبى يعلى فى مسنده ، والمحاملي فى أماليه ، عن مسروق. وانظر : الشذرة فى الأحاديث المشتهرة (رقم ٦٩٧). [.....]

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٤٣٤

قوله تعالى : وَلا تَجَسَّسُوا .. إلخ ، التجسس عن أخبار النّاس من علامة الإفلاس ، قال القشيري : العارف لا يتفرغ من شهود الحقّ إلى شهود الخلق ، فكيف يتفرغ إلى التجسس عن أحوالهم؟! لأن من اشتغل بنفسه لا يتفرغ إلى الخلق ، ومن اشتغل بالحق لا يتفرغ لنفسه ، فكيف إلى غيره؟! هـ.

قوله تعالى : وَلا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً ، ليست الغيبة خاصة باللسان فى حق الخاصة ، بل تكون أيضا بالقلب ، وحديث النّفس ، فيعاتبون عليها كما تعاتب العامة على غيبة اللسان ، وتذكّر قضية الجنيد مع الفقير الذي رآه يسأل ، وهى مشهورة ، وتقدمت حكاية أبى سعيد الخراز ، ونقل الكواشي عن أبى عثمان : أنّ من وجد فى قلبه غيبة لأخيه ، ولم يعمل فى صرف ذلك عن قلبه بالدعاء له خاصة ، والتضرع إلى اللّه بأن يخلّصه منه أخاف أن يبتليه اللّه فى نفسه بتلك المعايب. هـ. قال القشيري : وعزيز رؤية من لا يغتاب أحدا بين يديك. هـ. وقد أبيحت الغيبة فى أمور معلومة ، منها : التحرز منه لئلا يقع الاغترار بكلامه أو صحبته ، والترك أسلم وأنجى.

ثم نهى عن الافتخار بالأنساب ، فقال :

[سورة الحجرات (٤٩) : آية ١٣]

يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْناكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثى وَجَعَلْناكُمْ شُعُوباً وَقَبائِلَ لِتَعارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (١٣)

يقول الحق جل جلاله : يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْناكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثى آدم وحوّاء ، أو : كل واحد منكم من أب وأم فما منكم من أحد إلا وهو يدلى بما يدلى به الآخر ، سواء بسواء ، فلا معنى للتفاخر والتفاضل بالنسب. وفى الحديث : «لا فضل لعربى على عجمى ، ولا لعجمى على عربى ، ولا لأحمر على أسود ، ولا لأسود على أحمر إلا بالتقى» «١». وقال أيضا : «ثلاثة من أمر الجاهلية الفخر بالأحساب ، والطعن فى الأنساب ، والدعاء بدعاء الجاهلية» «٢» أو كما قال صلّى اللّه عليه وسلم.

وَجَعَلْناكُمْ شُعُوباً وَقَبائِلَ ، الشعوب : رؤوس القبائل ، مثل ربيعة ومضر ، والأوس والخزرج ، واحدها : شعب – بفتح الشين ، سمّوا بذلك لتشعبهم كتشعب أغصان الشجرة ، والقبائل : دون الشعوب ، واحدها : قبيلة ، كبكر من ربيعة ، وتميم من مضر. ودون القبائل : العمائر ، جمع عمارة بفتح العين ، وهم كشيبان من بكر ، ودارم من تميم ،

---

(١) أخرجه مطولا : البيهقي فى الشعب (ح ٥١٣٧) من حديث جابر بن عبد اللّه رضي اللّه عنه.

(٢) ذكره الهيثمي فى المجمع (٣/ ١٦) بنحوه ، وعزاه للطبرانى فى الكبير. عن سلمان مرفوعا ، وقال : «فيه عبد الغفور أبو الصباح ، وهو ضعيف».

ودون العمائر : البطون ، واحدها : بطن ، وهى كبنى غالب ولؤى من قريش ، ودون البطون : الأفخاذ ، واحدها : فخذ ، كهاشم وأمية من بنى لؤى ، ثم الفصائل والعشائر ، واحدها : فصيلة وعشيرة ، فالشعب تجمع القبائل ، والقبيلة تجمع العمائر ، والعمارة تجمع البطون ، والبطن يجمع الأفخاذ ، والفخذ يجمع الفصائل «١». وقيل : الشعوب من العجم ، والقبائل من العرب ، والأسباط من بنى إسرائيل. لِتَعارَفُوا أي : إنما جعلناكم كذلك ليعرف بعضكم نسب بعض ، فلا يتعدى إلى غير آبائه ، لا لتتفاخروا بالأجداد والأنساب.

ثم ذكر الخصلة التي يفضل بها الإنسان ، ويكتسب الشرف والكرم عند اللّه ، فقال : إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقاكُمْ أي : لا أنسبكم ، فإنّ مدار كمال النّفوس وتفاوت الأشخاص هو التقوى ، فمن رام نيل الدرجات العلا فعليه بالتقوى ، قال صلّى اللّه عليه وسلم : «من سره أن يكون أكرم النّاس فليتق اللّه»

«٢» وروى أنه صلّى اللّه عليه وسلم طاف يوم فتح مكة ، ثم حمد اللّه ، وأثنى عليه ، وقال : «الحمد للّه الذي أذهب [عبيّة] «٣» الجاهلية وتكبّرها يا أيها النّاس إنما النّاس رجلان رجل مؤمن تقيّ كريم على اللّه ، ورجل فاجر شقى هيّن على اللّه» ثم قرأ الآية «٤».

وعن ابن عباس – رضي اللّه عنهما : كرم الدنيا الغنى ، وكرم الآخرة التقى. وقال قتادة : أكرم الكرم التقى ، وألأم اللؤم الفجور ، وسئل عليه السّلام عن خير النّاس؟ فقال : «آمركم بالمعروف ، وأنهاكم عن المنكر ، وأوصلكم للرحم» وقال عمر رضي اللّه عنه : «كرم الرّجل : دينه وتقواه ، وأصله : عقله ، ومروءته : خلقه ، وحسبه : ماله» «٥».

وعن يزيد بن شجرة : مرّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم فى سوق المدينة ، فرأى غلاما أسود ، قائما ينادى عليه من يزيد فى ثمنه ، وكان الغلام يقول : من اشترانى فعلى شرط ألّا يمنعنى من الصلوات الخمس خلف رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم ، فاشتراه

---

(١) وقد نظمها بعض الأدباء ، فقال :

اقصد الشعب فهو أكثر حى عددا فى الحواء ثم القبيلة

ثم تتلوها العمارة ثم ال بطن والفخذ بعدها والفصيلة

ثم من بعدها العشيرة لكن هى فى جنب ما ذكرناه قليله

(٢) أخرجهالحاكم (٤/ ٢٧٠) والطبراني فى الكبير (١٠/ ٣٨٩) وأبو نعيم فى الحلية (٣/ ٢١٨) عن ابن عباس رضي اللّه عنه.

(٣) فى الأصول [غيبة] أما عن معناها ، فقال ابن الأثير : يعنى الكبر ، وتضم عينها وتكسر ، وهى فعّولة أو فعّيلة ، فإن كانت «فعّولة» فهى من التّعبية ، لأن المتكبر ذو تكلف وتعبية ، خلاف من يسترسل على سجيته ، وإن كانت «فعّلية» فهى من عباب الماء ، وهو أوله وارتفاعه. انظر النّهاية (عبب ٣/ ١٦٩) ..

(٤) أخرجه بطوله الترمذي فى (التفسير سورة الحجرات ، ح ٣٢٧٠) ، والبغوي فى تفسيره (٧/ ٣٤٨) وفى شرح السنة (١٣/ ١٢٤) من حديث ابن عمر رضي اللّه عنه.

(٥) أخرجه ابن أبى شيبة (٨/ ٥٢٠) والبيهقي فى السنن (١٠/ ١٩٥) من قول سيدنا عمر ، موقوفا ، بلفظ «حسب الرّجل دينه ، ومروءته خلقه ، وأصله عقله ، وأخرج الإمام مالك فى الموطأ (ص ٤٦٣) عن سيدنا عمر موقوفا : «الكرم التقوى ، والحسب والمال ...» ، وأخرج أحمد (٢/ ٣٦٥) والحاكم (١/ ١٢٣) والبيهقي فى السنن (٧/ ١٣٦) وابن حبان (إحسان – ٤٨٣) والقضاعي فى مسند الشهاب (١٩٠) عن أبى هريرة ، مرفوعا : «كرم المرء دينه ، ومروءته عقله ، وحسبه خلقه» قال الحاكم : «صحيح على شرط مسلم».

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٤٣٦

بعضهم ، فعاده رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم ، ثم توفى ، فتولى رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم غسله وتكفينه ودفنه ، فقالت المهاجرون : هاجرنا ديارنا وأموالنا وأهلينا ، فما نرى أحدا منا لقى فى حياته ولا موته ما لقى هذا الغلام ، وقالت الأنصار : آويناه ونصرناه وواسيناه بأموالنا ، فآثر علينا عبدا حبشيا ، فنزلت «١».

وقال صلّى اللّه عليه وسلم : «إنّ اللّه لا ينظر إلى صوركم ، ولا إلى أموالكم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم ، وإنما أنتم بنو آدم ، أكرمكم عند اللّه أتقاكم ، وأنتم تقولون : فلان بن فلان ، وأنا اليوم أرفع نسبى وأضع أنسابكم ، أين المتقون» «٢». وقيل :

يا رسول اللّه ، من أكرم النّاس؟ قال : «أتقاهم» «٣». هـ وأنشدوا :

ما يصنع العبد بعزّ الغنى والعز كل العزّ للمتّقى

من عرف اللّه فلم تغنه معرفة اللّه فذاك الشّقى

إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ، عليم بكرم القلوب وتقواها ، خبير بهمم النّفوس فى هواها.

الإشارة : كان سيدنا علىّ رضي اللّه عنه يقول : «ما لابن آدم والفخر ، أوله نطفة مذرة ، وآخره جيفة قذرة ، وفيما بينهما يحمل العذرة» وكان ينشد :

الناس من جهة التمثيل أكفاء أبوهم آدم والأم حوّاء

ومن يرم منهم فخرا بذي نسب فإن أصلهم الطّين والماء

ما الفخر إلا لأهل العلم إنّهم على الهدى لمن اهتدى أدلّاء

وقدر كل امرئ ما كان يتقنه والجاهلون لأهل العلم أعداء «٤»

---

(١) ذكره الواحدي فى أسباب النّزول (ص ٤١١ - ٤١٢) بدون إسناد.

(٢) أخرجه إلى قوله : «وأعمالكم» مسلم فى (البر والصلة ، باب تحريم ظلم المسلم وخذله ، رقم ٢٥٦٤ ، ح ٣٤) من حديث أبى هريرة رضي اللّه عنه. والجزء الثاني جاء فى حديث ، لفظه : «إذا كان يوم القيامة أمر اللّه مناديا ينادى : ألا إنى جعلت نسبا وجعلتم نسبا ، فجعلت أكرمكم أتقاكم ، فأبيتم إلا أن تقولوا : فلان بن فلان خير من فلان بن فلان ، فاليوم أرفع نسبى وأضع نسبكم ، أين المتقون؟» الحديث أخرجه الطبراني فى الأوسط (ح ٤٥١١) والصغير (٦٣٤) وبنحوه البيهقي فى الشعب (ح ٥١٣٩) عن أبى هريرة رضي اللّه عنه.

(٣) بعض حديث أخرجه البخاري فى (التفسير ، سورة يوسف ، باب : لَقَدْ كانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ

آياتٌ لِلسَّائِلِينَ ح ٤٦٨٩) ومسلم فى (الفضائل ، باب من فضائل يوسف عليه السّلام رقم ٢٣٧٨) عن أبى هريرة رضي اللّه عنه. ولفظ البخاري : سئل رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم : أي النّاس أكرم؟ قال : «أكرمهم عند اللّه أتقاهم» ولفظ مسلم نحوه.

(٤) هكذا فى الأصول ، وانظر ديوان «الإمام علىّ» جمع وضبط «نعيم زرزور» (ص ٥ - ٦) وتفسير القرطبي (٧/ ٦٣٤٧) وإتحاف السادة المتقين (١/ ٨٨) فقد جاءت الأبيات فيها بأتم من هنا مع اختلاف.

(٤٣٦/٥)

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٤٣٧

وقوله : مالفخر إلا لأهل العلم .. إلخ ، يعنى : لو كان الفخر مباحا ما أبيح إلّا لهم ، وإلا فهم أولى بالتواضع ، اقتداء برسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم ، وقد قال : «من تواضع دون قدره رفعه اللّه فوق قدره» «١» فما رفع اللّه قدر العلماء إلا بتواضعهم حتى ينالهم الشريف والوضيع ، والصغير والكبير ، والقوى والضعيف ، فمن لم يكن هكذا فليس بعالم لأنّ الخشية تحمل على التواضع ، ومن لم يخش فليس بعالم حقيقة. قال تعالى : إِنَّما يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبادِهِ الْعُلَماءُ «٢».

وقوله تعالى : إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقاكُمْ ، اعلم أنّ نصيب كلّ عبد من اللّه تعالى على قدر تقواه ، وتقواه على قدر توجهه إلى اللّه ، وتوجهه على قدر تفرغه من الشواغل ، وتفرغه على قدر زهده ، وزهده على قدر محبته ومحبته على قدر علمه باللّه ، وعلمه على قدر يقينه ، ويقينه على قدر كشف الحجاب عنه ، وكشف الحجاب على قدر جذب العناية ، وجذب العناية على قدر السابقة ، وهى سر القدر الذي لم يكشف فى هذه الدار. وسقوط العبد من عين اللّه على قدر قلة تقواه ، وقلة تقواه على قدر ضعف توجهه ، وضعف توجهه على قدر تشعب همومه ، وتشعب همومه على قدر حرصه ورغبته فى الدنيا ، ورغبته فى الدنيا على قدر ضعف محبته فى اللّه ، وضعف محبته على قدر جهله به ، وجهله على قدر ضعف يقينه ، وضعف اليقين من كثافة الحجاب ، وكثافة الحجاب من عدم جذب العناية ، وعدم جذب العناية من علامة الخذلان السابق ، الذي هو سر القدر. واللّه تعالى أعلم.

ثم إنّ أساس التقوى : الإيمان الصادق دون الكاذب ، الذي أشار إليه بقوله :

[سورة الحجرات (٤٩) : الآيات ١٤ الى ١٥]

قالَتِ الْأَعْرابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمالِكُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٤) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتابُوا وَجاهَدُوا بِأَمْوالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (١٥)

يقول الحق جل جلاله : قالَتِ الْأَعْرابُ أي : بعض الأعراب آمَنَّا ، نزلت فى نفر من بنى أسد ، قدموا المدينة فى سنة جدبة ، فأظهروا الإسلام ، ولم يؤمنوا فى السر ، وأفسدوا طرق المدنية بالعذرات ، وأغلوا

---

(١) لم أقف عليه بهذا اللفظ ، وأخرج أحمد فى المسند (٣/ ٣٦) وابن ماجه فى (الزهد ٣/ ٢/ ١٣٩٨ ، ح ٤١٧٦) عن أبى سعيد الخدري ، قال : قال صلّى اللّه عليه وسلم : «من يتواضع للّه سبحانه درجة يرفعه اللّه به درجة ، ومن يتكبر على اللّه درجة ، يضعه اللّه به درجة ، حتى يجعله فى أسفل سافلين».

(٢) الآية ٢٨ من سورة فاطر.

أسعارها ، وكانوا يقولون لرسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم : أتيناك بالأثقال والعيال ، ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان ، وهم يريدون الصدقة ، ويقولون : أعطنا ، ويمنّون بإسلامهم «١».

قُلْ لهم : لَمْ تُؤْمِنُوا لم تصدّقوا بقلوبكم وَلكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنا ، فالإيمان هو التصديق بالقلب مع الإذعان به ، والإسلام هو الدخول فى السّلم ، والخروج من أن يكون حربا للمؤمنين بإظهار الشهادتين ألا ترى إلى قوله : وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمانُ فِي قُلُوبِكُمْ فهو يدل على أنّ مجرد النّطق بالشهادتين ليس بإيمان ، فتحصّل أن ما يكون من الإقرار باللسان من غير مواطأة للقلب فهو إسلام ، وما واطأ فيه القلب اللسان فهو إيمان ، وهذا من حيث اللغة ، وأما فى الشرع فهما متلازمان ، فلا إسلام إلا بعد إيمان ، ولا إيمان إلا بعد النّطق بالشهادة إلا لعذر.

والتعبير ب «لمّا» يدل على أن الإيمان متوقّع من بعضهم وقد وقع. فإن قلت : مقتضى نظم الكلام أن يقول : قل لا تقولوا آمنا ولكن قولوا أسلمنا ، أو : قل لم تؤمنوا ولكن أسلمتم؟ قلت : أفاد هذا النّظم تكذيب دعواهم أولا ، فقيل : قل لم تؤمنوا ، مع حسن أدب ، فلم يقل : كذبتم صريحا ، ووضع «لم تؤمنوا» الذي هو نفس ما ادّعوا إثباته موضعه ، واستغنى بقوله : لَمْ تُؤْمِنُوا عن أن يقال : لا تقولوا آمنا لاستهجان أن يخاطبوا بلفظ مؤداه النّهى عن القول بالإيمان ، ولم يقل : ولكن أسلمتم ليكون قولهم خارجا مخرج الزعم والدعوى ، كما كان قولهم : «آمنا» كذلك ، ولو قيل : ولكن أسلمتم لكان كالتسليم ، والاعتداد بقولهم ، وهو غير معتدّ به.

وليس قوله : وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمانُ فِي قُلُوبِكُمْ تكريرا لمعنى قوله : لَمْ تُؤْمِنُوا فإنّ فائدة قوله : لَمْ تُؤْمِنُوا

تكذيب دعواهم ، وقوله : وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمانُ فِي قُلُوبِكُمْ توقيت لما أمروا به أن يقولوه ، كأنه قيل لهم : ولكن قولوا أسلمنا حين لم يثبت مواطأة قلوبكم لألسنتكم لأنه كلام واقع موقع الحال من الضمير فى «قولوا». قاله النّسفى.

وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ بالإخلاص وترك النّفاق لا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمالِكُمْ شَيْئاً من أجورها. يقال : ألت يألت «٢» ، وألات يليت ، ولات يليت ، بمعنى ، وهو النّقص ، إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ لما فرط من الذنوب ، رَحِيمٌ يستر العيوب.

إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتابُوا لم يشكّوا ، من : ارتاب ، مضارع رابه : إذا أوقعه فى الشك والتهمة ، والمعنى : أنهم آمنوا ثم لم يقع فى إيمانهم شك فيما آمنوا ، ولا اتهام لمن صدّقوه ، ولمّا كان الإيقان

---

(١) ذكره الواحدي فى أسباب النّزول (ص ٤١٢) والبغوي فى التفسير (٧/ ٣٤٩) بدون إسناد ، وعزاه ابن كثير فى التفسير (٤/ ٢١٩ - ٢٢) للبزار ، عن ابن عباس رضي اللّه عنه. [.....]

(٢) بضم اللام وكسرها ، انظر البحر المحيط (٨/ ١٠٤).

وزوال الرّيب ملاك الإيمان أفرد بالذكر بعد تقدم الإيمان ، تنبيها على علو مكانه ، وعطف على الإيمان بثمّ إشعارا باستقراره فى الأزمنة المتراخية المتطاولة غضّا جديدا. وَجاهَدُوا بِأَمْوالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أي :

جاهدوا ما ينبغى جهاده من الكفار والأنفس والهوى ، بالإعانة بأموالهم ، والمباشرة بأنفسهم فى طلب رضا اللّه.

أُولئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ أي : الذين صدقوا فى قولهم : آمنا ، لم يكذّبوا كما كذّب أعراب بنى أسد بل إيمانهم إيمان صدق وحق. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : مذهب الصوفية : أن العمل إذا كان حدّه الجوارح الظاهرة يسمى مقام الإسلام ، وإذا انتقل لتصفية البواطن بالرياضة والمجاهدة يسمى مقام الإيمان ، وإذا فتح على العبد بأسرار الحقيقة يسمى مقام الإحسان ، وقد جعل الساحلى مقام الإسلام مركّبا من ثلاثة التوبة والتقوى والاستقامة ، والإيمان مركبا من الإخلاص والصدق والطمأنينة ، والإحسان مركّبا من المراقبة والمشاهدة والمعرفة ، ولكلّ زمان ورجال تربية واصطلاح فى السير ، والمقصد واحد ، وهو المعرفة العيانية.

قال القشيري : الإيمان هو حياة القلوب ، والقلوب لا تحيا إلا بعد ذبح النّفوس ، والنّفوس لا تموت ، ولكنها تغيب. هـ. أي : المقصود بقتل النّفوس هو الغيبة عنها فى نور التجلي ، فإذا وقع الفناء فى شهود الحق عن شهود الخلق فلا مجاهدة. وقال القشيري فى مختصره : قالَتِ الْأَعْرابُ آمَنَّا ... إلخ ، يشير إلى أنّ حقيقة الإيمان ليست مما يتناول باللسان ، بل هو نور يدخل القلوب ، إذا شرح اللّه صدر العبد للإسلام كما قال تعالى : فَهُوَ عَلى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ «١» ، وقال عليه السّلام فى صفة ذلك النّور : «إنّ النّور إذا وقع فى القلب انفسح له واتسع» ، قالوا : يا رسول اللّه هل لذلك النّور من علامة؟ قال : «بلى التجافي عن دار الغرور ، والإنابة إلى دار الخلود ، والاستعداد للموت قبل نزوله» «٢». لهذا قال تعالى : وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمانُ فِي قُلُوبِكُمْ أي : نور الإيمان. هـ.

(و إن تطيعوا اللّه ورسوله) فى الأوامر والنّواهى بعد ذبح النّفوس بسيف الصدق (لا يلتكم عن أعمالكم شيئا) بل كل ما تتقربون به إلى اللّه من مجاهدة النّفوس ترون جزاءه عاجلا ، من كشف غطاء ، وحلاوة شهود ، إن اللّه غفور

---

(١) من الآية ٢٢ من سورة الزمر.

(٢) أخرجه الحاكم (٤/ ٣١١) والبيهقي فى الشعب (ح ١٠٥٥٢) وابن أبى شيبة فى مصنفه (الزهد ، باب ٦ ، ح ١٤) والبغوي فى التفسير (٧/ ١١٤ - ١١٥) وابن جرير (٨/ ٢٧) من حديث ابن مسعود رضي اللّه عنه ، «والحديث سكت عند الحاكم ، وتعقبه الذهبي» ورواه البيهقي فى الأسماء (ص ١٥٦) وقال : «هذا منقطع» وابن المبارك فى الزهد (رقم ٣١٥ ، ص ١٠٦) عن أبى جعفر المدائني ، مرسلا ، ورواه بنحوه الحكيم الترمذي فى النّوادر (الأصل السادس والثمانين) من حديث ابن عمر رضي اللّه عنه. وقد ذكر ابن كثير (٢/ ١٧٦) لهذا الحديث طرقا كثيرة ، متصلة ومرسلة ، ومال إلى تقويته لتعدد طرقه.

لمن وقع له فتور ، رحيم بمن وقع منه نهوض ، (إنما المؤمنون الذين آمنوا باللّه) وشاهدوا أنواره وأسراره ، (و رسوله) حيث عرفوا حقيقته النّورانية الأولية ، (ثم لم يرتابوا) لم يخطر على بالهم خواطر سوء ، ولا شكوك فيما وعد اللّه من الرّزق وغيره لأنّ حجاب نفوسهم قد زال عنهم ، فصار الغيب شهادة ، والخبر عيانا ، والتعبير ب «ثم» يقتضى تأخر تربية اليقين شيئا فشيئا حتى يحصل التمكين فى مقامات اليقين ، مع التمكين فى مقام الشهود والعيان.

ثم ذكر سبب إزاحة الشكوك عنهم بقوله : (و جاهدوا بأموالهم) حيث بذلوها للّه (و أنفسهم) حيث جاهدوها فى طلب اللّه (أولئك هم الصادقون) فى طلب الحق ، فظفروا بما أمّلوا ، وربحوا فيما به تجروا. جعلنا اللّه منهم بمنّه وكرمه.

ثم ردّ على من منّ على اللّه بدينه ، فقال :

[سورة الحجرات (٤٩) : الآيات ١٦ الى ١٨]

قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٦) يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَداكُمْ لِلْإِيمانِ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (١٧) إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ (١٨)

يقول الحق جل جلاله : قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ أي : أتخبرونه بذلك بقولكم آمنّا؟ روى أنه لمّا نزل قوله : قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا جاؤوا يحلفون إنهم لصادقون فأكذبهم اللّه بقوله : قُلْ أَتُعَلِّمُونَ .. «١» إلخ.

والتعبير عنه بالتعليم لغاية تشنيعهم ، كأنهم وصفوه تعالى بالجهل. قال الهروي : و«علّمت» و«أعلمت» فى اللغة بمعنى واحد ، وفى القاموس : وعلّمه العلم تعليما ، وأعلمه إياه فتعلمه. هـ. وَاللَّهُ يَعْلَمُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ فلا يحتاج إلى إعلام أحد ، وهو حال مؤكدة لتشنيعهم ، وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ أي : مبالغ فى العلم بجميع الأشياء ، التي من جملتها ما أخفوه من الكفر عند إظهارهم الإيمان.

يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا أي : يعدون إسلامهم منّة عليك ، ف «أن» نصب على نزع الخافض ، والمنّ : ذكر النعمة على وجه الافتخار. وقال النّسفى : هو ذكر الأيادى تعريضا للشكر ، و[نهينا] «٢» عنه. هـ. فانظره.

---

(١) انظر تفسير القرطبي (٧/ ٦٣٥٤).

(٢) فى الأصول : «ونهيا».

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٤٤١

قُلْ لا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُمْ أي : لا تعدوا إسلامكم منة علىّ ، فإنّ نفعه قاصر عليكم إن صح ، بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أي : المنة إنما هى للّه عليكم أَنْ هَداكُمْ لِلْإِيمانِ أي : لأن هداكم ، أو : بأن هداكم للإيمان على زعمكم إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ فى ادّعاء الإيمان ، إلّا أنكم تزعمون وتدعون ما اللّه عليم بخلافه. وجواب الشرط محذوف لدلالة ما قبله عليه أي : إن كنتم صادقين فى ادعائكم الإيمان فللّه

المنّة عليكم.

وفى سياق النّظم الكريم من اللطف ما لا يخفى فإنهم لمّا سموا ما فى صدورهم إيمانا ، ومنّوا به ، نفى تعالى كونه إيمانا ، وسمّاه إسلاما ، كأنه قيل : يمنون عليك بما هو فى الحقيقة إسلام وليس بإيمان ، بل لو صح ادّعاؤهم للإيمان فللّه المنّة عليهم بالهداية إليه لا لهم.

إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ أي : ما غاب فيهما ، وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ فى سركم وعلانيتكم ، وهذا بيان لكونهم غير صادقين فى دعواهم ، يعنى : اللّه تعالى يعلم كلّ مستتر فى العالم ، ويبصر كل عمل تعملونه فى سركم وعلانيتكم ، لا يخفى عليه منه شىء ، فكيف يخفى عليه ما فى ضمائركم. قال الورتجبي :

ليس للّه غيب ، إذ الغيب شىء مستور ، وجميع الغيوب عيان للّه – تعالى – وكيف يغيب عنه وهو موجده؟! يبصر ببصره القديم ما كان وما لم يكن ، وهناك العلم والبصر واحد. هـ. قوله : «العلم والبصر واحد» هذا على مذهب الصوفية فى أن بصره يتعلق بالمعدوم ، كما يتعلق به العلم ، ومذهب علماء الكلام : أن متعلق البصر خاص بالموجودات ، فمتعلق العلم أوسع. وانظر حاشية الفاسى على الصغرى.

الإشارة : كل من تمنى أن يعلم النّاس ما عنده من العلم والسر يقال له : أتعلّمون اللّه بدينكم ، واللّه يعلم ما فى سموات القلوب والأرواح من السر واليقين ، وما فى أرض النّفوس من عدم القناعة بعلم اللّه ، واللّه بكلّ شىء عليم.

وفى الحكم : «استشرافك أن يعلم النّاس بخصوصيتك دليل على عدم صدقك فى عبوديتك» «١».

وكلّ من غلب عليه الجهل حتى منّ على شيخه بصحبته له ، أو بما أعطاه ، يقال فى حقه : يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا .. الآية.

وقوله تعالى : وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ قال القشيري : فمن لاحظ شيئا من أعماله وأحواله فإن رآها من نفسه كان شركا ، وإن رآها لنفسه كان مكرا ، وإن رآها من ربه بربه كان توحيدا. وفقنا اللّه لذلك بمنّه وجوده. هـ.

وصلّى اللّه على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما.

---

(١) حكمة رقم ١٦١ انظر تبويب الحكم للمتقى الهندي (ص ١١).

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٤٤٣

سورة ق

مكية. وهى خمس وأربعون آية. ووجه مناسبتها : أن السورة قبلها واردة فى الترغيب فى الأدب ، والترهيب من سوء الأدب ، ولا يتحقق ذلك إلا لمن صحت عنده رسالة الرّسول ونبوته ، فأقسم فى هذه السورة على تحقيق رسالته وإنذاره بقوله :

[سورة ق (٥٠) : الآيات ١ الى ١١]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ (١) بَلْ عَجِبُوا أَنْ جاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقالَ الْكافِرُونَ هذا شَيْءٌ عَجِيبٌ (٢) أَإِذا مِتْنا وَكُنَّا تُراباً ذلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ (٣) قَدْ عَلِمْنا ما تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنا كِتابٌ حَفِيظٌ (٤) بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ (٥) أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّماءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْناها وَزَيَّنَّاها وَما لَها مِنْ فُرُوجٍ (٦) وَالْأَرْضَ مَدَدْناها وَأَلْقَيْنا فِيها رَواسِيَ وَأَنْبَتْنا فِيها مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٧) تَبْصِرَةً وَذِكْرى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ (٨) وَنَزَّلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً مُبارَكاً فَأَنْبَتْنا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ (٩) وَالنَّخْلَ باسِقاتٍ لَها طَلْعٌ نَضِيدٌ (١٠) رِزْقاً لِلْعِبادِ وَأَحْيَيْنا بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً كَذلِكَ الْخُرُوجُ (١١)

يقول الحق جل جلاله : ق أيها القريب المقرب من حضرتنا وَحق الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ إنك لرسول مجيد ، أو : ق أي : وحق القوىّ القريب ، والقادر القاهر. وقال مجاهد : هو جبل محيط بالأرض من زمردة خضراء ، وعليه طغى الماء ، وخضرة السماء منه ، والسماء مقبّبة عليه ، وما أصاب النّاس من زمرد فمما تساقط من ذلك الجبل. وروى أن ذا القرنين وصل إليه ، فخاطبه «١» ، وقال : يا قاف أخبرنى بشىء من عظمة اللّه ، قال : إن

---

(١) قال ابن كثير فى تفسيره (٤/ ٢٢٢) : «وقد روى عن بعض السلف أنهم قالوا : «ق» جبل محيط بجميع الأرض ، يقال له : جبل قاف ، وكأن هذا – واللّه أعلم – من خرافات بنى إسرائيل التي أخذها عنهم بعض النّاس ، لما رأوا من جواز الرّواية عنهم ، مما لا يصدّق ولا يكذب ، وعندى : أن هذا وأشباهه من اختلاق بعض زنادقتهم ، يلبسون به على النّاس أمر دينهم».

شأن ربنا لعظيم ، وإن ورائي أرضا ميسرة خمسمائة عام ، فى عرض خمسمائة عام ، من ثلج يحطم بعضه بعضا ، لولا ذلك الثلج لاحترقت من نار جهنم. هـ.

وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ أي : ذى المجد والشرف على سائر الكتب ، أو : لأنه كلام مجيد ، من علم معانيه وعمل بما فيه مجد عند اللّه وعند النّاس. وجواب القسم محذوف ، أي : إنك لرسول نذير ، أو : لتبعثن ، بدليل قوله : أَإِذا مِتْنا .. إلخ ، أو : إنا أنزلناه إليك لتنذر به فلم يؤمنوا ، بَلْ عَجِبُوا أَنْ جاءَهُمْ أي : لأن جاءهم مُنْذِرٌ مِنْهُمْ من جنسهم ، لا من جنس الملائكة ، أو : من جلدتهم ، وهو إنكار لتعجّبهم مما ليس بعجب ، وهو أن يخوفهم من غضب اللّه رجل منهم قد عرفوا عدالته وأمانته ، ومن كان كذلك لم يكن إلا ناصحا لقومه ، خائفا أن ينالهم مكروه وإذا علم أن مخوفا أظلهم لزمه أن ينذرهم ، فكيف بما هو غاية المخاوف؟ أو إنكار لتعجّبهم مما أنذرهم به من البعث مع علمهم بقدرة اللّه تعالى على خلق السموات والأرض وما بينهما ، وإقرارهم بالنشأة الأولى ، مع شهادة العقل بأنه لا بدّ من الجزاء ، وإلا كان إنشاء الخلق عبثا. ثم بيّن تعجبهم بقوله : فَقالَ الْكافِرُونَ هذا شَيْءٌ عَجِيبٌ أي : هذا الذي يقوله محمد من البعث بعد الموت شيء عجيب ، أو : كون محمد منذرا بالقرآن شيء يتعجب منه. ووضع «الكافرون» موضع الضمير للدلالة على أنهم فى قولهم هذا مقدمون على كفر عظيم.

ثم قالوا : أَإِذا مِتْنا وَكُنَّا تُراباً أي : أنبعث حين نموت ونصير ترابا كما يقوله هذا النّذير؟ ذلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ أي : ذلك البعث بعد هذه الحالة رجوع مستبعد ، منكر ، بعيد من الوهم والعادة. فالعامل فى «إذا» محذوف مفهوم من الكلام كما قدرنا. قال تعالى : قَدْ عَلِمْنا ما تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ ، وهو ردّ لاستبعادهم فإنّ من عمّ علمه ولطفه حتى ينتهى إلى حيث علم ما تنقص الأرض من أجساد الموتى ، وتأكل من لحومهم وعظمهم ، كيف يستبعد رجعه إياهم أحياء كما كانوا؟! عن النّبى صلّى اللّه عليه وسلم : «كل ابن آدم يأكله التراب إلا عجب الذّنب ، ومنه خلق ، وفيه يركّب» «١» وهو العصعص ، وقال فى المصباح : العجب «٢» - كفلس - من كلّ دابة : ما انضم عليه الورك من أصل الذّنب. هـ. وهو عظم صغير قدر الحمصة ، لا تأكله الأرض ، كما لا تأكل أجساد الأنبياء والأولياء والشهداء. قال ابن عطية : حفظ ما تنقص الأرض إنما هو ليعود بعينه يوم القيامة ، وهذا هو الحق. وذهب بعض الأصوليين إلى أن الأجساد المبعوثة يجوز أن تكون غير هذه ، هذا عندى خلاف ظاهر كتاب اللّه ، ولو كانت غيرها كيف كانت تشهد الجلود والأيدى والأرجل على الكفرة؟ إلى غير ذلك مما يقتضى أن أجساد الدنيا هى التي تعود. هـ.

---

(١) أخرجه مسلم فى (الفتن ، باب ما بين النّفختين ح ٢٩٥٥) من حديث أبى هريرة رضي اللّه عنه ،

وأخرجه البخاري مطولا وبنحوه فى (التفسير – سورة الزمر ، باب وَنُفِخَ فِي الصُّورِ .. ح ٤٨١٤).
(٢) بسكون الجيم.

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٤٤٥

وَعِنْدَنا كِتابٌ حَفِيظٌ لتفاصيل الأشياء ، أو : محفوظ من التغيير ، وهو اللوح المحفوظ ، أو : حافظا لما أودعه وكتب فيه ، أو : يريد علمه تعالى ، فيكون تمثيلا لعلمه تعالى بكليات الأشياء وجزئياتها ، بعلم من عنده كتاب حفيظ يتلقى منه كلّ شيء.

بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ ، إضراب وانتقال من بيان شناعتهم السابقة ، وتكذيب البعث ، الى ما هو أشنع منه وأفظع ، وهو تكذيبهم للنبوة الثابتة بالمعجزات الباهرة ، لَمَّا جاءَهُمْ من غير تأمل وتفكر ، وقيل : الحق : القرآن ، أو : الإخبار بالبعث ، فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ مضطرب ، لا قرار له ، يقال : مرج الخاتم فى إصبعه إذا اضطرب من سعته ، فيقولون تارة : مجنون ، وطورا : ساحر ، ومرة : كاهن ، ولا يثبتون على قول. أو : مختلط ، يقال : مرج أمر الناس : اختلط. أو : ملبس ، قال قتادة : من ترك الحق مرج عليه أمره ، وألبس عليه دينه.

أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّماءِ فَوْقَهُمْ بحيث يشاهدونها كلّ وقت كَيْفَ بَنَيْناها رفعناها بغير عمد وَزَيَّنَّاها بما فيها من الكواكب المترتبة على نظام عجيب ، وَما لَها مِنْ فُرُوجٍ من فنوق لملاستها وسلامتها من كلّ عيب وخلل ، وَالْأَرْضَ مَدَدْناها بسطناها وَأَلْقَيْنا فِيها رَواسِيَ جبالا ثوابت ، من : رسى الشيء ثبت ، والتعبير عنها بهذا الوصف للإيذان بأن إلقاءها إنما هو للإرساء ، وَأَنْبَتْنا فِيها مِنْ كُلِّ زَوْجٍ صنف بَهِيجٍ حسن. تَبْصِرَةً وَذِكْرى علتان للأفعال المذكورة ، أي : فعلنا ما فعلنا تبصرا وتذكيرا لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ أي : راجع إلى ربه ، متفكر فى بدائع صنائعه.

وَنَزَّلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً مُبارَكاً كثير المنافع فَأَنْبَتْنا بِهِ جَنَّاتٍ بساتين كثيرة وَحَبَّ الْحَصِيدِ أي : حب الزرع الذي شأنه أن يحصد من البرّ والشعير وأمثالهما ، وتخصيص حب الحصيد بالذكر لأنه المقصود بالذات إذ به جل القوام.

وَالنَّخْلَ باسِقاتٍ طوالا فى السماء ، أو : حوامل ، من : بسقت الشاة : إذا حملت. وتخصيصها بالذكر مع اندراجها فى «جنات» لبيان فضلها على سائر الأشجار ، لَها طَلْعٌ نَضِيدٌ منضود ، بعضه فوق بعض ، والمراد :

تراكم الطلع ، أو : كثرة ما فيه من الثمر ، رِزْقاً لِلْعِبادِ أي : لرزق أشباحهم ، كما أن قوله : تَبْصِرَةً وَذِكْرى لرزق أرواحهم. وفيه تنبيه على أن الواجب على العبد أن يكون انتفاعه بما ذكر من حيث التذكر

والتبصر الذي هو رزق الرّوح أهم وأقدم من تمتعه من حيث الرّزق الحسى ، وَأَحْيَيْنا بِهِ بذلك الماء بَلْدَةً مَيْتاً أرضا جدبة ، لا نماء فيها أصلا ، فلما أنزلنا عليها الماء ربت واهتزت بالنبات والأزهار ، بعد ما كانت جامدة. وضمّن البلدة معنى

(٤٤٥/٥)

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٤٤٦

البلد فذكّر الوصف. كَذلِكَ الْخُرُوجُ من القبور ، فكما حييت هذه البلدة الميتة كذلك تخرجون أحياء بعد موتكم ، لأن إحياء الموات كإحياء الأموات. وقدّم الخبر للقصد إلى القصر. والإشارة فى «كذلك» إلى الحياة المستفادة من الإحياء ، وما فيه من معنى البعد للإشعار ببعد رتبها ، أي : مثل ذلك الحياة البديعة حياتكم بالبعث من القبور ، لا شيء مخالف لها. وفى التعبير عن إخراج النّبات من الأرض بالإحياء ، وعن حياة الأموات بالخروج تفخيم لشأن النّبات ، وتهوين لأمر البعث ، وتحقيق للمماثلة لتوضيح منهاج القياس ، وتقريبه إلى أفهام النّاس.

الإشارة : ق أيها القريب المقرب ، وحق القرآن المجيد ، إنك لحبيب مجيد ، رسول من عند الملك المجيد ، وإن كنت بشرا فنسبتك من البشر كياقوتة بين الحجر ، فالبشرية لا تنافى الخصوصية ، بل تجامعها منّة منه تعالى وفضلا ، على من شاء من عباده ، فاستبعاد الكفار مجامعة الخصوصية للبشرية كاستبعاد إبليس تفضيل آدم لكونه بشرا من طين ، وذلك قياس فاسد ، مضاد للنص ، وكما استبعدت الكفرة وجود خصوصية النّبوة فى البشر ، استبعدت الجهلة خصوصية التربية بالاصطلاح فى البشر ، بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم ، يدل على اللّه ، ويبين الطريق إليه ، قالوا : هذا شيء عجيب ، أئذا متنا بأن ماتت قلوبنا بالغفلة ، وكنا ترابا أرضيين بشريين ، تحيى أرواحنا بمعرفة العيان؟! ذلك رجع بعيد. قال تعالى : (قد علمنا ما تنقص الأرض منهم) أرض النّفوس من أرواحهم ، وتهوى بها إلى الحضيض الأسفل ، فيجذبها إلى أعلى عليين ، إن سبقت عنايتنا ، وعندنا كتاب حفيظ يحفظ المراتب والمقامات ، فيلتحق كل واحد بما سبق له. بل كذّبوا بالحق ، وهو الداعي إلى الحق ، لمّا جاءهم فى كلّ زمان ، فهم فى أمر مريج ، تارة يقرون وجود التربية بالهمة والحال ، وينكرون الاصطلاح ، وتارة يقرون بالجميع ، وينكرون تعيينه ، أفلم ينظروا إلى سماء القلوب والأرواح ، كيف بنيناها ، أي : رفعنا قدرها بالعلوم والمعارف ، وزيّناها بأنوار الإيمان والإحسان ، وليس فيها خلل ، وأرض النّفوس مددناها : جعلناها بساطا للعبودية ، وألقينا فيها رواسى أرسيناها بالعقول الصافية الثابتة ، لئلا تضطرب عند زلزلات الامتحان ، وأنبتنا فيها من كلّ صنف بهيج ، من فنون علم الحكمة والتشريع ، تبصرة وتذكيرا لكلّ عبد منيب ، راجع إلى مولاه ، قاصد لمعرفته.

قال القشيري : تبصرة وذكرى لمن رجع إلينا فى شهود أفعالنا الى رؤية صفاتنا ، ومن شهود صفاتنا إلى شهود ذاتنا. هـ. ونزّلنا من السماء ماء العلوم اللدنية ، كثير البركة والنّفع ، فأنبتنا به جنات المعارف وحب الحصيد ، وهو حب المحبة لأنه يحصد من القلب محبة ما سوى اللّه. والنّخل باسقات ، أي : شجرة المعرفة الكاملة لها طلع نضيد :

(٤٤٦/٥)

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٤٤٧

ثمرة المعرفة وحلاوة الشهود ، رزقا لأرواح العباد ، وأحيينا به نفسا ميتة بالغفلة والجهل ، كذلك الخروج من ظلمة الجهل إلى نور العلم ، أي : مثل هذا الخروج البديع يكون الخروج ، وإلا فلا.

ثم هدّدهم بما جرى على من قبلهم ، فقال

[سورة ق (٥٠) : الآيات ١٢ الى ١٥]

كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ (١٢) وَعادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوانُ لُوطٍ (١٣) وَأَصْحابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ (١٤) أَفَعَيِينا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ (١٥)

يقول الحق جل جلاله : كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ أي : قبل قريش قَوْمُ نُوحٍ نوحا ، حيث أنذرهم بالبعث ، وَأَصْحابُ الرَّسِّ ، قيل : هم من بعث إليهم شعيب عليه السّلام كما مرّ فى سورة الفرقان بيانه «١» وقيل : قوم باليمامة ، وقيل : أصحاب الأخدود. والرّس : بئر لم تطو ، وَثَمُودُ وَعادٌ وَفِرْعَوْنُ ، أراد بفرعون قومه ليلائم ما قبله لأن المعطوف عليه جماعات ، وَإِخْوانُ لُوطٍ ، قيل : كان قومه من أصهاره عليه السّلام ، فسماهم إخوانه ، وَأَصْحابُ الْأَيْكَةِ هم ممن بعث إليهم شعيب عليه السّلام غير أهل مدين ، وَقَوْمُ تُبَّعٍ هو ملك باليمن ، دعا قومه إلى الإسلام وهم حمير ، فكذّبوه ، وسمّى تبعا لكثرة تبعه.

قال ابن إسحاق : كان تبع الآخر هو أسعد بن كرب ، حين أقبل من المشرق ، ومرّ على المدينة ، ولم يهج أهلها ، وخلف عندهم ابنا له ، فقتل غيلة ، فجاء مجمعا على حربهم ، وخراب المدينة ، فأجمع هذا الحي من الأنصار على قتاله ، وسيدهم عمرو بن طلحة ، أخو بنى النجار ، فتزعم الأنصار : أنهم كانوا يقاتلونه بالنهار ، ويقرونه بالليل ، فيعجبه ذلك ، ويقول : إن قومنا هؤلاء لكرام ، فبينما هو كذلك إذ جاءه حبران من أحبار بنى قريظة ، من علماء أهل زمانهما ، فقالا : أيها الملك لا تقاتلهم ، فإنا لا نأمن عليك العقوبة لأنها مهاجر نبىّ يخرج من هذا الحي ، من قريش ، فى آخر الزمان ، هى داره وقراره ، فكفّ عنهم ، ثم دعواه إلى دينهما ، فاتبعهما ، ثم رجع إلى اليمن ، فقالت له حمير : لا

تدخلها وقد فارقت ديننا ، فحاكمنا إلى النار ، وقد كانت باليمن نار أسفل جبل يتحاكمون إليها ، فتأكل الظالم ولا تضر المظلوم ، فخرجوا بأصنامهم ، وخرج الحبران بمصاحفهما ، فأكلت النار الأوثان ، وما قرّبوا معها ، ومن دخل ذلك من رجال حمير ، وخرج الحبران بمصاحفهما فى أعناقهما ، يتلوان التوراة ، ولم تضرهما ، فأطبق

---

(١) راجع تفسير الآية ٣٨ من سورة الفرقان.

أهل حمير على دين الحبرين ، فمن هنالك كان أصل اليهودية باليمن. قال الرياشي : كان أبو كرب أسعد الحميرى من التبابعة ، آمن بالنبي صلّى اللّه عليه وسلم قبل أن يبعث بسبعمائة سنة. وتقدم شعره فى الدخان «١».

كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فيما أرسلوا به من الشرائع ، التي من جملتها : البعث الذي أجمعوا عليه قاطبة ، أي : كل قوم من الأقوام المذكورين كذّبوا رسولهم فَحَقَّ وَعِيدِ أي : فوجب وحلّ عليهم وعيدى ، وهى كلمة العذاب.

وفيه تسلية لرسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم وتهديد لهم.

أَفَعَيِينا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ ، استئناف مقرر لصحة البعث ، الذي حكيت أحوال المنكرين له من الأمم المهلكة.

والعىّ بالأمر : العجز عنه ، يقال : عيى بالأمر : إذا لم يهتد لوجه عمله. والهمزة للإنكار ، والفاء : عطف على مقدر ، ينبئ عنه المقام ، كأنه قيل : أقصدنا الخلق الأول فعجزنا عنه حتى يتوهم عجزنا عن الإعادة؟ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ أي : بل هم فى لبس وخلط وشبهة ، قد لبس عليهم الشيطان وحيّرهم ، حيث سوّل لهم أن إحياء الموتى خارج عن العادة ، فتركوا لذلك الاستدلال الصحيح ، وهو : أن من قدر على الإنشاء كان على الإعادة أقدر.

وهو معطوف على مقدر يدل عليه ما قبله ، كأنه قيل : هم غير منكرين لقدرتنا على الخلق الأول ، بل هم فى خلط وشبهة من خلق مستأنف جديد. وتنكير «خلق» لتفخيم شأنه ، والإشعار بخروجه عن حدود العادة ، والإيذان بأنه حقيق بأن يبحث عنه ويهتم بمعرفته.

الإشارة : قال القشيري : الإشارة فى الآية إلى أنّ الغالب فى كلّ زمان غلبة الهوى والطبيعة الحيوانية واستيلاء الحس على النّاس ، نفوسهم متمردة ، بعيدة من الحق ، قريبة من الباطل ، كلما جاء إليهم

رسول كذّبوه ، وعلى ما جاء به قاتلوه ، فحقّ عليهم عذاب ربهم ، لمّا كفروا نعمه ، فما أعياه إهلاكهم. هـ. قلت : وكذلك جرى فى كل زمان ، كل من أمر النّاس بإخراجهم عن عوائدهم ، ومخالفة أهوائهم ، رفضوه وعادوه ، فقلّ بسبب ذلك المخلصون ، وكثر المخلطون ، فإذا قالوا : لا يمكن الإخراج عن العوائد ، قلنا : القدرة صالحة ، قال تعالى : أَفَعَيِينا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ، وهو إحياء القلب الميت ، فيجدّد إيمانه ، وتحيا روحه حياة سرمدية.

وباللّه التوفيق.

ثم إنّ عادته تعالى فى التنزيل : أنه مهما ذكر دلائل قدرته ذكر بإثره شأن علمه ، أو بالعكس ، إشارة إلى إسناد كل المقدورات إليه تعالى ، ردا على الطبائعيين لأنّ الفاعل بالطبيعة لا يتوقف على العلم ، ولذلك قال تعالى :

---

(١) راجع تفسير الآيات : ٣٤ - ٣٩.

[سورة ق (٥٠) : الآيات ١٦ الى ٢٢]

وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ وَنَعْلَمُ ما تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ (١٦) إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمالِ قَعِيدٌ (١٧) ما يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ (١٨) وَجاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذلِكَ ما كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ (١٩) وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ (٢٠) وَجاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَها سائِقٌ وَشَهِيدٌ (٢١) لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هذا فَكَشَفْنا عَنْكَ غِطاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ (٢٢)

يقول الحق جل جلاله : وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ وَنَعْلَمُ ما تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ أي : ما تحدّثه نفسه ويهجس فى ضميره من خير وشر. والوسوسة : الصوت الخفي ، ووسوسة النّفس : ما يخطر بالبال. والضمير فى «به» ل «ما» إن جعلتها موصولة ، والباء كما فى : صوّت بكذا ، أو : للإنسان ، إن جعلتها مصدرية. والباء حينئذ للتعددية.

وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ أي : أعلم بحاله مما كان أقرب إليه مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ. والحبل : العرق ، وإضافته بيانية والوريدان : عرقان مكتفان بصفحتى العنق فى مقدمه متصلان بالوتين ، والوتين : عرق فى القلب إذا انقطع مات صاحبه. قاله فى القاموس ، يردان من الرّأس إليه ، وقيل : سمى وريد لأن الماء يرده.

إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيانِ أي : الملكان الحافظان لأعمال العبد. والظرف : منصوب بما فى «أقرب» من

معنى الفعل ، أي : يتقرب إذ يتلقى. والمعنى : أنه تعالى لطيف يتوصل علمه إلى ما لا شيء أخفى منه ، وهو أقرب للإنسان من كل قريب ، حين يتلقى الحافظان ما يتلفظ به ، وفيه إيذان بأنه تعالى غنيّ عن استحفاظها لإحاطة علمه بما يخفى عليهم ، وإنما ذلك لمافى كتبهما وحفظهما لأعمال العباد ، وعرض صحائفها يوم يقوم الأشهاد ، وعلم العبد بذلك مع علمه بإحاطته بتفاصيل أحواله من زيادة لطف به فى الكف عن السيئات ، والرّغبة فى الحسنات. ثم ذكر مكانهما بقوله : عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمالِ قَعِيدٌ أي : عن اليمين قعيد وعن الشمال قعيد ، وحذف الأول للدلالة الثاني عليه.

وقعيد : بمعنى مقاعد ، كالجليس بمعنى المجالس ، أو : بمعنى قاعد ، كالسميع والعليم. وعنه صلّى اللّه عليه وسلم : «إن مقعد ملكيك على ثنّيتيك ، ولسانك قلمهما ، وريقك مدادهما ، وأنت تجرى فيما لا يعنيك لا تستحيى من اللّه ولا منهما!» «١» وقال الضحاك : مجلسهما تحت الثغر من الحنك ، ورواه عن الحسن «٢» ، وكان يعجبه أن ينظف عنفقته «٣».

---

(١) ذكره بلفظه القرطبي فى التفسير (٧/ ٦٣٦٥) عن سيدنا علىّ رضي اللّه عنه ، مرفوعا ، وقال السيوطي فى الدر المنثور (٦/ ١١٨) : أخرج أبو نعيم والديلمي ، عن معاذ بن جبل رضي اللّه عنه. مرفوعا : إن اللّه لطّف الملكين الحافظين حتى أجلسهما على النّاجذين ، وجعل لسانه قلمهما ، وريقه مدادهما».

(٢) العبارة فى القرطبي : ورواه عوف عن الحسن قال : وكان يعجبه. إلخ.

(٣) العنفقة : شعيرات بين الشفة السفلى والذقن. انظر : النهاية (عنفق ٣/ ٣٠٩). [.....]

ما يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ أي : ما يتكلم به وما يرمى به من فيه إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ حافظ عَتِيدٌ حاضر لازم ، أو معد مهيأ لكتابة ما أمر به من الخير والشر. وقال أبو أمامه عنه صلّى اللّه عليه وسلم : «كاتب الحسنات عن يمين الرجل وكاتب السيئات عن يساره ، وكاتب الحسنات أمين على كاتب السيئات ، فإذا عمل حسنة كتبها صاحب اليمين عشرا ، وإذا عمل سيئة قال صاحب اليمين لصاحب الشمال : دعه سبع ساعات ، لعله يسبّح أو يستغفر» «١».

قال الحسن : إنّ الملكين يجتنبان العبد عند غائطه ، وعند جماعه ، ويكتبان عليه كل شيء ، حتى أنينه فى مرضه. وقال عكرمة : لا يكتبان عليه إلا ما يؤجر عليه أو يؤزر «٢». وعنه عليه السّلام : «ما من حافظين يرفعان إلى اللّه ما حفظا ، فيرى اللّه تعالى فى أول الصحيفة خيرا وفى أخرها خيرا ، إلا

قال للملائكة : اشهدوا أنى قد غفرت لعبدى ما بين طرفى الصحيفة» «٣». والحفظه أربعة ، اثنان بالليل ، واثنان بالنهار ، فإذا مات العبد قاموا على قبره يكبران ويهللان ويكتب ذلك للعبد المؤمن.

ولمّا ذكر إنكارهم للبعث ، واحتج عليهم بعموم قدرته وعلمه ، أعلمهم أن ما أنكروه هم لا قوة بعد الموت ، ونبّه على اقتراب ذلك بأن عبّر عنه بلفظ الماضي فقال : وَجاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ .. إلخ. وقال ابن عطية : هو عندى عطف على «إذ يتلقى» والتقدير : وإذ تجىء سكرة الموت ، يعنى فهو كقوله : وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ الآية «٤» هـ. وحاصل الآية حينئذ : ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ظاهره وباطنه ، ونحن أقرب إليه فى جميع أحواله ، فى حياته ، ووقت مجىء سكرة الموت ، أي : شدته الذاهبة بالعقل ، ملتبسة بِالْحَقِّ أي : بحقيقة الأمر ، وجلاء الحال ، من سعادة الميت أو شقاوته ، ذلِكَ ما كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ أي : تنفر وتهرب وتميل عنه طبعا. والإشارة إلى الموت.

والخطاب للإنسان فى قوله : وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ على طريقة الالتفات.

وَنُفِخَ فِي الصُّورِ نفخة البعث ذلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ أي : وقت ذلك النفخ هو يوم الوعيد ، أي : يوم إنجاز الوعد ووقوع الوعيد. وتخصيص الوعيد بالذكر لتهويله ، ولذلك بدأ ببيان حال الكفرة بقوله : وَجاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ من النفوس البرة والفاجرة مَعَها سائِقٌ وَشَهِيدٌ أي : ملكان ، أحدهما يسوقه إلى المحشر ، والآخر يشهد

---

(١) أخرجه البغوي فى التفسير (٧/ ٣٥٩) والبيهقي فى الشعب (الباب السابع والأربعون ، ح ٧٠٤٩) والطبراني فى الكبير (٨/ ٢٢٥ ، ح ٧٧٨٧) وأيضا (٨/ ٢٩٥ – ٢٩٦ ، ح ٧٩٧١) وأبو نعيم فى الحلية (٦/ ١٢٤) من حديث أبى أمامة رضي اللّه عنه ، وقال الهيثمي فى المجمع (١٠/ ٢٠٨) : «رواه الطبراني بأسانيد ، ورجال أحدها وثقوا».

(٢) عزاه السيوطي فى الدر (٦/ ١١٩) لابن المنذر.

(٣) ذكره القرطبي (٧/ ٦٣٦٦) عن أبى هريرة وأنس – رضى اللّه عنهما.

(٤) الآية ٨٥ من سورة الواقعة.

عليه بعمله. قيل : السائق : كاتب الحسنات ، والشاهد : كاتب السيئات ، ويقال لها : (لقد كنت فى غفلة من هذا) النازل بك اليوم ، فَكَشَفْنا عَنْكَ غِطاءَكَ فأزلنا غفلتك ، وهو الوقوف مع المحسوسات والإلف ، والانهماك فى الحظوظ ، وقصر النظر عليها ، فشاهدت اليوم ما كنت غافلا عنه فَبَصَرُكَ

الْيَوْمَ حَدِيدٌ نافذ لزوال المانع. جعلت الغفلة كأنها غطاء غطى به جسده ، أو غشاوة غطى بها عينيه فهو لا يبصر شيئا ، فإذا كان يوم القيامة سقط ، وزالت عنه الغفلة ، وكشف غطاؤه ، فبصر ما يبصره من الحق ، ورجع بصره الكليل حديدا ، لتيقظه حين لم ينفع التى قظ.

وباللّه التوفيق.

الإشارة : هذه الآية وأشباهها أصل فى مقام المراقبة القلبية ، فينبغى للعبد أن يستحيى من اللّه أن يحدّث فى نفسه بشىء يستحيى أن يظهره ، يعنى الاسترسال معه ، وإلا فالخواطر العارضة لا قدرة على دفعها. قال القشيري :

(ما توسوس به نفسه) من شهوة تطلب استيفاءها ، أو تصنّع مع الخلق ، أو سوء خلق ، أو اعتقاد فاسد ، أو غير ذلك من أوصاف النّفس ، توسوس بذلك لتشّوش عليه قلبه ووقته ، وكيف لا نعلم ذلك وكلّ ذلك مما خلقناه وقدرناه. هـ.

وقوله تعالى : وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ أي : أنا أقرب إلى كلّ أحد من عروق قلبه ، وهذا لأن قيام الفعل بالصفات ، والصفات لا تفارق الذات ، فالقرب بالعلم والقدرة ، وتستلزم القرب بالذات ، وقرب الحق من خلقه هو قرب المعاني من الأوانى ، إذ هى كليتها وقائمة بها ، فافهم. قال القشيري : وفى هذه الآية هيبة وفزع لقوم ، وروح وأنس وسكون قلب لقوم. هـ. وقوله تعالى : إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيانِ .. إلخ ، كأنه تعالى يقول : من لم يعرف قدر قربى منه ، بأن يعده وهمه وجهله ، فإنى أوكّل عليه رقيبين يحفظان أعماله لعله ينزجز.

وقوله تعالى : ما يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ .. إلخ ، وأما عمل القلوب فاختص اللّه تعالى بعلمها ، وهى محض الإخلاص. قال بعضهم : الإخلاص : إخفاء العمل بحيث لم يطلع عليه ملك فيكتبه ، ولا شيطان فيفسده ، فالعارفون جلّ أعمالهم قلبية ، نظرة أو فكرة. روى أن بعض العارفين قال له حفظته : يا سيدى أظهر لنا شيئا من أعمالك نفرح به عند اللّه ، فقال لهم : يكفيكم الصلوات الخمس. هـ. قال القشيري : وفيه أيضا إشارة إلى كمال عنايته فى حق عباده ، إذ جعل على كلّ واحد رقيبين من الملائكة ليحفظوه بالليل والنهار ، إذا كان قاعدا فواحد عن يمينه وواحد عن شماله ، وإذا قام فواحد عند رأسه ، وواحد عند قدمه ، وإذا كان ماشيا فواحد بين يديه وواحد خلفه. انظر بقيته. هـ. وهذان غير الملكين الموكلين بحفظ الأعمال. واللّه أعلم.

وقال فى قوله : وَجاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ : إذا أشرفت النفس على الخروج من الدنيا ، فأحوالهم تختلف ، فمنهم من يزداد فى ذلك الوقت خوفه ، ولا يتبيّن حاله إلا عند ذهاب الروح ، ومنهم من يكاشف قبل خروجه

فتسكن روحه «١» ، ويحفظ عليه عقله ، ويتم له حضوره وتمييزه ، فسلّم الروح على مهل من غير استكراه وعبوس منهم. وفى معناه يقول بعضهم :

أنا إن متّ فالهوى حشو قلبى وبداء الهوى تموت الكرام «٢».

وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ لكلّ نفس ما وعدها اللّه ، بحسب سيرها من أول العمر إلى يوم البعث ، (و جاءت كلّ نفس معها سائق) وهو الذي ساقها فى مبدأ الوجود ، إما سوقا باللطف ، أو سوقا بالعنف عند قوله :

«هؤلاء إلى الجنة ولا أبالى وهؤلاء الى النار ولا أبالى» «٣» ، وشهيد يشهد عليها بما جرى لها من الأحكام الأزلية (لقد كنت فى غفلة من هذا) قال القشيري : يشير إلى أن الإنسان ، وإن خلق من عالم الغيب والشهادة ، فالغالب عليه فى البداية الشهادة ، وهو العالم الحسى ، فيرى بالحواس الظاهرة العالم المحسوس مع اختلاف أجناسه ، وهو بمعزل عن إدراك عالم الغيب ، فمن الناس يكشف له غطاؤه عن بصر بصيرته ، فيجعل حديدا ، يبصر رشده ، ويحذر شره ، وهم المؤمنون من أهل السعادة ، ومنهم من يكشف له غطاء عن بصر بصيرته يوم القيامة يوم لا ينفع نفسا إيمانها ..

الآية «٤» ، وهم الكفار من أهل الشقاوة. هـ.

ثم ذكر أحوالهم بعد البعث ، فقال

[سورة ق (٥٠) : الآيات ٢٣ الى ٢٩]

وَقالَ قَرِينُهُ هذا ما لَدَيَّ عَتِيدٌ (٢٣) أَلْقِيا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ (٢٤) مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُرِيبٍ (٢٥) الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ فَأَلْقِياهُ فِي الْعَذابِ الشَّدِيدِ (٢٦) قالَ قَرِينُهُ رَبَّنا ما أَطْغَيْتُهُ وَلكِنْ كانَ فِي ضَلالٍ بَعِيدٍ (٢٧)

قالَ لا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ (٢٨) ما يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَما أَنَا بِظَلاَّمٍ لِلْعَبِيدِ (٢٩)

---

(١) فى القشيري : فيسكن روعه.

(٢) فى الرسالة القشيرية (٣٠٨) : قال على المزين : كنت بمكة ، فخرجت أريد المدينة المنورة ، وإذا أنا بشاب ينزع ، فقلت له : قل «لا إلا إلا اللّه» ففتح عينيه وأنشأ يقول : [.....] البيت. فشهق شهقة ، ثم مات.

(٣) أخرجه أحمد (٤/ ١٨٦) وابن سعد فى الطبقات (١/ ٣٠) و(٧/ ٤١٧) وابن حبان فى صحيحه (١٨٠٦) والحاكم (١/ ٣١) «وصحّحه وأقره الذهبي» عن عبد الرحمن بن قتادة السلمى – وكان من أصحاب النّبى صلّى اللّه عليه وسلم – مرفوعا : «إن اللّه – عز وجل – خلق آدم ، ثم أخذ الخلق من ظهره ، وقال : هؤلاء إلى الجنة ولا أبالى ، وهؤلاء إلى النار ولا أبالى. فقال قائل : يا رسول اللّه! فعلى ما ذا نعمل؟ قال صلّى اللّه عليه وسلم : «على مواقع القدر». قال الزبيدي فى اتحاف السادة المتقين

(٩/ ٢٠٧) عن العراقي : «رجاله ثقات» والحديث صحّحه الألبانى (سلسلة الأحاديث الصحيحة ح ٤٨).

(٤) نص الآية .. يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آياتِ رَبِّكَ لا يَنْفَعُ نَفْساً إِيمانُها لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمانِها خَيْراً .. الآية ١٥٨ من سورة الأنعام.

(٤٥٢/٥)

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٤٥٣

يقول الحق جل جلاله : وَقالَ قَرِينُهُ أي : الشيطان المقيض له ، أو : الملك الكاتب الشاهد عليه : هذا ما لَدَيَّ عَتِيدٌ أي : هذا ما عندى وفى ملكى عتيد لجهنم ، قد هيأته بإغوائى وإضلالى ، أو : هذا ديوان عمله عندى عتيد مهيأ للعرض ، ف «ما» موصولة ، إما بدل من «هذا» أو صفة ، و«عتيد» : خبر ، أو : خبر ، و«عتيد» : خبر آخر ، أو :

موصوفة خبر «هذا» ، و«لدىّ» : صفته ، وكذا «عتيد» أي : هذا شيء ثابت لدىّ عتيد.

ثم يقول اللّه تعالى للسائق والشهيد : أَلْقِيا فِي جَهَنَّمَ ، أو : لملكين من خزنة جهنم ، أو : يكون الخطاب لواحد ، وكان الأصل : ألق ألق ، فناب «ألقيا» عن التكرار لأن الفاعل كالجزء من الفعل ، فكان تثنية الفاعل نائبا عن تكرار الفعل ، أو : أصله : ألقين ، والألف بدل من نون التوكيد ، إجراء للموصول مجرى الوقف ، دليله : قراءة الحسن :

(ألقين) «١» والأحسن : أن يراد جنس قرينه ، فيصدق بالسائق والشهيد ، فيقال لهما : أَلْقِيا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ بالنعم والمنعم عَنِيدٍ : مجانب للحق ، معاد لأهله ، مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ كثير المنع للمال عن حقوقه ، أو : منّاع لجنس الخير أن يصل إلى أهله ، أو : يراد بالخير الإسلام ، لأن الآية نزلت فى الوليد بن المغيرة ، لمّا منع بنى أخيه من الإسلام. مُعْتَدٍ ظالم متخطّ للحق مُرِيبٍ : شاك فى اللّه تعالى وفى دينه. الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ : بدل من «كل كفّار» ولا يجوز أن يكون صفة لأن النكرة لا توصف بالموصول ، خلافا لابن عطية ، أو : مبتدأ مضمن معنى الشرط ، خبره : فَأَلْقِياهُ فِي الْعَذابِ الشَّدِيدِ ، وعلى الأول يكون «فألقياه» تكريرا للتوكيد ، أو مفعولا بمضمر ، يفسره «فألقياه» أي : ألق الذي جعل مع اللّه إلها آخر ألقياه.

قالَ قَرِينُهُ أي : شيطانه الذي قرن به ، وهذا يؤيد أن المراد بالمتقدم جنس القرين ، وإنما أخليت هذه الجملة من الواو دون الأولى لأن الأولى واجب عطفها للدلالة على الجمع بين معناها ومعنى ما قبلها فى الحصول ، أي :

مجيء كلّ نفس مع ملكين ، وقول قرينه ما قال له ، وأما هذه فهى مستأنفة ، كما تستأنف الجمل

الواقعة فى حكاية التقاول ، كما فى مقاولة موسى وفرعون فى قوله : وَما رَبُّ الْعالَمِينَ قالَ ... إلى آخر الآيات «٢» ، فكأن الكافر قال : هو أطغانى ، فأجابه قرينه بتكذيبه فقال : رَبَّنا ما أَطْغَيْتُهُ وَلكِنْ كانَ فِي ضَلالٍ بَعِيدٍ عن الحق ، أي : ما أوقعته فى الطغيان بالقهر ، ولكن طغى واختار الضلالة على الهدى ، وهذا كقوله : وَما كانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ «٣» ، فالوسوسة والتزيين حاصل منه ، والاختيار من الكافر ، والفعل للّه ، لا يسأل عما يفعل.

قالَ تعالى : لا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ أي : فى موقف الحساب والجزاء ، إذ لا فائدة فى ذلك ، والجملة استئناف جواب عن سؤال ، كأن قائلا قال : فما ذا قال اللّه تعالى لهم؟ قال : لا تختصموا عندى وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ

---

(١) بنون التوكيد الخفيفة ، نحو قوله : «لنسفعا». وانظر مختصر ابن خالويه/ ص ١٤٥ والمحتسب (٢/ ٢٨٤) وإعراب شواذ القرآت للعكبرى (٢/ ٥٠٧) والقرطبى (٧/ ٦٣٧١).

(٢) الآيات : ٢٣ - ٣١ من سورة الشعراء.

(٣) الآية ٢٢ من سورة إبراهيم.

فى دار الكسب على ألسنة رسلى ، فلا تطمعوا فى الخلاص منه بما أنتم فيه من التعلل بالمعاذير الباطلة.

والجملة فيها تعليل للنهى ، على معنى : لا تختصموا وقد صح عندكم أنى قدمت إليكم بالوعيد حيث قلت : «لأملان جهنم ..» إلخ ، فاتبعتموه معرضين عن الحق ، فلا وجه للاختصام فى هذا الوقت.

والباء إما مزيدة كما فى قوله :

وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ «١» أو معدية على أن «قدّم» مضارع تقدم.

ما يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ أي : لا تطمعوا أن يبدل قولى ووعيدي بإدخال الكفار فى النار ، وَما أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ فلا أعذب عبدا بغير ذنب من قبله ، بل بما صدر منه من الجنايات ، حسبما أشير إليه آنفا.

والتعبير عنه بالظلم مع أن تعذيبهم بغير ذنب ليس بظلم على ما تقرر من قاعدة أهل السنة ، فضلا عن كونه ظلما مفرطا لتأكيد هذا المعنى ، بإبراز ما ذكر من التعذيب بغير ذنب فى معرض المبالغة فى الظلم ، وقيل : هو لرعاية جمعية العبيد ، من قولهم : فلان ظالم لعبده وظلّام لعبيده ، وقيل : ظلّام بمعنى : ذى ظلم ، كلبّان لذى اللبن. والله تعالى أعلم.

الإشارة : قرين الإنسان نفسه الأمّارة وروحه المطمئنة ، فإذا غلبت النفس على الروح وصرّفت صاحبها في الهوى ، تقول يوم القيامة : هذا ما لدىّ عتيد ، مهيأ للعتاب ، فيقال لهما : ألقيا فى نار القطيعة كلّ كفّار للنعم ، جحود لوجود الطبيب ، منّاع للخير ، فلم يصرفه فيما يخلصه من نفسه ، معتد على اللّه بتكبره ، وعدم حط رأسه للداعى إلى اللّه ، مريب ، قد لعبت به الشكوك والأوهام والخواطر ، أو : شاك فى وجود الطبيب ، الذي جعل مع اللّه إلها آخر ، يحبه ويخضع له ، من الهوى والدنيا ، وكلّ ما أشركه مع اللّه فى المحبة ، فألقياه فى العذاب الشديد : الحجب عن اللّه ، وعدم اللحوق بأولياء اللّه ، أو العذاب الحسى. قال قرينه – روحه التي كانت سماوية ، فصيرها أرضية ، بمتابعة هواه : ربنا ما أطغيته ، فإنه ليس الإغواء والإطغاء من شأنى ، ولكن كان فى ضلال بعيد ، حيث أطاع نفسه وهواه ، ورمانى فى مزابل الشهوات والغفلة ، قال تعالى : (لا تختصموا لدىّ) اليوم ، قد قدمت إليكم بالوعيد ، حيث قلت :

إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ «٢» قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاها وَقَدْ خابَ مَنْ دَسَّاها «٣» وقلت فى شأن من جاهد نفسه ، وردها لأصلها : يا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ «٤» الآية ، ما يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ فإنى وعدت أهل المجاهدة بالوصول إلى حضرتى ، والتنعم برؤيتى بقولي : وَالَّذِينَ جاهَدُوا فِينا ... «٥» الآية ، وأهل الغفلة بالحجاب ، بقولي : كَلَّا بَلْ رانَ عَلى قُلُوبِهِمْ ما كانُوا يَكْسِبُونَ ، كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ «٦» ، وما ظلمت أحدا قط ، لأن الظلم ليس من شأنى ، ولا يليق بملكي.

---

(١) من الآية ١٩٥ من سورة البقرة.

(٢) من الآية ٥٣ من سورة يوسف.

(٣) الآيتان ٩ – ١٠ من سورة الشمس. [.....]

(٤) من الآية ٢٧ من سورة الفجر.

(٥) الآية ٦٩ من سورة العنكبوت.

(٦) الآيتان ١٤ – ١٥ من سورة المطففين.

ثم ذكر اليوم الذي يظهر الوعد والوعيد ، فقال

[سورة ق (٥٠) : الآيات ٣٠ الى ٣٥]

يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ (٣٠) وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ (٣١) هذا ما

تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ (٣٢) مَنْ خَشِيَ الرَّحْمنَ بِالْغَيْبِ وَجاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ (٣٣) ادْخُلُوها بِسَلامٍ ذلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ (٣٤)

لَهُمْ ما يَشاؤُنَ فِيها وَلَدَيْنا مَزِيدٌ (٣٥)

يقول الحق جل جلاله : واذكر يَوْمَ نَقُولُ «١» لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ؟ وقرأ غير نافع وشعبة : بنون العظمة.

فالعامل فى الظرف : اذكر أو : «بظلّام» أو محذوف مؤخر ، أي : يكون من الأحوال والأهوال ما يقصر عنه المقال ، وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ؟ أي : من زيادة ، مصدر كالمجيد ، أو : مفعول ، كالمنيع ، أي : هل بقي ما يزاد ، يعنى : أنها مع اتساعها وتباعد أقطارها يطرح فيها النّاس والجنة فوجا بعد فوج حتى تملأ وَتَقُولُ بعد امتلائها : هَلْ مِنْ مَزِيدٍ أي : هل بقي فىّ موضع لم يمتلى ء؟! يعنى : قد امتلأت. أو : أنها من السعة يدخل من يدخلها ولم تمتلىء فتطلب المزيد ، وهذا أولى «٢».

قال ابن جزى : واختلف هل تتكلم جهنم حقيقة ، أو مجازا بلسان الحال ، والأظهر : أنه حقيقة ، وذلك على اللّه يسير ، ومعنى قولها : هل من مزيد : أنها تطلب الزيادة ، وكانت لم تمتلئ ، وقيل : معناه : لا مزيد ، أي : ليس عندى موضع للزيادة ، فهى على هذا قد امتلأت ، والأول أرجح ، لما ورد فى الحديث : «لا تزال جهنم يلقى فيها وتقول : هل من مزيد؟ حتى يضع الجبار فيها قدمه ، فتنزوى ، وتقول : قط قط» «٣» وفى هذا الحديث كلام ليس هذا موضعه. هـ.

قال فى الحاشية : ووضع القدم مثل للردع والقمع ، أي : يأتيها أمر يكفها عن طلب المزيد وقال ابن حجر :

واختلف فى المراد بالقدم ، فطريق السلف فى هذا وغيره مشهورة. ثم قال : وقال كثير من أهل العلم بتأويل ذلك ،

---

(١) هكذا بالياء ، وهى قراءة نافع ، وقرأ الباقون «نقول» بالنون. انظر الإتحاف (٢/ ٤٨٩).

(٢) على هامش النّسخة الأم ما يلى : بل هذا هو الواجب ، وما قبله باطل بداهة ونصا عن الرّسول صلّى اللّه عليه وسلم ، فكان الواجب عدم ذكر القول الباطل المقطوع ببطلانه ، لا سيما مع عدم رده والمبالغة فى إبطاله ، ففى الحديث الصحيح : «أنها لا تزال تطلب المزيد حتى يضع الجبار فيها قدمه فتقول : قط قط». هـ.

(٣) أخرجه البخاري فى (الأيمان والنّذور ، باب الحلف بعزة اللّه ، ح ٦٦٦١) ومسلم فى (الجنة ، باب النّار يدخلها الجبارون ، ح ٢٨٤٨) من حديث أنس بن مالك. رضي اللّه عنه.

فقيل : المراد إذلال جهنم ، فإنها إذا بلغت فى الطغيان ، وطلبت المزيد ، أذلها اللّه ، كوضعها تحت القدم ، وليس المراد حقيقة القدم ، والعرب تستعمل ألفاظ الأعضاء ظرفا للأمثال ، ولا تريد أعيانها ، كقولهم : رغم أنفه ، وسقط فى يده. هـ. قلت : من دخل بحار الأحدية لم يصعب عليه حلّ أمثال هذه الشّبه ، فإن تجليات الحق لا تنحصر ، فيتجلى سبحانه كيف شاء ، وبما شاء ، ولا حصر ولا تحييز ، ولا يفهم هذه إلا أهل الفناء والبقاء بصحبة الرّجال.

ثم قال تعالى : وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ، وهو شروع فى بيان أحوال المؤمنين بعد النّفخ ومجيء النّفوس إلى موقف الحساب. وتقديم الكفرة فى أمثال هذا إما لتقديم الترهيب على الترغيب ، أو لكثرة أهل الكفر ، فإن المؤمنين بينهم كالشعرة البيضاء فى جلد أسود «١» ، أي : قربت الجنة للمتقين الكفر والمعاصي ، بحيث يشاهدونها من الموقف ، ويقفون على ما فيها من فنون المحاسن ، فيبتهجون بأنهم محشورون إليها ، فائزون بها ، ويأتى فى الإشارة بقية بيان ، إن شاء اللّه. وقوله : غَيْرَ بَعِيدٍ تأكيد للإزلاف ، أي : مكانا غير بعيد ، ويجوز أن يكون التذكير لكونه على زنة المصدر ، الذي يستوى فى الوصف به المذكر والمؤنث ، أو لتأوّل الجنة بالبستان.

هذا ما تُوعَدُونَ أي : هذا الثواب ، أو الإزلاف ، ما كنتم توعدون به فى الدنيا ، وهو حاصل لِكُلِّ أَوَّابٍ أي : رجّاع إلى اللّه تعالى حَفِيظٍ لأوامر اللّه ، أو لما استودعه اللّه من حقوقه ، مَنْ خَشِيَ الرَّحْمنَ بِالْغَيْبِ :

بدل من «أواب» أو مبتدأ ، خبره : أدخلوها ، على تقدير : يقال لهم : ادخلوها لأن «من» فى معنى الجمع ، والخشية :

انزعاج القلب عند ذكر الخطيئة أو التقصير أو الهيبة. وقوله تعالى : (بالغيب) حال من فاعل «خشى» ، أو من مفعوله ، أو صفة لمصدره ، أي : خشية ملتبسة بالغيب ، حيث خشى عقابه وهو غائب عنه ، وخشى الرّحمن وهو غائب عن الأعين فى رداء الكبرياء ، لا تراه الأعين الحسية الحادثة. والتعرض لعنوان الرّحمن للثناء البليغ على الخاشى ، حيث خشيه مع علمه بسعة رحمته ، فلم يصدهم علمهم بسعة رحمته عن خوفه تعالى ، أو : للإشعار بأنهم مع خشيتهم عقابه راجون رحمته. وَجاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ راجع إلى اللّه ، أو سريرة مرضية ، وعقيدة صحيحة.

يقال لهم : ادْخُلُوها بِسَلامٍ أي : سالمين من زوال النّعم وحلول النّقم ، أو : ملتبسين بسلام من اللّه تعالى وملائكته عليكم ، ذلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ ، الإشارة إلى الزمان الممتد الواقع فى بعض منه ما ذكر من الأحوال ، أي :

---

(١) كما جاء فى الصحيح ، فقد أخرج البخاري فى مواضع منها (الرقاق باب كيف الحشر ، ح ٦٥٢٨) ومسلم فى (الإيمان ، باب كون هذه الأمة نصف أهل الجنة رقم ٣٧٦ ، ح ٢٢١) عن عبد

اللّه بن مسعود رضي اللّه عنه قال : كنا مع النّبى صلّى اللّه عليه وسلم فى قبة ، فقال : «أترضون أن تكونوا ربع أهل الجنة» قلنا : نعم ، قال «أترضون أن تكونوا ثلث أهل الجنة» قلنا : نعم ، قال : «أترضون أن تكونوا شطر أهل الجنة» قلنا : نعم ، قال : «والذي نفسى محمد بيده ، إنى لأرجو أن تكونوا شطر أهل الجنة ، وذلك أن الجنة لا يدخلها إلا نفس مسلمة ، وما أنتم فى أهل الشرك إلا كالشعرة البيضاء فى جلد الثور الأسود ، أو كالشعرة السوداء فى جلد الثور الأحمر».

(٤٥٦/٥)

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٤٥٧

نهاية ذلك اليوم هو يوم الخلود ، الذي لا انتهاء له ، لَهُمْ ما يَشاؤُنَ فِيها من فنون المطالب ومنتهى الرّغائب وَلَدَيْنا مَزِيدٌ هو النّظر إلى وجهه الكريم ، على قدر حضورهم اليوم ، أو : هو ما لا يخطر ببالهم ، ولا يندرج تحت مشيئتهم من الكرامات ، التي لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر. وقيل : إن السحاب تمر بأهل الجنة فتمطر عليهم الحور ، فتقول ، نحن المزيد الذي قال تعالى : وَلَدَيْنا مَزِيدٌ قلت : مزيد كلّ واحد على قدر همته وشهوته. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : يوم يقول لجهنم : هل امتلأت؟ وتقول : هل من مزيد ، كذلك النّفس ، نار شهواتها مشتعلة كلما أعطيتها شيئا من حظوظها طلبت المزيد ، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ، ويتوب اللّه على من تاب ، وفى الحديث : «اثنان لا يشبعان ، طالب الدنيا وطالب علم ، طالب الدنيا يزداد من اللّه بعدا ، وطالب العلم يزداد من اللّه رضا وقربا» أو كما قال صلّى اللّه عليه وسلم «١».

واعلم أن الرّوح إذا عشقت شيئا فإن كان من الدنيا يسمى حرصا ، وإن كان فى جانب الحق سمى محبة وشوقا ، وفى الحقيقة ما هى إلا محبة واحدة ، إلا أنها لما تاهت انقلبت محبتها للفروقات الحسية ، وغابت عن المعاني الأزلية ، وكلما زاد فى الحرص نقص من المحبة ، وما نقص من الحرص زاد فى المحبة. ويقال : كلما زادت محبة الحس نقصت المعنى ، وبالعكس ، وإذا اشتعلت نار المحبة فلا تسكن بما يلقى فيها من الأمور الحسية ، كانت حظوظا أو حقوقا ، بل كلما ألقى فيها تقول : هل من مزيد ، حتى يضع الجبار قدمه ، وهو قذف نور معرفته فى القلب ، فحينئذ يحصل الفناء وتقول : قط قط.

ثم أخبر عن حال المؤمنين بقوله : (و أزلفت الجنة للمتقين) أي : قربت جنة المعارف إلى قلوب خواص المتقين ، الذين اتقوا ما سوى اللّه ، فقربت منهم ، ودخلوها فى الدنيا ، فإذا كان يوم القيامة قربت إليهم الجنة الحسية فى المحشر ، فيركبون فى قصورها وغرفها ، وتطير بهم إلى الجنة ، فلا يحسون بالصراط ولا بالنار ، وفيهم قال تعالى : لا يَسْمَعُونَ حَسِيسَها الآية «٢». والنّاس على ثلاثة

أصناف قوم يحشرون إلى الجنة مشاة ، وهم الذين قال اللّه فيهم : وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَراً «٣» وهم عوام المؤمنين ، وقوم يحشرون إلى الجنة ركبانا

---

(١) أخرجه الدارمي فى (المقدمة ، باب فى فضل العلم والعالم ، ح ٣٣٢) من حديث عبد اللّه بن مسعود رضي اللّه عنه. ولفظه : «منهومان لا يشبعان : صاحب العلم وصاحب الدنيا ، ولا يستويان ، أما صاحب العلم فيزداد رضي الرّحمن ، وأما صاحب الدنيا ، فيتمادى فى الطغيان ، ثم قرأ عبد اللّه. كَلَّا إِنَّ الْإِنْسانَ لَيَطْغى أَنْ رَآهُ اسْتَغْنى قال : وقال الآخر : إِنَّما يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبادِهِ الْعُلَماءُ. وسند الحديث فيه انقطاع. انظر المشكاة (١/ ٨٧).

(٢) الآية ١٠٢ من سورة الأنبياء.

(٣) الآية ٧٣ من سورة الزمر.

على طاعتهم ، المصورة لهم على صورة المراكب ، وهؤلاء الخواص من العباد والزهاد والعلماء والصالحين ، وأما خواص الخواص ، وهم العارفون ومن تعلق بهم ، فهم الذين قال اللّه فيهم : وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ تقرب منهم ، فيركبون فيها ، ويسرحون إلى الجنة. انظر القشيري.

وقوله تعالى : هذا ما تُوعَدُونَ الإشارة إلى مقعد صدق ، ولو كان إلى الجنة لقال «هذه». قاله القشيري.

ثم وصف أهل هذا المقام بقوله : لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ أي : راجع إلى اللّه فى جميع أموره ، لا يعرف غيره ، ولا يلتجىء إلا إليه ، حفيظ لأنفاسه مع اللّه ، لا يصرفها إلا فى طلب اللّه ، من خشى الرّحمن بالغيب ، أي : بنور الغيب يشاهد شواهد الحق ، فيخشى بعده أو حجبه. قال القشيري : والخشية تكون مقرونة بالأنس ، ولذلك لم يقل : من خشى الجبار. ثم قال : والخشية من الرّحمن خشية الفراق ، ويقال : هو مقتضى علمه بأنه يفعل ما يشاء ، لا يسأل عما يفعل ، ويقال : الخشية ألطف من الخوف ، فكأنها قريبة من الهيبة. هـ. (و جاء بقلب منيب) مقبل على اللّه بكليته ، معرض عما سواه ، (ادخلوها) جنة المعارف (بسلام) من العيوب ، آمنين من السلب والرّجوع ، وهذا قوله (ذلك يوم الخلود) فيها ، لهم ما يشاءون من فنون المكاشفات ، ولذيذ المشاهدات ، ولدينا مزيد ، زيادة ترقى أبدا سرمدا ، جعلنا اللّه من هذا القبيل فى الرّعيل الأول ، آمين.

ثم رجع إلى تهديد الكفرة ، فقال

[سورة ق (٥٠) : الآيات ٣٦ الى ٣٨]

وَكَمْ أَهْلَكْنا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشاً فَنَقَّبُوا فِي الْبِلادِ هَلْ مِنْ مَحِيصٍ (٣٦) إِنَّ فِي ذلِكَ لَذِكْرى لِمَنْ كانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ (٣٧) وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَما مَسَّنا مِنْ لُغُوبٍ (٣٨)

يقول الحق جل جلاله : وَكَمْ أَهْلَكْنا قَبْلَهُمْ قبل قومك مِنْ قَرْنٍ من القرون الذين كذّبوا رسلهم هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ من قومك بَطْشاً قوة وسطوة ، فَنَقَّبُوا فِي الْبِلادِ أي : خرّبوا وطافوا وتصرفوا فى أقطارها ، وجالوا فى أكناف الأرض كلّ مجال حذار من الموت هَلْ وجدوا مِنْ مَحِيصٍ أي : مهرب منها؟

بل لحقتهم ودقت أعناقهم ، أو : هل وجدوا من مهرب من أمر اللّه وقضائه؟ وأصل التنقيب والنّقب : البحث والطلب ، قال امرؤ القيس :

لقد نقّبت فى الآفاق حتّى رضيت من الغنيمة بالإياب «١»

---

(١) فى الديوان : [وقد طوّفت فى الآفاق حتى ...] انظر الديوان (٧٢).

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٤٥٩

ودخلت الفاء للتسبب عن قوله : (هم أشد منهم بطشا) أي : شدة بطشهم ، أي : قدرتهم على التنقيب فى البلاد ، ويجوز أن يعود الضمير إلى أهل مكة ، أي : ساروا فى أسفارهم ومسايرهم فى بلد القرون ، فهل رأوا لهم محيصا حتى يؤملوا مثله أنفسهم؟ ويؤيده قراءة من قرأ (فنقّبوا) على صيغة الأمر.

إِنَّ فِي ذلِكَ أي : فيما ذكر من قصصهم ، أو : فيما ذكر فى السورة لَذِكْرى لتذكرة وعظة لِمَنْ كانَ لَهُ قَلْبٌ سليم واع يدرك كنه ما يشاهده من الأمور ، ويتفكر فيها ، ليعلم أن مدار دمارهم هو الكفر ، فيرتدع عنه بمجرد مشاهدة الآثار من غير تذكير ، أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ أي : أصغى بقلبه إلى ما يتلى عليه من الوحى النّاطق بما جرى عليهم ، فإن من فعله يقف على كنه الأمر ، فينزجر عما يؤدى إليه من الكفر والمعاصي ، يقال : ألق إلىّ سمعك ، أي : استمع ، ف «أو» لمنع الخلو ، لا لمنع الجمع ، فإن إلقاء السمع لا يجدى بدون سلامة القلب عما ذكر من الصفات ، للإيذان بأن من عرى قلبه عنهما كمن لا قلب له أصلا : وقوله تعالى : وَهُوَ شَهِيدٌ : حال ، أي :

والحال أنه حاضر القلب لا يغفل أو : شاهد على ما يقرأ من كتاب اللّه.

وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما من أصناف المخلوقات ، وهذا أيضا احتجاج على القدرة على البعث بما هو أكبر ، كقوله : لَخَلْقُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ «١» وقوله تعالى : فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ إنما خلقها فى تلك المدة تعليما لخلقه التؤدة ، وإلا فهو قادر على أن يخلقها فى لمحة ،

وَما أَمْرُنا إِلَّا واحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ «٢» ، ويحتمل أن هذا فى عالم الأمر ، وأما عالم الخلق فاقتضت الحكمة خلقه بالتدريج ، وله الخلق والأمر ، ثم قال تعالى : وَما مَسَّنا مِنْ لُغُوبٍ من إعياء ولا تعب فى الجملة ، وهذا رد على جهلة اليهود ، أنه تعالى بدأ العالم يوم الأحد ، وفرغ منه يوم الجمعة ، واستراح يوم السبت ، واستلقى على العرش «٣» ، تعالى عما يقولون علوا كبيرا.

الإشارة : كثيرا ما أهلك اللّه من النّفوس المتمردة فى القرون الماضية ، زجرا لمن يأتى بعدهم ، ففى ذلك ذكرى لمن كان له قلب سليم من تعلقات الكونين. قال القشيري : فالقلوب أربعة قلب فاسد وهو الكافر ، وقلب مقفول ، وهو قلب المنافق ، وقلب مطمئن ، وهو قلب المؤمن ، وقلب سليم ، وهو قلب المحبين والمحبوبين ، الذين هو مرآة صفات جمال اللّه وجلاله ، كما قال تعالى : «لا يسعنى أرضى ولا سمائى ، ووسعني قلب عبدى المؤمن» «٤». هـ.

---

(١) الآية ٥٧ من سورة غافر.

(٢) الآية ٥٠ من سورة القمر.

(٣) نزول الآية ردّا على اليهود ، أخرجه الطبري (٢٦/ ١٧٨) والواحدي فى الأسباب (ص ٤١٣).

[.....]

(٤) سبق.

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٤٦٠

وقال الشبلي : لمن كان له قلب حاضر مع اللّه ، لا يغفل عنه طرفة عين. وقال يحيى بن معاذ : القلب قلبان قلب احتشى بأشغال الدنيا ، حتى إذا حضر أمر من أمور الآخرة لم يدر ما يصنع ، وقلب احتشى باللّه وشهوده ، فإذا حضر أمر من أمور الكونين لم يدر ما يصنع ، غائب من الكونين بشهود المكوّن. وقال القتاد : لمن كان له قلب لا يتقلب عن اللّه فى السراء والضراء. هـ. (أو ألقى السمع وهو شهيد) أي : يشهد ما من اللّه إلى اللّه ، أو : يشهد أسرار الذات. قال القشيري : يعنى من لم يكن له قلب بهذه الصفة يكون له سمع يسمع اللّه وهو حاضر مع اللّه ، فيعتبر بما يشير إليه اللّه فى إظهار اللطف أو القهر. هـ. (و لقد خلقنا السموات) أي : سماوات الأرواح ، وأرض الأشباح ، وما بينهما من النّفوس والقلوب والأسرار ، وسر الأسرار ، فى ستة أيام ، أي : ستة أنواع من المخلوقات ، وهى محصورة فيما ذكرناه من الأرواح ، والأشباح ، والنّفوس ، والقلوب ، والأسرار ، وسر الأسرار ، فلا مخلوق إلا وهو داخل فى جملتها ، لا يخرج عنها ، وما مسّنا من لغوب لأن أمرنا بين الكاف والنّون.

ثم أمر نبيه بالصبر على ما يسمع فى جانبه تعالى ، أو فى نفسه ، فقال

[سورة ق (٥٠) : الآيات ٣٩ الى ٤٥]

فَاصْبِرْ عَلى ما يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ (٣٩) وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبارَ السُّجُودِ (٤٠) وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنادِ الْمُنادِ مِنْ مَكانٍ قَرِيبٍ (٤١) يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ (٤٢) إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ (٤٣)

يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِراعاً ذلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنا يَسِيرٌ (٤٤) نَحْنُ أَعْلَمُ بِما يَقُولُونَ وَما أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخافُ وَعِيدِ (٤٥)

يقول الحق جل جلاله : فَاصْبِرْ عَلى ما يَقُولُونَ أي : ما يقوله المشركون فى شأن البعث من الأباطيل ، فإنّ اللّه قادر على بعثهم والانتقام منهم ، أو : يقولونه فى جانبك من النّقص والتكذيب ، أو : ما تقوله اليهود من مقالات الكفر والتشبيه ، وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ أي : اصبر على ما تسمع واشتغل باللّه عنهم ، فسبّح ، أي : نزّه ربك عن العجز عما يمكن ، وعن وصفه تعالى بما يوجب التشبيه ، حامدا له تعالى على ما أنعم به عليك من إصابة الحق والرّشاد ، قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ، وهما وقت الفجر والعصر ، وفضلهما مشهور.

(٥/٤٦٠)

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٤٦١

وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ أي : وسبّحه فى بعض الليل وَأَدْبارَ السُّجُودِ أي : أعقاب الصلوات ، جمع : دبر ، ومن قرأ بالكسر «١» ، فمصدر ، من : أدبرت الصلاة : انقضت ، ومعناه : وقت انقضاء الصلاة ، وقيل : المراد بالتسبيح :

الصلوات الخمس ، فالمراد بما قبل الطلوع : صلاة الفجر ، وبما قبل الغروب : الظهر والعصر ، وبما من الليل : المغرب والعشاء والتهجد ، وبأدبار السجود : النوافل بعد المكتوبات.

وَاسْتَمِعْ أي : لما يوحى إليك من أحوال القيامة ، وفيه تهويل وتفظيع للمخبر به ، يَوْمَ يُنادِ الْمُنادِ «٢» أي : إسرافيل عليه السّلام ، فيقول : أيتها العظام البالية ، واللحوم المتمزقة ، والشعور المتفرقة إن اللّه يأمركن أن تجتمعن لفصل القضاء ، وقيل : إسرافيل ينفخ ، وجبريل ينادى بالمحشر ، مِنْ مَكانٍ قَرِيبٍ بحيث يصل نداؤه إلى الكل ، على سواء ، وقيل : من حجرة بيت المقدس ، وهو أقرب مكان من الأرض إلى السماء ، باثنى عشر ميلا ، وهى وسط الأرض ، وقيل : من تحت أقدامهم ، وقيل : من منابت شعورهم ، فيسمع من كلّ شعرة. «ويوم» منصوب بما دلّ عليه «يوم الخروج» أي : يوم يناد المناد يخرجون من القبور ، فيوقف على «واستمع» وقيل : تقديره : واستمع حديث يوم يناد المنادى.

ويَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ : بدل من «يوم يناد» أي : واستمع يوم يناد المنادى ، وذلك اليوم هو يوم يسمعون الصيحة ، وهى النّفخة الثانية. وبِالْحَقِّ : متعلق بالصيحة ، أو : حال ، أي : ملتبسة بالحق ، وهو البعث والحشر للجزاء ، ذلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ من القبور.

إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي

الخلق وَنُمِيتُ أي : نميتهم فى الدنيا من غير أن يشاركنا فى ذلك أحد ، وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ أي : مصيرهم إلينا لا إلى غيرنا. وذلك يَوْمَ تَشَقَّقُ أصله : تتشقق ، فأدغم ، وقرأ الكوفيون والبصري «٣» بالتخفيف ، بحذف إحدى التاءين ، أي تتصدع ، الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِراعاً فيخرج المؤمنون من صدوعها مسرعين ، ذلِكَ حَشْرٌ أي : بعث عَلَيْنا يَسِيرٌ هيّن ، وهو معادل لقول الكفرة : (ذلك رجع بعيد) ، وتقديم الجار والمجرور لتخصيص اليسر به تعالى.

---

(١) قرأ نافع وابن كثير وحمزة وأبو جعفر وخلف «وإدبار» بكسر الهمزة ، وقرأ الباقون بفتحها ، جمع «دبر». انظر الإتحاف ٢/ ٤٨٩.

(٢) أثبت المفسر – رحمة اللّه – قراءة «المنادى» بإثبات الياء ، وهى قراءة نافع وأبى عمرو وصلا ، وفى الحالين ابن كثير ويعقوب ، وقرأ الباقون بغير ياء وصلا ووقفا.

(٣) قرأ «تشقق» بتخفيف الشين ، أبو عمرو وعاصم وحمزة والكسائي ، وقرأ ابن كثير ونافع وابن عامر «تشقّق» بتشديد الشين.

انظر السبعة/ ٦٠٧.

نَحْنُ أَعْلَمُ بِما يَقُولُونَ من نفى البعث وتكذيب الآيات ، وغير ذلك مما لا خير فيه ، وهو تهديد لهم ، وتسلية لرسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم ، وَما أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ أي : ما أنت بمسلط عليهم ، إنما أنت داع ، كقوله : لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ «١» من : جبره على الأمر : قهره ، أي : ما أنت بوال عليهم تجبرهم على الإيمان ، وهذا قبل الأمر بالقتال ، فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخافُ وَعِيدِ ، لأنه هو الذي يتأثر بالوعظ ، كقوله : إِنَّما أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشاها «٢» وأما من عداهم ، فنحن نفعل بهم ما توجبه أقوالهم ، وتستدعيه أعمالهم من أنواع العقاب وفنون العذاب.

الإشارة : فاصبر أيها المتوجّه على ما تسمع من الأذى ، وغب عن ذلك بذكر ربك قبل طلوع شمس البسط ، وقبل غروبها ، أي : اشتغل باللّه فى القبض والبسط ، أو : قبل طلوع شمس المعرفة ، فى

حال السير ، وقبل الغروب حين تطلع ، ومن ليل القبض أو القطيعة فسبّح حتى يطلع نهار البسط أو المعرفة ، وأدبار السجود ، أي : عقب سجود القلب فى الحضرة ، فلا يرفع رأسه أبدا ، واستمع يوم يناد المنادى ، وهى الهواتف الغيبية ، والواردات الإلهية ، والإلهامات الصادقة ، من مكان قريب ، هو القلب ، يوم يسمعون الصيحة ، أي : تسمع النّفوس صيحة الداعي إلى الحق بالحق ، فتجيب وتخضع إن سبقت لها العناية ، ذلك يوم الخروج ، خروج العوائد والشهوات من القلب ، فتحيى الروح ، وتبعث بعد موتها بالغفلة والجهل ، بإذن اللّه ، إنا نحن نحيى نفوسا بمعرفتنا ، ونميت نفوسا بقهريتنا ، وإلينا المصير ، أي : الرجوع إنما هو إلينا ، فمن رجع إلينا اختيارا أكرمناه ونعّمناه ، وفى حضرة القدس أسكناه ، ومن رجع قهرا بالموت عاتبناه أو سامحناه ، وفى مقام البعد أقمناه.

يوم تشقق الأرض عنهم : أرض الحشر فى حق العامة ، وأرض الوجود فى حق الخاصة ، أي : يذهب حس الكائنات ، وتضمحل الرّسوم ، وتبدل الأرض والسموات ، ذلك حشر علينا يسير ، أي : جمعكم إلينا ، بإفناء وجودكم ، وإبقائكم بوجودنا ، يسير على قدرتنا ، وجذب عنايتنا. ويقال لكلّ داع إلى اللّه ، فى كلّ زمان ، حين يدبر النّاس عنه ، وينالون منه : نحن أعلم بما يقولون ، وما أنت عليهم بجبّار ، إنما أنت داع : خليفة الرّسول ، فذكّر بالقرآن ، وادع إلى اللّه من يخاف وعيد إذ هو الذي يتأثر بالوعظ والتذكير ، وباللّه التوفيق ، وهو الهادي إلى سواء الطريق ، وصلّى اللّه على سيدنا محمد وآله وصحبه ، وسلم ،

---

(١) الآية ٢٢ من سورة الغاشية.

(٢) الآية ٤٥ من سورة النّازعات.

سورة الذّاريات

مكية. وهى ستون آية. ومناسبتها لما قبلها ما ختمت به من قوله تعالى : ذلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنا يَسِيرٌ «١» ، فأقسم سبحانه فى صدر هذه السورة إنه لواقع ، حيث قال :

[سورة الذاريات (٥١) : الآيات ١ الى ٦]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

وَالذَّارِياتِ ذَرْواً (١) فَالْحامِلاتِ وِقْراً (٢) فَالْجارِياتِ يُسْراً (٣) فَالْمُقَسِّماتِ أَمْراً (٤)

إِنَّما تُوعَدُونَ لَصادِقٌ (٥) وَإِنَّ الدِّينَ لَواقِعٌ (٦)

يقول الحق جل جلاله : وَالذَّارِياتِ الرياح الذاريات لأنها تذرو التراب والحشيش وغير ذلك ، يقال : ذرت الرّياح تذرو ذروا ، وأذرت تذرى ، وذَرْواً : مصدر ، والعامل فيه اسم الفاعل. فَالْحامِلاتِ وِقْراً ، أي :

السحاب الحاملة للأمطار ، أو : الرياح الحاملة للسحاب الموقورة بالماء. وقال ابن عباس : السفن الموقورة بالناس ، ف «وقرا» : مفعول بالحاملات ، فَالْجارِياتِ يُسْراً أي : السفن الجارية فى البحر والرّياح الجارية فى مهابها ، أو السحاب الجارية فى الجو تسوق الرّياح ، أو : الكواكب السيارة الجارية فى مجاريها ومنازلها بسهولة ، (يسرا) : نعت لمصدر محذوف ، أي : جريا ذا يسر.

فَالْمُقَسِّماتِ أَمْراً أي : الملائكة التي تقسم الأمور الغيبية من الأمطار والأرزاق والآجال ، والخلق فى الأرحام ، وأمر الرّياح ، وغير ذلك لأن هذا كله إنما هو بملائكة تخدمه ، ف «أمرا» هنا جنس ، وأنّث «المقسّمات» لأن المراد الجماعات ، ويجوز أن يراد الرّياح فى الكل ، فإنها تنشئ السحاب ، وتقلّه ، وتصرّفه ، وتجرى به فى الجو جريا سهلا ، وتقسّم الأمطار بتصريف السحاب فى الأقطار. ومعنى الفاء على الأول : أنه تعالى أقسم بالرياح ، فبالسحاب التي تسوقه ، فبالفلك الجارية بهبوبها ، فبالملائكة التي تقسم الأرزاق ، وعلى الثاني : أنها تبتدئ بالهبوب ، فتذرو التراب والحصباء ، فتقل السحاب ، فتجرى فى الجو باسطة له ، فتقسّم المطر.

وقال أبو السعود : فإن حملت الأمور المقسم بها على ذوات مختلفة ، فالفاء لترتيب الإقسام باعتبار ما بينها فى التفاوت فى الدلالة على كمال القوة ، وإلا فهى لترتيب ما صدر عن الرّيح من الأفاعيل ، فإنها تذرو الأبخرة إلى الجو حتى تنعقد سحابا ، فتجرى به باسطة له إلى ما أمرت به ، فتقسم المطر. هـ.

---

(١) من الآية ٤٤ من سورة «ق».

والمقسم عليه قوله : إِنَّ ما تُوعَدُونَ من البعث والجزاء ، لَصادِقٌ لوعد صادق ، وَإِنَّ الدِّينَ أي : الجزاء على الأعمال لَواقِعٌ لكائن لا محاله. وتخصيص الأمور المذكورة بالإقسام بها رمزا إلى شهادتها بتحقيق مضمون الجملة المقسم عليها ، من حيث إنها أمور بديعة ، مخالفة لمقتضى الطبيعة ، فمن قدر عليها فهو قادر على البعث الموعود ، و«ما» موصولة ، أو مصدرية ، ووصف الوعد بالصدق كوصف العيشة بالرضا.

واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : والذاريات : رياح الواردات الإلهية ، التي ترد على القلوب ، فتذرو منها الأمراض والشكوك والأوهام والخواطر لأنها تأتى من حضرة قهّار ، لا تصادم شيئا إلا دفعته ، فالحاملات وقرا فالأنفس المطهرة ، الحاملة للعلوم والحكم والمواهب ، وقرا : حملا لا حدّ له ، فالجاريات يسرا : فالأفكار الجارية فى بحار الأحدية ، من الجبروت إلى الملكوت ، ثم تنزل إلى عالم الملك ، تتفنن فى علوم الحكمة ، فى جريا يسرا شيئا فشيئا ، فالمقسّمات أمرا :

فالأرواح أو الأسرار الكاملة ، التي تقسم الأرزاق المعنوية والحسية ، حيث جعل اللّه لها ذلك بفضله عند كمالها ، وهذه أرواح أهل التصرف من الأولياء. إنما توعدون من الوصول إلينا لصادق لمن صدق فى الطلب ، وإنّ الجزاء على المجاهدة بالمشاهدة لواقع. قال القشيري : إن اللّه تعالى وعد المطيعين بالجنة ، والتائبين بالمحبة ، والأولياء بالقربة ، والعارفين بالوصلة ، والطالبين بالوجدان. ولعلّ مراده بالأولياء عموم الصالحين.

ثم جدّد قسما آخر ، فقال : –

[سورة الذاريات (٥١) : الآيات ٧ الى ١٤]

وَالسَّماءِ ذاتِ الْحُبُكِ (٧) إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ (٨) يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ (٩) قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ (١٠) الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ ساهُونَ (١١)

يَسْئَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ (١٢) يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ (١٣) ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ (١٤)

يقول الحق جل جلاله : وَالسَّماءِ ذاتِ الْحُبُكِ ذات الطرق الحسيّة ، مثل ما يظهر على الماء والرّمال من هبوب الرّياح ، وكذلك الطرق التي فى الأكسية من الحرير وغيره ، يقال لها : حبك جمع حبيكة ، كطريقة وطرق ، أو : جمع حباك ، قال الرّاجز :

كأنما جلّاها «١» الحوّاك طنفسة فى وشيها حباك «٢»

---

(١) هكذا فى الأصول. وفى تفسير الطبري وابن عطية وغيرهما : (جلّلها) وهو الصواب.

(٢) يصف الرّاجز ظهر أتان من حمر الوحش بأن فيه خطوطا وطرائق ، وجللها : ألبسها وكساها ، والطنفسة : البساط أو النّمرقة فوق الرحل ، والوشي : الزخرف والنّقش ، والحباك : الطريقة.

والحوّاك : صانع الحياكة ، والمراد : إما الطريق المحسوسة ، التي هى مسير الكواكب ، أو : المعنوية ، التي يسلكها النظار فى النّجوم ، فإن لها طرائق. قال البيضاوي : النكتة فى هذا القسم : تشبيه أقوالهم فى اختلافها ، وتباين أغراضها ، بطرائق السماوات فى تباعدها ، واختلاف غاياتها ، وقال ابن عباس وغيره : ذات الخلق المستوي ، وعن الحسن : حبكها نجومها. وقال ابن زيد : ذات أشدة ، لقوله تعالى : سَبْعاً شِداداً «١».

إِنَّكُمْ يا أهل مكة لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ متخالف متناقض ، وهو قولهم فى حقه صلّى اللّه عليه وسلم تارة : شاعر ، وأخرى ساحر ، وفى شأن القرآن ، تارة : شعر ، وأخرى أساطير الأولين. يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ يصرف عن القرآن ، أو عن الرّسول ، من ثبت له الصرف الحقيقي ، الذي لا صرف أفظع وأشد منه ، فكأنّ لا صرف حقيقة إلا لهذا الصرف ، أي : يصرف عن الإيمان من صرف عن كلّ سعادة وخير ، أو : يصرف عن الإيمان من صرف فى سابق الأزل.

قلت : والأظهر أن يرجع لما قبله ، أي : يصرف عن هذا القول المختلف من صرف فى علم اللّه تعالى ، وسبقت له العناية ، يقال : أفكه عن كذا : صرفه عنه ، وإن كان الغالب استعماله فى الصرف عن الخير إلى الشر ، لكنه عرفى ، لا لغوى. واللّه تعالى أعلم.

قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ ، دعاء عليهم ، كقوله : قُتِلَ الْإِنْسانُ ما أَكْفَرَهُ «٢» ، وأصله : الدعاء بالقتل والهلاك ، ثم جرى مجرى «لعن» ، والخرّاصون : الكذابون المقدّرون ما لا صحة له ، وهم أصحاب القول المختلف ، كأنه قيل : لعن هؤلاء الخراصون الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ فى جهل يغمرهم ، ساهُونَ غافلون عما أمروا به ، يَسْئَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ أي : متى وقوع يوم الجزاء ، لكن لا بطريق الاستعلام حقيقة ، بل بطريق الاستعجال ، استهزاء ، فإنّ «أيّان» ظرف للوقوع المقدّر لأن «أيّان» إنما يقع ظرفا للحدثان. ثم أجابهم بقوله : يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ أي : يقع يوم هم على النّار يحرقون ويعذّبون ، ويجوز أن يكون خبرا عن مضمر ، أي : هو يوم هم ، وبنى لإضافته إلى مضمر ، ويؤيده أنه قرئ بالرفع «٣».

ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ أي :

وتقول لهم خزنة النّار : ذوقوا عذابكم وإحراقكم بالنار ، هذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ أي : هذا العذاب هو الذي

---

(١) من الآية ١٢ من سورة النّبإ ، وانظر فى هذه الأقوال تفسير البغوي ٧/ ٣٧١ – ٣٧٢ والقرطبي (٧/ ٦٣٨٧ – ٦٣٨٨).

(٢) الآية ١٧ من سورة عبس.

(٣) «يوم» بالرفع ، وهى قراءة ابن أبى عبلة والزعفراني. انظر مختصر ابن خالويه فى شواذ القراءات (ص/ ١٤٦) والبحر المحيط (٨/ ١٣٤).

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٤٦٦

كنتم تستعجلونه فى الدنيا ، بقولكم : فَأْتِنا بِما تَعِدُنا «١» ، ف «هذا» : مبتدأ ، و«الذي ..» إلخ : خبر ، ويجوز أن يكون «هذا» بدلا من فتنتكم ، و«الذي» : صفته.

الإشارة : أقسم اللّه تعالى بسماء الحقائق ، وتسمى سماء الأرواح لأن أهل الحقائق روحانيون سماويون ، ترقّوا من أرض الأشباح إلى سماء الأرواح ، حيث غلبت روحانيتهم ، على بشريتهم ، كما أن أهل الشرائع اليابسة أرضيين بشريين ، حيث غلبت بشريتهم الطينية على روحانيتهم السماوية ، ولكلّ واحدة طرق ، فطرق سماء الحقائق هى المسالك التي توصل إليها ، وهى قطع المقامات والمنازل ، وخرق الحجب النّفسانية ، حتى يفضوا إلى مقام العيان «فى مقعد صدق عند مليك مقتدر» وطرق أرض الشرائع هى المذاهب التي سلكها الأولون ، واقتدى بهم الآخرون ، يفضوا أهلها إلى رضا اللّه ونعيمه. وكان الشيخ الشاذلى رضي اللّه عنه يقول فى تلميذه المرسى : إن أبا العباس أعرف بطرق السماء منه بطرق الأرض ، أي : أعرف بمسالك الحقائق منه بمذاهب الشرائع ، وهذا إشارة قوله : ذاتِ الْحُبُكِ أي :

الطرق. إن أهل الجهل باللّه لفى قول مختلف مضطرب ، لا تجد قلوبهم تأتلف على شىء ، قلوبهم متشعبة ، ونياتهم مختلفة ، وهممهم دنية ، وأقوالهم مضطربة ، بخلاف أهل الحقائق العارفين باللّه ، قلوبهم مجتمعة على محبة واحدة ، وقصد واحد ، وهو اللّه ، بدايتهم فى السلوك مختلفة ، ونهايتهم متفقة ، وهو الوصول إلى حضرة العيان ، وللّه در ابن البنا ، حيث قال :

مذاهب النّاس على اختلاف ومذهب القوم على ائتلاف

وقال الشاعر :

عباراتهم شتى وحسنك واحد وكلّ إلى ذاك الجمال يشير

يؤفك عن هذا الاختلاف من صرف فى سابق العناية ، أو من صرف من عالم الأشباح إلى عالم الأرواح. قتل الخراصون المعتمدون على ظنهم وحدسهم ، فعلومهم جلها مظنونة ، وإيمانهم غيبى ، وتوحيدهم دليلى من وراء الحجاب ، لا يسلم من طوارق الاضطراب ، الذين هم فى غمرة أي : فى غفلة وجهل وضلالة – ساهون عما أمروا به من جهاد النّفوس ، والسير إلى حضرة القدوس ، أو ساهون غائبون عن مراتب الرّجال ، لا يعرفون أين ساروا ، وفى أىّ بحار سبحوا وغاصوا ، كما قال شاعرهم :

تركنا البحور الزاخرات وراءنا فمن أين يدرى النّاس أين توجهنا؟

---

(١) من الآية ٧٠ من سورة الأعراف.

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٤٦٧

يسألون أيّان يوم الدين لطول أملهم ، أو يسألون أيّان يوم الجزاء على المجاهدة. قال تعالى : هو (يوم هم) أي :

أهل الغفلة – على نار القطيعة أو الشهوة يفتنون بالدنيا وأهوالها ، والعارفون منزّهون فى جنات المعارف. ويقال للغافلين : ذوقوا وبال فتنتكم ، وهو الحجاب وسوء الحساب ، هذا الذي كنتم به تستعجلون ، بإنكاركم على أهل الدعوة الربانيين ، فتستعجلون الفتح من غير مفتاح ، تطلبون مقام المشاهدة من غير مجاهدة ، وهو محال فى عالم الحكمة «١». وباللّه التوفيق.

ثم ذكر أضدادهم ، فقال :

[سورة الذاريات (٥١) : الآيات ١٥ الى ١٩]

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٥) آخِذِينَ ما آتاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كانُوا قَبْلَ ذلِكَ مُحْسِنِينَ (١٦) كانُوا قَلِيلاً مِنَ اللَّيْلِ ما يَهْجَعُونَ (١٧) وَبِالْأَسْحارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (١٨) وَفِي أَمْوالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (١٩)

يقول الحق جل جلاله : إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ عظيمة ، لا يبلغ كنهها ، ولا يقادر قدرها ، ولعل المراد بها الأنهار الجارية ، بحيث يرونها ، ويقع عليها أبصارهم ، لا أنهم فيها ، آخِذِينَ ما آتاهُمْ رَبُّهُمْ أي :

نائلين ما أعطاهم راضين به ، بمعنى أنّ كلّ ما يأتهم حسن مرضى ، يتلقى بحسن القبول ، إِنَّهُمْ كانُوا قَبْلَ ذلِكَ فى الدنيا مُحْسِنِينَ

متقنين لأعمالهم الصالحة ، آتين بها على ما ينبغى ، فلذلك نالوا ما نالوا من الفوز العظيم ، ومعنى الإحسان ما فسره به عليه الصلاة والسّلام : «أن تعبد اللّه كأنك تراه» الحديث «٢». ومن جملته ما أشار إليه بقوله :

كانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ ما يَهْجَعُونَ أي : كانوا يهجعون ، أي : ينامون فى طائفة قليلة من الليل ، على أن «قليلا» ظرف أو كانوا يهجعون هجوعا قليلا ، على أنه صفة لمصدر ، و«ما» مزيدة فى الوجهين ، ويجوز أن تكون مصدرية مرتفعة ب «قليلا» على الفاعل ، أي : كانوا قليلا من الليل هجوعهم. وقال النسفي : يرتفع هجوعهم على البدل من الواو فى «كانوا» لا بقليلا لأنه صار موصوفا بقوله : مِنَ اللَّيْلِ فبعد من شبه الفعل وعمله ، ولا يجوز أن

---

(١) على هامش النّسخة الأساسية مايلى : ليس بمحال ، وكم من واحد جذبته العناية الإلهية وانتشلته

.... الغفلة والظلمات فأصبح على بساط القرب والمشاهدة دون أدنى مجاهدة ، بل نص العارفون على أن طريق المجاهدة انقطعت ، ولم يبق إلا طريق المحبة بعد جذب العناية الإلهية. هـ. [.....]

(٢) جزء من حديث سؤال سيدنا جبريل عن الإسلام والإيمان والإحسان ، وهو حديث مشهور. أخرجه البخاري فى (الإيمان باب سؤال جبريل النّبى عن الإيمان والإسلام والإحسان وعلم الساعة ، ح ٥٠) ومسلم فى (الإيمان ، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان رقم ٩ ، ح ٥) من حديث أبى هريرة رضي اللّه عنه.

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٤٦٨

تكون «ما» نافية على معنى : أنهم لا يهجعون من الليل قليلا ويحيونه كله. هـ. أو كانوا ناسا قليلا ما يهجعون من اللّه لأن «ما» النافية لا يعمل ما بعدها فيما قبلها ، ولأن المحسنين وهم السابقون كانوا كثيرا فى الصدر الأول ، وموجودون فى كلّ زمان ومكان ، فلا معنى لقلتهم ، خلافا لوقف الهبطى ، وأيضا : فمدحهم بإحياء الليل كله مخالف لحالته صلّى اللّه عليه وسلم ، وما كان يأمر به.

وَبِالْأَسْحارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ، وصفهم بأنهم يحيون جل الليل متهجدين ، فإذا أسحروا أخذوا فى الاستغفار من رؤية أعمالهم. والسحر : السدس الأخير من الليل ، وفى بناء الفعل على الضمير إشعار بأنهم الأحقاء بأن يوصفوا بالاستغفار ، كأنهم المختصون به ، لاستدامتهم له ، وإطنابهم فيه.

وَفِي أَمْوالِهِمْ حَقٌّ أي : نصيب وافر ، يوجبونه على أنفسهم ، تقربا إلى اللّه تعالى ، وإشفاقا على النّاس ، لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ أي : لمن يصرح بالسؤال لحاجة ، وللمتعفف الذي يتعرّض ولا يسأل حياء وتعففا ، يحسبه الناس غنيا فيحرم نفسه من الصدقة. وقد تكلم فى نوادر الأصول «١» على من سأل باللّه ، أي : قال : أعطنى لوجه اللّه ، هل يجب إعطاؤه أم لا؟ ، وفى الحديث : «من سألكم باللّه فأعطوه» «٢». قال : وهو مقيد بما إذا سأل بحق ، أي :

لحاجة ، وأما إذا سأل بباطل – أي : لغير حاجة – فإنما سأل بالشيطان لأن وجه اللّه حق. ثم ذكر كلام علىّ شاهدا ، «٣» ثم حديث معاذ : «من سألكم باللّه فأعطوه ، فإن شئتم فدعوه» ، قال معاذ : وذلك أن تعرف أنه غير مستحق ، وإذا عرفتم أنه مستحق ، وسأل فلم تعطوه فأنتم ظلمة. وألحق بغير المستحق من اشتبه حاله لتعليق الظلم على معرفة الاستحقاق خاصة.

وقال النّووى فى الأذكار : يكره منع من سأل باللّه ، وتشفع به لحديث : «من سأل باللّه فأعطوه» قال : ويكره أن يسأل بوجه اللّه غير الجنة. هـ. وفى حديث المنذرى : «ملعون من سأل بوجه اللّه ، وملعون من سأل بوجه اللّه ، ثم منع سائله ما لم يسأل هجرا» «٤». وقال فى كتابه «الأخبار» على قوله عليه

الصلاة والسّلام : «من سألكم باللّه فأعطوه» إجلالا للّه تعالى ، وتعظيما ، وإيجابا لحقه. ثم قال : إذ ليس يجب إعطاء السائل إذا كان فى معصية أو

---

(١) الأصل التاسع عشر والمائتان (فى الاستعاذة باللّه تعالى ، ٢/ ١٨٧ - ١٨٨).

(٢) جزء من حديث أخرجه أحمد فى المسند (٢/ ٦٨) وأبو داود فى (الزكاة ، باب عطية من سأل باللّه ، ح ١٦٧٢) والحاكم فى المستدرك (١/ ٤١٢) «وصحّحه وأقره الذهبي» من حديث ابن عمر رضي اللّه عنه وكذا أخرجه الطبراني فى الكبير (١٢/ ٣٩٧) والبيهقي (٤/ ١٩٩). وفى أوله : «من استعاذ باللّه فأعيذوه ...» الحديث.

(٣) قال الحكيم الترمذي : «سأل رجل علىّ بن أبى طالب رضي اللّه عنه شيئا ، فلم يعطه فقال : أسألك بوجه اللّه تعالى ، فقال له : كذبت ، ليس بوجه اللّه سألتى ، إنما وجه اللّه الحق ، ولكن سألت بوجهك الخلق».

(٤) ذكره المنذرى فى الترغيب والترهيب (ح ١٢٤٦) وعزاه للطبرانى ، من حديث أبى موسى الأشعري. قال الهيثمي فى مجمع الزوائد (٣/ ١٠٣) : «رواه الطبراني فى الكبير ، وإسناده حسن ، على ضعف فى بعضه مع توثيق».

وقوله «هجرا» بضم الهاء وسكون الجيم : أي : ما لم يسأل أمرا قبيحا لا يليق ، ويحتمل أنه أراد : ما لم يسأل سؤالا قبيحا بكلام قبيح.

(٤٦٨/٥)

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٤٦٩

فضول ، فمن سأل باللّه فيما ليس عليه ولا عليك فرضه ، فإعطاؤك إياه لإجلال حق اللّه وتعظيمه ، وليس عليك بفرض ولا حتم. انظر تمامه فى الحاشية الفاسية.

الإشارة : إنّ المتقين ما سوى اللّه فى جنات المعارف ، وعيون العلوم والأسرار. قال القشيري : فى عاجلهم فى جنة الوصل ، وفى آجلهم فى جنة الفضل ، فغدا نجاة ودرجات ، واليوم قربات ومناجاة. هـ. (آخذين ما آتاهم ربهم) من فنون المواهب والأسرار ، وغدا من فنون التقريب والإبرار ، راضين بالقسمة ، قليلة أو كثيرة. إنهم كانوا قبل ذلك : قبل الإعطاء ، محسنين ، يعبدون اللّه على الإخلاص ، يأخذون من اللّه ، ويدفعون به ، وله ، ولا يردون ما أعطاهم ، ولو كان أمثال الجبال ، ولا يسألون ما لم يعطهم ، اكتفاء بعلم ربهم.

قال القشيري : كانوا قبل وجودهم محسنين ، وإحسانهم : كانوا يحبون اللّه باللّه ، يحبهم ويحبونه وهم

فى العدم ، ولمّا حصلوا فى الوجود ، كانوا قليلا من الليل ما يهجعون ، كأنّ نومهم عبادة ، لقوله عليه الصلاة والسّلام : «نوم العالم عبادة» «١» ، فمن يكون فى العبادة لا يكون نائما ، وهجوع القلب : غفلته ، وقلوبهم فى الحضرة ، ناموا أو استيقظوا ، فغفلتهم بالنسبة إلى حضورهم قليلة. وقال سهل رضي اللّه عنه : أي : كانوا لا يغفلون عن الذكر فى حال ، يعنى هجروا النّوم لوجود الأنس فى الذكر ، والمراد بالنوم : نوم القلب بالغفلة.

(و بالأسحار هم يستغفرون) ، قال القشيري : أخبر عن تهجدهم ، وقلة دعاويهم ، وتنزلهم بالأسحار ، منزلة العاصين ، تصغيرا لقدرهم ، واحتقارا لفعلهم. ثم قال : والسهر لهم فى ليالهم دائم ، إما لفرط لهف ، أو شدة أسف ، وإما لاشتياق ، أو للفراق ، كما قالوا :

كم ليلة فيك لا صباح لها أفنيتها قابضا على كبدى

قد غصّت العين بالدموع وقد وضعت خدى على بنان يدى «٢»

وإما لكمال أنس ، وطيب روح ، كما قالوا :

سقى اللّه عيشا قصيرا مضى زمان الهوى فى الصبا والمجون «٣»

لياليه تحكى انسداد لحاظ لعينىّ عند ارتداد الجفون. هـ. «٤»

---

(١) أخرجه الديلمي (مسند الفردوس ح ٦٧٣١) عن عبد اللّه بن أبى أوفى ، بزيادة «ونفسه تسبيح» وعمله مضاعف ، ودعاؤه مستجاب ، وذنبه مغفور» وأخرجه الديلمي (ح ٦٧٣٤) والبيهقي فى الشعب (ح ٣٩٣٧) بلفظ «الصائم» بدل «العالم». وانظر كشف الخفاء ٢/ ٤٤٥ ، والأسرار المرفوعة ص ٣٧٤.

(٢) القائل هو أحمد بن يوسف ، صاحب ديوان الرّسائل فى عهد المأمون. انظر الأغانى (٢٢/ ٥٧٠).

(٣) فى الأصول : السجون.

(٤) البيت فى الأصول : [لياليه تحكى إنشاء اللحاظ .. للعين عند ارتداء الجفون] والمثبت هو الذي فى لطائف الإشارات.

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٤٧٠

وَفِي أَمْوالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ أي : هم يواسون من قصدهم بالحس والمعنى ، فيبذلون ما خوّلهم اللّه من الأموال ، للسائل والمتعفف ، وما خوّلهم اللّه من العلوم ، للطالب والمعرض ، وهو المحروم ،

فيقصدونه بالدواء بما أمكن فإنهم أطباء ، والطبيب يقصد المريض أينما وجده ، شفقة ورحمة ، ونصحا للعباد. وباللّه التوفيق.

ثم ذكر دلائل قدرته على ما أقسم عليه من البعث ، فقال :

[سورة الذاريات (٥١) : الآيات ٢٠ الى ٢٣]

وَفِي الْأَرْضِ آياتٌ لِلْمُوقِنِينَ (٢٠) وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ (٢١) وَفِي السَّماءِ رِزْقُكُمْ وَما تُوعَدُونَ (٢٢) فَوَ رَبِّ السَّماءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ ما أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ (٢٣)

يقول الحق جل جلاله : وَفِي الْأَرْضِ آياتٌ دالة على كمال قدرته على البعث وغيره ، من حيث إنها مدحوة كالبساط الممهد ، وفيها مسالك وفجاج للمتقلبين فى أقطارها ، والسالكين فى مناكبها ، وفيها سهل وجبل ، وبحر وبر ، وقطع متجاورات ، وعيون متفجرات ، ومعادن مقنية ، ودواب منبثة ، مختلفة الصور والأشكال ، متباينة الهيئات والأفعال ، وهى مع كبر شكلها مبسوطة على الماء ، المرفوع فوق الهواء ، فالقدرة فيها ظاهرة ، والحكمة فها باهرة ، ففى ذلك عبرة لِلْمُوقِنِينَ الموحّدين ، الذين ينظرون بعين الاعتبار ، ويشاهدون صانعها ببصيرة الاستبصار.

وَفِي أَنْفُسِكُمْ آيات وعجائب القدرة إذ ليس شىء فى العالم إلا وفى الأنفس له نظير ، مع ما فيه من الهيئات النّابعة والمصادر البهية ، والترتيبات العجيبة ، خلقه نطفة ، ثم علقة ، ثم مضغة ، ثم فصلها إلى العظم والعصب والعروق ، فالعظام عمود الجسد ، ضم بعضها إلى بعض بمفاصل وأقفال ربطت بها ، ولم تكن عظما واحدا لأنه إذ ذاك يكون كالخشبة ، لا يقوم ولا يجلس ، ولا يركع ولا يسجد لخالقه ، ثم خلق تعالى المخ فى العظام فى غاية الرّطوبة ليرطب يبس العظام ، ويتقوى به ، ثم خلق سبحانه اللحم وعباه على العظام ، وسدّ به خلل الجسد ، واعتدلت هيئته ، ثم خلق سبحانه العروق فى جميع الجسد جداول ، يجرى الغذاء منها إلى أركان الجسد ، لكلّ موضع من الجسد عدد معلوم ، ثم أجرى الدم فى العروق سيالا خاثرا ، ولو كان يابسا ، أو اكتف مما هو فيه ، لم يجر فى العروق ، ثم كسى سبحانه اللحم بالجلد كالوعاء له ، ولولا ذلك لكان قشرا أحمر ، وفى ذلك هلاكه ، ثم كساه الشعر وقاية وزينة ، وليّن أصوله ، ولم تكن يابسة مثل رؤوس الإبر ، وإلا لم يهنه عيش ، وجعل الحواجب والأشفار وقاية للعين ، ولولا ذلك لأهلكهما الغبار والسقط ، وجعلها سبحانه طوع يده ، يتمكن من رفعها عند قصد النّظر ، ومن إرخائها على جميع العين عند إرادة إمساك النّظر عما يضر دينا ودنيا ، وجعل شعرها صفا واحدا لينظر من خللها ،

ثم خلق سبحانه شفتين ينطبقان على الفم يصونان الحلق والفم من الرّياح والغبار ، ولما فيهما من كمال الزينة ، ثم خلق اللّه سبحانه الأسنان ليتمكن من قطع مأكوله وطحنه ، ولم تكن له فى أول خلقته لئلا يؤذى أمه ، وجعلها ثلاثة أصناف : قسم يصلح للكسر ، كالأنياب ، وقسم يصلح للقطع ، كالرباعية ، وقسم يصلح للطحن ، كالأضراس ...

إلى غير ذلك مما فى الإنسان من عجائب الصنع وبدائع التركيب.

أَفَلا تُبْصِرُونَ أي : تنظرون نظر من يعتبر ، وما قيل : إن التقدير : أفلا تبصرون فى أنفسكم ، فضعيف لأنه يفضى إلى تقديم ما فى حيّز الاستفهام عليه.

وَفِي السَّماءِ رِزْقُكُمْ وهو المطر. وعن الحسن أنه كان إذا رأى السحاب قال لأصحابه : فيه رزقكم إلا أنكم تحرمونه بخطاياكم «١» ، أو : فى سماء الغيب تقدير رزقكم ، فهو مضمون عند اللّه فى سماء غيبه ، ستر ذلك بسر الحكمة ، وهو الأسباب ، وَما تُوعَدُونَ أي : وفى السماء ما توعدون من الثواب لأن الجنة فى السماء السابعة ، سقفها العرش ، أو : أراد : إنما توعدونه من الرّزق فى الدنيا وما توعدونه فى العقبى كله مقدّر ومكتوب فى السماء ، وقيل : إنه مبتدأ وخبره : فَوَ رَبِّ السَّماءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ أي : ما توعدون من البعث وما بعده ، أو : ما توعدونه من الرّزق المقسوم ، فوربّ العالم العلوي والسفلى إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ ما أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ : أي : مثل نطقكم ، شبّه ما وعد به من الرّزق وغيره بتحقق نطق الآدمي لأنه ضرورى ، يعرفه من نفسه كلّ أحد.

قال الطيبي : وإنما خص النّطق دون سائر الأعمال الضرورية ، لكونه أبقى وأظهر ، ومن الاحتمال أبعد ، فإنّ النطق يفصح عن كلّ شيء ، ويجلى كلّ شبهة. هـ. فضمان الرّزق وإنجاز وعده ضرورى ، كنطق النّاطق. روى عن الأصمعى أنه قال : أقبلت من جامع البصرة ، فطلع أعرابى على قعود ، فقال : من الرّجل؟ فقلت : من بنى أصمع ، فقال : من أين أقبلت؟ فقلت : من موضع يتلى فيه كلام اللّه ، قال : اتل علىّ ، فتلوت : وَالذَّارِياتِ ...

فلما بلغت قوله : وَفِي السَّماءِ رِزْقُكُمْ قال : حسبك ، فقام إلى ناقته فنحرها ، ووزعها على من أقبل وأدبر ، وعمد إلى سيفه وقوسه فكسّرهما ، وولّى ، فلما حججت مع الرّشيد ، وطفت ، فإذا أنا بصوت رقيق يهتف بي ، فالتفتّ ، فإذا أنا بالأعرابى قد نحل واصفرّ ، فسلّم علىّ ، واستقرأ السورة ، فلما بلغت الآية ، صاح ، وقال : قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا ، ثم قال : وهل غير هذا؟ فقرأت : فَوَ رَبِّ السَّماءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ فقال : سبحان اللّه! من الذي أغضب الجليل حتى حلف؟ لم يصدقوه بقوله حتى حلف ، قالها ثلاثا ، وخرجت معها نفسه هـ. من النّسفى «٢».

قلت : وقد سمعت حكاية أخرى ، فيها عبرة ، وذلك أن رجلا سمع قارئا يقرأ هذه الآية ، فدخل بيته ، ولزم زاوية منه يذكر فيها ، ويتبتل ، فجاءت امرأته تنقم عليه ، وتأمره بالخدمة ، فقال لها : قال تعالى : وَفِي السَّماءِ رِزْقُكُمْ

(١) ذكره القرطبى (٧/ ٦٣٩٩).
(٢) وذكره القرطبى (٧/ ٦٣٩٩).

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٤٧٢

، فلما أيست منه ذهبت تحفر شيئا ، فوجدت آنية مملوءة دنانير ، فجاءت إليه ، وقالت : قد أتانا رزقنا ، قم تحفره معى ، هو فى موضع كذا ، فقال : إنما قال تعالى : (فى السماء) ولم يقل فى الأرض ، فامتنع ، فذهبت إلى أخ لها تستعين به ، فلما فتحتها وجدتها مملوءة عقارب ، فقالت : واللّه لأطرحنها عليه لنستريح منه ، ففتحت كوة من السقف ، وطرحتها عليه ، فسقطت دنانير ، فقال : الآن نعم ، قد آتاني من حيث قال ربى : وَفِي السَّماءِ رِزْقُكُمْ. هـ.

وذكر فى التنوير : أن الملائكة لمّا نزلت هذه الآية ضجت فى السماء ، وقالت : ما أضعف بنى آدم حتى أحوجوا ربهم إلى الحلف.

الإشارة : وفى أرض نفوس العارفين آيات ، منها : أن الأرض تحمل كلّ شىء ، ولا تستثقل شيئا ، فكذلك نفس العارف ، تحمل كلّ كلّ وثقيل ، ومن استثقل حملا ، أو تبرم من أحد ، أو من شىء ، ساقته القدرة إليه ، فلغيبته عن الحق ، ومطالعته الخلق بعين التفرقة ، وأهل الحقائق لا يتصفون بهذه الصفة. ومنها : أنها يلقى عليها كلّ قذارة وقمامة فتنبت كلّ زهر ونور وورد ، فكذلك العارف يلقى عليه كلّ جفاء ، ولا يظهر منه إلا الصفاء. ومنها : أن الأرض الطيبة تنبت الطيب ، وينصع نباتها ، والأرض السبخة لا تنبت شيئا ، كذلك القلوب الطيبة تنبت كلّ ما يلقى فيها من الخير ، والقلوب الخبيثة لا تعى شيئا ، ولا ينبت فيها إلا الخبيث.

وقوله تعالى : وَفِي أَنْفُسِكُمْ .. قال القشيري : يشير إلى أن النّفس مرآة جميع صفات الحق ، لهذا قال عليه الصلاة والسّلام : «من عرف نفسه فقد عرف ربه» «١» فلا يعرف أحد نفسه إلا بعد كمالها ، وكمالها : أن تصير مرآة كاملة تامة مصقولة ، قابلة لتجلى صفات الحق لها ، فيعرف نفسه بالمرءاتية ، ويعرف ربه بالتجلى فيها ، كما قال تعالى : سَنُرِيهِمْ آياتِنا فِي الْآفاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ ... الآية «٢». هـ.

قلت : حديث «من عرف نفسه» أنكره النّووى ، وقال إنه من كلام يحيى بن معاذ «٣» وقد اشتهر عند الصوفية حديثا ، ومعناه حق فإنّ من عرف حقيقة نفسه ، وأنها مظهر من مظاهر الحق ، وغاب عن حس وجوده الوهم ، فقد عرف ربه وشهده ، فاطلب المعرفة فى نفسك ، ولا تطلبها فى غيرك ، فليس الأمر عنك خارجا ، وللّه در الششترى فى بعض أزجاله ، حيث قال :

وإليك هو السّير «٤» وأنت معنى الخير
وما دونك غير

---

(١) قال السخاوي فى المقاصد (ص ١٩٨) : «لا يعرف مرفوعا ، وإنما يحكى عن يحيى بن معاذ الرّازى من قوله» ، وقال السيوطي فى القول الأشبه (٢/ ٣٥١) من الحاوي للفتاوى : «هذا الحديث ليس بصحيح».

(٢) الآية ٥٣ من سورة فصلت.

(٣) على هامش النّسخة الأم ما يلى : قلت : كذا قالوا لأنهم وجدوه مرويا عنه ، فظنوه من كلامه ، وهو إنما رواه من التوراة ، ففيها :

«قال اللّه تعالى : يا ابن آدم اعرف نفسك تعرف ربك» فمن هنا أخذ يحيى بن معاذ الرّازى. هـ.

[.....]

(٤) فى الديوان (ص ١١٤) : [وإليك السير].

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٤٧٣

وقال أيضا :

يا قاصدا عين الخبر غطّاه أينك «١»
إرجع لذاتك واعتبر ما ثمّ غيرك
الخير منك والخبر والسر عندك

وقوله تعالى : وَفِي السَّماءِ رِزْقُكُمْ قال الورتجبي : وفى سماء صفاتى رزق أرواحكم ، من مشاهدة النّور ، وغذاء العلم الرّبانى ، وما توعدون من مشاهدة الذات وكشف عيانه. هـ.

قلت : هذا قوت الأرواح ، أمّا قوت الأشباح فتجب الغيبة عنه ، ثقة باللّه ، وتوكلا عليه. قال فى قطب العارفين :

اعلم أنه عز وجل قسّم الأرزاق فى الأزل ، وجزّأه على عمر العبد ، ووقّت أوقاته ، وحدّ للعبد ما يأتيه منه فى السنة ، والشهر ، واليوم ، والساعة ، فكل ما حدّ لك أن تناله من رزقك عند صلاة العصر ، مثلا ، لا تناله عند صلاة الصبح ، ولو طلبته بكلّ حيلة فى السموات والأرض ، فإن الطلب لا يجمع ، والتوكّل لا يمنع. هـ. وقال فيه أيضا : العارف يجد فى نفسه الاعتماد على اللّه ، وإن كانت السماء لا تمطر ، والأرض لا تنبت ... ، إلخ كلامه ، ومثله قول ذى النون : لو كانت السماء من زجاج ، والأرض

من نحاس لا تنبت شيئا ، ومصر كلها عيالى ، ما اهتممت لهم برزق لأنّ من خلقهم هو الذي تكفل برزقهم. هـ. وقال فى القطب أيضا : ومن علامة جهل قلب العالم : خوف شدائد السنيين الآتيات ، والاستعداد لها قبل مجيئها ، بمصاحبة الاضطراب ، وفقد الطمأنينة بالقسمة السابقة ، فمن اتصف بهذه الصفة فقد نازع الرّبوبية ، وانسلخ من العبودية. هـ.

ثم سرد قصص الأمم السالفة ، وما جرى عليها لأنّ فيها آيات ، فتنخرط فى سلك الآيات المتقدمة ، فقال :

[سورة الذاريات (٥١) : الآيات ٢٤ الى ٣٧]

هَلْ أَتاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْراهِيمَ الْمُكْرَمِينَ (٢٤) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقالُوا سَلاماً قالَ سَلامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ (٢٥) فَراغَ إِلى أَهْلِهِ فَجاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ (٢٦) فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قالَ أَلا تَأْكُلُونَ (٢٧) فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قالُوا لا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلامٍ عَلِيمٍ (٢٨)

فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَها وَقالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ (٢٩) قالُوا كَذلِكَ قالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ (٣٠) قالَ فَما خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ (٣١) قالُوا إِنَّا أُرْسِلْنا إِلى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ (٣٢) لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجارَةً مِنْ طِينٍ (٣٣)

مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ (٣٤) فَأَخْرَجْنا مَنْ كانَ فِيها مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٣٥) فَما وَجَدْنا فِيها غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٣٦) وَتَرَكْنا فِيها آيَةً لِلَّذِينَ يَخافُونَ الْعَذابَ الْأَلِيمَ (٣٧)

---

(١) فى الديوان : (ص ٢٦٧) غطاه غينك رضي اللّه عنه.

يقول الحق جل جلاله : هَلْ أَتاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْراهِيمَ ، استفتح بالاستفهام التشويقى ، تفخيما لشأن الحديث ، وتنبيها على أنه ليس مما علمه رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم بغير طريق الوحى. والضيف فى الأصل : مصدر : كالزور ، والصوع ، يصدق بالواحد والجماعة ، قيل : كانوا اثنى عشر ملكا ، وقيل : تسعة عاشرهم جبريل. وجعلهم ضيفا لأنهم فى صورة الضيف ، حيث أضافهم إبراهيم ، أو لأنهم كانوا فى حسبانه كذلك. وقوله الْمُكْرَمِينَ أي : عند اللّه ، لأنهم عباد مكرمون ، أو عند إبراهيم ، حيث خدمهم بنفسه ، وأخدمهم امرأته ، وعجّل لهم القرى.

إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ : ظرف للحديث ، أو لما فى الضيف من معنى الفعل ، أو بالمكرمين ، إن فسر بإكرام إبراهيم لهم ، فَقالُوا سَلاماً أي : نسلّم عليك سلاما ، قالَ إبراهيم : سَلامٌ أي : عليكم سلام. عدل به

إلى الرّفع بالابتداء للقصد إلى الثبوت والدوام حتى تكون تحيته عليه السّلام أحسن من تحيتهم ، وهذا أيضا من إكرامه ، قَوْمٌ مُنْكَرُونَ أي : أنتم قوم منكرون ، لا نعرفكم ، فعرّفونى من أنتم. قيل : إنما أنكرهم لأنهم ليسوا ممن عهدهم من النّاس ، أو : لأن أوضاعهم وأشكالهم خلاف ما عليه النّاس ، وقيل : إنما قال ذلك سرا ولم يخاطبهم به ، وإلا لعرّفوه بأنفسهم.

فَراغَ إِلى أَهْلِهِ أي : ذهب إليهم فى خفية من ضيوفه ، فالروغان : الذهاب بسرعة ، وقيل : فى خفية. ومن آداب المضيف أن يبادر الضيف : بالقرى ، وأن يخفى أمره من غير أن يشعر به الضيف ، حذرا من أن يكفّه ، وكان عامة مال إبراهيم البقر. فَجاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ، الفاء فصيحة تفصح عن جمل حذفت لدلالة الحال عليها ، وإيذانا بكمال سرعة المجيء ، أي : فذبح عجلا فحنذه «١» ، فجاء به ، فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ ، بأن وضعه بين أيديهم ، حسبما هو المعتاد ، فلم يأكلوا ، ف قالَ أَلا تَأْكُلُونَ ، أنكر عليهم ترك الأكل ، أو : حثّهم عليه ، فَأَوْجَسَ أضمر مِنْهُمْ خِيفَةً خوفا ، لتوهم أنهم جاءوا للشر لأن من لم يأكل طعامك لم يحفظ ذمامك. عن ابن عباس رضي اللّه عنه : وقع فى نفسه أنهم ملائكة أرسلوا للعذاب ، قالُوا لا تَخَفْ إنّا رسل اللّه. قيل : مسح جبريل العجل بجناحه فقام يدرج حتى لحق بأمه «٢» ، فعرفهم وأمن منهم ، وَبَشَّرُوهُ بِغُلامٍ عَلِيمٍ أي : يبلغ ويكون عالما ، وهو إسحاق عليه السّلام.

---

(١) أي : شواه ، انظر اللسان (حنذ ٢/ ١٠٢١).

(٢) رواه عون بن أبى شداد ، فيما ذكره القرطبي (٧/ ٦٤٠٢).

فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ سارة لمّا سمعت بشارتهم إلى بيتها ، وكانت فى زاوية منه تنظر إليهم ، فِي صَرَّةٍ صيحة ، من الصرير ، وهو الصوت ، ومنه : صرير الباب وصرير الأقلام. قال الزجّاج : الصرّة : شدّة الصياح. وفى القاموس الصرّة : – بالكسر : أشد الصياح ، وبالفتح : الشدة من الكرب والحزن والحر والعطفة والجماعة وتغضيب الوجه. هـ. ومحله النّصب على الحال ، أي : فجاءت صارة ، وقيل : صرتها : قولها : يا وَيْلَتى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ ... «١»

أو : فجاءت مغضّبة الوجه ، كما هو شأن من يخبر بشيء غريب ، استبعادا له ، فَصَكَّتْ وَجْهَها لطمته ببسط يدها ، وقيل : ضربت بأطراف أصابعها جبهتها ، فعل المتعجب ، وَقالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ أي : إنها عجوز عاقر ، فكيف ألد؟!.

قالُوا كَذلِكَ أي : مثل ما قلنا وأخبرناك به قالَ رَبُّكِ أي : إنما نخبرك عن اللّه تعالى ، واللّه قادر على ما

يستعبد ، إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ فى فعله ، الْعَلِيمُ فلا يخفى عليه شىء ، فيكون قوله حقا ، وفعله متقنا لا محالة.

روى أن جبريل عليه السّلام قال لها حين استبعدت : انظري إلى بيتك ، فنظرت ، فإذا جذوعه مورقة مثمرة ، ولم تكن هذه المفاوضة مع سارة فقط ، بل هى وإبراهيم عليه السّلام حاضر ، حسبما شرح فى سورة الحجر «٢» ، وإنما لم يذكرها اكتفاء بما ذكر هناك ، كما أنه لم يذكر هناك سارة ، اكتفاء بما ذكر هنا وفى سورة هود «٣».

ولمّا تحقق أنهم ملائكة ، ولم ينزلوا إلا لأمر ، قالَ فَما خَطْبُكُمْ أي : فما شأنكم وما طلبتكم وفيم أرسلتم؟

أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ، هل أرسلتم بالبشارة خاصة ، أو لأمر آخر ، أو لهما؟ قالُوا إِنَّا أُرْسِلْنا إِلى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ أي :

قوم لوط ، لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجارَةً مِنْ طِينٍ أي : طين متحجر ، هو السجّيل ، وهو طين طبخ ، كما يطبخ الآجر ، حتى صار فى صلابة الحجارة ، مُسَوَّمَةً معلّمة ، على كلّ واحد اسم من يهلك بها ، من السّومة وهى العلامة ، أو : مرسلة ، من أسمت الماشية : أرسلتها ، ومر تفصيله فى هود «٤» عِنْدَ رَبِّكَ أي : فى ملكه وسلطانه لِلْمُسْرِفِينَ المجاوزين الحدّ فى الفجور.

فَأَخْرَجْنا مَنْ كانَ فِيها ، الفاء فصيحة ، مفصحة عن جمل قد حذفت ، ثقة بذكرها فى مواضع أخر ، كأنه قيل : فباشروا ما أمروا به ، فذهبوا إلى لوط ، وكان من قصتهم ما ذكر فى موضع آخر ، فَأَخْرَجْنا مَنْ كانَ فِيها أي : من قرى قوم لوط مِنَ الْمُؤْمِنِينَ يعنى لوطا ومن آمن معه. قيل : كان لوط وأهل بيته الذين نجوا ثلاثة

---

(١) كما جاء فى الآية ٧٢ من سورة هود.

(٢) عند قوله تعالى : بَشَّرْناكَ بِالْحَقِّ فَلا تَكُنْ مِنَ الْقانِطِينَ. قالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ الآيتان ٥٥ – ٥٦.

(٣) فى قوله تعالى : وَامْرَأَتُهُ قائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْناها بِإِسْحاقَ وَمِنْ وَراءِ إِسْحاقَ يَعْقُوبَ الآية ٧١.

(٤) عند تفسير الآيات ٨١ – ٨٢.

عشر. فَما وَجَدْنا فِيها غَيْرَ بَيْتٍ أي : غير أهل بيت مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، وفيه دليل على أن الإسلام

والإيمان واحد ، أي : باعتبار الشرع ، وأما فى اللغة فمختلف ، والإسلام محله الظاهر ، والإيمان محله الباطن. وَتَرَكْنا فِيها أي : فى قراهم آيَةً لِلَّذِينَ يَخافُونَ الْعَذابَ الْأَلِيمَ أي : من شأنهم أن يخافوا لسلامة فطرتهم ، ورقة قلوبهم ، وأما من عداهم من ذوى القلوب القاسية ، فإنهم لا يعتبرون بها ، ولا يعدونها آية.

الإشارة : الإشارة بإبراهيم إلى القلب ، وأضيافه : تجليات الحق ، فنقول حينئذ : هل بلغك حديث إبراهيم القلب ، حين يدخل عليه أنوار التجليات ، مسلّمة عليه ، فينكرها أول مرة ، حيث لم يألف إلا رؤية حس الكائنات ، فراغ إلى أهله : عوالمه ، فجاء بعجل سمين النفس أو السّوى ، فقرّبه إليهم ، بذلا لها فى مرضاة اللّه ، فقال : ألا تأكلون منها ، لتذهب عنى شوكتها إذ لا تثبت أنوار الشهود إلا بعد محق النّفس وموتها ، فأوجس منهم خيفة لأن صدمات التجلي تدهش الألباب ، إلا من ثبته اللّه ، قالوا : لا تخف ، أي : لا تكن خوّافا ، إذ لا ينال هذا السر إلا الشجعان ، كما قال الجيلاني «١» :

وإيّاك حزما لا يهولك أمرها فما نالها إلا الشّجاع المقارع

وبشّروه بغلام عليم ، وهو نتيجة المعرفة ، من اليقين الكبير ، والطمأنينة العظمى ، فأقبلت النّفس تصيح ، وتقول :

أألد هذا الغلام ، من هذا القلب ، وقد كبر على ضعف اليقين ، وأنا عجوز ، شخت فى العوائد ، عقيم من علوم الأسرار؟! ، فتقول القدرة : كذلك قال ربك ، هو علىّ هيّن ، أتعجبين من قدرة اللّه ، «من استغرب أن ينقذه اللّه من شهوته ، وأن يخرجه من وجود غفلته. فقد استعجز القدرة الإلهية ، وكان اللّه على كلّ شيء مقتدرا» «٢» إنه هو الحكيم فى ترتيب الفتح على كسب المجاهدة ، العليم بوقت الفتح ، وبمن يستحقه. قال إبراهيم القلب أو الرّوح : فما خطبكم أيها التجليات ، أو الواردات الإلهية ، قالوا : إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين ، وهم جند النّفس ، لنرسل عليهم حجارة من طين ، مسومة عند ربك للمسرفين ، وهم الأذكار والأوراد والمجاهدات والرّياضات والمعاملات المهلكة للنفس وأوصافها ، فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين ، سالمين من الهلاك ، وهو ما كان لها من الأوصاف الحميدة ، والعلوم الرّسمية ، إذ لا تخرج المجاهدة إلا من كان مذموما ، فما وجدنا فيها من ذلك إلا النّذر القليل إذ معاملة النّفس جلها مدخولة ، وتركنا فيها آية من تزكية النّفس ، وتهذيب أخلاقها ، للذين يخافون العذاب الأليم ، فيشتغلون بتزكيتها لئلا يلحقهم ذلك العذاب.

---

(١) الشيخ عبد الكريم الجيلي فى عينيته (ص ٧٨).

(٢) حكمة عطائية رقم (١٩٧) انظر تبويب الحكم (ص ١٨).

ثم ذكر آيات أخرى فى بقية الأمم ، فقال :

[سورة الذاريات (٥١) : الآيات ٣٨ الى ٤٩]

وَفِي مُوسى إِذْ أَرْسَلْناهُ إِلى فِرْعَوْنَ بِسُلْطانٍ مُبِينٍ (٣٨) فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ وَقالَ ساحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (٣٩) فَأَخَذْناهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْناهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ (٤٠) وَفِي عادٍ إِذْ أَرْسَلْنا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ (٤١) ما تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلاَّ جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ (٤٢)

وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّى حِينٍ (٤٣) فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ (٤٤) فَمَا اسْتَطاعُوا مِنْ قِيامٍ وَما كانُوا مُنْتَصِرِينَ (٤٥) وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كانُوا قَوْماً فاسِقِينَ (٤٦) وَالسَّماءَ بَنَيْناها بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ (٤٧)

وَالْأَرْضَ فَرَشْناها فَنِعْمَ الْماهِدُونَ (٤٨) وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٤٩)

قلت : (و فى موسى) : عطف على (و فى الأرض) ، أو على قوله : (و تركنا فيها آية) على معنى : وجعلنا فى موسى آية ، كقوله :

علفتها تبنا وماءا باردا «١».

و(إذ أرسلناه) : منصوب بآيات ، أو : بمحذوف ، أي : كائنة وقت إرسالنا ، أو بتركنا.

يقول الحق جل جلاله : وَفِي مُوسى آية ظاهرة حاصلة إِذْ أَرْسَلْناهُ إِلى فِرْعَوْنَ بِسُلْطانٍ مُبِينٍ بحجة واضحة ، وهى ما ظهر على يديه من المعجزات الباهرة ، فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ فأعرض عن الإيمان وازورّ عنه «٢» بِرُكْنِهِ بما يتقوى به من جنوده وملكه ، والرّكن : ما يركن إليه الإنسان من عزّ وجند ، وَقالَ فى موسى : هو ساحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ، كأنه نسب ما ظهر على يديه عليه السّلام من الخوارق العجيبة إلى الجن ، وتردد هل ذلك باختياره وسعيه ، أو بغيرهما.أَخَذْناهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْناهُمْ فِي الْيَمِ ، وفيه من الدلالة على عظم شأن القدرة الربانية ، ونهاية حماقة فرعون ما لا يخفى ، هُوَ مُلِيمٌ ، آت بما يلام عليه من الكفر والطغيان.

---

(١) شطر بيت ، تمامه : حتى شتت همالة عيناها.

(٢) أي : مال عنه.

وَفِي عادٍ إِذْ أَرْسَلْنا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ، وصفت بالعقيم لأنها أهلكتهم ، وقطعت دابرهم ، أو : لأنها

لم تتضمن خيرا ما ، من إنشاء مطر ، أو إلقاح شجر ، وهى الدّبور ، على المشهور ، لقوله عليه السّلام : «نصرت بالصّبا ، وأهلكت عاد بالدّبور» «١» ، ما تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ أي : مرت عليه إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ وهو كلّ ما رمّ ، أي : بلى وتفتت ، من عظم ، أو نبات ، أو غير ، والمعنى : ما تركت شيئا هبت عليه من أنفسهم وأموالهم إلا أهلكته.

وَفِي ثَمُودَ آية أيضا إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّى حِينٍ ، تفسيره قوله تعالى : تَمَتَّعُوا فِي دارِكُمْ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ «٢» ، روى أن صالحا قال لهم : تصبح وجوهكم غدا مصفرة ، وبعد غد محمرة ، وفى الثالث مسودة ، ثم يصحبكم العذاب ، فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ استكبروا عن الامتثال ، فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ العذاب ، وكلّ عذاب مهلك صاعقة. قيل : لما رأوا العلامات من اصفرار الوجوه ، واحمرارها ، واسوادها ، التي بينت لهم ، عمدوا إلى قتله عليه السّلام فنجّاه اللّه تعالى إلى أرض فلسطين ، وتقدم فى النّمل «٣» ، ولمّا كان ضحوة اليوم الرّابع تحنطوا وتكفنوا بالأنطاع ، فأتتهم الصيحة ، فهلكوا ، كبيرهم وصغيرهم وهم ينظرون إليها ، ويعاينونها جهرا ، فَمَا اسْتَطاعُوا مِنْ قِيامٍ من هرب ، أو هو من قولهم : ما يقوم بهذا الأمر : إذا عجز عن دفعه. وَما كانُوا مُنْتَصِرِينَ ممتنعين من العذاب بغيرهم ، كما لم يمتنعوا بأنفسهم.

وَقَوْمَ نُوحٍ أي : وأهلكنا قوم نوح لأن ما قبله يدل عليه ، أو : واذكر قوم نوح ، ومن قرأ بالجر «٤» فعطف على ثمود ، أي : وفى قوم نوح آية ، ويؤيده قراءة عبد اللّه «وفى قوم نوح» مِنْ قَبْلُ أي : قبل هؤلاء المذكورين ، إِنَّهُمْ كانُوا قَوْماً فاسِقِينَ خارجين عن الحدود بما كانوا فيه من الكفر والمعاصي وإذاية نوح عليه السّلام.

وَالسَّماءَ بَنَيْناها من باب الاشتغال ، أي : بنينا السماء ، بنيناها بِأَيْدٍ بقوة ، والأيد : القوة ، وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ لقادرين ، من الوسع ، وهو الطاقة ، والموسع : القوىّ على الإنفاق ، أو : لموسعون بين السماء والأرض ، أو : لموسعون الأرزاق على من نشاء ، وهو تتميم كما تمم ما بعده بقوله : (فنعم الماهدون) لزيادة الامتنان.

وَالْأَرْضَ فَرَشْناها بسطناها ومهّدناها لتستقروا عليها ، فَنِعْمَ الْماهِدُونَ نحن. وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنا زَوْجَيْنِ نوعين ذكر وأنثى ، وقيل : متقابلين ، السماء والأرض ، والليل والنّهار ، والشمس والقمر ، والبر والبحر ،

---

(١) متفق عليه ، وسبق تخريجه عند تفسير الآية ٤٦ من سورة الرّوم (٤/ ٣٤٩).

(٢) من الآية ٦٥ من سورة هود. [.....]

(٣) راجع تفسير الآيات ٤٨ – ٥٣ من سورة النّمل ، فى المجلد الرّابع (ص ٢٠٢ – ٢٠٣).

(٤) قرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي وخلف (و قوم) بجر الميم ، وقرأ الباقون بنصبها. راجع الإتحاف ٢/ ٤٩٣.

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٤٧٩

الموت والحياة. قال الحسن : كل شيء زوج ، واللّه فرد لا مثل له. لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ أي : جعلنا ذلك كله ، من بناء السماء ، وفرش الأرض ، وخلق الأزواج ، لتذكّروا ، وتعرفوا أنه خالق الكلّ ورازقهم ، وأنه المستحق للعبادة ، وأنه قادر على إعادة الجميع ، وتعملوا بمقتضاه. وباللّه التوفيق.

الإشارة : وفى موسى القلب إذ أرسلناه إلى فرعون النّفس ، بسلطان ، أي : بتسلط وحجة ظاهرة ، لتتأدب وتتهذب ، فتولى فرعون النّفس بركنه ، وقوة هواه ، وقال لموسى القلب : ساحر أو مجنون ، حيث يأمرنى بالخضوع والذل ، الذي يفرّ منه كلّ عاقل ، طبعا ، فأخذناه وجنوده من الهوى والجهل والغفلة ، فنبذناهم فى اليمّ فى بحر الوحدة ، فلما غرقت فى بحر العظمة ، ذابت وتلاشت ، ولم يبق لها ولا لجنودها أثر ، وهو – أي : فرعون النّفس – مليم :

فعل ما يلام عليه من الميل إلى ما سوى اللّه قبل إلقائه فى اليم.

وفى عاد ، وهى جند النّفس وأوصاف البشرية ، من التكبر ، والحسد ، والحرص ، وغير ذلك ، إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم ريح المجاهدة والمكابدة. أو : ريح الواردات القهرية ، ما تذر من شيء من الأوصاف المذمومة إلا أهلكته ، وجعلته كالرميم. وفى ثمود ، وهم أهل الغفلة ، إذ قيل لهم : تمتعوا بدنياكم إلى حين زمان قليل مدة عمركم القصير ، فعتوا : تكبروا عن أمر ربهم ، وهو الزهد فى الدنيا ، والخضوع لمن يدعوهم إلى اللّه ، فأخذتهم صاعقة الموت على الغفلة والبطالة ، وهم لا ينظرون إلى ارتحالهم عما جمعوا ، فما استطاعوا من قيام ، حتى يدفعوا ما نزل بهم ، ولو افتدوا بالدنيا وما فيها ، وما كانوا ممتنعين من قهرية الموت ، فرحلوا بغير زاد ولا استعداد. وقوم نوح من قبل ، وهو من سلف من الأمم الغافلة ، إنهم كانوا قوما فاسقين خارجين عن حضرتنا.

والسماء ، أي : سماء الأرواح ، بنيناها ورفعناها بأيد ، ورفعنا إليها من أحببنا من عبادنا ، وإنا لموسعون على المتوجهين إلينا فى المعارف والأنوار ، والعلوم والأسرار ، والأرض وأرض النّفوس ، فرشناها للعبودية ، والقيام بآداب الربوبية ، فنعم الماهدون ، مهدنا الطريق لذوى التحقيق ، ومن كلّ شيء من تجليات الحق ، خلقنا ، أي : أظهرنا زوجين ، الحس والمعنى ، الحكمة والقدرة ، الشريعة والحقيقة ، الفرق والجمع ، الملك والملكوت ، الأشباح والأرواح ، الذات والصفات ، فتجلى الحق جل جلاله بين هذين الضدين ليبقى الكنز مدفونا ، والسر مصونا ، ولو تجلى بضد واحد لبطلت الحكمة ، وتعطلت أسرار الرّبوبية ، فمن لم يعرف اللّه تعالى فى هذين الضدين ، لم يعرفه أبدا ، ومن لم يفرق بين هذين الضدين ، فى هذه الأشياء المذكورة ، لم تنسج فكرته ، فصفاء الغزول هو التمييز بين هذين

الضدين ، ذوقا ، وبينهما تنسج الفكرة ، وبالغيبة عن الأول فى شهود الثاني يحصل القرب إلى اللّه تعالى ، كما أبان ذلك فى قوله :

(٤٧٩/٥)

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٤٨٠

[سورة الذاريات (٥١) : الآيات ٥٠ الى ٥٥]

فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ (٥٠) وَلا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ (٥١) كَذلِكَ ما أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ قالُوا ساحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (٥٢) أَتَواصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طاغُونَ (٥٣) فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَما أَنْتَ بِمَلُومٍ (٥٤)

وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ (٥٥)

يقول الحق جل جلاله : فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ ، الفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها ، أي : إذا كان الأمر كما ذكر من شئونه تعالى فى إهلاك من تعدى الحدود ، ففروا إلى اللّه بالإيمان والطاعة ، كى تنجو من غضبه ، وتفوزوا بثوابه ، أو : ففروا من الكفر إلى الإيمان ، ومن المعصية إلى الطاعة ، أو : من طاعة الشيطان إلى طاعة الرّحمن ، إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ ، تعليل للأمر بالفرار إليه تعالى ، فإنّ كونه صلّى اللّه عليه وسلم منذرا منه تعالى ، لا من تلقاء نفسه ، موجب للفرار ، وفيه وعد كريم بنجاتهم من المهروب ، وفوزهم بالمطلوب ، وَلا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ هو نهى موجب للفرار من سبب العقاب ، بعد الأمر بالفرار من نفس العقاب ، كما يشعر به قوله تعالى : إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ أي :

من الجعل المنهي عنه نَذِيرٌ مُبِينٌ كأنه قيل : ففروا إلى اللّه من عقابه ، ومن سببه ، وهو جعلكم مع اللّه إلها آخر.

كَذلِكَ أي : الأمر ما ذكر من تكذيبهم الرّسول ، وتسميتهم له ساحرا أو مجنونا ، ثم فسر ما أجمل بقوله ما أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ من قبل قومك مِنْ رَسُولٍ من رسل اللّه إِلَّا قالُوا فى حقه : هو ساحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ، فرموهم بالسحر والجنون لجهلهم ، أَتَواصَوْا بِهِ ، الضمير للقول ، أي : أتواصى الأولون والآخرون بهذا القول ، حتى قالوه جميعا متفقين عليه ، بَلْ هُمْ قَوْمٌ طاغُونَ أي : لم يتواصوا به لأنهم لم يتلاقوا فى زمان واحد ، بل جمعتهم العلة الواحدة ، وهى الطغيان ، فَتَوَلَّ عَنْهُمْ أي : أعرض عن الذين كرّرت عليهم الدعوة ، فلم يجيبوا عنادا ، فَما أَنْتَ بِمَلُومٍ فلا لوم عليك فى إعراضك بعد ما بلّغت الرّسالة ، وبذلت مجهودك فى البلاغ والدعوة. وَذَكِّرْ وعظ بالقرآن فَإِنَّ الذِّكْرى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ الذين قدّر اللّه سبحانه وتعالى إيمانهم ، أو آمنوا بالفعل ، فإنها تزيدهم بصيرة وقوة فى اليقين والعلم. وباللّه التوفيق.

الإشارة : الفرار إلى اللّه يكون من خمسة أشياء : من الكفر إلى الإيمان ، ومن المعصية إلى الطاعة بالتوبة ، ومن الغفلة إلى اليقظة بدوام الذكر ، ومن المقام مع العوائد والحظوظ إلى الزهد بالمجاهدة وخرق العوائد ، ومن شهود الحس إلى شهود المعنى ، وهو مقام الشهود. وفى القوت : وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ الفرد ، (ففروا إلى اللّه) أي : من الأشكال والأضداد إلى الواحد الفرد. وفى البخاري : «معناه : من اللّه إليه» «١».

---

(١) ذكره البخاري فى (التفسير – سورة الذاريات).

قال القشيري : ارجعوا إلى اللّه ، والإشارة إلى حالتين ، إما رغبة فى شىء ، أو رهبة من شىء ، أو حالى خوف ورجاء ، أو طلب نفع أو دفع ضر ، وينبغى أن يفر من الجهل إلى العلم ، ومن الهوى إلى التقوى ، ومن الشك إلى اليقين ، ومن الشيطان إلى اللّه ، ومن فعله الذي هو بلاؤه إلى فعله الذي هو كفايته ، ومن وصفه الذي هو سخطه ، إلى وصفه الذي هو رحمته ، ومن نفسه ، حيث قال : وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ «١» إلى نفسه ، حيث قال : فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ. هـ. ونقل الورتجبي عن الخراز «٢» ، فقال : أظهر معنى الرّبوبية والوحدانية ، بأن خلق الأزواج «٣» فتخلص له الفردانية ، فلما تبين أن أشكال الأشياء تواقع «٤» علة الفناء دعا العباد إلى نفسه لأنه الباقي ، وغيره فان ، بقوله :

فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ أي : ففروا من وجودكم ، ومن الأشياء كلها ، إلى اللّه بنعت الشوق والمحبة والتجريد عما سواه. هـ.

ولمّا أمرهم بالفرار إليه ، أعلم أنه ما خلقهم إلا لذلك ، فقال :

[سورة الذاريات (٥١) : الآيات ٥٦ الى ٦٠]

وَما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ (٥٦) ما أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَما أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ (٥٧) إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ (٥٨) فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوباً مِثْلَ ذَنُوبِ أَصْحابِهِمْ فَلا يَسْتَعْجِلُونِ (٥٩) فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ (٦٠)

يقول الحق جل جلاله : وَما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ أي : إلا لنأمرهم بالعبادة والخضوع لربوبيتى ، لا لنستعين بهم على شأن من شئونى ، كما هى عادة السادات فى كسب العبيد ، ليستعينوا بهم على أمر الرزق والمعاش ، ويدلّ على هذا التأويل : قوله تعالى ما أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ ... إلخ ، قال ابن المنير : إلا لأمرهم بعبادته ، لا لطلب رزق لأنفسهم ، ولا إطعام لى ، كما هو حال السادات من

الخلق مع عبيدهم ، بل اللّه هو الذي يرزق ، وإنما على عباده العبادة له لأنهم مكلفون ، ابتلاء وامتحانا ، أما الإرادة فكما تعلقت بالعبادة تعلقت بما يخالفها ، لقوله :

وَلَقَدْ ذَرَأْنا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ «٥». هـ. وقيل المعنى : ما خلقهم إلا مستعدين للعبادة ، متمكنين منها أتم استعداد ، وأكمل تمكن ، فمنهم من أطاع ، ومنهم من كفر ، وهو كقولهم : البقر مخلوقة للحرث ، أي : قابلة لذلك ، وقد يكون فيها من لا يحرث. والحاصل : أنه لا يلزم من كون الشيء معدّا لشيء أن يقع منه جميع ذلك.

أو : ما خلقتهم إلا ليتذللوا لى ، ولقدرتى ، وإن لم يكن ذلك على قواعد شرع ، وهذا عام فى الكل ، طوعا أو كرها إذ كلّ ما خلق منقاد لقدرته وقهريته ، عابد له بهذا المعنى. وفى البخاري : وما خلقت أهل السعادة من

---

(١) من الآية ٢٨ من سورة آل عمران.

(٢) فى الورتجبي : الحراز.

(٣) فى الورتجبي : الأرواح.

(٤) فى الورتجبي : مواضع.

(٥) من الآية ١٧٩ من سورة الأعراف.

الفريقين إلا ليوحّدون. وقال بعضهم : خلقهم ليفعلوا ، ففعل بعض وترك بعض. وليس فيه حجة لأهل القدر. هـ.

منه «١». والمراد بأهل القدر : المعتزلة ، القائلون بأن اللّه تعالى لم يرد الكفر والمعاصي ، وهو باطل ، وسيأتى فى الإشارة بقية تحقيق إن شاء اللّه.

ما أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ أي : ما خلقتهم ليرزقوا أنفسهم ، أو واحدا من عبادى ، وَما أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ ، قال ثعلب : أن يطعموا عبادى ، وهو إضافة تخصيص ، كقوله عليه السّلام : «من أكرم مؤمنا فقد أكرمنى ومن آذى مؤمنا فقد آذاني» «٢» ، والحاصل : أنه تعالى بيّن أن شأنه مع عباده متعاليا عن أن يكون كشأن السادات مع عبيدهم ، حيث يملكونهم ليستعينوا بهم فى تحصيل معايشهم ، وتهيئة أرزاقهم ، أي : ما أريد أن أصرفهم فى تحصيل رزقى ولا رزقهم ، بل أتفضل عليهم برزقهم ، وبما يصلحهم ويعيشهم من عندى ، فليشتغلوا بما خلقوا له من عبادتى.

إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ أي : يرزق كلّ من يفتقر إلى الرّزق ، وفيه تلويح بأنه غنى عنه ، ذُو الْقُوَّةِ ذو الاقتدار ، الْمَتِينُ أي : الشديد الصلب. وقرأ الأعمش «المتين» بالجر «٣» ، نعت للقوة ، أي : ذو القوة المتينة ، وإنما ذكّره لتأول القوة بالاقتدار.

فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا أنفسهم ، بتعريضها للعذاب ، حيث كذّبوا الرّسول صلّى اللّه عليه وسلم ، أو : وضعوا التكذيب مكان التصديق ، وهم أهل مكة ، ذَنُوباً أي : نصيبا وافرا من العذاب ، مِثْلَ ذَنُوبِ أَصْحابِهِمْ مثل عذاب نظائرهم من الأمم المحكية. قال الزجاج : الذنوب فى اللغة : النصيب ، مأخوذ من مقاسمة السقاة الماء بالذنوب ، وهو الدلو العظيم المملوء. فَلا يَسْتَعْجِلُونِ ذلك النّصيب ، فإنه لاحق بهم ، وهذا جواب النّضر وأصحابه حين استعجلوا العذاب.

فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ، وضع الموصول موضع ضميرهم تسجيلا عليهم بالكفر ، أي : فويل لهم مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ، أي : من يوم القيامة ، أو يوم بدر ، والأول أنسب لما فى صدر السورة الآتية.

الإشارة : اعلم أن الحق – جل جلاله – إنما بعث الرّسل بإظهار الشرائع ، ليحوّشوا العباد إلى اللّه ، ويدعوهم إليه كافة ، ويأمروهم بالتبتل والانقطاع ، من غير التفات لمن سبق له السعادة أو الشقاء لأن ذلك من سر القدر ، وغيب المشيئة لا يجوز كشفه فى حالة الدعوة ، فقوله تعالى : وَما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ هذا ما يمكن

---

(١) ذكره البخاري فى (التفسير ، سورة «والذاريات»)

(٢) أخرجه الديلمي (مسند الفردوس ح ٥٨٠٦) والطبراني فى الأوسط (ح ٨٦٤٥) من حديث جابر رضي اللّه عنه بلفظ : «من أكرم أخاه المؤمن فإنما يكرم اللّه عز وجل». وليس فيه الجزء الأخير.

(٣) انظر «المحتسب فى تبيين وجوه شواذ القراءات» لابن جنى (٢/ ٢٨٩).

الأمر به فى ظاهر الأمر ، ويؤمر بإظهاره فى حالة الدعوة ، وكون الحق تبارك وتعالى أراد من قوم الكفر والمعاصي من غيب المشيئة ، وسر القدر لا يقدح فى عموم الدعوة التي تعلقت بالظواهر لأنه من قبيل الحقيقة ، وما جاءت الرّسل إلا بالشريعة ، فالدعاة إلى اللّه يعممون الدعوة ، ويحرّضون على التبتل والانقطاع إلى اللّه ، وينظرون إلى ما يبرز من غيب المشيئة. وقال الورتجبي : عن جعفر الصادق وَما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ أي :

ليعرفونى. هـ. ومداره قوله صلّى اللّه عليه وسلم فيما يحكيه عن رب العزة : «كنت كنزا مخفيا لم

أعرف ، فأحببت أن أعرف ، فخلقت الخلق لأعرف» «١» أي : ما أظهرت الخلق إلا لأعرف بهم ، فتجليت بهم فى قوالب العبودية ، لتظهر ربوبيتى فى قوالب العبودية ، فتظهر قدرتى وحكمتى ، فسبحان الحكيم العليم.

قال أبو السعود : ولعل السر فى التعبير عن المعرفة بالعبادة للتنبيه على أن المعتبر هى المعرفة الحاصلة بعبادته تعالى ، لا ما يحصل بغيرها ، كمعرفة الفلاسفة. هـ. قلت : وكلّ معرفة وحقيقة لا تصحبها شريعة لا عبرة بها ، بل هى زندقة أو دعوى «٢». وباللّه التوفيق.

وقوله تعالى : إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ، هذه الآية وأمثالها هى التي غسلت الأمراض والشكوك من قلوب الصدّيقين ، حتى حصل لهم اليقين الكبير ، فسكنت نفوسهم ، واطمأنت قلوبهم ، فهم فى روح وريحان. والأحاديث فى ضمان الرّزق كثيرة ، وأقوال السلف كذلك ، وفى حديث أبى سعيد الخدري عنه صلّى اللّه عليه وسلم قال : «لو فرّ أحدكم من رزقه لتبعه كما يتبعه الموت» «٣» وقال أيضا عن اللّه عز وجل : «يقول : يا ابن آدم تفرغ لعبادتى ، أملأ صدرك غنى ، وأسد فقرك ، وإلا تفعل ملأت يدك شغلا» «٤» ، وقال صلّى اللّه عليه وسلم : «من كانت الآخرة همّه ، جعل اللّه غناه فى قلبه ، وجمع له شمله ، وأتته الدنيا وهى صاغرة ، ومن كانت الدنيا همه جعل اللّه فقره بين عينيه ، وفرّق عليه شمله ، ولم يأته من الدنيا إلا ما قدّر له» «٥».

---

(١) قال ابن تيمية : إنه ليس من كلام النّبى صلّى اللّه عليه وسلم ، ولا يعرف له سند صحيح ولا ضعيف» وتبعه الزركشي وابن حجر. انظر : الشذرة (ح ٧١٧) وأسنى المطالب (١١١٠) وتنزيه الشريعة (١/ ١٤٨).

(٢) صدقت يا شيخنا رضي اللّه عنك.

(٣) أخرجه الطبراني فى الصغير (١/ ٢٢٠) والأوسط (ح ٤٤٤٤) وقال الهيثمي فى مجمع الزوائد (٤/ ٧٢) : «رواه الطبراني فى الأوسط والصغير ، وفيه عطية العوفى ، وهو ضعيف وقد وثّق».

[.....]

(٤) أخرجه أحمد فى المسند (٢/ ٣٥٨) والترمذي فى (صفة القيامة ٤/ ٥٥٤ ، ح ٢٤٦٦) وابن ماجة فى (الزهد ، باب الهم بالدنيا ، ح ٤١٠٧) والحاكم (٢/ ٤٤٣) «وصحّحه وافقه الذهبي» من حديث أبى هريرة.

(٥) أخرجه الترمذي فى الموضع السابق (ح ٢٤٦٥) من حديث أنس ، وبنحوه أخرجه ابن ماجة فى الموضع السابق (ح ٤١٠٥) من حديث زيد بن ثابت رضي اللّه عنه.

وقال المحاسبى : قلت لشيخنا : من أين وقع الاضطراب فى القلوب ، وقد جاء الضمان من اللّه عز وجل؟ قال :

من وجهين من قلة المعرفة وقلة حسن الظن. ثم قال : قلت : شىء غيره؟ قال : نعم ، إن اللّه عز وجل وعد الأرزاق وضمنها ، وغيّب الأوقات ، ليختبر أهل العقول ، ولولا ذلك لكان كلّ المؤمنين راضين ، صابرين ، متوكلين ، لكن اللّه – عز وجل – أعلمهم أنه رازقهم ، وحلف لهم ، وغيّب عنهم أوقات العطاء ، فمن هنا عرف الخاص من العام ، وتفاوت العباد ، فمنهم ساكن ، ومنهم متحرك ، ومنهم ساخط ، ومنهم جازع ، فعلى قدر ما تفاوتوا فى المعرفة تفاوتوا فى اليقين. هـ. مختصرا. وباللّه التوفيق. وصلّى اللّه على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

(٤٨٤/٥)

سورة الطّور

مكية. وهى سبع وأربعون آية. ومناسبتها لما قبلها قوله : فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ «١» وهو يوم القيامة ، وهو الذي أقسم عليه بقوله :

[سورة الطور (٥٢) : الآيات ١ الى ٨]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

وَالطُّورِ (١) وَكِتابٍ مَسْطُورٍ (٢) فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ (٣) وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ (٤)

وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ (٥) وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ (٦) إِنَّ عَذابَ رَبِّكَ لَواقِعٌ (٧) ما لَهُ مِنْ دافِعٍ (٨)

يقول الحق جل جلاله : وَالطُّورِ ، هو الجبل الذي كلّم اللّه عليه موسى بمدين ، وَكِتابٍ مَسْطُورٍ وهو القرآن العظيم ، ونكّر لأنه كتاب مخصوص من بين سائر الكتب ، أو : اللوح المحفوظ ، أو : التوراة ، كتبه اللّه لموسى ، وهو يسمع صرير القلم ، فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ ، الرق : الجلد الذي يكتب فيه ، والمراد : الصحيفة ، وتنكيره للتفخيم والإشعار بأنها ليست مما يتعارفه النّاس ، والمنشور : المفتوح لا ختم عليه ، أو : الظاهر للناس ، وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ وهو بيت فى السماء السابعة ، حيال الكعبة ، ويقال له : الضراح «٢» ، وعمرانه بكثرة زواره من الملائكة ، روى : أنه يدخله كلّ يوم سبعون ألف ملك ، يطوفون به ، ويخرجون ، ومن دخله لا يعود إليه أبدا «٣» ، وخازنه ملك يقال له : «رزين». وقيل : الكعبة ، وعمارته بالحجاج والعمّار والمجاورين.

وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ أي : السماء ، أو : العرش ، وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ أي : المملوء ، وهو البحر المحيط ،

أو الموقد ، من قوله تعالى : وَإِذَا الْبِحارُ سُجِّرَتْ «٤» ، والمراد الجنس ، روى «أن اللّه تعالى يجعل البحار يوم القيامة

---

(١) الآية الأخيرة من سورة الذاريات.

(٢) روى ذلك عن ابن عباس ، مرفوعا ، فيما ذكره السيوطي فى الدر (٦/ ١٤٤) وعزاه للطبرانى وابن مردويه ، بسند ضعيف.

وأخرجه ابن جرير ، عن سيدنا علىّ رضي اللّه عنه.

(٣) أخرجه مسلم فى (الإيمان) باب الإسراء برسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم ح رقم ٥٩ ، ح ١٦٢) عن أنس بن مالك رضي اللّه عنه فى حديث الإسراء ، وفيه :

«فإذا أنا بإبراهيم عليه السّلام مسندا ظهره إلى البيت المعمور ، وإذا هو يدخله كلّ يوم سبعون ألف ملك ، لا يعودون إليه ...» الحديث.

(٤) الآية ٦ من سورة التكوير.